الاستبداد مَظَاهِرُه ومُوَاجَهَتُه أشرف على نشر هذه المادة عبر شبكة المعلومات موقع بصيرة الالكتروني

موقع بصيرة

يأتي بناء هذا الموقع الإلكتروني على الشبكة العالمية للمعلومات «الإنترنت» من منطلق مواكبة التطورالتقني المتسارع فيما يخدم الدين الإسلامي الحنيف، ويعود بالنفع والخير على الأمة الإسلامية جمعاء. وهو يتضمن موسوعة دينية لسماحة الشيخ العلامة بدر الدين أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان، تشتمل على ثلاث مكتبات مرئية وسمعية ومقروءة وتضم المكتبة المرئية دروس التفسير لسماحة الشيخ بجامع السلطان قابوس بروي، ودروس العقيدة والفكر بجامعة السلطان قابوس، وحلقات برنامج سؤال أهل الذكر الذي يتم بثه مساء كل يوم أحد على التلفزيون العُماني ويوميا خلال ليالي شهر رمضان المبارك، هذا بالإضافة إلى المحاضرات العامة وخطب الجمعة والندوات التي يشارك بها سماحة.

www.baseera.net

الاستبداد مَظَاهِرُه ومُوَاجَهَتُه

تأليف سماحة الشيخ العلامة أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عُمان

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م



﴿ وَلَا تَرْكُنُواْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَامُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيآءَ ثُمَّ لَا نُصَرُونِ ﴾

[سورة هود/ الآية ١١٣]

شكر وعرفان

إن (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) فالشكر لمن أسدى يدا واجب شرعي وأخلاقي وعليه فإنني ألهج بشكر كل من شارك بخدمة أو ملاحظة من أجل إنجاز مشروع تأليف هذا الكتاب سواء عرفته أو لم أعرفه وأخص من بين هؤلاء بكل شكر وتقدير شيخنا العالم الرباني حمود بن حميد الصوافي _ حفظه الله تعالى ورعاه _ الني تكرم مشكورا بمراجعة هذا الكتاب من أوله إلى آخره وأهداني من الملاحظات السديدة ما زاده بهاء ونورا، وكذلك أخونا الفاضل الشيخ الأديب اللبيب أحمد بن سعود السيابي الـذي تكرم بقراءة الكتاب كله، ووضع عليه بصماته بما أبداه من الملاحظات، وإليه يرجع الفضل في تسميته بعد توفيق الله تعالى، كما أشكر من قام بطبعه إبان إملائه من أول حرف منه إلى آخر حرف وهو الابن العزيز الشاب الموهوب أحمد بن حمد بن راشد الذهلي الذي لم يقتصر دوره على الطباعة فحسب وإنما كان لى عينا ويدا فقد كان ـ بخبرته الواسعة في المجال الإلكتروني ـ رائدا لي في اكتشاف كثير من الفوائد العلمية من المراجع المختزنة في المكتبات الإلكترونية كما كان عونا لي في تخريج الأحاديث من مراجعها.

وأشكر كذلك الشيخ الدكتور الدراكة الولد العزيز سلطان بن محمد الحراصي الذي قام بمراجعة الكتاب والتنبيه على كثير من الملاحظات

القيمة، والشكر كذلك موصول للابن العزيز الباحث الموهوب سلطان بن مبارك الشيباني على قيامه بمراجعة الكتاب والتصحيح لكثير من أخطائه المطبعية والتنبيه على كثير من القضايا المهمة.

وأخيرا وليس آخرا أشكر جميع أبنائي البررة الذين أعانوني ـ بجهدهم وخدمتهم ـ على إنجاز هذا المشروع ولم يألوا جهدا في تنبيهي على ما كنت غافلا عنه وأخص بالذكر، من بينهم بعد عمومهم ابني سليمان الذي هيأ لي المكان المناسب للقيام بهذا العمل وفتح لي مكتبته وأتاح لي إنجاز المشروع في جو هادئ لطيف، كما أهداني من بنات فكره ما كان لي مددا في هذا العمل المبارك، وكذلك ابني أفلح الذي ما فتئ من أول خطوة في هذا العمل جاهدا في تذليل الصعاب للوصول إلى منتهاه، فقد أدنى لي المراجع البعيدة وفتح لي الأبواب المغلقة وذلل لي المسائل المستعصية بثاقب فكره وعمق درايته إلى آخر خطوة في هذا القصد.

فجزى الله الجميع خيرا ووفقني وإياهم لما يحبه ويرضاه.

وبعد إنجاز المشروع امتدت يد كريمة سخية لنشره فقد أبت همة وسماحة سليل الأمجاد ذي المحتد الأصيل والشرف الباذخ الشيخ سعود بن على الخليلي إلا أن يكون وحده القائم على طبعه ونشره من حر ماله فجزاه الله خيرا ووفقه للمسارعة إلى البر والمنافسة في كل خير.

والله ولي التوفيق

المؤلف

المقدمة

الحمد لله الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الجور والطغيان، سبحانه أنزل كتابه بالحق ليقوم الناس بالقسط، وأرسل رسوله ليرسم منهاج العدل، وليحدد موازين البر ومعايير الإحسان، ﴿لِيَهُلِكُ مَنَ هَلَكُ عَنُ بَيِّنَةٍ وَيَحَيِّى مَنْ حَي عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وأشهد أن لا إلىه إلا الله هو مالك الملك، يُعِزُ مَنْ يشاء بعزته، ويذل من يشاء بقوته، وأشهد أن سيدنا ونبينا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين وحجة على الخلق أجمعين، أفضل من حكم فعدل، وأصدق من قال فبرّ، وأوفى من وعد فأنجز، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه البررة الأخيار، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم وضع الموازين القسط.

أما بعد؛ فقد شهدت الساحة العربية في العامين الأخيرين أحداثا هيأها القدر وساقها المقدور حتى بلغت مداها، فتزعزعت عروش، وانهدّت صروح، وتساقطت أنظمة، وتَمَرَّغَتْ في الرغام أنوف، طالما شمخت بكبريائها وتعالت في شممها، وتحطمت رؤوس ما كانت تحسب أن صروف الدهر ستدور عليها، أو أن عوادي الزمن ستمتد يدها إليها، وقامت من تحت الأنقاض شعوبٌ كم ديست بمناسم الجور، وكبست بوطأة الظلم، فانطلقت كأنما حلت من عقالها مستهدفة ظالميها تطلب الإثنار ممن سقاها كؤوس الذل وجرعها غصص الهوان.

وما من شك في كون العدل المنشود والحق المبتغى مطلبا فطريا للنفس البشرية، فإن الله خلقها حرة، وكرمها بما جللها به من سوابغ الإحسان، ﴿وَلَقَدْ كُرَّمْنَا بَنِيَ عَادَمَ وَحَمَلْنَاهُم فِي ٱلْبَرِ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقَنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كُرَّمْنَا بَنِي عَادَم وَحَمَلْنَاهُم فِي ٱلْبَرِ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقَنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كُرَّمْنَا بَنِي عَادَم وَلَقَانَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وما أعظم كلمة الفاروق على التي حفظها الدهر ورواها، وسجلها الزمن ووعاها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»(١).

نعم؛ قالها الفاروق من أعماق قلبه، لأنه كان مؤمنًا بفحواها، إذ وعى ما أنزل الله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وتدرج في أطوار التربية النفسية بمدرسة النبوة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، حتى كان في الرعيل الأول ممن وعوا معارفها واستقوا علومها، فحرص مع إخوانه الخلفاء الراشدين على تطبيق محتواها، فكانت خلافتهم عدلا وإحسانا، ونَعِمَ الإنسان في ظلها الوارف الظليل بالحرية والكرامة والأمن والاستقرار، وكان في مأمن أن تمتد إليه يد فتسلبه حقا من حقوقه التي منحه الله إياها، أو أن يلفحه هجير من العسف والظلم.

ولكن ليت شعري؛ هل ظلت الأمة تتمتع بهذه الحقوق كاملة غير منقوصة كما كانت في أيام الخلافة الراشدة، أو أنها ابتزت منها حقوقها هذه بعدما انطوت تلك الحقبة الزاهرة، ونشبت فيها مخالب الجور وأنيابه، ومهدت الطريق لبطش الجبابرة المستكبرين وقهر الظلمة المستبدين بتذليل الرقاب وطأطأة الرؤوس للظالم، «وإنْ ضَرَبَ ظهرك وأخذ مالك»؟!!!.

⁽۱) ينظر: فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله عبدالحكم بن أعين القرشي المصري (ت: ۲۵۷ه/ ۸۷۱م)، ج۱، ص ۲۹۰، دار الفكر، بيروت، ۱٤١٦ه/ ۱۶۹۸م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري، وينظر: ربيع الأبرار، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، (ت: ۵۳۸هـ)، ج۱، ص ۲۸۹۸.

المقدمة

إن كُلَّ مَنْ يقلب صفحات التأريخ بتدبر وإمعان يدرك أن المعايير انقلبت رأسا على عقب بعد انطواء حقبة الخلافة الراشدة، وتحول الحكم في الإسلام إلى نظام كسروي قيصري يستلهم من عسف الفراعنة وجور الأكاسرة وبطش القياصرة نهجه الذي يسير عليه، فكابدت الأمة من الظلم والعسف ما كابدته الأمم الغابرة التي عاشت تحت نير الظالمين وبطش المستبدين، وقد مالأ الفقهاء الرسميون أولئك الظلمة وساندوهم على المشهم وظلمهم، ووطأوا لهم الأكناف وهيأوا النفوس لتقبل هذا الوضع والرضوخ له والرضى عنه، وأصدروا الفتاوى التي تَصِمُ كُلَّ مَنْ أنكر هذا الوضع ولم يتقبله بالمروق والفتنة، وعززوا ذلك بروايات اختلقوها أو تأولوها وفق هواهم وأشاعوها بين الدهماء حتى صخت منها الأسماع وعميت بها البصائر والأبصار.

وظل هذا الفكر _ بما فيه من الزيغ _ هو الذي يسود العقول ويهيمن على السواد الأعظم من الناس، وتتوارثه الأمة أبًا عن جد جيلا بعد جيل، وصيغ وِفْقَهُ الفقه السياسي حتى لم يعد لسواه قبول، بحيث لو أراد أحدٌ أن يعيد فيه النظر لكان عرضة لسهام التضليل والتبديع من غير مرحمة.

أفَتَعْجَبُ بعد هذا أن تسمع عندما هبّت رياح ما عُرِفَ بـ«الربيع العربي» فتاوى تدين الذين يريدون أن يتحرروا من ربقة الظلم ويتخلصوا من بطش الظالمين، وتُحَرِّم حتى مجرد الاحتجاج السلمي للمطالبة برفع الظلم، وتفرض عليهم أن يطأطئوا رؤسهم للظلم ويحنوا ظهورهم للظالمين، ويستكينوا للبطش ويستمرئوا الجور، ويتقربوا إلى الله تعالى بطاعة الجائرين والذل للمستبدين، فإن هذا هو الذي فرضته العقيدة التي فرضت على الأمة فتوارثتها قرنا بعد قرن منذ انطوى الحكم الراشدي، ونشأ في الأمة حكم جاهلى يستمد شرعيته من النظام الكسروي القيصري وإن كان ينتسب زورا

إلى الإسلام ويتزيى بلبوسه ويتحلى بحليته، ويدعم وجوده باسمه ويقاوم كل من تصدى له بشعاره، فكان بخبثه ودهائه يحارب الإسلام بسيف الإسلام ويتوقى سيوف أبناء الإسلام بمجنه ودروعه.

وهذا أيضا ما فرضه الفقه السياسي الذي صيغ بعقول نشأت في هذا المحيط الذي يسوده الظلم والاستبداد تحت شعار الإسلام، وتغذت بفكره وتوجهت بإرادته، فكانت لأولي الهيمنة القابضين على أزِمَّتِهِ أتبع من الظل وأخنع من النعل.

وإذا كانت هذه الفتاوى عورضت بفتاوى أخرى فَنَدتها وبينت للناس منافاتها لروح الإسلام الحق الذي جاء ليرفع عن الإنسانية وطأة الظلم وهيمنة الظالمين، فإنها أوهن حجتها وأخفت صوتها عدم قدرة أصحابها على التحرر من عقدة الماضي والتعلق به والدفاع عن الذين حملوا فيه لواء الظلم وسنوه في هذه الأمة، فكانوا أسوة لكل ظالم يأتي من بعدهم إلى قيام الساعة، فإن هؤلاء أنفسهم هم الذين تجردوا للدفاع عن الظالمين فنصبوا من أنفسهم محامين عنهم، يبررون ظلمهم ويدفعون في صدور الذين تصدوا لبطشهم، وحاولوا أن يخلصوا منهم الأمة، إذ إن أصحاب هذه الفتاوى أنفسهم هم الذين رشقوا الذين سعوا في التأريخ الغابر إلى تخليص الأمة من الظلم والبطش بسهام التهم، ونبزوهم بالألقاب، وكالوا لهم الذم كيلا، فأتـت فتاواهم هذه تناقض ما بنوه من فكر وتعاكس ما ساروا عليه من خطي، فانقلبت عندهم الموازين

ومن البدهيات التي لا تسوغ المماراة فيها أن النظرة إلى الحاضر لا تستقيم إلا باستقامة النظرة إلى الماضي، ووضع كل شيء منه في نصابه السليم وإعطائه حكمه الشرعي استهداء بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من

المقدمة

بين يديه ولا من خلفه، واتباعا لهدي رسوله ه الذي ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لذلك أردتُ أن تكون هذه الدراسة مؤدية لهذا الغرض وموصلة إلى هذه البغية، وإن كانت باختصار شديد، وقد جعلتُها في قسمين:

القسم الأول: مَظَاهِر الاستِبْدَاد.

القسم الثاني: مُوَاجَهَة الاستبداد.

ويشتمل كل قسم على موضوعات شتى، لكل موضوع عنوانه.

القسم الأول:

مظاهر الاستبداد

انتشارُ الظُّلُم في الأُمَم وقَبُولُ الناس له:

إن المتأمل في أحوال الأمم يجد أن انتشار الظلم فيها ورضوخها له كان نتيجة زيغ العقول وانحراف الأفكار عن الفطرة وانقلاب الموازين في تلك الأمم، بحيث ترى القبيح حسنا والحسن قبيحا والجور عدلا والعدل جورا، حتى تستمرئ جماهير الناس الذل وتستعذب الهوان وتتقبل كل ما تلقاه من بطش وتعانيه من حرمان، فلا تفكر في حق تطالب به أو حرية تتمتع بها في الحياة، لأنها رضيت لنفسها حياة العبودية، فلا تزال مستخذية للظالم تتقرب إليه بكل ما يريده منها.

إذ الحق في موازينها إنما هو للسلطة الظالمة، وما للشعوب إلا أن تستكين وتذل وتنقاد عن طواعية لرغبات الظالمين ونزوات المتكبرين، وترضى أن يتحكم الجبابرة في أرواحهم وأجسادهم وأموالهم وأعراضهم، لأن لهم الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت! وليست إرادتهم إلا من إرادة الله! وحسب الإنسان أن يسمحوا له بالحياة وأن ينعموا عليه بشظف العيش! فيكفيه أن يقتات مما يتساقط في الثرى أو يساق إلى المزابل مما يفضل عن حاجاتهم المعيشية.

فمن نال ذلك فعليه أن يشكر هذه النعمة لمن سمح له بها!! ومن حرم

منها فعليه أن يصبر وأن لا يلابسه حرج في نفسه من هذا الحرمان، إذ لا يعدو أن يكون كالخشبة المقطوعة من الشجرة توقد تارة بها النار وتشق تارة لأغراض أخرى وهي لا تملك أن تدفع عن نفسها، لأن ذلك هو قدرها!!.

تأثير القِيَادات الرُّوحية على الناس بالدَّجل ليتقبلوا الظُّلم:

من المعلوم أن للقيادات الروحية والسلطات الدينية دورا فاعلا في ترسيخ هذه المفاهيم في نفوس الناس حتى يتقبلوها ويرضخوا لظلم الظالمين، فما كانت القيادات السياسية الجائرة لتصل إلى أغراضها إلا على جسور يهيؤها القادة الروحانيون، لا فرق في ذلك بين ما كان في الأمم السابقة وما رزئت به هذه الأمة، وإليك صورا من ذلك.

١ _ الفَرَاعِنَة:

لا يخفى على ذي بال ما نكبت به شعوب مصر وما حولها من بطش الفراعنة وظلمهم، ناهيك ما ذكر في القرآن من فساد فرعون موسى وعتوه وعلوه كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَآبِفَةً مِّنْهُمُ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمُ وَيَسْتَحْي نِسَآءَهُمُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ القصص: ٤، والمستقرئ للتاريخ يجد أنهم إنما وصلوا إلى مبتغاهم من إذلال الناس والبطش بهم والتحكم في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بما كان للكهنة من دور تضليلي لعقول الجماهير.

وإليك شاهدا من ذلك مما ذكره الدكتور موسى الموسوي في بعض مؤلفاته حيث قال: «كان (سنوحي) طبيباً للفرعون (أمفسيس) الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد، وقد كتب مذكراته عن حياة هذا الفرعون وعن الشعب المصري الذي كان يعاني استبداد (أمفسيس). واكتشف علماء الآثار

هذه المذكرات ضمن ما خلفته السنون بين الكتب الهيروغليفية، وترجمت مذكرات هذا الطبيب التي كتبها بأسلوب رائع وبديع إلى اللغات العالمية الحية، وطبعت أكثر من مرة، وهي الآن بين أيدينا يستطيع القراء قراءتها كل بلغته واستخلاص دروس العجب منها.

يقول (سنوحي) في مذكراته: كنت أمشي في شارع من شوارع مصر، وإذا بالرجل الوجيه الشريف الثري المعروف (إخناتون) ملقى على الأرض مضرجاً بدمائه، وقد قطعت يداه ورجلاه من خلاف وجدعت أنفه، وليس في بدنه مكان إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة سوط وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، فحملته إلى دار المرضى وجاهدت جهاداً عظيماً لإنقاذه من الموت، وبعد شهرين أو أكثر وعندما أفاق من غيبوبته قص علي قصته المحزنة المفجعة قائلاً:

«لقد أمرني الفرعون (أمفسيس) أن أتنازل له عن كل شبر أرض أملكه، وأن أهبه أزواجي وعبيدي وكل ما أملك من ذهب وفضة، فاستجبت لما أراد، بشرط أن يترك لي داري التي أسكن فيها ومعشار ما أملكه من الذهب والفضة لأستعين بها على أودي، فاستثقل فرعون هذا الشرط واستولى على كل ما كان عندي، ثم أمر بأن يفعل بي تلك الأفاعيل الشيعة، وأن أطرح في الشارع عارياً لأكون عبرة لمن يخالف أوامر الإله (أمفسيس)».

ودارت الأيام، و(إخناتون) المسكين يعاني الفقر والحرمان، وكل أمله في هذه الدنيا هو القصاص من الفرعون الظالم ولو على يد غيره.

ومات الفرعون، وحضرت مراسيم الوفاة بصفتي كبير الأطباء، فكان الكهنة يلقون خطب الوداع مطرين الراحل العظيم، وكانت الكلمات التي يرددونها لا زلت أتذكرها جيداً، فقد كانوا يقولون: «يا شعب مصر، لقد

فقدت الأرض والسماء وما بينهما قلباً كبيراً كان يحب مصر وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد، كان للأيتام أباً وللفقراء عوناً وللشعب أخاً ولمصر مجداً. كان أعدل الآلهة وأرحمهم وأكثرهم حباً لشعب مصر. ذهب (أمفسيس) لكي ينضم إلى الآلهة الكبار وترك الشعب في ظلام».

ويضيف (سنوحي): «وبينما كنت أصغي إلى كلام الكهنة ودجلهم في القول، وأندب حظ مصر وشعبها المسكين الذي يرزح تحت سياط الفراعنة والكهنة معاً، وبينما كانت الجماهير المحتشدة ـ التي لقي كل فرد منهم على حدة من بطش فرعون وسياطه أذى وعذاباً ـ تجهش بالبكاء: سمعت رجلاً يبكي كما تبكي الثكلي، وصوت بكائه علا الأصوات كلها، ويردد عبارات غير مفهومة، فنظرت مليًا، وإذا صاحب البكاء هذا هـو (إخناتون) المعوق العاجز الذي كان مشدوداً على ظهر حمار، وأسرعت إليه لأهدئه بعض الشيء، فقد ظننت أنه يبكي سروراً وابتهاجاً على وفاة ظالم ظلمه إلى حد الموت بالتعذيب، ولكن (إخناتون) خيب آمالي عندما وقع نظره عليً، وأخذ يصرخ عاليا بقوله: «يا (سنوحي) لم أكن أعلم أن (أمفسيس) كان عادلاً وعظيماً وباراً بشعبه إلى هذه المرتبة العظيمة إلا بعد أن سمعت ما قاله كهنتنا فيه. وها أنا أبكي يا (سنوحي) لأنني حملت في قلبي حقداً على هذا الإله العظيم بدلاً من الحب والإجلال طوال سنوات عديدة، حقًا لقد كنت في ضلال كبير».

ويقول (سنوحي): وعندما كان (إخناتون) يكرر هذه الكلمات بإيمان راسخ، كنت أنظر إلى أعضائه المقطوعة وصورته المشوهة وأنا حائر فيما أسمع، وكأنه قرأ ما يدور في خلدي، وإذا به يصرخ فيّ بمل شدقيه: «لقد كان (أمفسيس) على حق فيما فعله بي؛ لأنني لم أستجب إلى أوامر الآلهة، وهذا هو جزاء كل من يعصي الإله الذي خلقه وأحبه، وأي سعادة أعظم للمرء من أن ينال جزاء أعماله الذي يستحق على يد الإله لا على يد غيره».

من (أمفسيس) هذا؟ فرعون من فراعنة مصر، حكمها بالنار والحديد طوال عشر سنوات، دخل في حرب خاسرة مع بلاد النوبة الجارة، قتل فيها خمس شعب مصر، خرب المزارع وقطع الأشجار، وأباد شباب مصر متهماً إياهم بالهزيمة في الحرب التي شنها ضد النوبة، أحرق العاصمة في إحدى ليالي مجونه كما فعل بعده (نيرون) بسبعة قرون الذي أحرق روما عاصمة الرومان.

لقد كان عهد (أمفسيس) أسوأ عهد عرفته مصر في تاريخ الفراعنة الذين حكموها مبتدئا من الأسرة الأولى حتى الأسرة الخامسة التي كان (أمفسيس) أول أفرادها.

مات (أمفسيس) وترك خراباً شاملاً وشعباً ممزقاً، ومع كل هذا بكته الجماهير المحتشدة متأثرة برثاء الكهنة وخطبهم، ومن بين تلك الجماهير (إخناتون) المسكين»(۱).

نعم؛ هكذا يفعل التضليل بعقول الناس عندما يصدر من أفواه قوم يتظاهرون بالدين ويرفعون شعاره، ويتولون قيادة الأمم إليه وحل رموزه وإيضاح مبهماته لهم، فلا تلبث العقول أن يطغى عليها التضليل، فيعمي بصائرها ويطمس شعاعها، فتنقلب عندها الموازين حتى ترى الطغيان عدلا وإحسانا وتحسب البطش بها برا ومرحمة.

وَأَقْتَ لُ دَاءٍ رُؤْيَ لَهُ الْعَيْنِ ظَالِماً يُسِيءُ وَيُتْلَى في الْمَحَافِل حَمْدُهُ

٢ ـ أباطرة الرومان.

لم يكن خافيا على من اطلع على التأريخ ما كان لأباطرة الرومان من وطأة لا تطاق على الشعوب التي وقعت تحت نير قهرهم، إذ كانت وما

⁽١) يا شيعة العالم استيقظوا، موسى الموسوي، ص٧-١٠.

تملك ملكا للأباطرة يتحكمون فيه كما شاؤوا، فكانوا يتحكمون في أرواح الناس وأعراضهم وممتلكاتهم من غير أن يكون لأحد رأي أو حرية، وعندما اعتنقوا النصرانية لم يلبث البابوات أن اتحدوا معهم؛ فروضوا لهم الجامح وذللوا لهم الصعب، طمعا في رفدهم وحبا في اقتناص ما يسنح من دنياهم.

ويصور الأستاذ سيد قطب في كتابه القيم (العدالة الاجتماعية في الإسلام) الواقع المؤلم الذي كان في أوروبا النصرانية نتيجة تلاقي مصلحتي البابوات والأباطرة واجتماعهم على إذلال الجماهير واستغلالها حتى قيل: إن الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين، لأنه هكذا كان عند الأوروبيين!!(۱).

وقد كان للتعاليم التي تقدمها الكنيسة النصرانية دور بارز في ترسيخ استبداد الأباطرة، وتطويع الشعوب لهم، حتى غدت كقطيع من الحيوان يتحكمون فيها كما شاءوا، فقد أعطت القياصرة حقا إلهيا يفرض على عامة الناس طاعتهم على أي حال ولو حرموهم من أدنى حقوق الإنسانية.

وقد كان لهذا التحالف البابوي الإمبراطوري تأثير على عقلية الشعوب، إذ كانت تعتقد أن القيصر من نسل الآلهة وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدراً وشرعاً وأورثه لسلالته المقدسة^(۱).

٣ _ أباطرة الفرس:

لم يكن الشعب الفارسي والشعوب الأخرى التي كانت واقعة تحت

⁽۱) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، ص٩، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٤١٩م، ط١٤.

⁽٢) انظر: مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة، سفر الحوالي. بحث منشور في موقع سفر الحوالي ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

نفوذ الأباطرة الساسانيين أحسن حالا من الشعوب التي كانت تحكم من قبل أباطرة الرومان، إذ لم تكن للإنسان قيمة في حكمهم، إلا ما هو للحيوان الأعجم والجماد الميت، وكانت ثرواتهم تعتصر ليتدفق خيرها على خزائن الأباطرة، ناهيك بما ذكره الطبري عمن كان يعد أرحمهم قلبا وأرقهم شعورا حتى كان يعرف بالملك العادل وهو كسرى أنو شروان، فقد فكر أن يمسح أرض ممالكه ويفرض ضريبة ثابتة على كل ما فيها من زرع وغرس وعين ونهر كل بقدره، فعرض ذلك على فئات من طبقات الناس يستشف رأيهم فيما عزم عليه.

قال الطبري: «فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس بكلمة، فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى: أتضع أيها الملك _ عمرك الله _ الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت وزرع يهيج ونهر يغور وعين أو قناة ينقطع ماؤها، فقال له كسرى: يا ذا الكلفة المشؤوم من أي طبقات الناس أنت؟ قال: أنا رجل من الكتاب، فقال كسرى: اضربوه بالدوى حتى يموت، فضربه بها الكتاب خاصة تبرؤا منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه حتى قتلوه، وقال الناس: نحن راضون أيها الملك بما أنت ملزمنا من خراج»(۱).

فانظر كيف يستشيرهم ثم يأمر بقتل من أشار بخلاف رأيه!! وإذا كان هذا أرقهم قلبا وألطفهم معشرا وأعدلهم حكما، فما بالك بغيره؟!.

ومع هذا؛ فقد كان الأكاسرة يعدون عنصرا مقدسا عند المجوس، حيث كانوا يرسـخون في الفكر العام أن دماءهم أطهر الدماء وأزكاها، وطبائعهم

⁽۱) تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ۳۱۰هـ)، ج۱، ص ٤٥١، دار الكتب العلمية، بيروت.

تتميز على سائر طباع الخلق لأنهم متسلسلون من عنصر موصول بالذات الإلهية، بل كانوا يحملون الناس على تأليههم، ويُردَّدُ ذلك من خلال ما يتلى من النشيد في تمجيدهم، ومن أمثلة ذلك ما كانوا يقولونه في تمجيد (خسرو) الإمبراطور الذي عاصر بعثة النبي هي، حيث فرض على الناس أن يقولوا فيه:

«في الآلهة إنسان غير فان، وفي البشر إله ليس له ثان، علت كلمته وارتفع مجده، يطلع مع الشمس بضوئه، وينير الليالي المظلمة بنوره»(١).

وقس على ذلك ما كان عند سائر أهل الديانات من خدمة حملة الدين للسياسة القائمة، وتطويع الأمم لها وتبرير كل ما يصدر عنها من إذلال وقهر، وإضفاء صفة القداسة على رؤساء السلطة المتنفذين.

نَسْفُ الإسْلام لهذه الأفكار الخاطئة والمناهج الظَّالمة:

عندما ظهر الإسلام نسف هذه الأفكار كلها، وأتى على هذه النظم، وأقام الناس على قدم المساواة، وكان على القوي حتى يأخذ الحق منه، ومع الضعيف إلى أن يأخذ الحق له، وجعل الميزة للتقوى؛ فمن كان أوفر حظا منها كان أولى بالتقدير والاحترام، فإن الناس جميعا ينحدرون من أصل واحد؛ فكلهم من (آدم) و(حواء) وهما من التراب، وكان مما اشتمل عليه الكتاب العزيز هذا الأصل الأصيل في مفاهيمه الصادقة وموازينه العادلة، فقد قال تعالى: ﴿ يَكَأَيُّا النَّاسُ إِنَّا خَلَقَنَكُمْ مِن ذَكْرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَكُمُ شُعُوبًا وَقَبَابِلَ لِتَعَارَفُواً إِنَّ اللهَ عَلِيمُ خَبِيرُ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجعل الحكم لله إنَّ أَلَّهُ أَلِقُ أَنْ اللهَ عَلِيمُ خَبِيرُ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجعل الحكم لله

⁽۱) السيرة النبوية، العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت ١٤٢٠هـ)، ص ٢٩٨، دار القلم، دمشق، نقلا عن إيران في عهد الساسانيين، ص ٢٠٤.

وحده، وما القائم بالحكم إلا منفذ لشرع الله، وحكمه عليه أن يكون أسرع الناس انقيادا لأمر الله وخضوعا لحكمه واتباعا لشرعه، وعلى من حوله أن يعينوه ما أقام شرع الله واتبع أمره ﴿إِنِ ٱلْحُكَمُ إِلّا لِللّهِ أَمَرَ أَلّا تَعَبُدُوا إِلّا إِيّاةً فَلِكَ ٱللّهِينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِئَ ٱكَتَابً ٱللّهُ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقد كان الحكم عقدا وصفقة بين الحاكم والمحكومين، وعلى كلا الطرفين الالتزام بما تحمله من عهد والخضوع والانقياد للشرع من غير أن يتطاول الحاكم على المحكوم، أو يذل المحكوم للحاكم، وعلى كل من تولى الحكم أن ينصف الجميع، من غير أن يحابي قريبا أو حبيبا، أو يبخس بعيدا أو بغيضا، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّرَمِينَ بِالْقِسَطِ شُهَدَآءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَلِدَيْنِ وَالْأَقْرِينَ إِن يَكُنُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِمَا فَلَا تَتَبِعُواْ الْهُوكَ أَن تَعَدُلُواْ وَإِن تَلُوءًا أَوْ تُعُرِضُواْ فَإِنَّ اللّه كَانَ بِمَا تَعَمَلُونَ لِلّهِ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال سبحانه: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَمِينَ لِلّهِ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال سبحانه: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَمِينَ لِلّهِ خُبِيرًا فِمَا تَعَمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وقد كان النبي على أعلى مثل في اتباع ذلك وتطبيقه، على أنه أتى إلى الدنيا وهي بجميع أرجائها تئن تحت وطأة الظلم ونير الاستعباد والاستبداد:

إِلَّا عَلَى صَنَمٍ قَد هَامَ في صَنَمِ لِكُلِّ طَاغِيَةٍ في الخَلقِ مُحتَكِمٍ وَقَيصَرُ الروم مِن كِبرٍ أَصَمُّ عَم

أَتَيتَ وَالنَاسُ فَوضَى لا تَمُرُّ بِهِم وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَوراً مُسَخَّرَةٌ مُسَيطِرُ الفُرسِ يَبغي في رَعِيَّتِهِ

فشمر عن ساعديه، وقاوم الجور في الحكم كما قاوم الضلال في الاعتقاد، حتى استطاع أن يقيم دولة الحق، وينصب معالم العدل، ويذيق الناس طعم الإنصاف، ويقيم بينهم موازين القسط، ويرفع عنهم وطأة الظلم

والاستبداد، ويحرر رقابهم من العبودية لغير الله، فلم يقبضه الله إليه إلا وغدت الجزيرة العربية واحة ينعم فيها الإنسان بالحرية، بعدما فكت عنها أغلال العبودية لغير الله، على أنها كانت قبل ذلك كغيرها من بلاد العالم يلفحها هجير الظلم والجور، وتكبلها قيود الاستعلاء والاستكبار.

وعندما قبضه الله إليه قامت خلافة راشدة كان هديها امتدادا لهدي نبوته هي، فعمرت الأرض بالعدل والإحسان، وفتحت آفاقها لتنعم أطرافها بهذه النعمة، ولتتمتع الإنسانية بحريتها وكرامتها، وليقوم الناس جميعا على قدم المساواة، لا يتقدم أحد أحدا إلا بقدر ما يقدمه عمله وإخلاصه وتقواه، وكان الخليفة كواحد من الرعية يحاسب من خاصتها وعامتها كما يحاسب الأجير ممن أتجره. ولكن لم تكد تنطوي الخلافة الراشدة حتى انطوى معها العدل، وذهبت معها حرية الإنسان وقيمته وكرامته، فقد عادت الجاهلية بشراستها لتحكم الناس بالعسف والاستبداد، ولتسلبهم حقوقهم، ولتذيقهم من الذل أغصه، ويصور الداعية الكبير العلامة أبو الأعلى المودودي هذا الواقع الذي كان حلوا أوله ومرا آخره بقلمه الموهوب، فقد قال بعد وصف إنجاز النبي هما أنجزه:

«كل هذا أتمه خاتم النبيين سيدنا محمد في في مدة ٢٣سنة، ثم قدر الله للأمة زعيمين عظيمين؛ أبا بكر الصديق وعمر الفاروق في، واصلا عمله كاملاً بجميع شعبه ونواحيه، ثم انتقل الأمر بعدهما إلى سيدنا عثمان وبقي على ما أقامه النبي في إلى عدة من السنين في صدر ذلك العهد، ولكن أمر الخلافة آل إلى السعة والتقدم على مضي الأيام تبعاً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية بسرعة، والخليفة الثالث الذي ألقي عليه عبء هذا العمل الجليل كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيها العظيمان اللذان سبقاه، ووجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الاجتماعي الإسلامي، وأن تيارها

الجارف وإن حاول عثمان سده ببذل نفسه ومهجته إلا أنه لم ينكف، ثم خلفه علي _ كرم الله وجهه _، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة، وصيانة السلطة السياسية للإسلام من تمكن الجاهلية منها، ولكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتى بذل نفسه، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوّة، وحل محلها الملك العضوض، وبدأ الحكم يقوم على قواعد الجاهلية، بدلاً من قواعد الإسلام.

ولما أصبح الحكم إلى الجاهلية جعلت عدواها تسري إلى الحياة الاجتماعية، وتدب فيها دبيب السرطان في الجسم الحي، ولا غرو فقد كانت مقاليد السلطة بيدها لا بيد الإسلام، وكان الإسلام ـ بعد أن فقد قوة الحكم ـ لا يمكن أن يمنع أثرها من النفوذ، وسلطانها من الامتداد.

وآفة الآفات أن الجاهلية لم تمثل بين يدي القوم في حقيقتها العارية المكشوفة، بل واجهت الناس لابسة قناع الإسلام، ملونة بلونه، ولو كان إزاء الإسلام قوم من الملاحدة والكفار والمشركين الصرحاء لهان الخطب وسهل الكفاح، ولكنهم كانوا قوماً كانت علانيتهم الإقرار بالتوحيد، والإيمان بالرسالة، والمحافظة على الفرائض، والاستشهاد بكتاب الله وسنة الرسول، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب، وإذا اجتمعت الجاهلية والإسلام على هذا الوجه في كائن واحد فلابد أن تحدث المشكلات والمعضلات التي تكون معالجتها أصعب وأشق ألف مرة من مقاومة الجاهلية المحضة، فإنك إن قمت تحارب الجاهلية الصريحة التف من حولك مئات الألوف من المجاهدين ينصرونك عليها، ولم يتجرأ أحد من المسلمين أن يساعدها عليك، ولكنك إن خرجت تحارب هذا الممزوج بين الجاهلية والإسلام، لم يستعد للذب عنها المنافقون وحدهم، بل انبرى كثير من المسلمين المخلصين وأقبلوا عليك يلومونك ويتهمونك.

ومن الحق لعمر الله أن اعتلاء المسلم سرير الحكم الجاهلي، وتقلده زعامة السياسة الجاهلية، وأن شغل المسلم وظيفة المعلم في معهد التعليم الجاهلي وتوليه المشيخة الجاهلية، لخدعة خادعة قلّ من يسلم من الوقوع في حبائلها.

وكان أشد وأخطر ما في هذا الانقلاب المركوس، أن جاءت الجاهلية بأنواعها الثلاثة لابسة لباس الإسلام، وجعلت تتأصل في المجتمع العربي الإسلامي وتتمشى فيه، وغدت آثارها تزداد انتشاراً على مرور الأيام، فأما الجاهلية المحضة فعمدت إلى الدولة والحكومة فهيمنت عليها وانقلبت الخلافة قيصرية جاء الإسلام بقطع دابرها، ولم تبق فيها من الخلافة إلا السمها، احتالوا بأخذهم بالأثر المروي «السلطان ظل الله» وتبوأ الملوك والأمراء بهذه الحيلة منزلة المطاع التي هي خاصة للإله، واسترسل الأمراء والحكام والولاة ورجال الجيش والمترفون إلى الجاهلية المحضة في هذه الملكية، وتأثرت حياتهم في قليل أو كثير بوجهة نظرها، وفسدت أخلاقهم ومعيشتهم بعاهتها.

وكان من الطبيعي أن يصحب ذلك كله رواج فلسفة الجاهلية وآدابها وفنونها، فتدون العلوم والمعارف على طرازها، إن هذه الأمور تتطلب رعاية الدولة وإشرافاً من الحكومة، ولما كانت هاتان تحت استيلاء الجاهلية، لم يكن بد من استيلائها أيضاً على تلك الأمور»(١).

وقد اتضح من كلامه هذا ما رزئت به الأمة في تلك الحقبة التأريخية السوداء المظلمة، من فقد خصائص دين الإسلام التي جاء بها النبي الشوطبقت في الخلافة الراشدة، ومن أهمها العدل، واستقامة القمة والقاعدة،

⁽١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، طبع دار السعودية للنشر والتوزيع، ص٤٠ - ٤٣.

وحرية التعبير، ومحاسبة الخليفة على كل ما يصدر عنه والرجوع عند الاختلاف في كل شيء إلى الله ورسوله؛ فقد أصبح الحكم مطلقا في يد شخص واحد، تساعده بطانة من جنسه، تتزلف إليه بكل شيء من غير مبالاة بسخط الله والله وتسفك لأجله الدماء، وتنهب لإرضائه الأموال، وتنتهك كل حرمة من الحرمات، وتنشر بين الناس فكرة الطاعة المطلقة له، من غير أن يكون لهم أن يطالبوا بحق، أو أن يدفعوا عن كرامة، أو أن يحموا حرمة، أو يتمتعوا بحرية في شيء.

وبناءً على هذا؛ كان ذلكم الفرد المتسلط هو المالك المطلق لثروة الأمة، يسخرها في شهواته، ويبذرها في ملذاته، من غير أن يحسب حسابا للجماهير المحرومة التي تتضور جوعا، وتعاني من حرمان أقل حقوقها وأدنى ما يعيش عليه المرء من شظف العيش ونكد الحياة، وقد صور الداعية الكبير العلامة المفكر أبو الحسن الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) هذه الحالة التي عانتها الأمة في تلك الحقبة من الدهر، ورسم بيراعه السيال الموهوب تلك الصورة الشوهاء لذلك التأريخ المحلولك البغيض أبدع رسم حيث قال:

«لقد أتى على العالم العربي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد _ وهو شخص الخليفة أو الملك _ أو حول حفنة من الرجال _ هم الوزراء وأبناء الملك _ وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التي كانت يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة من الزمان

وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التي تنبت في ظلها وتمنعها من الشمس والهواء، كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية لها ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح ويشتغل التاجر ويجتهد الصانع، ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات، وفي سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الأرض خيراتها.

وكانت الأمة _ وهي صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل في هذه الرفاهية كلها _ تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك، وقد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشكر، وقد تُحرم ذلك أيضاً فتصبر، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئاً بل تتسابق في التزلف وانتهاز الفرص.

هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً وترك رواسب في حياة هذه الأمة ونفوسها وفي أدبها وشعرها، وأخلاقها واجتماعها، وخلّف آثاراً باقية في المكتبة العربية، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب (ألف ليلة وليلة) الذي يصور ذلك العهد تصويراً بارعاً، يوم كان الخليفة في بغداد أو الملك في دمشق أو القاهرة هو كل شيء، وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة، إن هذا العهد الذي يمثله كتاب (ألف ليلة وليلة) بأساطيره وقصصه، وكتاب الأغاني بتاريخه وأدبه، لم يكن عهداً إسلامياً، ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقرّه العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد على أثرتهم وترفهم أشد الإنكار.

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها أو فاقدة الوعى والشعور أو ميتة النفس والروح.

إن هذا الوضع لا يقره عقل، ومن الذي يسوّغ أن يتخم فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعاً ومسخبة؟! ومن الذي يسوغ أن يعبث ملك أو أبناء ملك بالمال عبث المجانين، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم، ومن الذي يسوغ أن يكون حظ طبقة _ وهي الكثرة _ الإنتاج وحده والكدح في الحياة والعمل المضني الذي لا نهاية له، وحظ طبقة _ وهي لا تجاوز عدد الأصابع _ إلا التلهي بثمرات تعب الطبقة الأولى من غير شكر وتقدير وفي غير عقل ووعي، ومن الذي يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل يسوغ أن يشقى أهل الصناعة غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمور ؟! ومن الذي يسوغ أن يُجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس وسخفاء العقول وفاقدي الضمائر ممن لا هم لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات، ولا يحسنون فناً من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء.

إنه وضع شاذ لا ينبغي أن يبقى يوماً فضلاً عن أن يبقى أعواماً.

إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية، ولكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعى وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها»(١).

⁽۱) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص۲۸۸ – ۲۹۰، ط. دار الكتاب العربي، بيروت.

وبعد هذا التصوير الرائع البديع لمشاهد أحوال الأمة في تلك الفترة الزمنية من تأريخها، أخذ يحذر أولئك الذين يعيشون على الأحلام التي سيطرت على عقول حكام تلك الحقبة وحواشيهم، ويحذرهم من مغبة المصير الأسود الذي ستنتهي بهم إليه هذه الأحلام الكاذبة، فقال:

«فالذين لا يزالون يعيشون في عالم (ألف ليلة وليلة) إنما يعيشون في عالم الأحلام، إنما يعيشون في بيت أوهن من بيت العنكبوت، إنما يعيشون في بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية.

ألا إن عهد (ألف ليلة وليلة) قد مضى فلا يخدعن أقوام أنفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت، إن الملوكية مصباح _ إن جاز هذا التعبير _ قد نفد زيته واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة.

إنه لا مجال في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التي نراها في أوربا وأمريكا وفي روسيا، فهي في أوربا أثرة حزب من الأحزاب، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين، وفي روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة.

إن الأثرة بجميع أنواعها ستنتهي وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاماً شديداً، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمح العادل الوسط

وإن طال أجل هذه (الأثرات) وأرخي لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان.

إن الأثرة _ فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية _ غير طبيعية في حياة الأمة وإنها تتخلص منها في أول فرصة إنه لا محل لها في الإسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل في استمرارها؛ فخير للمسلمين وخير للعرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها»(١).

وأنت ترى كيف نفى عن ذلك العهد أن يكون عهدا إسلاميا، وسواه بالعهد الذي كان قبل إشراق نور الإسلام بدعوة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، ووصمه بأنه عهد جاهلي، وأنه لا ينبغي أن يقر ويبقى في هذه الأمة يوما واحدا فضلا عن أن يبقى أعواما أو قرونا.

ونجد العلامة الندوي يعمم هذا الحكم على العهد الأموي والعباسي ولا يستثني إلا عمر بن عبد العزيز النه الذي أقام موازين القسط وأعاد إلى الأمة حقوقها المسلوبة فقد قال: «ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء، ولم يُعِدُّوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بنى أمية وبنى العباس،

⁽١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٩١.

حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز»(١).

ويسهب الأستاذ سيد قطب في تشخيص الأمراض التي سرت في حياة الأمة في هذا العهد الذي تلا عهد الخلافة الراشدة، وكيف انحرفت السياسة حتى هوت في هوة سحيقة من الفساد وهوت معها الأمة، وكان مما قاله في ذلك:

«لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام (أُميَّة) كفيلة بتغيير مجراه الأصيل، ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار.

غير أنه منذ (أمية) أتاحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهبا ومباحا للملوك والحاشية والمتعلقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشيتها رسوم، وانقلبت الخلافة ملكا، وملكا عضوضا، كما قال عنه رسول الله على في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق.

وعدنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملهين والمطربين، فيهب أحد ملوك (أمية) اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد ـ من ملوك العباسيين ـ إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين «^(۲).

على أنه من المعلوم قطعا أن الفساد لم يكن في السياسة المالية فحسب،

⁽١) المصدر السابق، ص١٢٨.

⁽٢) العدالة الاجتماعية، ص١٦٤.

بل شمل جميع مرافق حياة الأمة فنخر جميع جوانبها، وأول انحراف كان في طريقة الحكم، فبعد أن كان مبنيا على الشورى والانتخاب الحر للخليفة الشرعي ـ الذي تبايعه الأمة عن طواعية، بعد أن تختاره لما تجد فيه من خصال الورع والتقوى، وشدة الخوف من الله تعالى، والنصح للأمة، وإيثار مصالحها على مصلحته الشخصية، وما يتمتع به من خصائص قيادية تؤهله لإمساك زمامها والسير بها في دروب السلامة، لتسلم في دنياها وتسعد في عقباها ـ تحول الأمر إلى النقيض من ذلك، فأصبح الحكم يؤخذ عنوة، ويستلب من أهله بالسيف، ويفرض على الجماهير بقوة الحديد والنار، ولا يبقى لأحد من الأمة في ذلك رأي أو اختيار، وإنما عليها أن تسلم وتخضع على الأزرار.

انتِقَالُ الحُكُم مِنْ خِلافَةٍ رَاشِدَةٍ إلى سُلْطَةٍ استبداديّة:

إن أعظم بلاء على الأمة ومصيبة في الدين تحول نظام الحكم، الذي كان يسود الأمة من أقصاها إلى أقصاها، من منهج رباني ـ يقوم على العدل، والشورى، ومحاسبة النفس، والخوف والرجاء من الله، وينبني على عقد بين الأمة والخليفة يكون الخليفة؛ بموجبه أجيرا للأمة تحق لها مراقبته ومحاسبته على القليل والكثير، كما يحق لها مع انحرافه عن الجادة أن ترده إليها بالنصح والتقويم، فإن أبى كان لها عزله ولو بالقوة ـ إلى منهج شيطاني، يقوم على الجور والاستبداد، وإعطاء النفس شهواتها في البطش بالأمة، وسلبها جميع حقوقها المادية والمعنوية، وإطلاق يد المتسلط للعبث بأموالها وسفك دمائها، ومعاملتها كقطيع من السوائم لا تجتلب لنفسها نفعا ولا تدفع ضرا.

وقد كان هذا _ بلا ريب _ حدا فاصلا بين عهدين في حياة الأمة، عهد القوة والعزة والكرامة وعهد الضعف والذلة والمهانة، كما أوضح ذلك المفكر الكبير السيد أبو الحسن الندوي في قوله: «قال أحد الأدباء: «أمران لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا»، إنه لحق في قضية أكثر الأمم، ولكن بدا التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال، لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين»(۱).

فقد كانت مسؤولية الأمة في العهد الأول تعود إلى من تختاره لقيادتها، ويكون أتقاها لله، وأقواها على إدارة دفة أمرها، إذ لا تنتخب لتحمل هذا العبء إلا من توفرت فيه خصلتان، حددهما القرآن في الأجير فيما حكاه عن أمته الصالحة اللبيبة ابنة عبده الصالح ﴿إِنَ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرْتَ الْقَوَيُّ الْقَوِيُّ الْقَصِينَ ﴾ [القصص: ٢٦]، وهذه الصفات كانت متوفرة في جميع القائمين على الأمر، الذين يتحملون المسؤوليات السياسية والعسكرية والمدنية، أو الذين يدلون إليهم بالرأي والمشورة، وفي هذا يقول السيد أبو الحسن الندوي:

«كان زمام القيادة الإسلامية _ والعالمية بالواسطة _ بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتزكية نفس وسمو سيرة، وكمالاً واعتدالاً، لقد صاغهم النبي هي صوغاً، وصبهم في قالب الإسلام صباً، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام لا في الميول والنزعات، ولا في الرغبات والأهواء، ولو دقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام

⁽١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٤.

والنفسية الإسلامية، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم.

وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمة يصلون بالناس، وقضاة يفصلون قضاياهم، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم، وأمنة لأموال المسلمين وخزنتهم، وقواداً يقودون الجيوش ويحسنون تدبير الحروب، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله، وكان الواحد منهم في آن واحد تقياً زاهداً وبطلاً مجاهداً، وقاضياً فهماً، وفقيهاً مجتهداً وأميراً حازماً وسياسياً محنكاً.

فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين، حوله جماعة ممن تخرجوا - إن صح التعبير - في هذه المدرسة، المدرسة النبوية، أو المسجد النبوي، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحاً واحدة، وتلقوا تربية واحدة، يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهدوه فسرت روحهم في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات، ولا تنافس في الشهوات»(۱).

نعم؛ كان جميع المسئولين في الدولة الإسلامية الأولى من هذا الطراز، فكل منهم يعد أمة في رجل ورجلا في أمة، يحمل في نفسه هم الدين والدعوة إليه وهم الأمة بل البشرية بأسرها، لأنه يحس من أعماق نفسه أنه مسئول عن إصلاحها وتربيتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور

⁽١) المرجع السابق، ص١٢٥.

ومن الضلال إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم ومن الجاهلية إلى دين الإسلام الحق.

وهو مع نوئه بهذه الهموم، يحمل هم الدار الآخرة ووعدها ووعيدها، فيتزاحم في قلبه عاملا الخوف والرجاء، ففي خوفه ما ينهنهه ويصده عن كل سوء ويحجزه عن إعطاء نفسه رغباتها، وفي رجائه ما يبعث في نفسه همم الخير، ويؤجج عزائم الإيمان.

وبانحلال ذلك العقد وانطواء ذلك العهد وبروز عهد جديد طوي عن الأمة كل ما كانت تعهده في العهد الماضي من المزايا الخيرة، فغارت ينابيع الخير، وتحول روضها النضير إلى قفر يباب منطمس المعالم موحش للناظر.

وقد بدأت هذه المرحلة المشئومة في حياة الأمة بوثوب معاوية بن أبي سفيان على دولة الخلافة؛ لابتزاز السلطة من الخليفة الشرعي الذي بويع بإجماع أهل الحل والعقد، ليحولها إلى ملك عضوض ونظام استبدادي، لا يصلح إلا أن يكون امتدادا للنظام المتبع عند القياصرة والأكاسرة، ولم يكن معاوية يخفي أنه أخذ السلطة عنوة، وأن الناس له كارهون؛ فعندما دخل المدينة المنورة بعد استيلائه على الأمر خطب في أهلها قائلا:

«أما بعد؛ فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها مثل ثنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة؛ مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به

القائل بلسانه؛ فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه؛ فإن السيل إذا زاد عنى وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة»(۱).

وخطب في أهل الكوفة فقال: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»(١).

وأنتم ترون ما في كلامه هذا من كشف الستار عما في خبيئة نفسه في قتاله، فإنه لم يقاتل لغرض ديني أو لإحقاق حق، وإنما قاتل ليتوصل إلى التسلط على الرقاب والتحكم في الناس، وقد قاوم بهذا خلافة شرعية بنيت على الشورى الإسلامية لتقويض بنيانها، فصفا له الجو وهدمها كما أراد، وحول الحكم إلى ملك عضوض.

⁽۱) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٧٦، دار إحياء التراث العربي، بيرو، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ج٢، ص١٨٢، المكتبة العلمية، بيروت، والبداية والنهاية، إسراعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، (ت: ٤٧٧هـ)، ج٨، ص١٣٢، مكتبة المعارف، بيروت.

⁽۲) المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت: ۲۷۷هـ)، ج٣، ص٣٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، تحقيــق: خليل المنصور، وانظر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتســمية من حلها من الأماثل، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بــن عبــدالله الشـافعي (ت: ٥٧١هـ)، ج٥، ص ١٥٠ دار الفكر، بيــروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، ومختصره (مختصر تاريخ دمشق)، محمد بن مكرم بن منظــور الأفريقــي المصــري (ت: ٢١١هـ)، ج٧، ص٣٣٩، والبداية والنهاية، ج٨، ص٣٣٩،

النَّصُّ الصَّريحُ على أنَّ هَذِهِ الفِئَةَ باغِيةً:

لقد أن ذر النبي بهذا العهد المشئوم وما يقع فيه من نقض عرى الإسلام، ووصف هذه الفئة بالبغي؛ فعن عكرمة، قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبى سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي في فينفض التراب عنه، ويقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار». قال يقول عمار: «أعوذ بالله من الفتن» (()، وعن أبي سعيد أيضا: «تقتل عمارا الفئة الباغية» (() وعن أم سلمة أن النبي في قال في عمار: «تقتله الفئة الباغية» (()، وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله في يقول: «عمار تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية: لا تزال تنزع في مبالك نحن قتلناه، إنما قتله الذين أخرجوه. (() وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله في يبني المسجد، فإذا نقل الناس حجرا نقل عمار حجرين، وإذا نقلوا لبنة نقل لبنتين، فقال رسول الله في: «ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية» (()، وعنه بلفظ: «أبشر عمار رسول الله في: «ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية» (())، وعنه بلفظ: «أبشر عمار

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۹۰/۳)، رقم ۱۱۸۷۹) والبخـاري (۱۰۳۰/۳)، رقم ۲۲۰۷) وابـن حبان (۱۵۷۸)، رقم ۲۲۷۷)، والحاكم في مستدركه (۱۲۲/۲ رقم ۲۲۵۷).

⁽۲) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق خزيمة بن ثابت: (٥٥٢/٧)، رقم ٣٧٨٧٥)، وأحمد (٢٥٩/٥)، رقم ٢١٤/٥)، وابن سعد (٢٥٩/٣)، والطبراني (٨٥/٤)، رقم ٢١٩٢٠)، قال الهيثمي (٢٤٢٧)، والحاكم (٤٤٨/٣)، رقم ٢٩٧٥)، ومن طريق عمرو بن حزم: أخرجه أحمد (١٦٨/٤)، رقم ١١٢٨/١)، وأبو يعلى (١٢٨/١٣)، والحاكم (١٦٨/٢)، والحاكم (١٦٨/٢).

⁽٣) المعجم الكبير: (٣٦/٢٣ رقم ٨٥٢ ورقم ٨٥٣).

⁽٤) الطبراني في الأوسط: (٤٤/٨ رقم ٧٩٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٥٧/٥ رقم ٥٥٥).

⁽٥) أبو يعلى في مسنده (٢/١١) رقم ٢٥٢٤).

تقتلك الفئة الباغية»(١)، وعن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله على: «تقتل عمارا الفئة الباغية»(٢)، وعن عثمان قال: سمعت رسول الله على يقول لعمار رحمة الله عليه: «تقتل عمارا الفئة الباغية»(٣)، وعن ابنة هشام بن الوليد بن المغيرة _ وكانت تمرض عمارا _ قالت: جاء معاوية إلى عمار يعوده، فلما خرج من عنده، قال: اللهم لا تجعل منيته بأيدينا فإني سمعت رسول الله على يقول: «تقتل عمارا الفئة الباغية»(٤)، وعن أبي اليسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ أو قال رسول الله ﷺ: «تقتل عمارا الفئة الباغية»(٥)، عن أبي أيُّوبَ قال: قال رسول الله على: «تقتل عمارا الفئة الباغية»(٦)، وعن حنظلة ابن خويلد العنزي قال: إنى لجالس عند معاوية، إذا أتاه رجلان يختصمان في رأس عمار، كل واحد منهما يقول: أنا قتلته، قال عبدالله بن عمرو: ليطب به أحدكما نفسا لصاحبه، فإني سمعت رسول الله على يقول: «تقتله الفئة الباغية»، قال معاوية فما بالك معنا؟ قال: إنى معكم ولست أقاتل، إن أبي شكاني إلى رسول الله على ، فقال رسول الله على: «أطع أباك ما دام حيا ولا تعصه»، فأنا معكم ولست أقاتل»(٧)، وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه، قال: دخل عمرو بن حزم علي عمرو بن العاص، قال: قتل عمار، وقد قال رسول الله على: «تقتله الفئة الباغية» فدخل عمرو على معاوية، فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قتل عمار، فماذا؟ قال: سمعت رسول الله على يقول:

⁽۱) الترمذي في سننه: (٦٦٩/٥ رقم ٣٨٠٠).

⁽۲) ابن أبي شيبة (۷/۲۵ رقم ۳۷۸۷) وأبو يعلى في مسنده (۳۲۷/۱۳ رقم ۷۳٤۲).

⁽٣) أبو يعلى في معجمه (٢٣٢/١ رقم ٢٨٣)، والطبراني في الصغير (٣١٢/١ رقم ٥١٦).

⁽٤) أبو يعلى في مسنده (٣٥٣/١٣ رقم ٧٣٦٤).

⁽٥) الطبراني في كبيره (١٧٠/١٩ رقم ٣٨٢)، والشاشي في مسنده (٤٠٨/٣ رقم ١٥٣٢).

⁽٦) الطبراني في كبيره (١٦٨/٤ رقم ٤٠٣٠).

⁽٧) أخرجه أحمد في مسنده: (١٦٤/٢ رقم ٢٥٣٨)، وابن أبي شيبة (٥٤٨/٧)، رقم ٣٧٨٤٥).

«تقتله الفئة الباغية»، قال: دحضت في بولك، أنحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه»(١).

والحديث ظاهر _ كما ترى _ لا غبار على دلالته، فهو يدل على أن أهل الشام الخارجين على الإمام الشرعي بغاة وعلى رأسهم قائد فئتهم معاوية، وتجد من بين رواته أهل الشام أنفسهم، فقد رواه عن النبي على معاوية وعمرو بن العاص وابنه، وذلك مما يوثق ثبوته ويقوي سنده، على أنه بلغ حد الشهرة بكثرة طرقه وتنوع أسانيده حتى كاد يدنو من التواتر، وقد ألحقه الجصاص بالمتواتر، حيث قال: «وهذا خبر مقبول من طريق التواتر حتى أن معاوية لم يقدر على جحده لما قال له عبدالله ابن عمرو، فقال: إنما قتله من جاء به فطرحه بين أسنتنا»(١).

ونقل الحافظ ابن حجر عن الحافظ ابن عبد البر، أنه قال فيه: «تواترت الأخبار بذلك وهو من أصح الحديث» (٣)، وكذلك قال الذهبي: «وفي الباب عن عدة من الصحابة فهو متواتر» (٤)، ومثله قول السيوطي: «هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر كما بينت ذلك في

⁽۱) أبو يعلى في مسنده: (۱۳ /۳۳۰ رقم ۷۳٤).

⁽۲) أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر (ت: ۳۷۰هـ)، ج٥ ص ٢٨٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.

⁽٣) تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت: ٨٥٦هـ)، ج٤، ص٤٣، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.

⁽٤) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله (ت: ٧٤٨هـ)، ج١، ص٢٤١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.

الأحاديث المتواترة»(١)، ونص على تواتره أيضا الصنعاني في «توضيحه»(٢).

مُجَادَلَةٌ بالباطِلِ لإِدْحَاضِ الحَقِّ:

مع وضوح دلالة هـذا الحديث وقوت عادلت فيه طائفة من الناس، فمنهم من طعن في أصله، فقد نقل ابن الجوزي في (العلل المتناهية) عن الخلال أنه: «ذكر أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبا خيثمة والمعيطي ذكروا هـذا الحديث «تقتل عمارا الفئة الباغية»، فقالوا فيه: ما فيه حديث صحيح، وأن أحمد قال: قـد روي في عمار «تقتله الفئة الباغية» ثمانية وعشرون حديثا ليس فيها حديث صحيح». (٣) وقد علمت أن غير واحد من أئمة الحديث عده فـي المتواتر، وتعقب الحافظ ابن حجر هذا الذي رواه الخلال بما تقدم من كون ابن عبدالبر ذكر أنه متواتر، شـم قال: وقال ابن دحية: «لا مطعن في صحته ولو كان غير صحيح لرده معاوية وأنكره» (٤).

وقد أشار ابن تيمية إلى عدم صحته، مع حمله على معنى آخر يتفق مع هـواه، حيث قال: «وأما الحديث الذي روي عن النبي الله أنه قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فبعضهم ضعفه، وبعضهم تأوله، فقال بعضهم: معناه

⁽۱) **الخصائص الكبرى**، أبو الفضل جـلال الديـن عبدالرحمن بـن أبي بكر السـيوطي (ت: ۹۱۱هـ)، ج۲، ص۲۳۹، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱٤٠٥هـ/۱۹۸٥م.

⁽٢) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، محمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني (ت: ١١٨٦هـ)، ج٢ ص ٤١١: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

⁽٣) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٩٧ هـ)، ج٢ ص٨٤٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٤ هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل الميس.

⁽٤) تلخيص الحبير، ج٤، ص٤٣.

الطالبة لدم عثمان على كما قالوا: «نبغي ابن عفان بأطراف الأسل»، وبعضهم قال ما يروى عن معاوية على أنه قال لما ذكر له هذا الحديث: أونحن قتلناه!! إنما قتله على وأصحابه حيث ألقوه بين أسيافنا»(١).

وهذه مجادلة ناشئة عن العصبية للباطل وتسفيه الحق، فقد علمت بأن الحديث أجمعت الأطراف المتنازعة على صحته، وأن من رواته معاوية نفسه وصاحبه عمرا وابنه، فلو كان غير ثابت لما رووه مع علمهم بأنه حجة لخصمهم عليهم.

وأما تأويله بأن الباغية بمعنى الطالبة لدم عثمان كما قال الشاعر: «نبغي ابن عفان بأطراف الأسل» فهو مردود بنص الحديث نفسه، ففيه: «يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار» وهو نص على أن دعوتهم باطلة وأنها تفضي إلى النار _ والعياذ بالله _، وقد قال ملا علي القاري: «قال ابن الملك: اعلم أن عماراً قتله معاوية وفئته، فكانوا طاغين باغين بهذا الحديث؛ لأن عماراً كان في عسكر على وهو المستحق للإمامة، فامتنعوا عن بيعته»(٢).

وأما دعوى أن قتلته هم الذين أخرجوه للقتال، فهمي مكابرة للحقيقة وإنكار للحق، إذ لو كان الأمر كذلك للزم أن يكون النبي هو الذي قتل عمه حمزة بن عبد المطلب، وقتل أصحابه الذين استشهدوا في بدر وأحد وفي جميع المشاهد، فيكون هو الذي يبوء بتبعة قتلهم كما رد بذلك الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ عندما بلغته هذه الدعوى من معاوية.

⁽۱) منهاج السُّنَة النبويّة، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (ت: ٧٢٨هـ)، ج٤، ص٥٠٤، مؤسسة قرطبة، ٢٠٤١هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

⁽۲) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري (ت: ١٠١٤هـ)، ج١١، ص١٠، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

ومن العصبية للباطل، قول ابن بطال بأن هذا إنما هو في مشركي مكة الذين عذبوا عمارا وحاولوا فتنته عن دينه!!.. قال: «ولا يمكن أن يتأول هذا الحديث في المسلمين البتة؛ لأنهم قد دخلوا دعوة الله، وإنما يدعى إلى الله من كان خارجًا من الإسلام. وقوله: «ويدعونه إلى النار» دليل أيضًا على ذلك؛ لأن المشركين أهل مكة إنما فتنوه وطالبوه أن يرجع إلى دينهم، فهو النار»(١).

وهو تأويل عجيب لا ينبئ إلا عن تأصل العصبية في النفوس، فإن من استجاب للدعوة العامة للإسلام بحيث أتى بالشهادتين لا تسقط دعوته إلى الحق، بل يؤمر أن يلتزم ما اقتضته الشهادتان من اتباع الحق وترك الباطل، والانتمار بأمر الله والازدجار عن أمر الشيطان، والقيام بجميع التكاليف الشرعية فعلا وتركا، إذ لا تسقط التبعة عن أحد بمجرد نطقه بالشهادتين، فلو كان كذلك لما وجب فرض على من أتى بهما ولا حظر شيء عليه، وأين هذا من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيّكُمْ وَلا أَمَانِيّ أَهْلِ اللهِ وَلِيَّ أَهْلِ اللهِ وَلِيَ اللهِ وَلَيْنَ اللهِ وَلِيَّ أَهْلِ اللهِ وَلِيَّ أَوْلُ اللهِ وَلِيَّا وَلا نَصِيرًا اللهِ وَلِيَ اللهِ وَلِيَّ أَنْ يَأْتُ وَلا شَعْعَةً وَاللّهُ وَكُونُواْ مَعَ الصّدِقِينِ وَقُولُهِ اللهِ وَلِي بَعْمُ فَي اللهِ وَلَيْ اللهُ وَكُونُواْ مَعَ الصّدِقِينِ فَي وَلِي اللهِ وَلَا خُلُهُ اللّهِ وَلِيَّا وَلا نَصِيرًا اللهِ وَلَا بَنْ عَنْ اللهِ وَلَا خُلُواْ اللّهُ وَذُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصّدِقِينِ فَي وَلِي اللهِ وَلَا شَعْعَةً وَاللّهُ وَلَوْلُوا اللهُ وَدُرُواْ مَا بَعِي مِنَ اللّهِ وَلَا كُنتُم مُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَعِي مِنَ اللّهِ وَلَا أَنْ اللهِ اللهُ اللهِ وَاللّهُ اللّهُ وَدُرُواْ مَا بَعِي مِنَ اللّهِ وَلَا اللهُ لَعْمُواْ اللّهُ وَذَرُواْ مَا بَعِي مِنَ اللّهِ وَلَا أَلْهُ اللّهُ وَرَسُولِهِ ﴿ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللّهُ الللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الل

⁽۱) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري القرطبي (ت: ٤٤٩هـ)، ج٥، ص٢٠، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

تُفْلِحُونَ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَنفِرِينَ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢]، وقوله: ﴿ يَنَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوا أَمُولَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَكَرَةً عَن تَرَاضِ مِّنكُمُّ وَلَا نَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمُّ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا اللَّهِ وَمَن يَفْعَلُ ذَلِكَ عُدُوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصِّلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَالِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩ - ٢٦]، وقوله: ﴿ لَي يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُواْ قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا لَا تَتَّبِعُوا ٱلْهُوَى أَن تَعَدِلُوا وإِن تَلْوَدُا أَوْ تُعُرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَىۤ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقُوكَيُّ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرًا بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوةِ ٱلدُّنْيَا مِن ٱلْآخِرةَ فَمَا مَتَعُ ٱلْحَيَوةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلُ اللهِ إِلَّا نَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡ تَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡعًا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرَّ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَيّ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاَّةٌ مِّن نِسَآءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنٌّ وَلَا نَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا نَنابَرُواْ بِٱلْأَلْقَابِ ۚ بِئْسَ ٱلِاَسَّمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانَ وَمَن لَّمْ يَتُبُ فَأُولَنَإِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ اللهَ يَنَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمُ ۗ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُ أَحَدُكُم أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهِتُمُوهُ وَٱنَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابُ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢]، وقوله: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَلُكُمْ وَلَا ۚ أَوْلَندُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلُ ذَلِكَ فَأَوْلَتِهِكَ هُمُ ٱلْخَسِرُونَ اللَّ وَأَنفِقُواْ مِنهَا رَزَقَنكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْقِكَ أَحَدَكُمْ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا ۚ أَخَرْتَنِىۤ إِلَىٓ أَجَلِ قَرِيبٍ فَأُصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّلِحِينَ ﴿ ۚ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرُا بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

فكم تجد من نصوص قرآنية فيها دعوة للذين آمنوا إلى اتباع الحق والائتمار بأوامر الله والازدجار عن نواهيه، مع وعدهم على امتثال ذلك ووعيدهم على مخالفته، فكيف يقال: «لا يمكن أن يتأول هذا الحديث في المسلمين البتة؛ لأنهم قد دخلوا دعوة الله، وإنما يدعى إلى الله من كان خارجًا من الإسلام «؟!.. فليت شعري ألم يكن ما تضمنته هذه الآيات دعوة لمن دخل في الإســــلام إلى الالتزام بما يعنيه الإســــلام مـــن فعل أوامر الله تعالى وترك نواهيه، وماذا يقول ابن بطال في قوله تعالى: ﴿ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَنَآ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَمُّمُآ أُفِّ وَلَا نَنَهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿ ۖ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كُمَّا رَبِّيَانِي صَغِيرًا ١٠٠٠ رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّبِينَ غَفُورًا ١٠٠٠ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا نُبَذِّرُ تَبْذِيرًا ١٠٠ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِّ وَكَانَ ٱلشَّيْطِينِّ وَكَانَ ٱلشَّيْطِينِّ وَكِانَ ٱلشَّيْطِينَ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةِ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ١١٥ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا نَبْشُطُهَ اكُلُّ ٱلْبَسُطِ فَنَقَعُدَ مَلُومًا تَحَسُورًا ١٠٠٠ إِنَّ رَبَّكَ يَبْشُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ, كَانَ بِعِبَادِهِ عَجِيرًا بَصِيرًا ﴿ " وَلَا نَقْنُلُوٓا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَقِ ۖ نَحَنُ نَرُزُقُهُمْ وَإِيَّاكُورًا إِنَّ قَنْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا اللَّهِ وَلَا نَقْرَبُواْ ٱلرِّنَيُّ إِنَّهُ, كَانَ فَحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا اللهِ وَلَا نَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُلِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ، سُلْطَنَا فَلَا يُسْرِف فِي ٱلْقَتْلِّ إِنَّهُ,كَانَ مَنصُورًا ﴿ وَلَا نَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِي أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبِلُغُ أَشُدَّهُۥ وَأُوفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَاتَ مَسْخُولًا اللَّهِ وَأُوفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَالِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿ ثَ وَلَا نَقَفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمُ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُوَّادَ كُلُّ أُولَئِيكَ كَانَ عَنْهُ مَسْتُولًا ﴿ ثَ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَا يَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَا يَهُ مَا كُورُهَا ﴾ وَلَا تَمْشِ فِي اللهُ كَانَ سَيِّئُهُ وَعِندَ رَبِّكِ مَكُرُوهًا ﴾ وَلَا تَمْشِ فَي اللهُ كَانَ سَيِّئُهُ وَعِندَ رَبِّكِ مَكُرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٨].

هل يعفى من استجاب لدعوة الإسلام من كل ما في هذه الآيات من أوامر ونواهي، ما عدا أولها وهو عدم عبادة غير الله سبحانه?! فكيف يتجاهل أن الدعوة للذين استجابوا وآمنوا بتوحيد الله وهل قائمة إلى الالتزام بما يقتضيه التوحيد من حسن الطاعة له سبحانه وترك محظوراته؟! أوليس من محظوراته سفك دماء الأمة بغير حق، والخروج على خليفتها الشرعي، وشق عصا طاعة من أوجب الله طاعته من أولياء الأمر القائمين بالقسط - ؟!.

على أن الأمر واضح لا غبار عليه، فمن الذي قتل عمارا حتى يتعسف في تأويل الحديث؟!.

وذكر الحافظ ابن حجر عن ابن بطال أنه قال: «تبعا للمهلب، إنما يصح هذا في الخوارج الذين بعث إليهم علي عمارا يدعوهم إلى الجماعة، ولا يصح في أحد من الصحابة، وتابعه على هذا الكلام جماعة من الشراح»(١).

وفي هـذا أيضا من قلب الحقائق ما لا يخفى على ذي بصر، حتى أن الحافظ نفسـه تعقبه بقوله: «وفيـه نظر من أوجه، أحدها أن الخوارج إنما خرجوا على علي بعد قتل عمار بلا خلاف بين أهل العلم بذلك، فإن ابتداء أمر الخوارج كان عقب التحكيم، وكان التحكيم عقب انتهاء القتال بصفين،

⁽۱) فتــح الباري شـرح صحيح البخـاري، أحمد بن علي بـن حجر أبو الفضل العسـقلاني الشـافعي، (ت: ۸۵۲هـ)، ج۱، ص٥٤٢، دار المعرفـة، بيـروت، تحقيــق: محب الدين الخطب.

وكان قتل عمار قبل ذلك قطعا، فكيف يبعثه إليهم عليٌ بعد موته؟!.

ثانيها: أن الذين بعث إليهم علي عمارا إنما هم أهل الكوفة، بعثه يستنفرهم على قتال عائشة ومن معها قبل وقعة الجمل، وكان فيهم من الصحابة جماعة كمن كان مع معاوية وأفضل، وسيأتي التصريح بذلك عند المصنف في كتاب (الفتن)، فما فر منه المهلب وقع في مثله مع زيادة إطلاقه عليهم تسمية الخوارج وحاشاهم»(۱).

وأنت ترى كيف اتخذوا من سموهم (خوارج) شماعة لتعليق كل سوء بهم ونسبة كل باطل إليهم!!!... وأين هذا مما أمر الله تعالى به من الشهادة بالقسط في الأقربين والأبعدين من غير التفات إلى شنآن أو مقة، على أن الحافظ نفسه أغرب في شرحه الحديث حيث قال: «فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها وهو طاعة الإمام، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم»(٢).

فليت شعري؛ لو كانوا معذورين بهذا وكان ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد فكيف تكون دعوتهم له إلى النار؟! مع أن المجتهد الحق ـ حيث يسوغ الاجتهاد _ مثاب على اجتهاده بأي حال، فلا يمكن أن يكون اجتهاده مؤديا إلى النار والعياذ بالله، على أن الاجتهاد لا يسوغ في موارد النصوص

⁽١) المرجع السابق.

⁽٢) المرجع السابق.

الشرعية حيث يخالف المجتهد الحق الذي لا غبار عليه، ولو ساغ أن يحمل هذا الكلام على هذا المحمل لاحتمل مثله فيما حكاه الله من قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَكْقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمُ إِلَى ٱلنَّجَوْةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤١]، لأن المدعو إليه واحد في القضيتين، وقد ذكر بعبارة واحدة في القرآن والحديث.

ولو كانت القضية اجتهادية لما ساغ للإمام علي قتالهم لأنهم متعلقون بعذر شرعي، مع أنه قال فيما أخرجه عنه ابن عساكر وغيره: «أما والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن أو ذنبا ورأسا؛ فوالله إن وجدت له إلا القتال أو الكفر بالله»(١).

فلو كانت القضية للاجتهاد فيها مجال لما قال إن ترك قتالهم كفر، إذ لا يكون الكفر إلا بارتكاب محرم شرعي، فإن كان غير مخرج من الملة، فهو كفر نعمة _ كما سيأتي إن شاء الله _ وإن كان مخرجا منها فهو كفر ملة، وأنت تدري أن التكفير في القضايا الفرعية الاجتهادية ما كان واردا عند السلف الصالح، ولا يجوز في الإسلام بحال، وإلا لساغ أن يكفر كل أحد

⁽۱) تاريخ دمشق، ج٢٦، ص٥٥١، وص٤٧٤، وانظر: مختصر تاريخ دمشق، ج٥، ص٤٢٤، وشرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٢٣، وج٢، ص١٨٦، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، (ت: جمادى الآخرة / ٦٩٤هـ)، ص١١١، دار الكتب المصرية، مصر، ووقعة صفين، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري، (ت: ٢١٢هـ)، ص٤٧٤. والمعرفة والتأريخ، ج١، ص٣٤٣ وج٣، ص٣٤، والأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، (ت: ٢٨٢هـ)، ص٣٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/١٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عصام محمد الحاج علي، ونثر الدر في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الأبي، (ت: ٢١٤هـ)، ج١، ص٢٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٤١هـ/٢٠، ما الطبعة: الأولى، تحقيق: خالد عبدالغني محفوط.

من خالفه في الرأي، وإذا كان ترك قتالهم كفرا بسبب ما ارتكبوه من الفساد في الأرض الذي يوجب جهادهم، فكيف بهم وبصنيعهم، فإنه _ بلا ريب _ أوغل في الكفر وأعمق في الضلال، فأنى يسوغ أن يعدوا فيه مجتهدين وهم بسبب ذلك معذورون؟!!.

على أن معاوية نفسه اعترف لأهل الكوفة أنه ما قاتلهم إلا ليتأمر عليهم كما سبق ذكره عنه، ومعنى ذلك أنه ساع إلى العلو في الأرض، وقد قال تعالى ﴿ وَلَكَ اللَّهُ الللَّا اللَّاللَّا اللَّلْمُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّا اللَّا اللَّا الللَّهُ اللَّا

واعترف أيضا أن معروفه منكر بالنظر إلى من قبله، فقد قال لأهل المدينة: «فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم، وإنَّ معروف زماننا هذا مُنكر زمان مَضى، ومُنْكر زماننا معروف زمان لم يأت». (١) ولم يخف النزعة القيصرية الكسروية في حكمه وتسلطه، إذ تصور كما كانوا يتصورون أنه أوتي ملك الأرض، وأنه لاحق لأحدٍ أن يسأله عن شيء أو يحاسبه على تصرف، فكان من قوله: «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وما تركته للناس فبالفضل منى»(١).

⁽۱) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٧٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت: ٢٧٩هـ)، ج٢، ص٨٦، والبصائر والنخائر، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، (ت: ٤١٤هـ)، ج٤، ص٩٩، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩١٩هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الراجعـة، تحقيق: د. وداد القاضي، وينظر: نثر الدر في المحاضرات، ج٣ ص٩، وربيع الأبرار، ج١، ص٨٦، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكى صفوت، ج٢، ص١٨٣ المكتبة العلمية، بيروت.

⁽٢) أنساب الأشراف، ج٢، ص٨٣، وينظر: مروج الذهب، أبو الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي، (ت: ٣٤٦هـ)، ج١، ص٣٦٧، ونشر الدر، ج٢، ص١٤٢، والتذكرة

وهذا يعني أنه لو حرم الناس من أرزاقهم من بيت مال المسلمين لكان ذلك له حقا مشروعا، وليس لهم حسابه على ذلك، لأنه منعهم ما يملك لا ما يملكون!.. وإن آتاهم شيئا من ذلك فهو لا يعدو أن يكون فضلا منه، لأنه له التصرف المطلق وله الحق في كل شيء دونهم، وأين هذا من نهج النبوة الصادقة في عهد رسول الله هي، حيث كان هي يقسم المال بالسوية، ويقول: «ما لي من هذا المال إلا مثل ما لأحدكم، إلا الخمس، وهو مردود عليكم»(۱)، وبين هي أنه لا يقسم بين الناس إلا كما أمر، من غير أن يجعل لرغبة نفسه وهواها أثراً في العطاء والمنع، فقد قال: «ما أعطيكم ولا أمنعكم، أنا قاسم أضع حيث أمرت»(۱).

بل أين هذا من نهج الخلفاء الراشدين، فعن ابن عمر قال: «شهدت جلولاء، فابتعت من المغنم بأربعين ألفا، فلما قدمت على عمر، قال لي: أرأيت لو عرضت عليّ النار، فقيل لك: افتدني أكنت مفتدي؟ فقلت: والله ما من شيء يؤذيك إلا كنت مفتديك منه، فقال: كأني شاهد الناس حين تبايعوا، فقالوا: عبدالله بن عمر صاحب رسول الله وابن أمير المؤمنين وأحب الناس إليه: وأنت كذلك، فكان أن يرخصوا عليك بمائة أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم، وإني قاسم مسئول، وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش، لك ربح الدرهم درهم. قال: ثم دعا التجار، فابتاعوا منه بأربعمائة ألف، فدفع إلي ثمانين ألفا، وبعث بالبقية إلى سعد بن أبي وقاص، فقال:

الحمدونية، ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، (ت: ٢٠٨هـ)، ج٧، ص١٦٩ دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحسان عباس، بكر عباس، وجمهرة خطب العرب، ج١، ص٤٤٥.

⁽١) أخرجه أحمد (١٢٧/٤، رقم ١٧١٩٤)، والطبراني (١٥٩/١٨، رقم ٦٤٩).

⁽٢) أخرجه البخاري (١١٣٤/٣، رقم ٢٩٤٩).

اقسمه في الذين شهدوا الوقعة، ومن كان مات منهم فادفعه إلى ورثته $^{(1)}$.

فانظر كيف كان احترازه حتى في تجارة أولاده التي تكون بتراض بينهم وبين من يعاملونهم، خشية أن يكونوا جاملوهم وتساهلوا معهم من أجله.

بل كان شديدا حتى على أطفاله خشية أن تمتد أيديهم إلى شيء من مال المسلمين العام، فلم تمنعه عاطفته تجاههم أن يردعهم بشدة، «فعن عيسي بن معمر قال: نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد على هزلى، فخرج الصبي هاربا وبكى، فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكف من نوى»(٢).

وكتب إلى حذيفة: «أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم»(٣).

وقال له رجل: «يا أمير المؤمنين، لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى، فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء، كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم مالا وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم؟!»(1).

⁽۱) كتــاب الأموال، أبو عبيــد القاســم بن ســلام، (ت: ۲۲۶هــ)، ج۱، ص ٣٣١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، تحقيق: خليل محمد هراس.

⁽۲) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، (ت: ۲۳۰هـ)، ج۳، ص۳۱۵، دار صادر، بيروت، وينظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت: ۲۷۹هـ)، ج۱، ص۶۳۹، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱۶۰۳هـ، تحقيق: رضوان محمد رضوان.

⁽٣) المرجع السابق، ج٣، ص٢٩٩.

⁽٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحران، (ت: ٧٢٨هـ)، ص7٩، دار المعرفة.

وعن محمد بن سيرين: «أن صهرا لعمر بن الخطاب قدم على عمر، فعرض له أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر وقال: أردت أن ألقى الله ملكا خائنا، فلما كان بعد ذلك أعطاه عمر من صلب ماله عشرة آلاف»(٥).

ومع شدة محاسبته لنفسه ما كانت رعيته تهمل حسابه، فكان كل منهم له بالمرصاد، يحاسبه حتى على الشيء الدقيق البسيط، فقد قال العتبي: «بعث إلى عمر بحلل فقسمها فأصاب كل رجل ثوبا، فصعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون. فقال سلمان: لا نسمع. قال: ولم يا أبا عبدالله؟ قال: لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك حلة. قال: لا تعجل يا أبا عبدالله. ثم نادى: يا عبدالله. فلم يجبه أحد، فقال: يا عبدالله بن عمر. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: نشدتك بالله، الثوب الذي اتزرت به هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم. فقال سلمان على: أما الآن، فقل نسمع»(٢).

وقدم عبدالله بن زمعة على علي _ كرم الله وجهـه _ في خلافته _ وكان من شيعته _ فطلب منه مالاً، فقال: «إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم، وإلا فجناة أيديهم لا تكون بغير أفواههم»(٧).

وأتاه أخوه عقيل فقال: «يا أمير المؤمنين إني محتاج، وإني فقير

⁽٥) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، ج١، ص١١٤، مطبعـة المدني، القاهـرة، تحقيق: محمود محمد شاكر.

⁽٦) عيون الأخبار، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، ص٢٣.

⁽۷) ربيع الأبرار، ج۱، ص۲۹۰، وينظر: أحكام أهل الذمة، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، (ت: ۷۰هـ)، ج۱، ص۳٦۸، رمادى للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، ۱٤۱۸هـ/۱۹۹۷م، الطبعة: الأولى، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري.

فأعطني، قال: اصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم، فألح عليه، فقال لرجل: خذ بيده فانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل: دقّ هذه الأقفال وخذ ما في هذه الحوانيت.

قال: يريد علي أن يتخذني سارقاً، فرجع إليه، فقال: يا أمير المؤمنين: أردت أن تتخذني سارقاً، أن آخذ أردت أن تتخذني سارقاً، أن آخذ أموال الناس فأعطيكها دونهم، قال: لآتين معاوية، قال: أنت وذاك، فأتى معاوية فسأله، فأعطاه مائة ألف»(١).

هكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين تبعا للمنهج الذي سار عليه النبي في الم تكن فيها محاباة لقريب ولا حرمان لبعيد، وإنما كان بعدها الانحراف المعاكس فكان الملك المسمى بالخليفة هو الذي يستأثر بالمال ويؤثر به من شاء ويحرم منه من يشاء، ويتخذه وسيلة لابتياع الضمائر وابتزاز الحقوق وسفك الدماء وإضاعة الحرم، فعظمت مصيبة الدين واشتدت غربة الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مُغَالَطَهُ الحقيقة بسَبّ الخليفة الشرعيّ ولَغَنِهِ على المنابر لتضليل عُقُول الناس:

بجانب هذه الحرب المسلحة التي شنها معاوية على الدولة الإسلامية

⁽۱) تاريخ دمشق، ج ۱۱، ص ۲۲، وينظر: مختصره، ج ٥، ص ٣١٢، وتاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ص ٢٠٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، والصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي، (ت: ٩٧٧هـ)، ج ٢، ص ٣٨٦، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركى، كامل محمد الخراط.

وخليفة الأمة _ الذي بايعته عن طواعية، وقدمته عليها ليؤمها في الحق وينهج بها سبيل الرشد _ شن حربا إعلامية على الخليفة الشرعي لتضليل عقول الناس، فقد سن لعن علي بن أبي طالب على المنابر، وجعله سنة ينشأ عليها الصغير ويموت عليها الكبير، وكان يدعو الصحابة رضي الله يتعالى عنهم إلى ذلك فضلا عن دهماء الناس، ف«عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدا، فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله في فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم»... إلى واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم»... إلى واحدة منهن أحب الي من على المدينة، يدعوك لتسب عليا على المنبر»(۱).

وقال ابن عبد ربه: «الشيباني، عن أبي الحباب الكندي، عن أبيه، أن معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس، إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيبا، فكان آخر كلامه أن لعن عليا، فأطرق الناس، وتكلم الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل ما قال آنفا، لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم، فاتق الله ودع عنك عليا، فقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله ما علمنا المبرز بسبقه، الطاهر خلقه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته، فقال له معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى، وأيم الله لتصعدن المنبر، فتلعننه طوعا أو كرها، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري فيه شفتاي أبدا، قال: قم فاصعد المنبر، قال الأحنف: أما والله له مع ذلك للأنصفنك في القول والفعل.

⁽۱) أخرجه مسلم (۱۲۰/۷ رقم ۱۳۷۳)، والترمذي (۱۳۸/۵ رقم ۳۷۲٤).

⁽۲) أخرجه ابن حبان (۳۱۸/۱۵ رقم ۲۹۲۵).

قال: وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتني؟ قال: أصعد المنبر، فأحمد الله بما هو أهله، وأصلي على نبيه على نبيه على أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا، وإن عليا ومعاوية اختلف فاقتتلا، وادعى كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله.

ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعنا كبيرا، أمنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفا ولو كان فيه ذهاب نفسي، فقال معاوية: إذا نعفيك يا أبا بحر، وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليا قد قطعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال: أفعل فأصعد، فصعد، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علي ابن أبي طالب، فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين أبا يزيد من لعنت بيني وبينه، قال: والله لا زدت حرفا، ولا نقصت آخر، والكلام إلى نية المتكلم». اهد(1).

وقال التميمي: «حدثني محمد بن علي بن الحسن، قال: حدثنا عبدالله بن محمد بن علي الدغشي، عن أبيه، عن خاله تميم بن مالك القرشي قال: كتب معاوية بن أبي سفيان إلى زياد، ابعث إلي خطباء أهل العراق وابعث إلي بصعصعة بن صوحان، فقدموا على معاوية، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قدمتم على إمامكم، وهو جنة لكم،

⁽۱) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٢٨ - ٢٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ)، ص١٣٥٠.

وقدمتم أرض المقدسة المحشر والمنشر، يعطيكم مسألتكم؛ ولا يتعاظم في كبير ولا يحقر لكم صغيرا، ثم قال: لو أن أبا سفيان ولد الناس لكانوا أكياسا، ثم قال: يا صعصعة، قم فاخطب، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ذكرت أنا قدمنا على إمامنا وهو جنة لنا، فكيف بالرعية إذا احترقت الجنة؟.. وذكرت أنا قدمنا أرض المقدسة وأن الأرض لا تقدس العباد، وإنما تقدسهم أعمالهم، وذكرت أنا قدمنا أرض المحشر والمنشر، ألا وإن المحشر والمنشر لا يضر بعدهما مؤمنا ولا ينفع قربهما كافرا، وذكرت أن أبا سفيان لو ولد الناس لكانوا أكياسا، فقد ولدهم من هو خير من أبي سفيان _ آدم _ فولد الأحمق والكيس، قال: اسكت لا أرض لك، قال: على الأرض ولدت، قال: اسكت، لا أم لك، قال: الأم ولدتنى، قال: اسكت، لا أب لك، قال: الأب ولدني، قال: أما والله لأحرمنك عطاءك، قال: إن رازقي حي لا يموت، قال: أما والله لأقتلنك، ثم لأكفننك، قال: ما يحل لك إن كنت مسلما أن تقتلني، ولا يحل لك إن كنت كافرا أن تكفنني، قال: انطلقوا به إلى العراق، فأمُروه أن يلعن عليا، وإلا فافعلوا به كذا، قال: فلما قدم به العراق، وجمع له الناس، صعد على المنبر، فقال: أيها الناس، إنى أتيتكم من عند رجل قدم خيره وأخر شره، أمرني أن ألعن عليا، فالعنوه لعنه الله، قال: فقيل لهم: ما سبَّ غيركم، فقيل له: اصعد المنبر الثانية، فقال: أيها الناس، إنهم قد أبوا على إلا لعن من لعن الله، ولعن على بن أبي طالب _ كرم الله وجهه ورضى عنه _، فسكرت داره، ومنع عطاؤه، فجمع له سبعون ألفا، فاشتكى صعصعة، فأوصى أن يرد إلى كل ذي حق حقه». اهـ $^{(1)}$.

⁽۱) المحن، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي، (ت: ٣٣٣هـ)، ٩٤٤م، ص ٣٠٠ - ٣٥١، دار العلوم، الرياض، السعودية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عمر سليمان العقيلي.

وقال الحاكم في المستدرك: «حدثنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرو من أصل كتابه، حدثنا أبو محمد عبيد بن قنفذ البزار، حدثنا يحيى بن عبدالحميد الحماني، حدثنا سفيان ابن عيينة، عن عبدالله بن طاوس، عن أبيه، قال: كان حجر بن قيس المدري من المختصين بخدمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في ، فقال له علي يوما: يا حجر، إنك تقام بعدي فتؤمر بلعني، فالعني ولا تبرأ مني، قال طاوس: فرأيت حجر المدري وقد أقامه أحمد بن إبراهيم خليفة بني أمية في الجامع، ووكل به ليلعن عليا، فالعنوه لعنه الله »(۱).

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: «قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة، عن أبي بكر الخطيب، أنا أبو نعيم أحمد بن عبدالله الحافظ، نا أبو حامد بن جبلة النيسابوري، نا أبو العباس السراج، حدثني محمد ابن مسعود، نا عبد الرزاق، أنا أبي، عن عبد الملك بن خشك، عن حجر المدري، قال: قال لي علي كيف بك إذا أمرت أن تلعنني؟ قلت: أوكائن ذلك؟ قال: نعم، قلت: فكيف أصنع؟ قال: العن ولا تتبرأ مني، فأقامه محمد بن يوسف إلى جنب المنبر يوم الجمعة، فقال له: العن عليا، فقال: إن الأمير محمد بن يوسف أمرني أنا ألعن عليا، العنوه، لعنه الله، قال: فلقد تفرق أهل المسجد وما فهمها إلا رجل واحد. رواها خلف بن سالم، عن عبد الرزاق، عن أبيه أنا حجر المدري، ولم يذكر عبد الملك بن خشك.

أنبأنا بها أبو غالب شجاع بن فارس الذهلي، أنا محمد بن علي العشاري، نا أبو القاسم عمر ابن ثابت بن القاسم، نا علي بن أحمد بن علي بن أبي قيس، نا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثني خلف ابن سالم عن

⁽١) المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٣٩٠.

عبد الرحمن، عن أبيه، أن حجر المدري قال: قال لي علي كيف بك إذا أمرت أن تلعنني، قلت: وكائن ذلك؟! قال: نعم، قلت: فكيف أصنع؟ قال: العن ولا تتبرأ مني، قال: فأمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا، فقال: إن الأمير أمرني أنا ألعن عليا محمد بن يوسف فالعنوه لعنه الله، قال: فعماها على أهل المسجد، قال: فما فطن لها إلا رجل واحد.

أخبرنا أبو البركات الأنماطي، أنا أبو الحسين بن الطيوري، أنا أبو الحسن العتيقي وأبو عبدالله السلماسي، وأنا أبو عبدالله البلخي، أنا أبو المعالي ثابت بن بندار، أنا أبو عبدالله السلماسي، قالا: أنا الوليد بن بكر، أنا علي بن أحمد الهاشمي، نا صالح بن أحمد بن عبدالله العجلي، حدثني أبي، قال: حجر المدري يماني تابعي ثقة، وكان من خيار التابعين، دعاه محمد بن يوسف وهو أمير اليمن، فقال: إن أخي الحجاج بن يوسف كتب إلي: أنا أقيمك للناس، فتلعن علي بن أبي طالب، فقال: اجمع لي الناس، فجمعهم، فقام فقال: ألا إن الأمير محمد بن يوسف أمرني بلعن على، فالعنوه، لعنه الله». اهد(۱).

⁽۱) تاريخ مدينة دمشق، ج٥٦، ص٠٣١- ٣١١، وينظر: معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، لأبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب، (ت: ٢٦١هـ)، ج١، ص٢٨٨ مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالعليم عبدالعظيم البستوي، والسلوك في طبقات العلماء والملوك، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي، (ت: قبل سنة ٢٣٧هـ)، ج١، ص١١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٥٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الحوالي، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، ولسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ت: ٨٥٧هـ)، ج٤، ص٢١١، مؤسسة الأعلمي =

فأنت ترى كيف كان معاوية وأتباعه يحملون الناس بالترغيب والترهيب على لعن علي الخليفة الشرعي، الذي خرج عليه معاوية باغيا وابتز منه السلطة بغير حق، وما ذلك إلا لأجل إدحاض الحق وقلب الموازين في عقول الناس، ليروا المحق مبطلا والمبطل محقا، وليتقبلوا الباطل ويرضخوا له، وفي هذا يقول الإمام السالمي كَثِلَتُهُ:

ألا أدلكم على أصلهم وقاتلوا في البغي مع معاوية سن لهم إمامهم لعن علي

أصلهم هم الذين ظلموا وشتموا أهل الهدى علانية في كل منبر وكل محفل(١).

وقد استمر على ذلك حكام بني أمية وعمالهم، وكانوا يحملون الناس على ذلك قسرا، فقد ذكر ابن سعد في ترجمة عطية بن سعد بن جنادة العوفي أنه خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فلما انهزم جيش ابن الأشعث هرب عطية إلى فارس، فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن ادع عطية، فإن لعن علي بن أبي طالب، وإلا فاضربه أربعمائة سوط، واحلق رأسه ولحيته، فدعاه فأقرأه كتاب الحجاج، فأبى عطية أن يفعل، فضربه أربعمائة وحلق رأسه ولحيته.

وشددوا على الناس حتى في الرواية عن علي، حرصا منهم على تناسي

⁼ للمطبوعات، بيروت، ٤٠٦ هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية، الهند، وزاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت: ٧٩٥هـ)، ج٥، ص٣٦٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الثالثة.

⁽۱) ينظر: مفتاح السعادة إلى صحيح العبادة، (أنوار العقول، مدارج الكمال، كشف الحقيقة)، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ص٢٠٠، السيب، محافظة مسقط، الطبعة الأولى.

⁽۲) الطبقات الكبرى، ج٦، ص٣٠٤، وينظر: المنتخب من ذيــل المذيل، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ص١٢٨.

اسمه، فكانت الرواية عنه تعد من الجرائم التي لا تغتفر، ودليل ذلك ما ذكره ابن رجب في (شرح علل الترمذي) في قوله: «وروى محمد بن موسى الحرشي، عن ثمامة بن عبيدة، ثنا عطية بن محارب، عن يونس، قال: سألت الحسن، قلت: «يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم تدركه؟». قال: «كل شيء سمعتني أقوله: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى الله عليه وعلى أنه وسلم، فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً». وكان في عمل الحجاج(۱).

وإنما قطع دابر هذه البدعة عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لما ولي الأمر، إذ منع من ذلك ولاته ورعيته، وكان ذلك من الإصلاح العظيم الذي قام به في عهده، قال اليعقوبي: «ونكث عمر أعمال أهل بيته، وسماها

⁽١) شرح علل الترمذي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقى، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، ج١، ص٥٣٨، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الدكتور همام عبدالرحيم سعيد، وينظر: تهذيب الكمال، ج٦، ص١٢٤، مغاني الأخيار، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، ج١، ص ٢١، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ج١، ص٤٠٢، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ج٢ ص٩٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن، الفتاوي الحديثية، أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي، (ت: ٩٧٣هـ)، ص١٢٦، دار الفكر، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، على بن برهان الدين الحلبي، (ت: ١٠٤٤هـ)، ج٢، ص٢٨٩، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، (ت: ١٣٣٢هـ)، ص١٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الطبعة: الأولى، تحفة الأحوذي، ج٤، ص٧١٥.

مظالم، وكتب إلى عماله جميعا: أما بعد؛ فإن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء، قلما قصدوا قصد الحق والرفق والإحسان، ومن أراد الحج فعجلوا عليه عطاءه حتى يتجهز منه، ولا تحدثوا حدثا في قطع وصلب حتى تؤامروني، وترك لعن على بن أبي طالب على المنبر»(۱).

ومع ذلك، فقد ظل الموالون للسلطات الأموية السابقة تغلى صدورهم حقدا على على ابن أبى طالب، فيجري على ألسنتهم من بذاءة القول في حقه ما هو شاهد على اعتقادهم فيه، ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» قال: «أخبرنا أبو القاسم بن السـمرقندي وأبو السعود أحمد ابن على بن محمد بن المجلى، قالا: أنا أبو محمد عبدالله بن محمد الصريفيني، أنا أبو القاسم الصيدلاني، نا علي بن محمد الكاتب، نا أبو الحسن على بن الحسين الطويل، حدثني أحمد بن محمد السكري، حدثنى ابن عمى أبو يحيى السكري، قال: دخلت مسجد دمشق فرأيت في مسجدها خلقا، فقلت: هذا بلد قد دخله جماعة من أصحاب رسول الله عليه وعليهم، وملت إلى حلقة في المسجد، في صدرها شيخ جالس، فجلست إليه فسأله رجل ممن بين يديه، فقال: يا أبا المهلب من على بن أبي طالب؟ قال: خناق كان بالعراق، اجتمعت إليه جميعة، فقصد أمير المؤمنين يحاربه، فينصره الله عليه، قال: فاستعظمت ذلك وقمت، فرأيت في جانب المسجد شيخا يصلى إلى سارية حسن السمت والصلاة والهيئة فقعدت إليه، فقلت له: يا شيخ أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلك الحلقة وقصصت عليه القصة، فقال لي: في هذا المسجد عجائب، بلغني أن بعضهم يطعن على

⁽۱) تاریخ الیعقوبی، أحمد بن أبی یعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الیعقوبی، (ت: ۲۹۲هـ)، ج۲، ص۳۰۵، دار صادر، بیروت.

أبي محمد حجاج ابن يوسف، فعلي بن أبي طالب من هو؟ $^{(1)}$.

وحسبك من هذا، أنهم يرونه لا يقارن في الفضل بطاغية ثقيف الحجاج بن يوسف، الذي سفك الدماء واستباح الحرم.

ومع تقادم العهد، بقي ابن تيمية - مع محاولته طي ما في نفسه عن الناس - تنفلت منه عبارات، تشي عما يعتمل بين حناياه من الحقد على أبي السبطين - كرم الله وجهه - حتى أنه شبهه بفرعون، حيث قال: «ثم يقال لهؤلاء الرافضة، لو قالت لكم النواصب: علي قد استحل دماء المسلمين وقاتله م بغير أمر الله ورسوله على رياسته، وقد قال النبي هذا «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وقال: «ولا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» فيكون علي كافرا لذلك، لم تكن حجتكم أقوى من حجتهم، لأن الأحاديث التي احتجوا بها صحيحة، وأيضا فيقولون: قتل النفوس فساد، فمن قتل النفوس على طاعته كان مريدا للعلو في الأرض والفساد، وهذا على خال فرعون، والله تعالى يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ على الأرض والفساد، وهذا العلو في الأرض والفساد، وهذا الأرض والفساد لم يكن من أهل السعادة في الآخرة» (۱).

وقال أيضا: «وأما الرافضي، فإذا قدح في معاوية الله بأنه كان باغيا ظالما قال له الناصبي: وعلى أيضا كان باغيا ظالما لما قاتل المسلمين على إمارته، وبدأهم بالقتال وصال عليهم، وسفك دماء الأمة بغير فائدة لهم، لا في دينهم ولا في دنياهم، وكان السيف في خلافته مسلولا على أهل الملة مكفوفا عن الكفار»(٣).

⁽۱) تاریخ دمشق، ج۱، ص۳٦٥.

⁽٢) منهاج السُّنَّة النبويّة، ج٤، ص٤٩٩ - ٥٠٠.

⁽٣) المرجع السابق، ج٤، ص٣٨٩.

وهو بهذا يتجاهل الفرق بين القتالين، فإن معاوية إنما كان يقاتل لأجل العلو في الأرض والفساد، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض، والاستبداد بالسلطة دون المسلمين، وجعلها ميراثا يورثه أعقابه الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكفى شاهدا على ذلك إكراهه خيار المهاجرين والأنصار على قبولهم استخلافه ليزيد ابنه، مع ما كان عليه من الانحراف والفساد، وما تبع هذا الاستخلاف من استباحة دماء المؤمنين، وانتهاك حرم والفساد، وهتك أعراض المؤمنات في حرم رسول الله على كما سيأتي إن شاء الله.

وأما علي، فكان قتاله امتثالاً لأمر الله سبحانه، الذي يأمر بقتال الفئة الباغية بنص صريح في قوله: ﴿ فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَنْهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَائِلُوا ٱلَّتِي تَبَغِى كَتَّ وَحْدَنْهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَائِلُوا ٱلَّتِي تَبَغِى حَقَّى تَفِي وَلَد علمت تواتر الروايات عن النبي عَلَيْ الفئة التي قتلت عمارا عَلَيْهُ، فشتان لعمر الله بين القتالين.

وقال أيضا: «فــلا رأي أعظم ذما من رأي أريق بــه دم ألوف مؤلفة من المســلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمســلمين لا فــي دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير عما كان، وزاد الشر على ما كان»(١).

وقال: «وعلي شه كان عاجزا عن قهر الظلمة من العسكرين، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعوان معاوية يوافقونه، وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب، فما حصل به إلا ضد المطلوب»(٢).

وقال: «إن الله قد أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودا، وهذا وعد منه صادق، ومعلوم أن الله قد جعل للصحابة مودة في قلب كل

⁽١) المرجع السابق، ج٦، ص١١٣.

⁽٢) المرجع السابق، ج٤، ص٣٨٣ - ٣٨٤.

مسلم، لا سيما الخلفاء الله لا سيما أبو بكر وعمر، فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهما وكانوا خير القرون، ولم يكن كذلك علي، فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه (۱).

وحكى عنه الحافظ ابن حجر أنه قال في علي: «إنه كان مخذولا حيث ما توجه، وإنه حاول الخلافة مرارا فلم ينلها، وإنما قاتل للرئاسة لا للديانة، وإنه كان يحب الرئاسة، وإن عثمان كان يحب المال، وإن أبا بكر أسلم شيخا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيا؛ والصبي لا يصح إسلامه على قول» (٢).

وحسبك من هذا، أنه كان يشكك في صحة إسلام علي، لأنه أسلم في صباه، وهو كلام لا ينبئ إلا عن مرض عضال في نفس قائله، والله المستعان.

استخلاف مُعَاوِية ليزيد على رغم المهاجرين والأنصار:

نزا معاوية على السلطة فابتزها _ بمكره وخداعه، وبشنه حربا باغية _ ممن هو أحق بها وأهلها، على أن الأمة كانت إبان حكمه لا يزال فيها عدد كبير من المهاجرين والأنصار، الذين كانت لهم سابقة نصرة الدين ورفع مناره، والجهاد من أجل توطيده وتعميم هدايته، وتذليل العقبات التي تعترضه، وهم بلا ريب كانوا أحق بهذا الأمر وأولى، فعن عمر بن الخطاب على قال: «هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل

⁽١) المرجع السابق، ج٧، ص١٣٦ - ١٣٧.

⁽۲) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، (ت: ٨٥٨هـ/ ١٤٤٩م)، ج١، ص ١٨١، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبدالمعيد ضان.

أحد ما بقي منهم أحد، وفي كذا وكذا، وليس فيها لطليق، ولا لولد طليق، ولا لمسلمة الفتح شيء»(١).

وقد كانت مقولة عمر هذه أمام جمهرة من المهاجرين والأنصار، ولم ينكر عليه أحد، فكان ذلك إجماعا منهم على رأيه، ولكن الواقع آل إلى خلاف ما رأوا، فابتز الأمر الطلقاء، وورَّثوه من بعدهم لأعقابهم، ولا يخفى أن نية التوريث كانت راسخة في نفس معاوية، وإن واراها عن الناس إلى حين مواتاة الفرصة لإظهارها وفرضها عليهم، وإن صح ما ذكر من أن المغيرة بن شعبة تقدم إلى معاوية بهذا الاقتراح، تزلفا إليه عندما علم أن من نية معاوية أن يعزله عن الكوفة ويولي مكانه سعيد ابن العاص، فإن ذلك لا يعدو أن يكون فتحا لباب كان معاوية يتحين فتحه، فلم يلبث أن أظهر ما كان مكنونا في نفسه، فطرح فكرة استخلاف ابنه يزيد، وفرضها بالإرهاب والقوة على المهاجرين الذين رفضوها وقاوموها، ولكن لم يلق لمعارضتهم بالا، بل أسكت ألسنتهم بإشهار السيف في وجوههم لقطعها إن لم تخرس، بل لحز رقابهم ونهب حياتهم، فقد كتب معاوية إلى مروان أن يبايع ليزيد ابسن معاوية، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: «جئتم بها هرقلية وفوقية، يبايعون لأبنائكم!»(۱).

⁽۱) الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٢، تاريخ دمشق، ج٥٥، ص١٤٥، أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، (ت: ٦٣٠هـ)، ج٥، ص٢٢٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، فتح الباري، ج١٣٠، ص٢٠٧.

⁽۲) تاريخ مدينة دمشق، ج ۳٥ ص ٣٥، وينظر: مختصره ج ٤، ص ٤٨٤، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، (ت: ٤٢٧هـ)، ١٠٣٥م، ج ٩، ص ١٠٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم =

وذكر أنه رد عليه بقوله: «كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخير أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل»(۱).

وقال عبدالله بن نافع بن ثابت: «قام مروان على المنبر، فدعا إلى بيعة يزيد، فكلمه الحسين ابن علي وعبدالله بن الزبير بكلام، موضعه غير هذا، وقال له عبدالرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟ إذا مات كسرى كان كسرى مكانه، لا نفعل والله أبداً»(٢).

واحتج عليه بإباء الخلفاء الراشدين أن يستخلفوا أولادهم قائلا: «ما لأبى بكر لم يستخلفنى؟ وما لعمر لم يستخلف عبدالله؟!»(٣).

⁼ محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت: ٥٣٨هـ)، ج٤، ص٣٠٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، (ت: ٤٠٦هـ)، ج٢٨، ص٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (ت: ٢٠٦هـ)، ج٥، ص٢٥٩، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٩٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٣ ص٢٨٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢١، ص١٩٩، تفسير النسفي، النسفي، (ت: ١٧هـ)، ج٤، ص١٣٩، الإجابة لإيراد ما المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩ههـ/١٩٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩ههـ/١٩٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: سعيد الأفغاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج٣، ص٤٧٤.

⁽۱) الكامــل في التاريخ، أبو الحســن علي بن أبــي الكرم محمد بن محمد بــن عبدالكريم الشــيباني، (ت: ٦٣٠هـ)، ج٣، ص ٣٥١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: عبدالله القاضي.

⁽۲) مختصر تاریخ دمشق، ج٤، ص٤٨٤.

⁽٣) المصدر السابق، ج٤، ص٤٨٥.

واحتج بهذا أيضا عبدالله بن عمر رضي قائلا: «إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي»(١).

ولكن معاوية لم يلتفت إلى هذه المعارضة ولم يلق لها بالا، بل كان مصمما على تنفيذ ما أراده من توريث ولده أمر الأمة وهي له كارهة، بل عمد إلى القوة والبطش لتحقيق ما يهواه من ذلك.

وذكر ابن كثير أنه امتنع عن موافقة معاوية: «عبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، والحسين بن على، وعبدالله بن الزبير، وابن عباس، فركب معاوية إلى مكة معتمرا، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة، فأوعده وتهدده بانفراده، فكان من أشدهم عليه ردا وأجلدهم في الكلام عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان ألينهم كلاما عبدالله بن عمر ابن الخطاب، ثم خطب معاوية، وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد، وهم قعود ولم يوافقوا، ولم يظهروا خلافا لما تهددهم وتوعدهم»(۱).

وأنت ترى أن هذه البيعة أخذت عنوة تحت طائلة البطش ممن بقي من صحابة رسول الله وهم كارهون لها، فكيف تكون بيعة مشروعة مع أنه أمر يرتبط به مصير أمة محمد الله الذين وقد علمت من هدي السلف الذين بايعوا الخلفاء الراشدين أنهم لا يختارون لهذا الأمر إلا من كان أورعهم وأنقاهم وأتقاهم، والعقود لا تثبت بالإكراه، فكيف يثبت به عقد يناط به أمر الأمة بأسرها، بل يغدو مرهونا به دينها ودنياها؟!.

⁽۱) الإمامة والسياسة، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، (ت: ٢٧٦هـ)، ج٤، ص٤٨٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: خليل المنصور.

 $^{(\}Upsilon)$ البدایة والنهایة، ج Λ ، ص Ψ

وقد صور الأستاذ عبدالكريم محمد مطيع الحمداوي هذا الواقع المرير، الذي انقلبت به حياة الأمة إلى عهد مظلم موحش في تقديمه له: (تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك) فقال: «تربع معاوية على أريكة الملك الذي أسموه خلافة، وتخلص من مناوئيه بالسيف تارة، وبالرشوة أخرى؛ وشفى غيظ قومه باضطهاد آل البيت، وتسميم أعيانهم، ولعنهم على المنابر. ثم جمع الأتباع على بيعة ولده الفاسق (يزيد)، وأكره كرام الصحابة على ذلك تحت بارقة السيف؛ بل حتى عبدالله بن عمر الله الذي بايعه وبايع يزيد، قتله الحجاج بن يوسف غيلة بأخس ما تتفتق عنه ذهنية شيطان. وخلف معاوية ولده يزيد، فشرب الخمر وجاهر بالفاحشة، وواصل قتل وخلف معاوية ولده يزيد، فشرب الخمر وجاهر بالفاحشة، وواصل قتل أل البيت واضطهاد الصحابة، واستباحة الحرمين الشريفين ـ مكة والمدينة وما زالت تعيث فيها إلى عصرنا الحاضر، وفيما يستقبل إن لم يتداركنا الله وما زالت تعيث فيها إلى عصرنا الحاضر، وفيما يستقبل إن لم يتداركنا الله بالرشد، ويهدنا للعودة إلى نبع القرآن الكريم»(۱).

على أن هذه المعارضة لم تتوقف بوقوع هذه البيعة الإكراهية في عهد معاوية لابنه يزيد وإنما تجددت بموته، كما تجددت مظاهر البطش الذي أخذ به الناس ليوطئوا أكنافهم، فقد كتب يزيد إلى عامله بالمدينة الوليد بن عقبة في صحيفة كأنها أذن الفأرة: «أما بعد، فخذ حسينا وعبدالله بن عمر وعبدالله بسن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام»(٢).

وقد استشار الوليد في ذلك مروان فقال: «أرى أن تدعوهم قبل أن

⁽۱) تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبدالواحد ابن عبدالمنعم الطرسوسي، نجم الدين، (ت: ٧٥٨هـ)، ص٥.

⁽٢) البداية والنهاية، ج٨، ص١٤٥ - ١٤٦.

يعلموا بموت معاوية إلى البيعة، فإن أبوا ضربت أعناقهم $^{(1)}$.

وهكذا كانت هذه البيعة لا تقوم إلا بضرب الأعناق وسفك الدماء، إذ لم تبق في موازينهم قيمة للإنسانية، أو وزن لدماء أصحاب رسول الله وانفسهم، في سبيل تحقيق التسلط في الأرض والعلو فيها، ومع هذا البطش الشديد فإن من هؤلاء من تخلص من هذه البيعة بالاحتيال حتى تسنى له أن يعلن الثورة على الطاغية الجديد، كما كان من حسين سبط رسول الله الذي اتجه نحو العراق التي دعته إليها لنصرته ثم خذلته، فتمكن منه جند الطاغية، فحملوا إليه رأسه وقد أبين عن جسده، كما هي العادة في شفاء نفوس الطغاة.

وكذلك ابن الزبير، فقد أبى بيعة يزيد وثار عليه، فاستقل بمكة المكرمة وما دخل في حكمه من الأقطار والبلدان.

وثارت المدينة المنورة بمن فيها من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان على هذا الطاغية الجديد بقيادة عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، فما كان منه إلا أن جرد حملة من الوحوش الضارية بقيادة مسلم بن عقبة، الذي عرف من بعد بمسرف بن عقبة لعظم جرائمه التي ارتكبها في حرم رسول الله بإيعاز من يزيد الطاغية نفسه! فاستباح المدينة ثلاثة أيام، وأطلق لجيشه العنان في انتهاك الحرم، حتى بلغ عدد العذارى اللائي رزئن في عفتهن ألف عذراء! وقد روى ذلك البيهقي بإسناده حيث قال: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبدالله بن جعفر، حدثنا يعقوب ابن سفيان، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير عن مغيرة، قال: أنهب

⁽¹⁾ المرجع السابق، ج Λ ، ω

مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء(١).

وقد دون المؤرخون هذه الفظائع التي ارتكبها هذا الجيش المجرم بمدينة رسول الله هي وذكروا استعظام أصحاب رسول الله هي، لهذا العمل الموحش، وكان مما ذكره العاصمي في ذلك ما نصه: «وأما جابر بن عبدالله الأنصاري فخرج في ذلك اليوم يطوف في أزقة المدينة، وهو أعمى، والبيوت تنتهب، وهو يعثر في القتلى، ويقول: تعس من أخاف رسول الله، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: «من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي» فحملوا عليه ليقتلوه فأخذه منهم مروان بن الحكم وأدخله بيته، وقتل في ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة رجل، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، ونهبوا وأفسدوا واستحلوا الحرم وعطلت الصلوات في مسجده، ولم يبق في المسجد إلا سعيد بن المسيب، جعل نفسه ولهانا خبلا

⁽۱) دلائل النبوة، للبيهقي، (ت: ٤٥٨هـ)، ج٦، ص ٤٧٥، وينظر: مختصر تاريخ دمشـق، ج٧، ص ٢٨٣، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٣٣٣، تاريخ الإسلام، ج٥، ص ٢٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسـن يوسـف بن تغري بردى الأتابكي، (ت: ٤٧٨هـ)، ج١، ص ٢٦، وزارة الثقافة والإرشـاد القومـي، مصر، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الامام السخاوي، (ت: ٩٩٠هـ)، ج١، ص ٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي، (ت: ١٩هـ)، ج٢، ص ٤٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٤٥هـم، تاريخ الخلفـاء، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ١٩٩٨م)، ص ١٤٠٠مممية السيوطي، (ت: ١٩٩٨مم، العالمية، بيروت، ١٩٥٠هم، علي بن برهان الدين الحلبي، الدين عبدالحميد، السيرة الحابية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحابي، (ت: ١٩٩٨هم)، ج١، ص ٢٠٠، دار المعرفة، بيروت، ١٩٤٠هم، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي، (ت: ١١١١هم)، ج٣، ص ٢٠٠، دار الكتب العلمية، بيـروت، ١٤١٩هـم، ١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، على محمد معوض.

فتركوه، وكان يقول: كنت أسمع عند مواقيت الصلاة همهمة من الحجرة المطهرة، وافتض فيها ألف عندراء، وإن مفتضها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم فلم يجد، ففتح مصحفا قريبا منه، ثم أخذ من أوراقه ورقة فتمسح بها، نعوذ بالله، ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه.

ومن ذلك، أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من أهل الشام وهي ترضع ولدها وقد أخذ ما كان عندها، قال لها: هاتي الذهب، وإلا قتلتك وقتلت ابنك. فقالت: ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله، وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله، وما خنت الله في شيء بايعت رسوله عليه فأخذ الصبي من حجرها وثديها في فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض، والمرأة تقول: لو كان عندي شيء أفديك به يا ابني لفديتك، قال: فما خرج من البيت حتى اسود نصف وجهه، وصار مثلة في الناس»(۱).

ليت شعري؛ ما الذي أبقاه هؤلاء من الحرم لم ينتهكوه، فقد انتهكوا حرمة مسجد رسول الله بارتكابهم الجرائم العظام بين جنباته، وانتهكوا سائر حرمه بسفكهم الدماء، وإزهاقهم الأرواح، وانتزاعهم النساء ـ لا سيما العذارى ـ من بين أهلهن، وترويعهم الساكنين فيه، وانتهكوا حرمة القرآن الكريم إذ دنسوا المصاحف بمسحهم آثار جرائمهم بأوراقها التي كتبت عليها آياته تعالى، وانتهكوا حرمة الدين إذ ضربوا بتعاليمه عرض الحائط وداسوها بأقدامهم، وانتهكوا حرمة الإنسانية التي عظمها الله في كتابه حيث قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَتِهِيلَ أَنَّهُ, مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ فَكَانُهَا قَتَلَ النّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٢٣]، فكيف بقتل هذه الألوف من خيار أهل الأرض، وانتهكوا حرمة خير أمة فكيف بقتل هذه الألوف من خيار أهل الأرض، وانتهكوا حرمة خير أمة

⁽١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٣، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

أخرجت للناس بإبادة خيارها وقتل معنوياتها وتمريغ وجهها في أوحال الذل والهوان؟!!.

ومع هذا كله، فقد فرض الأحمق المغرور المتسلط مسرف بن عقبة على أهل المدينة العبودية المطلقة ليزيد الطاغية، حيث طلبهم أن يبايعوه على أن يكونوا له عبيدا أرقاء!!.

قال الزبيري: «وكان مسلم بن عقبة، بعد ما أوقع بأهل المدينة يوم الحرة في إمرة يزيد ابن معاوية، وأنهبها ثلاثاً، أتى بقوم من أهل المدينة؛ فكان أول من قدم إليه محمد بن أبي جهم، فقال له: «تبايع أمير المؤمنين يزيد على أنك عبد قن فإن شاء أعتقك، وإن شاء استرقك»، قال محمد: «بل، أبايع على أنى ابن عم كريم حر»، فقال: «اضربوا عنقه»؛ فقتل، ثم قدم إليه يزيد بن عبدالله بن زمعة، فقال له مثل ذلك؛ فأجابه مثل جواب محمد فقدمه، فقتله، ثم قدم إليه سعيد بن المسيب، فقال له: «بايع أمير المؤمنين على أنك عبد قن فإن شاء أعتقك، وإن شاء استرقك»، قال سعيد: «لا أبايع عبداً ولا حراً «فقال مسلم للذين أتيا به: مجنون والله!؛ فخنقاه حتى ثقل في فتقدم إليه مروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان؛ فشهدا أنه مجنون، فقال: «قد ظننت ذلك، أرسلاه» فانصرف راجعاً إلى المدينة؛ فلحقه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا له: «الحمد لله الذي سلمك يا أبا محمد»، فقال: «اذهبا إليكما عني، أتشهدان بالزور وأنا أسمع، وتنفسان عليَّ الشهادة؟ والله $(1)_{N}^{(1)}$ لا أكلمكما أبداً

⁽۱) نسب قريش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري، (ت: ٢٣٦هـ)، ج١٠، ص ٢٧١، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال، وينظر: المنمق في أخبار قريش، محمد بن حبيب البغدادي، (ت: ٢٤٥هـ)، ص ٣١٦، عالم الكتب، بيروت، لبنان، =

فانظر كيف أخذت البيعة من أهل مدينة رسول الله على للطاغية _ على يدي قائد جنده الذي أوعز إليه أن يستبيح حرم رسول الله على أنهم أرقاؤه، يتصرف فيهم تصرف المالك في رقيقه، وهل هذا إلا دليل على أن هذه الدولة قامت باستعباد العباد ونقل عبوديتهم عن كونها لله ولى خالصة، لتصبح عبوديتهم لطائفة من البشر تتحكم فيهم كما يملي عليها هواها، فأين هذا من مقولة عمر على: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟!.

وأين هذه البيعة من بيعة الخلفاء الراشدين التي كانت على كتاب الله وسنة رسول ، فقد كان ذكر الكتاب العزيز والسنة الطاهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وإرادة البيعة وفق مقتضاهما عند هؤلاء جريمة يعاقب عليها بالقتل، فعندما أراد يزيد بن عبدالله بن زمعة بن الأسود - ابن ربيبة رسول الله على بنت أم سلمة - أن يبايع على كتاب الله وسنة رسوله المما أمر الطاغية بضرب عنقه (۱).

ولا عجب، إذ كيف يقرون البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ، وهم إنما قاموا من أجل حربهما وطمس معالمهما، بل بلغ الأمر بالقائد الطاغية أن ينتهك أعظم حرمة من حرمات الله في حرم رسوله على حول ضريحه الطاهر المطهر، ويمسح أثر الدم الذي خلفه الانتهاك بأوراق من المصحف الشريف، فكيف يتصور بعد ذلك أن يقروا بيعة أساسها كتاب الله وسنة رسوله على ؟!..

⁼ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خورشيد أحمد فارق، جمهرة نسب قريش وأخبارها، الزبير بن بكار بن عبدالله (ت: ٢٥٦هـ)، ص٩٧، أنساب الأشراف، ج٢، ص١٩٥، تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٢٥١، جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: ٤٥٦هـ)، ج١، ص١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة، تاريخ دمشق، ج٥٤، ص١٨٢.

⁽١) أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٨٧ - ٢٨٨.

ولم يخف الطاغية الأكبر يزيد ما كان يعتمل بين حنايا قلبه من الفرحة والابتهاج والسرور بشفاء غيظه مما أصاب بقايا المهاجرين والأنصار من هذه الحملة الوحشية، إذ عد ذلك من الأخذ بالثأر منهم، نتيجة ما فعلوه مع رسول الله على بأجداده الكفرة الطغاة في يوم بدر، فقد أعرب عن بهجته هذه بإنشاده قصيدة ابن الزبعرى التي يقول فيها:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل(١١)

ويقال بأن إنشادها كان عندما وضعت بين يديه الرؤوس التي حزها قائده المسرف بالمدينة المنورة وبعثها إليه (٢).

وأنشدها أيضا عندما جيء برأس سبط رسول الله ﷺ، فكان يعبث بثناياه بقضيب في يده وينشد هذه القصيدة إعجابا وغرورا^(٣).

⁽۱) المرجع السابق، ج٢، ص١٩٦، وينظر: تاريخ الطبري، ج٥، ص٣٦٣، العقد الفريد، ج٤، ص٣٦٥، وج٥، ص١٧، الأخبار الطوال، ج١، ص٣٩٥، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر الانصاري التلمساني المعروف بالبري (ت: ٤٦٤هـ)، ص٢٩، غرر الخصائص الواضحة، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (ت: ٨١٨هـ)، ج١، ص٨١٨، نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، (ت: ٣٧٧هـ)، ج٠٢، ص٠١٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤٦٤١هـ/٤٠٠٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، (ت: ١٩٨٩هـ)، ج١، ص٣٩، دار بن كثير، دمشق، ٢٠٤١هـ، الطبعة: ط١، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، (ت: ١٣١٥هـ)، ج٢، ص٣٩ دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/١٩ مـ١٤٩٩، تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري.

⁽٢) العقد الفريد، ج٤، ص٣٦٥، غرر الخصائص الواضحة، ص١٨٨.

⁽٣) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصفهاني، علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ) ص٣٤، نثر الدر في المحاضرات، ج٤، ص١٧، البدء والتاريخ، وهو المطهر بن طاهر المقدسي، =

وقد خرج القائد المسرف من مدينة رسول الله على بهجا مسرورا بما فعله بأهلها وارتكبه في حرمها، وتوجه إلى مكة المكرمة ليعيد الكرة فيها بجرائمه المنكرة ووحشيته الضارية وهو يتميز غيظا عليها وعلى أهلها، إلا أنه هلك بالمشلل، وتبعه من بعد يزيد، عاملهما الله بما يستحقان.

هذه هي سيرة يزيد الذي اختاره معاوية ليخلفه في أمر الأمة، فيا ترى هل يبرأ معاوية من تبعة أفعال يزيد؟ مع أنه تربى على هذه الخطة بإرغام عينه، فخبر طواياه واكتشف خباياه، وقد كان إقدامه على هذه الخطة بإرغام بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وقد علمت أنهم كانوا معترضين عليه فلم يلق لهم بالا، وإنما هددهم بالقتل والإبادة إن لم يخضعوا ويستكينوا، ولنسمع إلى ما ذكره شيخ المفسرين والمؤرخين ابن جرير الطبري، نقلا من الكتاب الذي أمر المعتضد العباسي بنشره في معاوية وجرائره، ابتداء من انتزاعه الخلافة ممن هو أتقى وأنقى وأبر وأكرم وأعلم وأحلم، وتحويلها إلى ملك عضوض، ومنها أخذه البيعة ليزيد قسرا، وهاك بعضا مما تضمنه بنصه:

«ثم مما أوجب الله له اللعنة قتله من قتل صبرا من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة، مثل عمرو بن الحمق وحجر بن عدي، فيمن قتل من أمثالهم في أن تكون له العزة والملك والغلبة، ولله العزة

ت (ت: ۷۰ هـ)، ج٦، ص١٦، مكتبة الثقافة الدينية _ بورسـعيد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمـم، عبدالرحمن بـن علي بن محمد بن الجـوزي أبو الفـرج، (ت: ٩٥ هـ)، ج٥، ص٣٤٣، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، الطبعة: الأولى، التذكرة الحمدونية، ابن حمدون محمد بن الحسـن بن محمد بن علي، (ت: ١٠٠٨هـ)، ج٦، ص٢٦٦، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحسـان عباس، بكر عباس، الجوهرة في نسـب النبي وأصحابه العشـرة، محمد بن أبـي بكر الانصاري التلمسـاني المعـروف بالبري (ت: ٤٦٤هـ)، ج١، ص٢٩١، البداية والنهاية، ج٨، ص١٩٢٠.

والملك والقدرة والله عَلَى يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلُ مُؤُمِنَا مُتَعَمِّدًا فَكَ وَمَن يَقْتُلُ مُؤُمِنَا مُتَعَمِّدًا فَكَ وَعَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ، عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله ادعاؤه زياد بن سمية جرأة على الله، والله يقول: ﴿ اَدْعُوهُمْ لِأَبَابِهِمْ هُو أَقْسَطُ عِندَ اللهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، ورسول الله ﷺ، يقول: «ملعون من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه»(۱)، ويقول: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»(۱) فخالف حكم الله ﷺ وسنة نبيه ﷺ جهارا، وجعل الولد لغير الفراش والعاهر لا يضره عهره، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وفي غيرها من سفور وجوه ما قد حرمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله وله ينل الدين تبديل شبهه.

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبر الخمير صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذه البيعة له على خيار المسلمين

⁽۱) أخرجه الطبراني (۱۹۱/۵، رقم ۵۰۵۷)، وأحمد (۱۸٦/٤، رقم ۱۷٦۹۹).

⁽۲) أخرجه من طريق عائشة الربيع (ص۲٤٠ رقم ٢٠٩)، والبخاري (٢٢٤/١، رقم ١٩٤٨)، ومسلم (٢٠٨٠/١، رقم ١٤٥٧)، وأبو داود (٢٨٢/٢، رقم ٢٨٢/٢)، والنسائي (٢٨٠/١، رقم ١٤٥٤)، وابن ماجه (١٤٥١، رقم ١٠٠٤)، ومن طريق أبي هريرة أخرجه البخاري (قم ١٤٥٨، رقم ١٤٥٨)، والترمذي (٣٤٨٤، رقم ١١٥٨)، والترمذي (٣٤٨٤، رقم ١١٥٨)، والترمذي (٣٤٨٢، رقم ١١٥٧)، وابن ماجه (١١٥٧، رقم ١١٥٧)، وابن ماجه (١١٧٧، رقم ٢٠٠١)، حديث عمر أخرجه أحمد (١٥٠١، رقم ١٢٥٧، وأبو يعلى (١٧٧١، رقم ١٩٩١). ومن طريق أبي أمامة أخرجه ابن ماجه (١٧٤١، رقم ١٢٠٧)، ومن طريق واثلة أخرجه الطبراني (١٢٠٢، رقم ١٢٠١)، وابن عساكر (٣٢/٢٧) ومن طريق ابن حذافة أخرجه الحاكم (٣١١٠)، رقم ١٦٠١)، ومن طريق ابن عباس أخرجه الطبراني (١١٥٣/١، رقم ١١٥٠)، ومن طريق ابن عباس أخرجه الطبراني (١١٥٣)، رقم ١١٤٣)، ومن طريق ابن

بالقهر والسطوة والتوعد والإخافة والتهدد والرهبة، وهو يعلم سفهه ويطلع على خبثه ورهقه ويعاين سكرانه وفجوره وكفره، فلما تمكن مما مكنه منه ووطأه له وعصى الله ورسوله فيه طلب بثأرات المشركين وطوائلهم عند المسلمين؛ فأوقع بأهل الحرة الوقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش مما ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك حقد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله وبلغ النوى لأعداء الله، فقال مجاهرا بكفره ومظهرا لشركه:

ليت أشياخي ببدر شهدو h قد قتلنا القوم من ساداتكم فأهلوا واستهلوا فرحا لست من خندف إن لم أنتقم ولعت هاشم بالملك فلا

جزع الخزرج من وقع الأسل وعدلنا ميل بدر فاعتدل شم قالوا يا يزيد لا تسل من بني أحمد ما كان فعل خبر جاء ولا وحي نزل

هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله... إلخ»(١).

هذا؛ ونجد من أئمة التابعين من يسجل على معاوية أربع قضايا يعد كل واحدة منهن مهلكة، فضلا عن اجتماعها، فعن الحسن البصري أنه قال: «أربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، وهي: أخذه الخلافة بالسيف من غير مشاورة، وفي الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه ابنه يزيد، وكان سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير. وادعاؤه زياداً أخاً، وقد قال رسول الله على: «الولد للفراش وللعاهر

⁽۱) تاریخ الطبري، ج۵، ص۱۲۲ – ۱۲۳.

الحجر»(۱). وقتله حجر بن عديٍّ وأصحابه، فيا ويلًا له من حجر وأصحاب حجر»(۲).

تحول الحكم في بني أمية من آل أبي سفيان إلى آل مروان:

لم يمهل الله تعالى يزيد بعد هذه الجرائم كما لم يمهل قائده مسرف بن عقبة، إذ أخذهما أخذ عزيز مقتدر، ولم يكن بين هلاكهما زمن مديد، وبهلاك يزيد كاد عهد بني أمية ينطوي وينتقل الحكم إلى غيرهم، وقد دان كثير من الأقطار لابن الزبير، كما استعرت شرارة الثورة في أقطار أخرى، إذ الناس كانوا متبرمين من الظلم الذي حاق بهم والخسف الذي أخذوا به، ولكن كان من أسباب فشل هذه الثورات أنها لم تنتظم في جبهة واحدة، وراء قيادة لا تبتغي إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين وإقامة شريعة الله وبسط عدله بين عباده، فقد تعددت النزعات وتباينت الاتجاهات، فسادت فوضى ثورية، أدت إلى أن يكشر الباطل من جديد عن أنيابه العصل؛ فيقضم الأمة وحقوقها، متمثلا في حكم مروان وذريته التي لم تكن أقل ضراوة ولا ألين عريكة من يزيد وبطشه، حاشا عمر بن عبدالعزيز هي، الذي خرج عن هذا النظام فعاد إلى نهج

⁽١) سبق تخريجه.

⁽۲) تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٣٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ص٢٤٣، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٣٧، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٤، المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٢٧٣هـ)، ج١، ص١٢٩، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٠، ص٢١٣، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ص١٤١، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، (ت: ٩٣٠هـ)، ج٢، ص١٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد نبيل طريفي/اميل بديع البعقوب.

الخلافة الراشدة، واحتذى في حكمه النهج الراشد الذي كان عليه من قبل جد أمه المصونة عمر بن الخطاب في، فكان أمة وحده ونسيجا لا يلتقي مع بني أمية في سدى ولا لحمة، إذ كان العرق العمري هو الذي غلب على طبعه؛ فصنع منه فاروقا ثانيا، ما كان له هم إلا أن يحيي ما أميت من سيرة الفاروق السابق، كما قال رسول آل مروان إليه في رده على آل مروان.

«يا معشر بني أمية عمدتم إلى صاحبكم فزوجتموه بنت ابن عمر، فجاءتكم بعمر ملفوفا في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم»(١).

أما سائر الحكام من هذه الأسرة، فما كانوا إلا امتدادا لبني عمهم من الأسرة السفيانية التي حولت الخلافة إلى ملك عضوض، وأذاقت أمة محمد على ما لم تذقه من الأكاسرة أو القياصرة من أنواع الذل وصنوف الهوان.

وكان أول من تسنم مطاها منهم مروان بن الحكم، ابن طريد رسول الله هي، ولم يلبث أن عهد بها من بعده إلى ابنه عبدالملك، الذي تلقفها ليعلن عهدا جديدا ليس له من هم إلا امتصاص دماء الأمة ونهب ثرواتها وسلب حرياتها، ليكون الناس له ولأولاده خولا، وأموالهم لهم دولا، فقد أعلن للناس بمدينة الرسول في أن سياسة المداجاة التي عهدوها في معاوية لن يبقى لها أشر، وأنه لن يتخذ سياسة لتوطيد ملكه إلا القمع والإبادة وإشاعة الرعب بين الجميع، فقد قال في خطابه: «أما بعد؛ فإني لست بالخليفة المستضعف _ يعني عثمان _، ولا بالخليفة المداهن _ يعني معاوية _، ولا بالخليفة المأفون _ يعني يزيد _، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة معاوية _، ولا بالخليفة المأفون _ يعني يزيد _، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة

⁽۱) سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، (ت: رمضان، ٢١٤هـ)، ص٥٠ عالم الكتب، بيروت، لبنان، ٢٠٤هـ/١٤هـ، الطبعة: السادسة، تحقيق: أحمد عبيد.

إلا بالسيف، حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه، ثم نزل»(١).

ومعنى ذلك الإعلان بأن دولته لا مكان لتقوى الله فيها، وإلا ما كان ليأنف أن يؤمر بالتقوى، أين هذا الاستكبار والعلو من تواضع الفاروق في قبوله لكلمة الحق، حيث قال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوا لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمع منكم، رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه»(٢).

⁽۱) الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٥٠، وينظر: تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر، (ت: ٢٤٠هـ)، ص٢٧٣، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، البيان والتبيين، الجاحظ، (ت: ٢٥٥هـ)، ص٣٤٤، العثلاث دار صعب، بيروت، تحقيق: فوزي عطوي، أنساب الأشراف، ج٢، ص٨٨، الأوائل ص٣٤٤، العقد الفريد، ج٤، ص٨٨، وص٣٧٥، أحكام القرآن، ج١، ص٨٨، الأوائل للعسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٩٥ههـ)، ص٢٧، البصائر والذخائر، ج٧، ص٧٤، نشر الدرر، ج٣، ص٣٣، تاريج دمشق، ج٧٣، ص١٥، ومختصره، ج٥، ص٨٨، وشرح نهج البلاغة، ج٦، ص١١، وتاريخ الإسلام، ج٥، ص٥٨، الوافي بالوفيات، ج٩١، ص١٤، فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، (ت: ٤٢٧هـ)، ج٢، ص٥٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: على محمد بن يعوض الله، عادل أحمد عبدالموجود، والبداية والنهاية، ج٩، ص٤٢، وتاريخ الخلفاء، ص٢١٨، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٨، ح٨٠

⁽۲) أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، (ت: ٤٩٠هـ)، ج١، ص٧٠٧، دار المعرفة، بيروت، وينظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري، (ت: ٧٧٠هـ)، ج٣ ص٣٤٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر، التقرير والتحرير في علم الأصول، ابن أمير الحاج، (ت: ٩٧٩هـ)، ج٣، ص١٣٧، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، وتيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه، (ت: ٩٧٢هـ)،

وهي سيرة جميع الخلفاء الراشدين، الذين كانوا أطوع للحق وأشوق إلى أن يؤمروا به ويوجهوا إليه، وإنما هذه نعرة أهل الجهل والحمية الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتُهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَكَسَبُهُ، جَهَنَّمُ وَلِبَلْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، على أنه لم يقتصر على إبائه قبول الأمر بالتقوى، وإنما كان جزاء قائلها قتله، ليلجم الأفواه عن قولة الحق، كما قال أبو بكر الرازي عنه: «ولم يكن في العرب ولا آل مروان أظلم ولا أكفر ولا أفجر من عبدالملك، ولم يكن في عماله أكفر ولا أظلم ولا أفجر من عبدالملك أول من قطع ألسنة الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١).

وقد تحمل عماله تبعة ترسيخ طاعته في النفوس وتقديمها على طاعة الله، ولو اقتضت هتك أعظم حرمات الله تعالى، فقد قال البلاذري: «أبو عاصم النبيل عن عمر بن قيس انه سمع خالداً وابن عبدالله القسري ويقول حين أخذ سعيد بن جبير وطلق بن حبيب بمكة: كأنكم أنكرتم ما صنعت، والله لو كتب إلى أمير المؤمنين أن أنقضها حجراً حجراً لفعلت ويعني الكعبة وين.

وحسبك من هذا أن هؤلاء اجترأوا على حُرَم الله، التي ما كان أهل

ج۳، ص۲٤۸، دار الفكر، بيروت.

⁽۱) أحكام القرآن، ج۱، ص۸۷ - ۸۸.

⁽۲) أنساب الأشراف، ج٣، ص١٦٧، وينظر: المتوارين الذين اختفوا خوفا من الحجاج بن يوسف الثقفي، عبدالغني بن سعيد الأزدي أبو محمد، (ت: ٤٠٩هـ)، ص ٢٠، دار القلم، الدار الشامية، دمشـق، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: مشهور حسن محمود سلمان، تاريخ دمشق، ج١٦، ص ١٦١، ومختصره، ج٣، ص ٢٦، وبغية الطالب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبـي جرادة، (ت: ٢٦هـ)، ج٧، ص ٣٠٨٥، دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٢٢٩.

الجاهلية يجترئون على هتكها، فقد كانوا على ما بهم من جهل وشرك يعظمون بيت الله الحرام، ولا يرضون أن تنتهك له حرمة، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على دقة وصف أبي حمزة الشاري لبني أمية، حيث قال فيهم وفي أتباعهم: «أصابوا إمرة ضائعة وقوما طغاما جهالا لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها»(۱).

نقض عمر بن عبد العزيز الله أسسه بنو أمية من الجور وإعادته دور الخلافة الراشدة في العدل:

استمر عهد بني أمية مطبوعا بطابع الظلم والقسوة والبطش والفساد في الأرض، ما عدا عهد عمر بن عبدالعزيز _ كما قلنا _، فقد نقض ما بنوه وشاد ما نقضوه، ففطمهم عن شهواتهم التي كانوا يخوضون فيها خوضا ويعبونها عبا، وقطع أيديهم أن تمتد إلى أي أحد، وأنزلهم منازلهم التي يستحقونها، ودونك ما ذكره الآجري في «سيرته» قال: «أخبرنا محمد قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن مخلد العطار، قال: حدثني سهل بن عيسى المروزي، قال: حدثنا العالم بن محمد بن الحارث المروزي، قال: حدثنا سهل بن عبدالعزيز سليمان ابن عمر بن عجد العزيز سليمان بن عمر بن عبد العزيز سليمان بن

⁽۱) الأغاني، ج۲۳، ص۲۰۵، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٥، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٣.

عبدالملك، وخرج من قبره، سمع للأرض هدة أو رجة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مواكب الخلافة يا أمير المؤمنين، فقربت إليه بغلته فركبها، فجاءه صاحب الشرط يسير بن يديه بالحربة، فقال: تنح عني مالي ولك، إنما أنا رجل من المسلمين، فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فل أمرنا باليمن والبركة، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي الناس به جميعا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي على النبي قال:

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَف، من كل شيء وليس من تقوى الله عَلَى خَلَفٌ فاعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه _ فيما بينه وبين آدم على أبا حيا لمعرق له في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها على ولا في نبيها ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحداً حقاً...

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس، فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعوني ما أطعت الله في فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، ثم نزل، فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلا، فأتاه ابنه عبدالملك بن عمر، فقال: يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أي بنى أقيل، قال: تقيل

ولا ترد المظالم؟! فقال: أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، قال: يا أمير المؤمنين، من لك أن تعيش إلى الظهر؟! قال: ادن مني أي بني فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني، فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها.

فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين أسالك كتاب الله وكل ، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي _ والعباس جالس _، فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها _ يا أمير المؤمنين _ الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سـجلا؟ فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسالك كتاب الله وكل ، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه، فجعل لا يدع شيئا مما كان في يديه وفي يدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة، فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك، فكتب إليه:

«إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم، بغضا لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا، فاتق الله يا ابن عبدالعزيز وراقبه أن شططت، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور، فو الذي خص محمدا على بما خصه به، لقد ازددت من الله ولل بعدا في ولايتك هذه؛ إذ زعمت أنها عليك بلاء، فأقصر بعض ميلك، واعلم أنك بعين جبار وفي قبضته ولن تترك على هذا، اللهم فسل سليمان بن عبدالملك عما صنع بأمة محمد هيه».

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كَغْلَلْهُ كتابه، كتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد: فقد بلغني كتابك، وسأجيبك بنحو منه، أما أول شأنك يا ابن الوليد _ كما زعم _ فأمك بنانة أمة السكون، كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان ابن ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا، تزعم أنى من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك فيء الله وعلى، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين، تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك، ما أكثر خصماءكما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج ابن يوسف على خمس العرب، يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جافيا على مصر، وأذن له في المعازف واللهو والشرب، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما في خمس العرب، فرويدا يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، وما وراء هـذا من الفضل ما أرجـو أن أكون رأيته بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامي والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقا، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ولا ينال سلام الله الظالمين»(١).

⁽۱) أخبار أبي حفص عمر بن عبدالعزيز، ص٥٥ - ٦٣، وينظر: تاريخ دمشق ج٥٥، ص٣٥٩، و٣٥٩ ومختصره، ج٦، ص٩٦، صفوة الصفوة، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، (ت: ٧٩٥هـ)، ج٢، ص١١٧، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٧، ص٣٤.

فهذه صورة تعكس ما كان عليه عهده هم من إحقاق الحق ونصرته، وإزهاق الباطل وإماتته، لـم يحاب قريبا لقرابته ولم يجامل حبيبا لمودته، وإنما وضع بين يديه ميزان القسط ومعايير الحق، فأعطى كل ذي حق حقه، غير مبخوس ولا منقوص، وأخذ الحق لأمة محمد هم من كل غاشم جبار، ولم يفكر فيما عسى أن يواجه من مؤامرات الجبارين وأعوانهم، وما يلقاه من كيدهم وبطشهم، لأنه امتلأ إيمانا بالله، فوجل قلبه بذكره، وشغله خوفه عن كل خوف، ورجاؤه عن كل رجاء، وجعل الدار الآخرة نصب عينيه، فلم يحفل بالحياة الدنيا وزخرفها، إذ لم تزن شيئا في موازين عقله بجانب الآخرة، وناهيك من ذلك ما ذكره الأجرى أيضا من خطبه التي كان يعظ بها رعيته، حيث قال:

«أخبرنا محمد، قال: حدثنا الفريابي، قال ثنا عمرو بن علي. قال: حدثنا سفيان بن خليد الضبي، عن سالم بن نوح العطار، عن بشر بن السري، قال عمرو، ثم لقيت سالم بن نوح فحدثني به عن بشر بن السري، ثم حججت فقيل لي بمكة أن بشر بن السري بمكة فأتيته فسألته، فحدثني بشر ابن السري، قال: خطب عمر بن عبد العزيز فقال:

أما بعد؛ فإن الله على لم يخلقكم عبثا، ولم يدع شيئا من أمركم سدى، وإن لكم معادا يُنْزِلُ الله على فيه الحكم والقضاء بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، فاشترى قليلا بكثير وفانيا بباق وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، في كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا إلى الله ولي قد قضى نحبه وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع، ثم تدعوه غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنا بعمله، فقيرا إلى ما قدم، غنيا عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت.

وأيم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندي، وما يبلغني عن أحد منكم حاجة، إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما يبلغني أن أحدا منكم لا يسعه ما عندي، إلا وددت أنه يمكنني تغييره؛ حتى يستوي عيشنا وعيشه، وأيم الله، لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش، لكان اللسان مني به ذلولا عالما بأسبابه، ولكن سبق من الله و كان ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته... إلخ.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه، فبكى وشهق، وبكى الناس، فكانت آخر خطبة خطبها»(۱).

وكان يؤكد في خطبه ومخاطباته أن الطاعة إنما هي لله وحده، وأنه لا يطاع من عصاه، ومن ذلك ما ذكره الآجري قائلا: «أخبرنا محمد، قال: حدثنا عمر بن أيوب السقطي، قال: ثنا أبو همام الوليد بن شجاع، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا عبدالله بن يونس الثقفي، عن سيار أبي الحكم، قال: كان أول ما علم من عمر بن العزيز، أنه لما دفن سليمان بن عبدالملك، أتي بدابة سليمان التي كان يركب، فلم يركب، وركب دابته التي جاء عليها، فدخل القصر، وقد مهدت له فرش سليمان التي كان يجلس عليها، فلم يجلس عليها، ثم قال:

⁽۱) المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٥، وينظر: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص ١١٧، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد ابن عبدالله الأصبهاني، (ت: ٤٣٠هـ)، ج٥، ص ٢٩٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الرابعة، صفة الصفوة، ج٢، ص ١٢٤، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية، محيي الدين بن علي بن محمد الطائي الخاتمي، (ت: ١٣٨/٤/٢٢هـ)، ج٤، ص ٥٢٤، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الخاتما، الطبعة: الأولى، البداية والنهاية، ج٩، ص ١٩٩٨.

أما بعد؛ فإنه ليس بعد نبيكم على نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ألا ما أحل الله على حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، ألا لسبت بقاض ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع ألا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله على ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا، ثم ذكر حاجته»(۱).

وقد تبين من خطبت التي ألقاها بعدما ولي الأمر أنه طُوق هذه المسؤولية على كره منه، ولم يكن على علم بذلك وإنما كانت مفاجئة له، وقد رد الأمر إلى المسلمين، ليختاروا لأنفسهم من يرضونه، ليتلي أمرهم ويوجه سفينتهم، لكن أطبقت كلمتهم على اختياره دون سواه، ولا غرو؛ فإن الناس إنما ينشدون العدل والحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، وما كانوا ليعدلوا عنه وقد وجدوا في شخصه القائد الرباني المخلص الذي تهمه أمته لا نفسه، وتستبد بتفكيره آخرته لا دنياه، وكان عزوفه عن الدنيا وقد عرضت له بزينتها وزخرفها، وراودته عن نفسه بكل ما حوته مما ينشده عشاقها منها، فضرب صفحا عنها، ولم يعرها بالا ولم يقم لها وزنا، فما أجدره أن تضع الأمة فيه ثقتها وأن تقلده أمانتها، وهو القوى الأمين.

وهذا ما عبر عنه عبدالله بن الأهتم، الخطيب العربي، عندما وفد عليه فيمن وفد، فخطب بين يديه بدون استئذان، واستعرض في خطبته دعوة النبي على وما لقيه من قومه، وما كان من بعد من خلفائه، ثم خاطب عمر بقوله:

«ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها، فلما وليتها القيتها وأحببت لقاء الله وما عنده، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا، وكشف

⁽١) أخبار أبي حفص عمر بن عبدالعزيز، ص٦٣، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٠٤٣.

بك كربتنا، امض ولا تلتفت، فإنه لا يغني عن الحق شيء، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين وللمؤمنات»(١).

ومن الظاهر بداهة أن عمر بن عبد العزيز ما كان لينقم على آبائه وبني عمومت حقا أتوه، ولا أنكر عليهم عدلا قاموا به، إذ لو فعل ذلك لكان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا، فإنه لا ينقم الحق إلا المبطل، ولا ينكر العدل إلا القاسط، ﴿فَمَاذَا بَعَدُ ٱللَّحِقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ ﴾ [يونس: ٣٢]، وإنما رأى في سيرتهم عسفا وظلما، واضطهادا للمحقين، وتأييدا للمبطلين، ومحقا للعدل، وإحياء للجور، فأخذ على نفسه عهد الله ورسوله أن ينقض بنيانهم من أساسه، وأن يرد إلى الأمة ما فقدته من الحرية والإنصاف، ويلبسها ما ابتز منها من العزة والكرامة.

ولربما يقول قائل: أين كان عمر، وهو يروح ويغدو في مراتع بني أمية، وبين ظهرانيهم، وتحت ألوية حكمهم، قبل أن يلي أمر الخلافة والحكم؟ ما باله لم ينقم عليهم ما كانوا فاعليه؟!..

والجواب: أن هذا لو كان صحيحا لكن هو في فسيح العذر، ما دام عاجزا عن التغيير، كيف ولم يألُ جهدا ولم يفوت فرصة عندما أمكنه التغيير، وعلى رغم تطاول عهدهم في استئصال شأفة الحق، وإعمال معاولهم في اجتثاث أسسه ونقض صرحه، ومع قصر عهده؛ فإنه أتى على ما عمروه من الباطل فتركه دكا دكا، وإلى ما خرَّبوه من الحق فأعاده روضا نضيرا وربعا عامرا، على أنه مع هذا لم يهمل الإنكار عليهم، إبان أوج طغيانهم واستفحال عتوهم، فقد ذكر ابن عبدالحكم أنه:

⁽۱) العقد الفريد، ج٤، ص٨٦، نثر الدرر، ج٦، ص١١، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٢٨٦، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٢١.

«كلم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتابا منعهن ذلك، فتركه يسيرا، ثم راجعه فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوت يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمنا عنه»(١).

وكان لا تفوته فرصة موعظتهم في الموقف الذي يبعث العبرة والذكرى، فقد ذكر ابن عبدالحكم أيضا أن سليمان بن عبدالملك خرج ومعه عمر بن عبدالعزيز إلى الحج، فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق، فقال سليمان: هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص؟ فقال: يا أمير المؤمنين: هذا في حين رحمته، فكيف به في حين غضبه؟ (٢).

وبالجملة؛ فإن حكم عمر بن عبد العزيز كان رحمة من الله لهذه الأمة، ولطفا أراده بها، بعدما أرهقها جور من كان قبله، وما كان أسعد ذلك العهد وأهنأه لو أنه امتد به الزمن وطالت حقبته، ولكن الحياة لا تصفو حتى تتكدر والدهر لا يعطي حتى يسلب، فالمنح تعقبها المحن، ولله في خلقه شئون:

طُبِعَت عَلَى كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها صَفواً مِنَ الأَقداءِ وَالأَكدارِ وَمُكَلِّف الأَيام ضِدَّ طِباعِها مُتَطَّلِب في الماءِ جَذوة نارِ

فقد انطوت أيامه التي ازدهـرت بالحق وازدهر بهـا، وازدانت بالعدل

⁽۱) سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٣٠.

⁽٢) المرجع السابق.

واستوست فيها، ليعقبها ليل بهيم موحش، تفري وحوشه الضارية وذئابه المسعورة أديم الأمة وأوصالها، لتشبع نهمها وتطفئ سعارها وتشفي غيظها من الحق وأهله، فعاد الأمر أسوأ مما كان، إذ اعتلى منصة الحكم بنو مروان مرة أخرى؛ بكبرهم وبطرهم وبطشهم الشديد ونقضهم لعرى الإسلام ونسفهم لأحكامه وانتهاكهم لحرمه، وتلك هي حكمة الله في خلقه وسنته في أرضه ﴿وَلَو يَشَاءُ الله لَانَصَرَ مِنْهُم وَلَكِن لِبَنْلُوا بَعْضَكُم بِبَعْضِ ﴾ [محمد: ٤]، فكم طالت في الأمم أحقاب الجاهلية والجهل وامتدت آماد الظلم والجور، وإنما تتخللها فترات الخير، ببعث الله تعالى من شاء من رسله، ومن هيأه لنصرة الحق من عباده الصالحين.

مساندة فتاوى المارقين لجور الظالمين:

إن جور بني أمية وفسادهم عززهما وقوف المخذولين، ممن يظهرون بمظاهر العلم والحكمة بجانبهم، إذ كانوا يشجعونهم على ما يشيعونه من جور ويرتكبونه من فساد، طمعا في دنياهم، ورغبة في الانتفاع بما يستحصلونه من متع الحياة بتبرير ما يتلبسون به من باطل وما يأتونه من منكر، ولا غرو؛ فإن النبي أنذر هذه الأمة أنها لن تكون بمنأى عن أحوال الأمم من قبلها، الذين أضاعوا ما عهد الله إليهم من حق وما أنزله عليهم من كتاب، فقد قال الله التبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن (۱).

⁽۱) أخرجه الطيالسي من حديث أبي سعيد: (ص۲۸۹، رقم ۲۱۷۸)، وأحمد (۸٤/۳، رقم ۲۱۷۸)، وأبن رقم ۲۱۸۱)، وابن رقم ۲۲۱۹)، وابن حبان (۹۰/۱۵، رقم ۲۷۰۳)، ومن حديث سهل بن سعد أخرجه الطبراني (۱۸٦/٦) =

وقد سبق أن هذا مما عهد عند جميع أصحاب الأديان، كما علمت من شأن الكهنة، الذين كانوا يضفون على أعمال الفراعنة _ من الظلم والعسف، والاستبداد وسلب الناس أموالهم، وابتزاز حرياتهم وسفك دمائهم _ ما يزينها في قلوب الناس، حتى ينطبع في نفوس المظلومين أن ذلك هو العدل والبر والإحسان، وأن كل من استنكر منه شيئا فهو جدير بكل شر، حري بكل شنآن، وقد ذكر الله تعالى من شأن الأحبار والرهبان من هذا، ما يدل على رسوخ ذلك في حياة الأمم، حيث قال تعالى: ﴿ فَوَيْلُ لِلَّذِينَ يَكُنُبُونَ عَلَى اللَّهِ لِيَشْتُرُوا بِهِ عَمَنا قَلِيلًا فَوَيْلُ أَوْمَ لِنَا لَهُم مِّمَا يَكُسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ وَإِنَّ لِلَّهُم مِّمَا كُنُبُتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلُ لَهُم مِّمَا يَكُسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ وَإِنَّ الْكِتَبِ وَمَا هُو مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ اللّهِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَمَا هُو مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَمَا هُو مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهُ مِنْ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهِ اللّهُ عَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللللللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللّهُ الللّهُ الللللهُ الللهُ الللهُ الللللهُ الللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ

وقد تغلغل ذلك في حياة هذه الأمة الفكرية؛ برسوخ الظلم في نظمها السياسية منذ تربُّع بني أمية على سدة أمرها، فكم عززت الفتاوى الباطلة ما ارتكبوه من ظلم، وصورته للناس بأنه عين الحق وسواء الرشد، بل بلغ الأمر بهؤلاء أنهم لم يقتصروا على تبرير ظلم الظلمة، بل كانوا هم الذين يشجعونهم على الظلم ويدفعونهم إلى الفساد، حتى أن من حاول منهم أن يرعوي عن غيه، ويقلع عن فساده، ويتبع مسالك الرشد لم يلبثوا أن يثنوه عن ذلك ويزينوا له الفساد ويسوغوا له الظلم، ناهيك بهذه القصة التي تناقلها

وقم ٩٩٤٥). وأخرجه أيضًا: الروياني (٢١٨/٢، رقم ١٠٧٣)، ومن حديث أبي هريرة أخرجه الحاكم (٩٣/١)، رقم ١٠٠٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (١٣٢٢/٢، رقم ٩٩٤٤)، قال البوصيرى (١٨٠/٤): هذا إسناد صحيح، وجاء بلفظ: «لتسلكن سنن من قبلكم» عند الطبراني (١٣/١٧، رقم ٣)، قال الهيثمي (٢٦٠/٧): فيه كثير بن عبدالله وهو ضعيف. وعند الحاكم (١٩/١، رقم ٤٤٥).

الرواة وحفظتها الدواوين، عن الذين ثنوا يزيد بن عبدالملك أن يسير سيرة عمر بن عبدالعزيز على ، فقد قال ابن عساكر: «أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن عبدالملك، أنا أبو طاهر ابن محمود، أنا أبو بكر بن المقرئ، نا أبو العباس بن قتيبة، ثنا حرملة، أنبأ ابن وهب، نا عبدالرحمن ابن زيد ابن أسلم، قال: لما توفي عمر بن عبدالعزيز، وولي يزيد بن عبدالملك، قال: سيروا بسيرة عمر، قال: فأتى بأربعين شيخا فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب»(١).

وقد أشيعت هذه العقيدة الباطلة في عهد بني أمية في أوساط الناس، فكان عليها السواد الأعظم منهم، وقد نص على ذلك ابن تيمية _ مع تعصبه المقيت، لهم واستماتته في الدفاع عنهم وتبرير ضلالهم _ وذلك في قوله:

«وأيضا، فكثير من أتباع بني أمية أو أكثرهم، كانوا يعتقدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب وأن الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام بل تجب عليهم طاعة الإمام، في كل شيء، والله أمرهم بذلك، وكلامهم في ذلك معروف كثير، وقد أراد يزيد بن عبدالملك أن يسير بسيرة عمر ابن عبدالعزيز، فجاء إليه جماعة من شيوخهم، فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو، أنه إذا ولى الله على الناس إماما، تقبل الله منه الحسنات وتجاوز عنه السئات»(٢).

⁽۱) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٥، ص ٢٠، وينظر: مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٢٤٣، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١٥٠، تاريخ الإسلام، ج ٧، ص ٢٨٠، مرآة الجنان، ج ١، ص ٢٢٤، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٣، تاريخ الخلفاء ص ٢٤٦، شذرات الذهب، ج ١، ص ١٢٨، فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي، (ت: ١٠٣١هـ)، ج ١، ص ٣٥٤، فيض القدير شرح المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى، المنتقى من و ج ٢، ص ١٩٥١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، والاعتزال، أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، (ت: ١٤٨٨هـ)، ج ١، ص ٢١١، تحقيق: محب الدين الخطيب.

⁽٢) منهاج السنة، ج٦، ص٤٣٠.

ولعمر الحق، إن هذا الفكر هو أعظم خطرٍ رزئ به الإسلام، فقد كان أعمل المعاول في دك صرحه وأحد الحراب في قطع أوصاله وتمزيق أديمه، وما أشبهه بما ذكره الله تعالى عن بني إسرائيل، في قوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعَدِهِمَ خَلْفُ وَرِثُوا الْكِئبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا ٱلْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغَفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضُ فَلَا ٱلْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغَفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضُ مِّتُلَّهُ وَيَقُولُونَ سَيُغَفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضُ مِيْتُقُ ٱلْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ والأعراف: 179].

وقال له تعالى: ﴿ قُلُ إِنِّ أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، فإذا كان النبي ﷺ، مع عظم قدره وقربه من الله تعالى، يخشى من المعصية أن ينقلب إلى العذاب العظيم، فكيف بالظلمة المجرمين،

الذين يعيثون في الأرض فسادا ويعبثون بحقوق الأمة وينهبون خيراتها، بأي حجة، وأي برهان، يقال بأنهم في مأمن من الحساب والعقاب؟؟!!

وإذا كان الله تعالى يتوعد بمس النار، على الركون إلى أهل الظلم، فكيف بممارسة الظلم؟! فقد قال تعالى: ﴿ وَلا تَرُكُنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَامَوا فَكيف بممارسة الظلم؟! فقد قال تعالى: ﴿ وَلا تَرُكُنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَامَوا فَتَكُمُ ٱلنّارُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللّهِ مِن أُولِياآءَ ثُمّ لا نُصَرُون ﴾ [هود: ١١٣]، وقد ملئت السّنة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بالوعيد الشديد لمن ولي من أمر الناس شيئا فلم يتق الله فيهم، ولمن شايع الظالمين وأعانهم وصدقهم، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة»(١)، وقال: «ما من عبد يسترعيه الله، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته؛ إلا حرم الله عليه الجنة»(٢) وقال: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة؛ إلا حرم الله عليه الجنة»(٢)

وقال: «اسمعوا، إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم، ولا تصدقوهم بكذبهم، فإنه من أعانهم على ظلمهم، وصدقهم على كذبهم، فلن يرد عليَّ الحوض»(أ)، وقال: «اسمعوا، هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ على ظُلْمِهِمْ؛ فليس مِنِّي ولست منه، وليس بوَارِدٍ على الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهُمْ على منه، وليس بوَارِدٍ على الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهُمْ على

⁽۱) أخرجه البخاري (۲۱۱٤/٦ رقم ۲۷۳۱).

⁽٢) أخرجه البخاري (٢٦١٤/٦، رقم ٦٧٣١)، ومسلم (١٤٦٠/٣، رقم ١٤٦).

⁽٣) أخرجه ابن عساكر (٣٧٥/٤٥).

⁽٤) أخرجه أحمد (١١١/٥، رقم ٢١١١١)، وابن حبان من طريق أبي يعلى (١١١/٥، رقم ٢٦٢)، وابن حبان من طريق أبي يعلى (٢١٨٥، رقم ٢٦٢)، والطبراني (٥٩/٤)؛ رجاله رجال الهيثمي (٢٨٤)؛ رجاله رجال الصحيح خلا عبدالله بن خباب، وهو ثقة. والحاكم (١٥١/١، رقم ٢٦٢) وقال: صحيح على شرط مسلم.

ظلمهم ولم يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ؛ فهو مِنِّي وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوضَ»(١).

وقال: «أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي؛ فمن غشي أبوابهم فصدقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم؛ فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوض، ومن غشي أو لم يغش فلم يصدقهم في كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ»(٢).

وقال: «إنه سيكون عليكم أمراء يكذبون، ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وسيرد علي الحوض»(٣).

وقال: «إنها ستكون عليكم أمراء من بعدي، يعظون بالحكمة على منابر، فإذا نزلوا اختلست منهم، وقلوبهم أنتن من الجيف، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ»(1).

وقال: «أيما راع استرعي رعية، فلم يحطها بالأمانة والنصيحة؛ ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء»(٥)، وقال: «من ولى ذا قرابة، محاباة، وهو يجد خيرا منه؛ لم يجد رائحة الجنة»(٢).

⁽۱) أخرجه النسائي (۱۲۰/۷، رقم ۲۲۰۸)، والترمذي (۵۲۵/۶، رقم ۲۲۵۹) وقال: صحيح غريب. وابن حبان (۵۲/۱)، رقم ۲۷۹).

⁽۲) أخرجـه الترمــذي (۱۲/۲، رقم 3۱۶) وقال: حســن غريــب. والطبرانــي (۱۰٥/۱۹، رقم ۲۱۲).

⁽٣) أخرجه أحمد (٣٨٤/٥، رقم ٢٣٣٠٨)، والطبراني (١٦٧/٣، رقم ٢٠٢٠).

⁽٤) أخرجه الطبراني (١٦٠/١٩، رقم ٣٥٦). قال الهيثمي (٢٣٨/٥): رجاله ثقات.

⁽٥) أخرجه الخطيب (١٢٦/١٠).

⁽٦) أخرجه ابن عساكر (٢٤٥/٦٥).

كل هذه الأدلة تدحض هذه المقولة الكاذبة، وترد هذه الشهادة المزورة، ولكن روج لهذا الفكر، وروج من أجله لعقيدة الإرجاء اليهودية التي أنكرها الله أشد الإنكار على اليهود، في قوله: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا ٱلْأَدُنَى وَيَقُولُونَ سَيغُفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وبين أنها سبب إضاعتهم الكتاب وتبديلهم أحكامه، إذ قال: ﴿ أَلَرُ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِنَبِ ٱللهِ لَيَحُكُم بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتُولًى فَرِيقُ مِنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿ آلَ فَاكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمسَنا اللهِ النَّارُ إِلَا أَيَامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

كما روج لعقيدة الجبر، وبه فسر القدر، من أجل تبرير ما يصدر منهم من ظلم وعسف وجور، ومن ذلك قول معاوية: «وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»(۱)، والقصد بهذا تخدير الناس، وتهوين الجرائم التي ترتكب، والحرم التي تنتهك.

أثر السياسة الأموية في الفقه السياسي التبريري:

لقد كان لتوجه بني أمية إلى تعميق سلطتهم، وتبرير مخالفاتهم للأحكام الشرعية، أثر كبير على مواقف الفقهاء ومحاولتهم تبرير المواقف السياسية للسلطات الظالمة، ناهيك ما سبق ذكره، من أنهم بلغ بهم الأمر أن يسقطوا عمن يسمونهم الخلفاء أي مسئولية أمام الله تعالى، وأن يسجلوا لهم أمانا من أي عقاب من لدنه، مهما ارتكبوا من جرائم وعاثوا في الأرض فسادا، فقد ارتقوا بهم في ذلك إلى مقام لم يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهكذا كانت الفتاوى تصدر لتزيين باطلهم وإقرار ظلمهم، بل أولئك الفقهاء هم الذين كانوا يدفعونهم إلى الباطل دفعا، وقد استمر أثر ذلك في الفقه السياسى عبر القرون، وإليك أمثلة من ذلك:

⁽١) الإمامة والسياسية، ص١٥١، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٥٧.

١ _ إضفاء الشرعية على السلطة المأخوذة عنوة.

كان من أثر هذه الفتاوى إشاعة الفوضى السياسية، بفتح الأبواب وتهيئة الفرصة لمن أراد أن يبتز السلطة بالقوة ممن كانت في يده، فإن الغالب بموجب هذه السياسة المعززة بالفتاوى هو الأولى بالشرعية، وهو الذي تحق له الطاعة المطلقة من الأمة، فلا يحل الخروج عليه، مهما أتى من جرائم في حق الأمة أو تبديل لمعالم الدين، وإنما على الأمة أن تطأطئ له رأسها، وتحني لمقامه ظهرها، وتكون طوع أمره.

فنجد ابن قدامة مثلا، يقول: «ولو خرج رجل على الإمام، فقهره، وغلب الناس بسيفه، حتى أقروا له، وأذعنوا بطاعته، وبايعوه، صار إماما يحرم قتاله، والخروج عليه؛ فإن عبدالملك ابن مروان، خرج على ابن الزبير، فقتله، واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعا وكرها، فصار إماما يحرم الخروج عليه»(۱).

ثم قال: «ويدخل الخارج عليه في عموم قوله ريكال: «من خرج على أمتي، وهم جميع؛ فاضربوا عنقه بالسيف، كائنا من كان» (٢).

وأنت ترى ما في هذا الحكم من الاضطراب، فهم مع كونهم يحرمون خروج أحد عن طاعة الظالم الجائر المبدل لحكم الله الناكث لعهده، يرون أن لو خرج أحد باغيا ظالما على إمام شرعي، حتى تمكن منه، فأباده واستحل بيضته؛ كان هو الإمام الشرعي الذي تجب له الطاعة ويحرم الخروج عليه، مع أنه بنفسه توصل إلى الإمامة بالخروج على من قبله!!

⁽۱) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، (ت: ٦٢٠هـ)، ج٩، ص٥، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الأولى.

⁽٢) المرجع السابق.

وقد تبين لك فساد هذا الرأي، من خلال النظر لما فيه من التناقض الفاضح والاضطراب البين، وإذا جئنا إلى الأثر، فإننا نجد أن بينه وبين المأثور عن السلف الصالح بعد المشرقين، فهو أبعد عنه من بعد الثريا عن الثرى، والعرش عن الفرش، فعن عمر شي أنه قال لابن عباس الشياء «اعقل الثرى، والعرش عن الفرش، فعن عمر قي أنه قال لابن عباس عن «مَن بايع رجلا، عن غير عني ثلاثا: الإمارة شورى... إلخ»(")، وقال في: «مَن بايع رجلا، عن غير

⁽۱) أخرجه الربيع (ص۳۹ رقم ٤٩)، وأحمد (۱٤٦/٦، رقم ٢٥١٧١)، ومسلم (١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨)، وأبو عوانة (١٧١/٤، رقم ٢٤٠٩)، والدارقطني (٢٢٧/٤).

⁽۲) أخرجـه أحمـد (۱۵۷/۶۳ رقم ۲۹۰۳۳) والبخـاري (۱۸۶/۳ رقم ۲۲۹۷)، ومسـلم (۲) اخرجـه أحمـد (۱۷۱۸ رقم ۲۱)، وابـن ماجـه (۷/۱ رقم ۱۲)، وابن حبـان (۲۰۸/۱ رقم ۲۲)، والبيهقى (۲۰۸/۱ رقم ۲۰۳۷)، والدارقطنى (۲۰۲۵ رقم ۲۰۳۷).

⁽٣) أخرجه عبدالرزاق (٢٧٧/٧، رقم ١٣١٥٥)، وأبو عبيد في الأموال (ص١٧٨ رقم ٣٦١).

مشورة من المسلمين؛ فلا يبايع هو ولا الذي بايعه، تغرة أن يقتلا»(۱)، وقد قال ذلك في خطبة خطبها بين المهاجرين والأنصار، قال الدكتور حاكم المطيري: «وهذه الخطبة من أشهر خطب عمر وأصحها، وقد كانت بمحضر الصحابة في ، فكان إجماعا منهم على أن حق اختيار الإمام هو للأمة، وأنه يحرم غصبها هذا الحق، وأن من بايع رجلا دون شورى المسلمين، فقد عرض نفسه للقتل»(۱).

وقال عمر المسلمين؛ وقال عمر المسلمين؛ وقال عمر المسلمين؛ فاضربوا عنقه (۳)، وخطب الناس إبان رجوعه من الحج بالمدينة المنورة، فكان مما قاله في خطبته: «إنه لا خلافة إلا عن مشورة (٤)، وقال عبد الرحمن بن عوف بعد أن استشار المسلمين فيمن يختارونه خليفة عليهم، حتى النساء في خدورهن: «يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا» (٥).

وقال الطبري: «حدثني جعفر بن عبدالله المحمدي، قال: حدثنا عمرو بن حماد وعلي ابن حسين، قالا حدثنا حسين، عن أبيه، عن عبدالملك بن أبي سليمان الفزاري، عن سالم بن أبي الجعد الأشجعي، عن محمد بن الحنفية، قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان في ، فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بدلناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة،

⁽۱) أخرجه البخاري (۱٦٨/٨ رقم ٦٨٣٠) والبزار (٣٠٢/١ رقم ١٩٤).

⁽٢) الحرية أو الطوفان، دراسة موضوعية للخطاب السياسي الشرعي ومراحله التأريخية، بقلم د. حاكم المطيري، ص٣١، سنة النشر ٢٠٠٣م.

⁽٣) الطبقات الكبرى، ج٣، ص٤٤٣.

⁽٤) مصنف ابن أبي شيبة، (٤٣١/٧ رقم ٤٣٠/٢)، والنسائي (٢٧٣/٤ رقم ٧١٥٤).

⁽٥) البخاري (٧٨/٩ رقم ٧٢٠٧) والبيهقي في الاعتقاد، ص٣٦٥.

ولا أقرب من رسول الله، فقال: لا تفعلوا، فإني أن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا، فقالوا: لا والله، ما نحن بفاعلين، حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفيا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، قال: سالم بن أبي الجعد، فقال عبدالله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد، مخافة أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد فلما دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس»(۱).

وقال الطبري أيضا: «حدثني جعفر قال: حدثنا عمرو وعلي، قالا: حدثنا حسين، عن أبيه، عن أبيي ميمونة، عن أبي بشير العابدي، قال: كنت بالمدينة حين قتل عثمان في واجتمع المهاجرون والأنصار فيهم طلحة والزبير فأتوا عليا، فقالوا: يا أبا حسن هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به، فاختاروا والله، فقالوا: ما نختار غيرك، قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان مرارا، ثم أتوه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إلي وأتيتم، وإني قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلا فلا حاجة لي فيه، قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله، فجاء فصعد المنبر، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني كنت كارها لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم، رضيتم؟ قالوا: ما لكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهما دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، شم بايعهم على ذلك، قال أبو بشير: وأنا يومئذ عند منبر رسول الله، قائم أسمع ما يقول»(٢).

وقد بلغ تشدد ابنه الحسن عليه أنه كان لا يرى أن يبايع، حتى يأتيه

⁽١) تاريخ الطبري، ج٢، ص٦٩٦، المنتظم، ج٥، ص٦٣، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٦٠.

⁽۲) تاریخ الطبري، ج۲، ص۱۹۹ – ۱۹۷.

أهل الأمصار جميعا فيبايعوه، وقد اعتذر إليه، بأن قبوله بيعتهم قبل مجيء أهل الأمصار إنما كان خشية أن يضيع الأمر»(١).

هذا هو نهج السلف الصالح، وأين هو مما أقره من بعدهم من أخذ الحكم عنوة، من غير مشورة من أحد؟!.

على أن هؤلاء لم يكتفوا بنقض منهج السلف، وحل عرى الإسلام في أمر الحكم، بل جاوزوا ذلك، فجعلوا طاعة الظالم من طاعة الله سبحانه!!، وغلوا حتى جعلوا طاعته أعظم من طاعة الله، كما روي عن الحجاج أنه قال: «فَأَنْقُوا الله مَا وَعِي عن الحجاج أنه قال: «طاعتنا أوجب من طاعة الله، لأنه شرط في طاعته، فقال: ﴿فَأَنْقُوا الله مَا السَّطَعْتُم ﴾ [التغابن: ١٦]، وأطلق في طاعتنا، فقال: ﴿وَأُولِي ٱلْأَمْنِ مِنكُم ﴾ [النساء: ٥٩]»(٢).

ولم يكن ذلك أمرا نظريا، وإنما كان منهجا تطبيقيا ساروا عليه، كما علمت من قصة خالد ابن عبدالله القسري، الذي أعلن في خطبته أنه لو أمره عبدالملك بهدم الكعبة البيت الحرام لنقضها حجرا حجرا، ومعنى ذلك أنه لا يبالي بسخط الله تعالى، إن رضي عنه سيده عبدالملك!.

٢ _ تحريم القيام عليهم لدفع ظلمهم وأخذ الحق منهم.

تلقف الفقهاء الرسميون هذه السياسة منذ عهد بني أمية، فوطأوا لهم الأكناف، وأوجبوا طاعتهم، ولو بالغوا في الفساد، وأسرفوا في الجور، وأتوا

⁽۱) المرجع السابق، ج٣، ص١١، وينظر: الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي، (ت: ٢٠٠هـ)، ص١٢٠، دار النفائس، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد راتب عرموش.

⁽۲) الكشاف، ٤، ص٩٧، وينظر: تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، ج٣، ص١٩٥. دار الكتب العلمية، بيروت، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٢، ص١٩٥.

عظائم الأمور، وحرموا الخروج عليهم وعدوه مروقا من الدين، وانتهاكا لحرمه، وزعموا أن الإجماع انعقد عليه (۱)، بل نسبوا ذلك إلى رسول الله هذه فرووا عنه أنه قال: «اسمع وأطع للأمير الأعظم، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» (۱)، ورووا في هذا العديد من الروايات التي لم تثبت، كما أنهم تأولوا معاني ما ثبت منها وفق هواهم، وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّذِينَ عَامَنُوا أَلْطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الرّمَا فِي مِنكُم ﴾ [النساء: ٥٩].

وأنت تدري، أن الله إنما أرسل رسله وأنزل كتبه لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، لا لإقرار الظلم، وترسيخ طاعة الظلمة، وجَعْلِ كلمة التوحيد سلما لهم إلى أكل أموال الناس، وابتزاز حقوقهم، وسلب حرياتهم، على أنه من أضل الضلال وأبلغ الانحراف في التصور والفكر ما زعمه الحجاج، من أن طاعة أولي الظلم، أوجب من طاعة الله!، فيا سبحان الله، كيف يسوغ أن يقال ذلك فتكون طاعة رب السموات والأرض مؤخرة عن طاعة أعدائه الظالمين؟!.. وهل الحكم إلا حكمه والعبادة إلا له؟.. ﴿إِنِ ٱلمُحكِّمُ إِلّا لِللّهِ أَمَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ألّا تَعَبُدُوٓا إِلّا إِيّاةٌ ذَالِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيّمُ وَلَكِئَ أَكَثَرَ ٱلنّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

ونحن إن أمعنا النظر في آية النساء، التي تشبثوا بها في إلزام طاعتهم

⁽۱) حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري)، سليمان الجمل، ج٥، ص١١٤، دار الفكر، بيروت غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، محمد بن أحمد الرملي الأنصاري، (ت: ١٠٠٤هـ)، ص١٤٥ دار المعرفة، بيروت، تحفة الحبيب على شرح الخطيب (البجيرمي على الخطيب)، سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي، (ت: ١٢٢١هـ)، ح٤، ص٢٦٨، وج٥، ص٩١ - ٩٢ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

⁽٢) أخرجه مسلم (١٤٧٦/٣، رقم ١٨٤٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٠/٣، رقم ٢٨٩٣)، والحاكم (٤٧/٤، رقم ٨٥٣٣) وقال: صحيح الإسناد.

على الإطلاق، وجدنا في سياقها ما يناقض دعواهم من عدة وجوه:

أولها: أن الخطاب في صدر الآية لأهل الإيمان، وقد ابتدئ فيها بالأمر بطاعة الله، ثم ثني بالأمر بطاعة الرسول، وذكرت طاعة أولي الأمر مدرجة مع طاعة الرسول ولم تذكر استقلالا، وهو يعني أن طاعتهم لا بد من أن تكون مقيدة بطاعة الله ورسوله؛ لأنها تبع لطاعتهما.

ثانيها: أن أولي الأمر في الآية الكريمة مقيدون بكونهم من أهل الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وَأُولِي ٱلْأُمْنِ مِنَكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، ولا ريب أنه لا يدخل في ذلك الظلمة والفسقة، إذ لم يكن الله تعالى ليشرف هؤلاء بعطفهم على نفسه وعلى رسوله، وقد أجاد الزمخشري حيث قال في تفسير الآية: «والمراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهى عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان.

وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت؛ فلا طاعة لى عليكم $^{(1)}$.

وتبعه في ذلك أبو السعود، حيث قال في تفسير الآية: «وهم أمراء الحق وولاة العدل، كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين، وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول على في وجوب الطاعة لهم «۲).

⁽۱) الكشاف، ج۱، ص٥٥٥.

⁽٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، ج٢ ص١٩٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وقال الأستاذ الشهيد سيد قطب: «فأما أولو الأمر؛ فالنص يعين من هم [أولي الأمر.. منكم..]، أي: من المؤمنين.. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسول؛ وإفراد الله مسبحانه مبالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء؛ والتلقي منه وحده منه فيما نص عليه والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص؛ لتطبيق المباديء العامة في المنصوص عليه.

والنص يجعل طاعة الله أصلاً؛ وطاعة رسوله أصلاً كذلك _ بما أنه مرسل منه _ ويجعل طاعة أولي الأمر.. منكم.. تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول على ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله _ بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعـة أولي الأمـر.. منكم.. بعـد هـذه التقريرات كلها، في حدود المعروف المشـروع من الله، والذي لـم يرد نص بحرمتـه؛ ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مباديء شـريعته، عند الاختلاف فيه.. والسـنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين.

في الصحيحين من حديث الأعمش: «إنما الطاعة في المعروف»(١). وفيهما من حديث يحيى القطان: «السمع والطاعة على المرء المسلم.

⁽۱) أخرجه البخاري (۲۲۱۲۲، رقم ۲۷۲۱)، ومسلم (۱۲۹۹۳، رقم ۱۸٤۰)، وأبو داود (۲۹/۱۰)، رقم ۲۲۲۷)، وابسن حبان (۲۹/۱۰)، والنسائي (۲۰۹۷، رقم ۲۲۲۵)، وابسن حبان (۲۲۲، رقم ۲۲۲)، وأحمد (۲۲۲، رقم ۲۲۲)، والحاكم (۱۳۲/۳، رقم ۲۲۲) وقال: صحيح الإسناد.

فيما أحب أو كره. ما لم يؤمر بمعصية. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(١).

وأخرج مسلم من حديث أم الحصين: «ولو استعمل عليكم عبد. يقودكم بكتاب الله. اسمعوا له وأطيعوا» $^{(1)}$.

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله. أميناً على إيمانه ودينه. أميناً على نفسه وعقله. أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة.. ولا يجعله بهيمة في القطيع؛ تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة. والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون!»(٣).

ومن المفسرين، من فسر [أولي الأمر] في الآية الكريمة بعلماء الأمة، الذين ينعقد بهم الإجماع فيما يحدث من نوازل، فإنهم إن أجمعوا على حكم في نازلة ولم يختلفوا فيها كان ذلك شرعا ربانيا، يجب على من بعدهم أن يتبعوه ولا يخالفوه، ولذلك كان الإجماع هو الأصل الثالث في الأدلة الشرعية، بعد الكتاب العزيز والسُّنَّة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وعلى هذا عول الفخر الرازي، وجعل الآية أصلا في حجية الإجماع، وهاك نص قوله:

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۱۲۲۲، رقم ۱۲۲۸)، والبخـاري (۲۲۱۲، رقم ۲۲۲۷)، ومسـلم (۲۰۹٪)، ومسـلم (۲۲۹٪)، رقم ۱۲۲۹)، وأبـو داود (۲۰۰٪، رقم ۲۲۲۷)، والترمـذي (۲۰۹٪)، رقم ۲۲۲۷)، وابن ماجه (۲۰۹٪)، وابن ماجه (۲۰۰٪)، وابن ماجه (۲۰۰٪)، رقم ۲۸۲٪) وابـن أبـي شـيبة (۲۳۵٪، رقم ۲۳۷۷)، وابـن الجـارود (ص۲۰۰، رقم ۱۲۷٪)، وأبـو عوانـة (۲۰٪٪)، رقم ۲۰۱٪)، والبيهقـي (۲۲۷٪، رقم ۲۱۷٪)، والبيهقـي (۲۲۷٪، رقم ۲۰۱٪)، والبيهمـر (۲۰٪٪)، والبيهمـر (۲۰٪٪)، والبيهمـر (۲۰٪٪)، والبيهمـر (۲۰٪٪)، والبيهمـر (۲۰٪٪)، رقم ۲۰٪٪)،

⁽۲) أخرجه مسلم (۱۸۳۸، رقم ۱۸۳۸).

⁽٣) في ظلال القرآن، تفسير سيد قطب، ج٥، ص٦٩١، دار الشروق.

"اعلم أن قوله: ﴿ وَأُولِي ٱلْأَمْنِ مِنكُمْ ﴾ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم في هـذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سـبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهى عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر والنهى في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ فثبت قطعاً أن أولى الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوما، ثم نقول: ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمـة؛ لأنا بينا أن الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أنا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم. ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله: ﴿ وَأُولِي ٱلْأُمِّي ﴾ أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة». اهـ^(۱).

وروى الطبري أن أولي الأمر هم الفقهاء، عن جماعة من السلف منهم مجاهد، وعطاء، والحسن، وأبو العالية(٢).

⁽١) التفسير الكبير، ج١٠، ص١١٦.

⁽۲) تفسير الطبري ج٥ ص١٤٨ - ١٥٠.

ويتعزز ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوَ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمُ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنُبِطُونَهُۥ مِنْهُمُ ﴾ [النساء: ٨٣].

ونحن نرى أن أولي الأمر وصف ينطبق على من اضطلع بأمانة الله، وأخذ بيد الأمة إلى سبيل الرشد وذب عن حرماتها ووفاها حقوقها، فأنصف كل مظلوم وقبض على كل ظالم، وكان على القوي حتى يأخذ الحق منه ومع الضعيف حتى يأخذ الحق له، وأن من تبديل شرع الله أن يكون هذا الوصف وما يتبعه من وجوب الطاعة لأولي الظلم، الذين ابتزوا الحكم وأضاعوا الحق وأشاعوا الفساد، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، فإنهم أهون على الله من أن يجعل لهم على عباده طاعة ويدرجهم فيها مع نفسه ورسوله.

هذا؛ وقد بين الله تعالى أن الظالمين لا نصيب لهم من عهده، حيث قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظّلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وبين العلماء أن الإمامة والقيادات الدينية هي من عهد الله الذي لا نصيب فيه لظالم، قال ابن خويز منداد: «وكل من كان ظالما لم يكن نبيا ولا خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا إمام صلاة ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ولا تقبل شهادته في الأحكام»(۱).

وقال أبو بكر الرازي: «أراد أن الظالم لا يكون إماما، وعن ابن عباس أنه قال: «لا يلزم الوفاء بعهد الظالم، فإذا عقد عليك في ظلم فانقضه»، وقال الحسن: ليس لهم عند الله عهد يعطيهم عليه خيرا في الآخرة، قال أبو بكر: جميع ما روي من هذه المعاني يحتمله اللفظ، وجائز أن يكون جميعه مراد الله تعالى، وهو محمول على ذلك عندنا، فلا يجوز أن يكون الظالم نبيا،

⁽۱) تفسير القرطبي، ج٢، ص١٠٩.

ولا خليفة لنبي، ولا قاضيا ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين من مفت، أو شاهد، أو مخبر، عن النبي على خبرا، فقد أفادت الآية أن شرط جميع من كان في محل الائتمام به في أمر الدين العدالة والصلاح، وهذا يدل أيضا على أن أئمة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فساق ولا ظالمين، لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نصب منصب الائتمام به في أمور الدين؛ لأن عهد الله هو أوامره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم، وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقوله منهم والاقتداء بهم فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانُّ إِنَّهُ وَلَكُورَ عَدُقُّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] يعني أقدم إليكم الأمر به، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ومنه عهد الخلفاء إلى أمرائهم وقضاتهم إنما هو ما يتقدم به إليهم ليحملوا الناس عليه ويحكموا به فيهم، وذلك، لأن عهد الله إذا كان إنما هو أوامره لم يخل قوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ ﴾ من أن يريد أن الظالمين غير مأمورين، أو أن الظالمين لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله تعالى وأحكامه ولا يؤمنون عليها، فلما بطل الوجه الأول لاتفاق المسلمين على أن أوامر الله تعالى لازمة للظالمين، كلزومها لغيرهم، وأنهم إنما استحقوا سمة الظلم لتركهم أوامر الله ثبت الوجه الآخر، وهو أنهم غير مؤتمنين على أوامر الله تعالى وغير مقتدى بهم فيها، فلا يكونون أئمة في الدين، فثبت بدلالة هذه الآية بطلان إمامة الفاسق، وأنه لا يكون خليفة، وأن من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته، وكذلك قال النبي على: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١)، ودل أيضا على أن الفاسق لا يكون

⁽۱) أخرجـه أحمـد (٦٦/٥، رقم ٢٠٦٧٢)، والحاكـم (٥٠١/٣، رقم ٥٨٧٠) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (١٦٥/١٨، رقم ٣٦٧). وأخرجه أيضا الخطيب (٢٢/١٠).

حاكما، وأن أحكامه لا تنفذ إذا ولي الحكم، وكذلك لا تقبل شهادته، ولا خبره إذا أخبر عن النبي هم ولا فتياه إذا كان مفتيا، وأنه لا يقدم للصلاة، وإن كان لو قدم واقتدى به مقتد كانت صلاته ماضية؛ فقد حوى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّلِمِينَ ﴾ هذه المعاني كلها»(١).

وقال القرطبي: «استدل جماعة من العلماء بهذه الآية، على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي هي ألا ينازعوا الأمر أهله، على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظّلِمِينَ ﴾، ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي في وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة»(٢).

وقد يعترض معترض بدعوى أن الظلم الذي لا ينال أهله عهد الله هو الشرك وحده، لأنه أعظم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَ ٱلشِّرْكَ لَظُلُمُ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

ويُرَدُّ بأن الظلم في الآية على إطلاقه؛ لأن التعريف يقتضي العموم، فكل من تلبس بظلم لم ينله عهد الله، لأن الظلم لغة: «وضع الشيء في غير موضعه»(٣) وعلى ذلك جرى المفسرون(١٤)، وفي «النهاية» و«اللسان» ما نصه:

⁽١) أحكام القرآن، ج١، ص٨٦.

⁽۲) تفسیر القرطبي، ج۲، ص۱۰۸ – ۱۰۹.

⁽٣) تهذيب اللغة، ج١٤، ص٢٧٤، المخصص، ج٣، ص٥٠٥، المحكم والمحيط الأعظم، ج١٠، ص٢٣، -، ج٢١، ص٣٧٣ وص٢٧٦، مقاييس اللغة، ج٣، ص٢٦٨، المحيط في اللغة، ج١٠، ص٣٢، المفردات في غريب القرآن، ص٥١٣.

⁽٤) تفسير الطبري، ج١، ص٢٣٤، المحرر الوجيز، ج١، ص٣٠٨، التفسير الكبير، ج٨، ص١٧١، تفسير السمرقندي، ج١، ص١٩٣، تفسير الثعلبي، ج١، ص١٨٢، تفسير =

«وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء: فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم أي أساء الأدب بتركه السنة والتأدب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصها من الثواب بترداد المرات في الوضوء»(١).

ونصوص القرآن شواهد قاطعة، على أن الظلم يصدق على كل خروج عن حكم الله ومخالفة لأمره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِن حَكَم الله ومخالفة لأمره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَبِ ٱللّهِ يَوْمَ خَلَق ٱلسَّمَوُتِ وَٱلأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حُرُمُ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقِيّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَ ٱنفُسكُمُ ﴿ وَلَا رَبِ أَن النهي عن الظلم فيهن يصدق على كل مخالفة لأمر الله، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسَخَرُ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى آن يَكُونُواْ فَلَا مَنْهُمْ وَلا فِيسَاءُ مِن نِسَاءً عَسَى آن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا نَلْمِزُواْ أَنفُسكُو وَلا نَنابَرُوا فَلَا الله، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلاَ مَسَكُوهُنَّ فَرَا لِيَعْنَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ الله الله، وقوله: ﴿ وَلا مَسَكُوهُونَ وَمَن لَمْ يَتُبُ فَأُولَتِكَ هُمُ ٱلظّالِمُونَ الله فَقَدْ ظَلَمَ الله فَهَدْ فَلَمَ وَلا يَعْرَجُونَ وَلا يَعْرَجُونَ وَلا يَعْرَجُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ الله يَعْرَجُوهُ وَمَن يَتَعَدُ حُدُودَ ٱللّهِ وَمَن يَتَعَدُّ حُدُودَ ٱللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ الطّلاق: ١]، وقوله: ﴿ لاَ تُحْرِجُوهُ مَن مِن يُتَعَدُّ حُدُودَ ٱللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ أَن يَكُنُ وَمَن يَتَعَدُّ حُدُودَ ٱللّهِ وَمَن يَتَعَدُّ حُدُودَ ٱللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ فَلَهُ وَمَن يَتَعَدُ حُدُودَ ٱللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ الطّلاق: ١].

⁼ القرطبي، ج١، ص٣٠٩، تفسير القشيري، ج٢، ص٨، تفسير السمعاني، ج١، ص٦٨، تفسير البغوي، ج١، ص٢٨، تفسير النسفي، ج٣، ص٢٧٧، تفسير النسفي، ج٣، ص٦٨، تفسير غرائب القرآن، ج١، ص٢٨٧، البحر المحيط، ج١، ص٣٠٦.

⁽۱) النهاية في غريب الأثـر، ج٣، ص١٦١، لسـان العـرب، ج١٢، ص٣٧٣، وينظر: عمدة القاري، ج١٢، ص٢٨٣.

ٱلظَّٰدِلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وذكر عن موسى عَظِلُ أنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظُلَمْتُ نَفْسِي فَأُغْفِرُ لِي ﴾ [القصص: ١٦].

وقد تضافرت الأحاديث عن رسول الله والله وا

ثالثها: أن الآية الكريمة اختتمت بقوله تعالى: ﴿ فَإِن نَنزَعُنُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُننُمُ تُؤَمِّنُونَ بِاللّهِ وَالْمَوْمِ الْآخِرَ فَالِكَ خَيْرٌ وَأَحُسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، ومعنى ذلك _ بلا ريب _ أن أولي الأمر ومن يلون أمرهم، عليهم جميعا أن يحتكموا إلى الله ورسوله عند التشاجر والخلاف، وهو دليل

⁽۱) أخرجه مالك (۲۷۶/۲، رقم ۱۳۵۶)، وعبدالرزاق (۳۱۲/۸، رقم ۱۵۳۵۰)، والبخاري (۲۹۹/۲)، رقم ۲۲۲۸) ومسلم (۱۱۹۷۳، رقم ۱۵۲۵) وأبو داود (۲۲۷/۳، رقم ۳۳۵۰)، والترمذي (۲۰۰/۳، رقم ۱۳۰۸) والنسائي (۳۱۷/۷ رقم ۲۹۹۱)، وابن ماجه (۲۸۳/۲ رقم ۲۶۰۳)، وابن حبان (۲۷/۱۱)، رقم ۵۹۰۰).

⁽۲) أخرجه عبدالرزاق (۳۱٦/۸) رقم ۱۵۳۵۵). وأحمد (۳۱۵/۲) رقم ۸۱٦۰)، وأبو عوانة (۲) ۴۶۸ رقم ۵۲۶۵).

⁽٣) أخرجه الطبراني (١٧/٤، رقم ٣٥١٦).

⁽٤) أخرجه أبو داود (٣٣/١، رقم ١٣٥)، والنسائي في الكبرى (٨٢/١، رقم ٨٩)، وابن خزيمة (١٩٨، رقم ٨٧٨). والطحاوى (٣٣/١)، والبيهقى (٧٩/١، رقم ٣٧٨).

⁽٥) أخرجه أحمد (٣٩٦/١، رقم ٣٧٦٧). قال الهيثمي (١٧٥/٤): إسناده حسن. والطبراني (٢١٦/١٠). رقم ٢١٦/١٠).

⁽٦) أخرجه الترمذي (٣٦٤/٤، رقم ٢٠٠٧).

الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن أبى ذلك وأراد أن يمضي على الآخر هواه، فقد خرج عن مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو ظالم لنفسه فلا يناله عهد الله، «وعن أبي حازم: أن مسلمة بن عبدالملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله: ﴿وَأُولِي ٱلْأَمِّى مِنكُم ﴾؟ قال: أليس قد نزعت منكم إذ خالفتم الحق بقوله: ﴿ فَإِن نَنزَعَنُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]»(١).

أما الحديث، فلو صح لوجب حمله على محمل صحيح، يتواءم مع روح الإسلام ومقاصد الشرع، وهو أن طاعة ولي الأمر تجب، إن لم تكن عند من يلي أمره حجة شرعية أنه تعدى عليه وبخسه حقه، أما مع ثبوت ظلمه وقيام الحجة عليه بذلك فإن طاعته لا يعود لها مكان في شرع الله تعالى، أو أنه يحمل على ما إذا أخذ ماله وضرب ظهره بحكم شرعي له فيه من الله برهان، وهذا الذي ذهب إليه ابن حزم، حيث قال:

«فإنما ذلك _ بلا شك _ إذا تولى الإمام ذلك بحق، وهذا ما لا شك فيه، أنه فرض علينا الصبر له، وإن امتنع من ذلك، بل من ضرب رقبته إن وجب عليه؛ فهو فاست عاص لله تعالى، وأما إن كان ذلك بباطل فمعاذ الله أن يأمر رسول الله على بالصبر على ذلك، برهان هذا قول الله وَلَى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى اللّهِ وَاللّهُ وَلَى اللهِ وَلَى اللهِ وَاللّهُ وَلَى اللهِ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَلَى اللّهِ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَلَى اللّهِ وَاللّهُ عَلَى اللهِ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَن كلام رسول الله على الله على الله وَالله على الله وَالله وَاللهُ عَن عَن كلام رسول الله على الله وَالله على الله وَاللهُ عَن اللهُ وَاللّهُ عَن اللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَن اللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَن اللهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَو كُانَ مِنْ وَاللّهُ وَلَا اللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَوْ كُانَ مِنْ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَلَا لَاللّهُ وَلَا لَاللّهُ وَلّهُ وَلّهُ وَلَا لَا اللللّهُ وَلّهُ وَلّهُ وَلّهُ وَلَا لَا لَا اللّهُ وَلّهُ وَلَا ل

⁽۱) تفسير البحر المحيط، ج٣، ص٢٩٠، تفسير الكشاف، ج١، ص٥٥٥، تفسير النسفي، ج١، ص٢٢٥، مختصر تاريخ دمشق، ج٨٥، ص٤٢، مختصره، ج٧، ص٤٧٨، بدائع السلك، ابـن الأزرق(م)، (ت: ٩٨٩هـ)، ج١، ص٨٧، وزارة الإعـلام، العـراق، الطبعة: الأولى، تحقيق: د.على سامى النشار، مرقاة المفاتيح، ج٧، ص٢٥١، فيض القدير، ج٦، ص٤٣٢.

قلت: إن مما يعضد ما ذهب إليه ابن حزم في تأويل الحديث ما كان عليه الخلفاء الراشدون، من إعلان أن الطاعة إنما تجب حال التزام الإمام بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ، فقد أخرج عبدالرزاق: «عن معمر قال وحدثني بعض أهل المدينة قال خطبنا أبو بكر فقال: يا أيها الناس أني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن ضعفت فقوموني وإن أحسنت فأعينوني الصدق أمانة والكذب خيانة الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر ولا ظهرت _ أو قال شاعت _ الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» "".

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۳۳۷/۶، رقم ۱۸۹۸۱) و(۳۰/۵، رقم ۲۰۳۵)، والنسـائي (۲۲۲۲)، رقم ۲۰۰۱)، وابن خزيمة (۲۰۰۲، رقم ۲۸۰۸)، والطبراني (۷/٤، رقم ۳٤۷۸) و(۴/۵٪ رقم ۳۵۷۲)، و(۳۲۷۲۳، رقم ۹۱۲)، وابن سعد (۵۱/۷).

⁽٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، (ت: ٥٤٨هـ)، ج٤، ص١٣٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

⁽٣) المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، (ت: ٢١١هـ)، ج١١، ص ٢٠٧٠، المحتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

وقال أبو عبيد: «حدثني علي بن هاشم بن البريد عن هشام بن عروة عن أبيه قال خطب أبو بكر في فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني وليت أمركم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن وسن النبي وعلمنا فعملنا واعْلَمُنَّ أيها الناس، أن أكيس الكيس الهدى، _ أو قال التقى، شك أبو عبيد قال: وأكثر ظني أنه التقىى _ وأن أعجز العجز الفجور وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق، يا أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أنا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زغت فقوموني»(۱).

فلو كانت الطاعة لهم مطلقة لما كان له أن يأمرهم بأن يقوموه إذا اعوج، وأن يعلن لهم أن لا طاعة له عليهم إن عصى الله ورسوله، لما في ذلك من تبديل حكم الله، وقد سبق أن سلمان قال لعمر والله الله، وقد أعطى كل واحد منهم ثوبا، حتى شهد له ابنه عبدالله أنه أعطاه ثوبه مع ثوبه، فكانت له بهما حلة، فما كان لسلمان لو كانت الطاعة واجبة على الإطلاق أن يعترض على الفاروق، وما كان للفاروق أيضا أن يقر سلمان على هذا الاعتراض، ولكن ذلك دليل على أن هديهم كان منسجما مع روح الإسلام ومقاصد الشرع، في تحقيق العدل وترسيخ الحق، وأن إقرار الطاعة المطلقة لهم، ولو عصوا وبغوا، مناف لذلك وناقض لعرى الدين.

وقد نص عمر على أن على الرعية أن تُقوِّم الخليفة إن اعوج، كما أن عليه أن يقومهم إن اعوجوا، فقد أخرج ابن شبة في (تاريخ المدينة) بإسناده إلى عفيف بن معدي كرب، أنهم خرجوا من الكوفة إلى المدينة، يشكون إلى عمر على واليه بالكوفة سعد بن أبى وقاص، ويطلبون منه عزله،

⁽١) كتاب الأموال، ص١٢.

فعزله عنهم، _ مع سابقته في الإسلام وارتباط نسبه ورحمه بالنبي الله عمر: «أخبروني عما أسألكم عنه إذا كان الإمام عليكم فجار عليكم ومنعكم حقوقكم وأساء صحبتكم ما تصنعون به؟ قلنا: يا أمير المؤمنين ما نصنع به؟ إن رأينا خيرا حمدنا الله وقبلنا، وإن رأينا جورا وظلما صبرنا حتى يفرج الله منه، قال: أما هو إلا ما أسمع؟ قالوا: لا والله ما عندنا إلا ما قلنا لك، قال: فضرب بيده على جبهته، ثم قال: لا والله الذي لا إله إلا هو، لا تكونون شهداء في الأرض، حتى تأخذوهم كأخذهم إياكم، وإلا فلا»(۱).

وهو كلام غني عن التعليق، فإنه شاهد على أن الشهادة على الناس، التي هي وظيفة هذه الأمة، لا تكون إلا بردع الخلفاء عن الباطل، وردهم إلى الحق بكل وسيلة، كما يردع الخلفاء العامة عن الباطل، ويردونهم إلى الحق بالقوة.

وقد علق الإمام على بن أبي طالب _ كرم الله وجهه _ وجوب طاعة الإمام على الرعية على أمرين اثنين، وهما حكمه بما أنزل الله وأداؤه الأمانة، فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عنه ذلك، قال: وحدثنا عبدالله بن إدريس، وأبو إسماعيل إبراهيم بن سليمان المؤدب والأشجعي واسمه عبيدالله ابن عبيد الرحمن كلهم عن إسماعيل ابن أبي خالد عن مصعب بن سعد قال: قال علي بن أبي طالب ولل كلمات أصاب فيهن الحق، قال: يحق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدى الأمانة فإذا

⁽۱) تاريخ المدينة المنورة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، (ت: ٢٦٢هـ)، ج٢، ص٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، تحقيق: علي محمد دندل وياسيين سعد الدين بيان.

فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا ويجيبوه إذا دعا»(١).

وقد تقدم فيما ذكرته عن عمر بن عبد العزيز رها أنه رفع صوته في خطبته حتى أسمع الناس، فقال: «يا أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله وكان فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

وأحاديث الرسول على شاهدة بهذا، فقد قال الله: «لا طاعة لأحد في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف» (٢)، واستكانة الإنسان في أخذ ماله وجلد ظهره بغير حق، إنما هي طاعة في غير معروف، بل في جور وظلم، فما كان رسول الله على ليأمر بها.

هذا؛ ومن أولويات الدين ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهما من أقوى عرى الإسلام التي تشد المؤمنين والمؤمنات بعضهم إلى بعض، فقد قال تعالى ﴿ وَاللَّمُؤُمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيااً مُعَضِّ يَأْمُرُونَ بِعض، فقد قال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيااً مُعَضِّ يَأْمُرُونَ الزَّكُوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكُوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكُوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكُوةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ اللّهَ اللّهَ اللّهَ عَزِينَ حَكِيمُ ﴾ ويُطِيعُونَ اللّه ورسوله والنه والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فإذا ذهب شيء من ذلك انحلت الرابطة، وقد بدأ بالأمر وطاعة الله ورسوله، فإذا ذهب شيء من ذلك انحلت الرابطة، وقد بدأ بالأمر

⁽۱) المرجع السابق، ص۱۳، وأخرجه سعيد بن منصور (١٢٨٦/٤، رقم ٢٥١)، وابن أبي شيبة (٢٥/٦)، رقم ٣٢٥٣١)، وابن جرير (١٤٥/٥)، وابن زنجويه في الأموال (٣٥/١) والخلال في السنة (١٠٩/١ رقم ٢٥).

⁽۲) أخرجه البخاري (۲۲۱۲/۱، رقم ۲۷۲۱)، ومسلم (۱۸۶۳)، رقم ۱۸٤۰)، وأبو داود (۲۰۹٪)، رقم ۲۲۹/۱)، والنسائي (۲۰۹٪)، رقم ۲۲۹٪)، وابن حبان (۲۲۹٪)، رقم ۷۲۷٪)، وابن أبي شيبة (۲/۳٪)، رقم ۲۲۳٪)، وأحمد (۸۲/۱، رقم ۲۲۲٪)، والحاكم (۲۳۲٪)، رقم ۲۲۲٪) وقال: صحيح الإسناد.

بالمعروف والنهي عن المنكر قبل غيرهما، لأنهما يصان بهما الدين، وتحفظ بهما الحقوق، وينصف بهما المظلوم من ظالمه.

وهما ـ بلا ريب ـ يشملان جميع طبقات الناس من حكام ومحكومين ورعاة ورعايا، فعلى الرعية أن تأمر راعيها بالمعروف وتنهاه عن المنكر، كما أن على الراعي ذلك في رعيته، ويدل عليه قول النبي هذا همن رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(")، فقد أطلق الأمر بهذا في كل من رأى منكرا، و(من) من أدوات العموم؛ فيصدق ذلك على الراعي والرعية، ويؤكد هذا قول النبي هذا «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم»(أ).

وقال ﷺ: «إذا رأيت أمتي تهاب، فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منهم»(٥).

وبالجملة؛ فإن الله تعالى يأبى على رسوله على أن يكون داعية إلى إقرار الظلم والاستكانة للجور والفساد، ويأبى على دينه الإسلام أن يكون سلما

⁽٣) أخرجه الطيالسي (ص٢٩٢، رقم ٢٩٦١)، وأحمد (٣/٤، رقم ١١٤٧٨)، وعبد بن حميد (ص٤٨٨، رقم ٢٩٠١)، ومسلم (١٩٦١، رقم ٤٩) وأبو داود (٢٩٦١، رقم ٢٩٠١)، والترمذي (٤/٤٦، رقم ٢٩٠١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١١٨، رقم ٢٠٠٨)، وابن ماجه (٢١٢، رقم ١٣٠٠)، وابن حبان (١١١١، وقم ٣٠٠٧). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٢٨٩١، رقم ٢٠٠٩)، والبيهقي (١٠٠٠، رقم ١٩٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨/١٠).

⁽٤) أخرجـه الطبراني في الكبيـر (١٠٢٦٠ رقم ١٠٢٦٧)، وأحمـد (٣٩١/١، رقم ٣٧١٣)، والترمذي (٢٥٢/٥، رقم ٣٠٤٧)، وقال: حسن غريب.

⁽٥) أخرجه الحاكم (١٠٨/٤ رقم ٧٠٣٦) وصححه ووافقه الذهبي.

للظالمين يصلون به إلى أهوائهم ويحققون به مآربهم، كيف؛ وهو تعالى لم يرسل رسله وينزل كتبه، إلا لرفع الظلم وبسط العدل بين عباده، وأن يكون له وحده الحكم، فقد قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِللَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُو خَيْرُ اللَّهِ اللَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُو خَيْرُ اللّهَ اللّهِ اللّهِ يَقُصُ ٱلْحَقَّ وَهُو خَيْرُ ٱلْفَامِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِللّهِ أَمَرَ أَلّا تَعَبُدُوۤا إِلّا إِليّا أَن وَلِكَ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ وهي منه الما اللهُ الل

وقد علمت أن الطاعة المطلقة إنما هي له وحده ولرسوله ، لأنه الله ينطق عن الهوى، فقد صانه تعالى من الزلل، وعصمه عن المؤثرات النفسية والخارجية، فلا يأمر إلا بطاعة الله ولا ينهى إلا عن معصيته، أما من عداه فليس هو من ذلك في شيء، لذلك كان تقييد طاعة من تجب لهم الطاعة بأن تكون في حدود طاعة الله تعالى ورسوله أمرا لا مناص منه، وما كان الله تعالى ليرفع إلى مقام رسوله الأمين المتسلطين على عباده من غواة المجرمين، الذين قال فيهم: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْبَةٍ أَكْبِرَ مُجْرِمِيهَا المجرمين، الذين قال فيهم: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْبَةٍ أَكْبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيمَانَهُ وَمَا يَشْعُرُونَ إِلّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ومع هذا، فإن حديث: «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»، لم يخل إسناده من مقال، فهو عند مسلم من رواية زيد بن سلام عن جده أبي سلام عن حذيفة، ولم يثبت سماع أبي سلام من حذيفة، فقد قال أبو زرعة: «قال العلائي: روى عن حذيفة وأبي مالك الأشعري وذلك في صحيح مسلم، وقال الدارقطني: لم يسمع منهما»(۱).

⁽۱) تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين أبي زرعة العراقي، ج١، ص٣١٦، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩م، تحقيق: عبدالله نوارة.

وقد تشبث الذين رسخوا في الأمة طاعة الظلمة الفجرة، وجعلوهم كالعدول البررة، بحديث ابن عباس عن النبي على: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية»(۱)، وليست لهم في هذا حجة، فإن غاية ما في الحديث أن من كان تحت إمرة أحد يقوده، فوقع بينهما خلاف، فإن على المقود أن يصبر، ولا يثأر لنفسه بتمزيق الصف وتشتيت الكلمة وإثارة الفتنة بين المسلمين حتى يجعل الله له مخرجا، بحيث يجد الحجة في مرافعة خصمه ومقاضاته إلى من يحكم بينهما، ولا يعني ذلك _ بحال _ الصبر على انتهاك المحارم، وإشاعة الفساد، وانتشار الظلم، إذ لو كان الحديث دالا على وجوب الصبر، وعدم الخروج على الإطلاق، لشمل ذلك ما لو ارتد الأمير ونبذ الإسلام وراء ظهره، فلما تعذر ذلك بالإجماع، وجب حمله على هذا المعنى الصحيح، الذي يساير روح التشريع، ويتفق مع مقاصد الدين.

وتعلقوا _ بجانب ما تقدم _ بأدلة أخرى، منها قوله تعالى فيما حكاه عن ابن آدم: ﴿ لَهِنُ بَسَطَتَ إِلَى يَدَكَ لِنَقَنْكَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِى إِلَيْكَ لِأَقَنُكُ إِنِيَ ابْسَطَتَ إِلَى يَدَكَ لِنَقَنْكَ إِنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِى إِلَيْكَ لِأَقَنُكُ إِنِي الْحَافُ الله رَبِّ ٱلْعَلَمِينَ ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَن تَبُوا أَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَخَافُ الله رَبِ ٱلنَّارِ وَذَلِكَ جَزَرَقُ ٱلظّلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨ - ٢٩]، وذلك أنهم رأوا سريان هذا الحكم فيما يكون بين المتسلط الظالم وبين مظلوميه.

وقد أجاب ابن حزم عن هذا الاستدلال، بأن «تلك شريعة أخرى غير

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۲۰۱۱، رقم ۲۸۲۱)، والبخـاري (۲۸۸۸۱، رقم ۲۶۲۱)، ومسـلم (۲) أخرجـه أحمـد (۱۸۲۱)، وأبـو يعلـي (۲۳٤/۱، رقم ۲۳۲۷). وأخرجـه أيضًا: الطبراني (۲۳۱۷)، رقم ۱۲۷/۱۱، رقم ۲۷۷۹)، والبيهقـي (۱۸۷۸، رقم ۲۵۱۹)، والبيهقـي (۲۸۷۸، رقم ۲۵۱۳)، وأبو عوانة (۲۳۲۶، رقم ۷۱۷۷).

شريعتنا، وقد قال الله عَيْكِ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]»(١).

قلت: قد يعترض معترض على هذا الجواب، بأن دعوى أن ذلك من خصوصيات تلك الشريعة مدفوع بذكره في القرآن، فلو لم يكن مشروعا لنا لم يذكر، وجوابه أن كثيرا مما ذكر في القرآن من أخبار الأمم الغابرة والنبوات السابقة هو غير مشروع لنا، ناهيك برؤيا إبراهيم على، أنه يذبح ابنه إسماعيل، وقد عد ذلك أمرا بذبحه، وشَرَعَ في امتثاله، لولا عناية الله التي تداركتهما، ولو كان مثله مشروعا لنا لوجب على كل من رأى في منامه أن يذبح ولده أن يفعل ذلك، إلا أن يفدى بذبح عظيم، كما فدي إسماعيل على، وما أبعد ذلك عن الفهم الصحيح لمقاصد القرآن، فإن اعترض معترض بأن الحديث دل على وجوب التأسي بخير ابني آدم في الحديث، قال: فقلت: يا رسول الله، أرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني، قال: فقال رسول الله على: «كن كابني آدم». وتلا ﴿ لَهِنَ بَسَطَتَ إِلَىٰ المِتَلِنَي، قال: فقال رسول الله على الله الله الله المنه المناه المنه المنه المنه المنه المنه الله المنه المن

فجوابه: أن الحديث الآحادي ولو صح سنده، يترك العمل به لخمسة أسباب ذكرها الحافظ البغدادي، في قوله: "وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور:

أحدها: أن يخالف موجبات العقول، فيعلم بطلانه، لأن الشرع إنما يَرِدُ بمجوزات العقول، أما بخلاف العقول فلا.

والثاني: أن يخالف نص الكتاب أو السنة المتواترة، فيعلم أنه لا أصل له أو منسوخ.

⁽١) الفصل في الملل، ج٤، ص١٣٣.

والثالث: أن يخالف الإجماع، فيستدل على أنه منسوخ، أو لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون صحيحاً غير منسوخ وتجمع الأمة على خلافه.

والرابع: أن ينفرد الواحد برواية ما يجب على كافة الخلق علمه، فيدل ذلك على أنه لا أصل له؛ لأنه لا يجوز أن يكون له أصل وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم.

والخامس: أن ينفرد برواية ما جرت العادة بأن ينقله أهل التواتر، فلا يقبل لأنه لا يجوز أن ينفرد في مثل هذا بالرواية»(١).

وأنت تدري أن الأدلة القرآنية صريحة في جواز دفع عدوان المعتدي، فقد قال تعالى: ﴿وَالْمُرْمَنِ وَصَاصُ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُم فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا فقد قال تعالى: ﴿ وَالْمَنِ انْنَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ عَلَيْكُم فَاعْلَيْهِم مِّن اعْتَدَىٰ عَلَيْكُم فَاعْلَيْهِم مِّن الْعَدَىٰ عَلَيْكُم ﴿ وَاللّهِ وَقَال : ﴿ وَلَمَنِ النَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ وَفَالُولِيكَ مَا عَلَيْهِم مِّن السّورى: ٤١]، ومع هذا انعقد الإجماع أيضا على جواز دفع الصائل، وقد والأخذ بظاهر هذا الحديث وبقصة ابني آدم يمنع من دفع الصائل، وقد جاءت أيضا أحاديث أخرى دالة على مشروعية قتال الإنسان عن نفسه وماله وأهله، منها قوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد»(٢)، وقوله: «من قتل دون

⁽۱) الفقيه والمتفقه؛ الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي؛ ج١ ص١٣٢ - ١٣٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

⁽۲) أخرجه الضياء من طريق أنس (۲۸٤/٦، رقم ۲۲۹۹)، والنسائي من طريق علقمة (۱۱٦/٧، رقم ۴۰۵). وأخرجه أيضا رقم ۴۰۵)، ومن طريق عبدالله بن عمرو (۱۱۳/۱، رقم ۱۸۵۲)، وأحمد (۲۲۳۲، عبدالرزاق من طريق عبدالله بن عمرو (۲۱۳/۱، رقم ۱۸۵۲، وأحمد (۱۸۵۲، رقم ۷۰۸٤)، والبخاري (۷۰۷۸، رقم ۲۳۵۸)، ومسلم (۱۲٤/۱، رقم ۱۵۱)، والترمذي (۲۹/۶، رقم ۱۵۱۹) وصححه الألباني، والنسائي (۱۱۵/۷، رقم ۲۹۸۷)، ومن طريق شداد بن أوس أخرجه الطبراني (۲۹۲۷، رقم ۲۹۷۷). قال الهيثمي (۱۲۵۶)، (۲۲۵۸): فيه قزعة بن سويد، وثقه ابن معين في رواية، وابن عدي، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، ومن طريق أبي هريرة أخرجه الخطيب (۲۲۹۲)، ومن طريق ابن مسعود أخرجه =

ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» (۱)، وقوله: «من قاتل دون ماله حتى يقتل فهو شهيد» (۲)، وفي رواية: «من قاتل دون نفسه حتى يقتل فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله حتى يقتل فهو شهيد، ومن قتل في جنب الله؛ فهو شهيد» ($^{(7)}$)، وفيه مشروعية القتال للدفاع عن النفس والمال والأهل.

هــذا؛ ويحتمل أن يكـون حديث سـعد بن أبي وقـاص كان إبان أمر المسلمين بكف أيديهم عن القتال، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَوْ تَرَ المسلمين بكف أيديهم عن القتال، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَوْ تَرَ المسلمين فِيلَ هَمُ مُكُفُّواً أَيْدِيكُمُ ﴾ [النسـاء: ٧٧]، وكانت هذه مرحلة أراد الله سـبحانه

الطبراني (۲۰۱/۱۰، رقم ۱۰٤٦۳). قال الهيثمي (۲۰۱٪۱۱): فيه عبيد بن محمد المحارمی وهو ضعيف، وأخرجه عبدالرزاق أيضا من طريق عمر بن عبدالعزيز (۱۱۲/۱۰، وهو ضعيف، وأخرجه أحمد من طريق السيد الحسين (۱۸۸۱، ۹۵)، ومن طريق علي بن أبي طالب أخرجه أبو يعلى (۲۱۲٪۱۱ رقم ۲۷۷۵). وأحمد (۲۸۸۱، رقم ۹۵۰)، ومن طريق سعيد بن زيد أخرجه الترمذي (۲۸٪۱، رقم ۱۱۲۱۱) وقال حسن صحيح، وابن ماجه (۲۸٪۱، رقم ۲۵۸۱)، وابن حبان (۱۱۱٬۱۱، رقم ۲۷۹۱)، والطبراني (۱۸۲۱، رقم ۲۵۸۲)، وابن عساكر (۳۱٪۱۱، وأبو داود (۲۲٪۱٪ رقم ۲۷۲۲)، وابن عساكر (۲۲٪۱٪)، ومن طريق سويد بن مقرن أخرجه ابن عساكر (۲۸٪۱٪)، ومن طريق ابن عساكر (۲۸٪۱٪)، وابن أبي عاصم في الأحاد (۲۰٪۱٪)، وابن قانع (۲۰٪۱٪)، والطبراني في الأوسط (۸۳٪۱)، والحاكم (۲۲٪۱٪)، والحاكم (۲۲٪۱٪)، رقم ۲۵٪).

⁽۱) أخرجه عبدالرزاق (۱۱٤/۱۰، رقم ۱۸۵٦٥)، وأحمد (۱۹۰/۱، رقم ۱۹۰۲)، وعبد بن حميد (ص٦٦، رقم ۱۹۰۲)، وأبو داود (۲۲۵٪، رقم ۲۷۷٪)، والترمذي (۳۰/۶، رقم ۱۲۲۱) وقال: حسن صحيح. والنسائي (۱۱۲۸، رقم ۲۹۰۷)، وأبو يعلى (۲۲۸٪، رقم ۹۶۹)، والبيهقي (۲۲۲٪، رقم ۵۸۸)، والضياء (۲۹۲٪، رقم ۱۰۹۲) وقال: إسناده حسن

⁽٢) أخرجه الطبراني (١٥٢/١، رقم ٣٥٢)، والنسائي (١١٥/٧، رقم ٤٠٩١).

⁽٣) أخرجه عبدالرزاق (١١٦/١٠، رقم ١٨٥٧٠).

بها ترويض المسلمين على الصبر، على البلاء وأن تكون معاملتهم للمشركين بالسياسة والحكمة، فلما تهيأت الظروف للجهاد أذن لهم به وأمرهم بالجهاد، وقد ذكر ذلك القرطبي في قوله: «قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله، قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا، وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر»(١).

واستدلوا أيضا بما روي عن النبي هي من قوله: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم، قال: لا، ما صلوا»(٢).

وجوابه: أنه لا يخلو من ضعف حسب معايير علماء النقد، لأن في إسناده قتادة، وقد رواه بالعنعنة، وهو مدلس مشهور، قال الحافظ ابن حجر: «وكان مدلسا على قدر فيه، وقال البخاري: لا يشبه أن قتادة سمع من بشر بن عائذ، لأنه قديم الموت ولا نعرف له سماعا من ابن بريدة، وقال في موضع آخر: ما أرى سمع قتادة من بشير بن نهيك، وقال علي: ما أرى قتادة سمع من أبي عبدالله الجدلي، وقال البزار: سمع من طاوس ولم يسمع من الزهري وقد روى عنه ثلاثة أحاديث، وقال الحاكم في علوم الحديث: لم يسمع قتادة من صحابي غير أنس، وقد ذكر ابن أبي حاتم عن أحمد بن حنبل مثل ذلك، وزاد: قيل له فابن سرجس،

⁽۱) تفسير القرطبي، ج٦، ص١٣٦.

⁽۲) أخرجه مسلم (۱۶۸۰/۳، رقم ۱۸۵۶، وأبو داود (۲۶۲/۶، رقم ۲۲۲۱) وابن أبي شيبة (۲۱۲/۱۶، رقم ۲۲۹۱)، أبو يعلى (۲۱۲/۱۱، رقم ۲۹۲۹)، أبو يعلى (۲۱۲/۱۱، رقم ۱۹۸۰)، ونعيم بن حماد (۱۰۰/۱، رقم ۳۸۰).

فكأنه لم يره سماعا، قال أحمد: ولم يسمع من عبدالله بن الحارث الهاشمي، ولا من القاسم، ولا سالم، ولا سعيد بن جبير، ولا عبدالله ابن مغفل، وقال البرديجي: لم يصح له سماع من أبي سلمة بن عبدالرحمن، ولم يسمع من الشعبي، ولا من عروة بن الزبير، وقال ابن معين: لم يسمع من ابن أبي مليكة، ولا من حميد بن عبدالرحمن الحميري، ولا من مسلم بن يسار، ولا من رجاء بن حيوة، ولا من حكيم بن عفان، ولا من عبدالرحمن مولى أم برثن، وقال في رواية ابن الجنيد: لم يلق سعيد بن جبير، ولا مجاهدا، ولا سليمان ابن يسار، وقال يحيى بن سعيد: لم يسمع سماعه من معاذة، وقال أبو حاتم: قتادة عن أبي موسى وعائشة وأبي هريرة ومعقل بن يسار، وقال أبو داود: حدث قتادة عن ثلاثين رجلا لم يسمع منهم». اهد().

وقال الباجي: «قال أبو بكر بن أبي خيثمة، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا سليمان بن داود، قال: قال شعبة: كنت أعرف إذا جاء ما سمع قتادة مما لم يسمع، كان إذا جاء ما سمع يقول: حدثنا أنس حدثنا الحسن حدثنا سعيد حدثنا مطرف، وإذا جاء ما لم يسمع، يقول: قال سعيد بن جبير، قال أبو قلابة، قال أبو بكر: حدثنا أبي حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي، قيل له: رأيت قتادة؟ قال: نعم، رأيته كحاطب ليل، قال أبو بكر: حدثنا محمد بن عبدالله الرازي، حدثنا معتمر بن سليمان، عن أبي عمرو بن العلاء، قال: كان قتادة وعمرو بن شعيب لا يغث عليهما شيء، يأخذان عن كل أحد»(٢).

⁽۱) تهذیب التهذیب، ج۸، ص۳۱۸.

⁽۲) التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي، ج٣ ص٢٠٦، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. أبو لبابة حسين.

وقال ابن حبان: «وكان مدلسا»(١).

وهو رواه عن الحسن، عن ضبة بن محصن، بالعنعنة، وقد يعل من حيث إن الحسن أيضا رواه عن ضبة، معنعنا، مع أن الحسن عند أهل النقد يعد في المدلسين، فقد قال الحافظ ابن حجر: «روى عن أبي بن كعب وسعد بن عبادة وعمر بن الخطاب ولم يدركهم، وعن ثوبان وعمار بن ياسر وأبي هريرة وعثمان بن أبي العاص ومعقل بن سنان ولم يسمع منهم»(٢).

وقال أيضا: «وكان يرسل كثيرا ويدلس، قال البزار: كان يروي عن جماعة لم يسمع منهم فيتجوز ويقول حدثنا وخطبنا يعني قومه الذين حدثوا وخطبوا بالبصرة»(٣).

والحديث جاء أيضا عن الحسن، عند أبي داود من غير طريق قتادة، فقد أخرجه عنه من طريق المعلى بن زياد، وهشام بن حسان عنه، وهما ضعيفان، قال ابن الجوزي في المعلى بن زياد: «قال يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال ابن عدي: لا أرى بروايته بأسا»(٤).

وأنت تدري أن الجارح مقدم على الموثق، وأما هشام بن حسان، فقد قال الحافظ ابن حجر: «وفي روايته عن الحسن وعطاء مقال، لأنه قيل كان يرسل عنهما»(٥).

واستدلوا أيضا بما روي عن عبادة بن الصامت رله قال: «دعانا النبي ﷺ

⁽۱) الثقات، ج٥، ص٣٢٢.

⁽۲) تهذیب التهذیب، ج۲، ص۲۳۱.

⁽٣) تقريب التهذيب، تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ص١٦٠، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.

⁽٤) الضعفاء والمتروكين، ج٣، ص١٣١.

⁽٥) تقريب التهذيب، ص٥٧٢.

فبايعناه، فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان (١).

ووجه استدلالهم به أن عصيان من ولي الأمر لا يجوز، إلا إن كان مرتكبا كفرا بواحا، وهو ما يخرجه من ملة الإسلام.

وجوابه: أن الكفر أعم من أن يكون كفر ملة مخرجا من الملة، أو كفر نعمة يصدق على من ركب معصية وأصر عليها، فإن الكفر لغة: بمعنى التغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَمْثُلِ غَيْثٍ أَعُجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَالُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠]، فإن المراد بالكفار فيه الزراع، لأنهم يكفرون البذر بما يغطونه به من التراب، ومن شواهده قول لبيد:

يَعلو طَريقَةَ مَتنِها مُتَواتِرٌ في لَيلَةٍ كَفَرَ النُجومَ غَمامُها

ومن لم يقابل نعمة المنعم بما تستحقه من الشكر فقد كفرها، فلذلك كان الكفر نقيض الشكر، لأن الشاكر مظهر للنعمة بقيامه بحقها، ونعمة الله تعالى إنما يتحقق شكرها بتسخيرها في طاعته، ومن استخدمها في معصيته فقد كفرها، قال في «اللسان»: «والكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر. والكفر: جحود النعمة، وهو ضد الشكر»(٢).

ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمُ لَمِن شَكَرْتُمُ لَإِن شَكَرْتُمُ لَإِن سَكَرْتُمُ لَأِنِيدَنَّكُمُ وَلَيِن صَحَفَرَتُمُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ ﴾ [براهيم: ٧]، وقوله في قصة سليمان عَظَن ﴿ وَلَا مِن فَضُلِ رَبِّي لِيَبْلُونِيٓ ءَأَشَكُرُ أَمُ أَكُفُرُ وَمَن شَكَر فَإِنَّمَا

⁽۱) أخرجه البخاري (۲٥٨٩/٦ رقم ٦٦٤٧)، ومسلم (١٤٧١/٣ رقم ١٧٠٩).

⁽٢) لسان العرب، ج٥، ص١٤٤.

يَشُكُرُ لِنَفَسِهِ مَ وَمَن كَفَر فَإِنَّ رَبِّ غَنَيُّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، فقد دلت هذه الآيات الكريمة على أن الكفر والشكر نقيضان، فمن لم يكن شاكرا فهو كافر ولا منزلة بينهما، والشكر لا يكون إلا بأداء حق المنعم من الطاعة وعدم استخدام نعمته في عصيانه، قال في «اللسان»: «الشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثني على المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليها»(١)، ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

كما استدل على أن العمل من الشكر بقوله تعالى: ﴿ أَعْمَلُواْ عَلَى الْمُوكِ اللّهِ مَنْ النصوص شُكُرًا ﴾ [سبأ: ١٣]، ودل على أن تسرك طاعته تعالى كفر كثير من النصوص القرآنية، منها قوله: ﴿ قُلُ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرّسُوكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنّ اللّهَ لاَ يُحِبُ الْكَفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣]، وقوله: ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِبُّ الْبَيْتِ مِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَر فَإِنّ اللّهَ غَنِي عَنِ الْعَلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿ وَمَن لَمّ اللّهُ فَأَوْلَتَ فِي عَنِ الْعَلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وهو في ذلك كله يَحْكُم بِمَا أَنزَل اللّهُ فَأُولَتَ فِي هُمُ الْكَفُورُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهو في ذلك كله ليس كفرا مليا، فلا يخرج المتلبس به من ملة الإسلام، وإنما هو ظالم لنفسه كافر بنعمة ربه مستحق لوعيده، يصدق عليه وصف الفسوق والضلال، وقد حكى صاحب المنار عن شيخه الإمام محمد عبده، أنه حمل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَ الْمُ الْذِينَ يَمُونُونَ السَّيَّاتِ حَقَى إِذَا حَضَرَ عَدَهُمُ الْمُوتُ قُلُ إِنِي تُبْتُ الْكَنَ وَلا اللّذِينَ يَمُونُونَ وَهُمُ صَلَى الْكَاوَلَ اللّهُ مَا المُحَادَ عَن العلماء المنام وذلك في قوله: الأعلام، وذلك في قوله:

«واختار شيخنا أن المراد بالكفر هنا؛ ما هو دون الشرك، وعدم تصديق

⁽١) المصدر السابق، ج٤، ص٤٢٥.

دعوة النبوة، وهو استعمال معروف في القرآن، وصرح به بعض العلماء الأعلام، وقالوا: إنه يوجد كفر دون كفر، وبه فسر أبو حامد الغزالي الحديث الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشربها وهو مؤمن» (١)». اهر (٢).

وقد تعزز إطلاق الكافر على ما دون المشرك، بكثير من نصوص الحديث الشريف، منها قوله على «الصلاة على موتى أهل القبلة، المقرين بالله ورسوله واليوم الآخر، واجبة، فمن تركها فقد كفر»(٣).

وقوله الله الله عدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»(١٠).

⁽۱) أخرجـه من طريق أبـي هريـرة عبدالـرزاق (۲۱۲۷)، رقم ۱۳٦۸)، ومسـلم (۲۷۷۱ رقم ۲۳۸۷)، وأبو داود (۲۲۱۷، رقم ۲۸۹۹)، والترمذي (۱۰۵۸، رقم ۲۲۱۷) وقال: حسن صحيح غريب. وأحمد (۲۷۹۷، رقم ۲۲۱۰)، والبخاري (۲۷۲۹)، رقم ۲۲۲۷)، وابن حبيان (۲۱۰/۱۰، رقم ۲۲۱۲) وأخرجـه من طريق أبي سـعيد أخرجـه عبد بن حميد (ص۲۸۸، رقم ۹۱۹)، والحكيـم (۲۷۶۱)، ومـن طريق أم المؤمنين عائشـة الحكيم (۲۱۹/۱).

⁽٢) تفسير المنار، ج٤، ص٣٦٩.

⁽٣) أخرجه الربيع، (ص٢٩٧ رقم ٧٧٧).

⁽٤) أخرجه من طريق أبي زرعة بن عمرو: الطيالسي (ص٩٢، رقم ٢٦٢)، وابن أبي شيبة (٧/٥٥، رقم ٢٧١٧)، وأحمد (٢٩٦٣، رقم ١٩٢٧)، والبخاري (٢/٥، رقم ١٢١)، ومسلم (٢/١، رقم ٥٦)، والنسائي (٢/٧١، رقم ١٣١٤)، وابن ماجه (٢٠٠٠/، رقم ٢٩٤٠)، وابدن ماجه (٢٩٨١، رقم ٩٤٠)، والدارمي (٢٥٩، رقم ١٩٢١)، وابن حبان (٢٦٨/٣، رقم ٩٤٠)، وأخرجه من طريق ابن عمر: ابن أبي شيبة (٧/٥٥، رقم ٤٧١٧)، وأحمد (٢/٨٠، رقم ٢٥٧١)، وأخرجه من طريق ابن عمر: ابن أبي شيبة (٢٥٥/١، وأبو داود (٢٢١٤، رقم ٢٨٢٤)، والنسائي (٢٢١٧، رقم ٢٢١٤)، وابن ماجه (٢٢٠٠، رقم ٣٩٤٣)، ومن طريق أبي بكرة: أخرجه البخاري (٢٥٩٣، رقم ٢٦٦٠)، والنسائي (١٢٧/١، رقم ٢١٣٠)، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٢٧٩٤، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦، وحسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦٠)، والرسمة ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧٦٠)، والرسمة ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧١٠)، والرسمة ومن طريق أبي المناسة والمناسة والمنا

وقوله ﷺ: «أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان إن أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط»(١).

وقوله: «ثِنْتَان في الناس، وهما بهم كفر: النياحة، والطعن في النسب»(١). وقوله: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»(٣).

وقوله: «ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة». وفي لفظ: ليس بين العبد وبين الكفر إلا أن يدع صلاة مكتوبة». وفي آخر: «بين العبد وبين الكفر الكفر الكفر الكفر الكفر الكفر الصلاة» ($^{(7)}$)، وقوله: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» وقوله: «لا ترغبن

⁼ رقم ٥٤٤٢)، ومن طريق أبي أمامة: أخرجه الطبراني (١٣٧/٨، رقم ٧٦١٩)، ومن طريق ابن مسعود: أخرجه أحمد (٢٠/١، دقم ٣٨١٥)، والطبراني (١٥٥/١٠، رقم ١٠٣٠١).

⁽۱) أخرجه مالك (۱۸٦/۱، رقم ٤٤٥) والبخاري (۱۹/۱، رقم ۲۹)، ومسلم (۲۲٦/۲، رقم ۹۰۷)، من طريق ابن عباس.

⁽٢) ينظر: المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ج٣، ص. ١٠٧ مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ.

⁽٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٧/٦، رقم ٣٩٩٦)، وأحمد (٣٠٣٤، رقم ٢٢٩٨)، والترمذي (٣/١٥)، رقم ٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي (٢٣١/١، رقم ٤٦٢١)، وابن ماجـه (٢٣٤/١، رقم ١٠٠١)، وابـن حبـان (٤/٣٠٥، رقم ١٤٥٤)، والحاكـم (٢٨٨١، رقم ١١)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٣٦٦٣، رقم ١٢٩١). وأخرجه أيضا: ابن أبي شـيبة (٢/١٦، رقم ٣٩٢١)، والدارقطني (٣/٢٥)، والديلمـي (٩٢/٣، رقم ٤٢٥٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصـلاة (٢٨٩٨، رقم ٢٩٨١)، وعبدالله بن أحمد في السـنة (٣٥٨/١، رقم ٢٥٨١)، وقال العراقي: حديث صحيح.

⁽٤) أخرجه الربيع (١٢٥ رقم ٣٠٣).

⁽٥) أخرجـه عبد بـن حميـد (ص٣١٨، رقم ١٠٤٣)، وعبد الـرزاق فـي مصنفـه (١٢٤/٣ رقم ٥٠٠٦).

⁽٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٧٦، رقم ٣٠٣٩٤) وأحمد (٣٨٩/٣، رقم ١٥٢٢١).

⁽٧) أخرجه أحمد من طريق ابن مسعود (٣٨٥/١، رقم ٣٦٤٧)، والبخاري (٢٧/١، رقم ٤٨)، =

عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر»(۱)، وقوله: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه، ولا يرمي رجل رجلا بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك»(۱).

وهو الذي عول عليه حذاق الشراح للحديث الذي نحن بصدده في شرحه شرح قوله على: «إلا أن تروا كفرا بواحا»، فقد قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان أي تعلمونه من دين الله تعالى»(٣).

وقد حكاه عنه العلامة السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، ثم قال: «و مثله كثير».

ومسلم (۱۸۱۱، رقم ۲۵)، والترمذي (۲۰۳۱، رقم ۱۹۸۳) وقال: حسن صحيح. والنسائي (۱۲۲۷، رقم ۱۹۸۹) وابن ماجه (۲۷/۱، رقم ۲۹). وابن حبان (۲۲۰۱، رقم ۱۹۳۹) وابن ماجه (۲۱۸۱، رقم ۱۹۳۹). وابن حبان (۱۲۹۹، رقم ۱۹۹۹)، والحميدي (۱۸۹۰، رقم ۱۹۹۱، ومن طريق أبي هريرة: أخرجه أبو نعيم في الحلية (۱۲۹۹، وإسحاق ابن راهويه (۲۷۹۱، رقم ۴۶۰)، وابن ماجه (۲۲۹۹، رقم ۴۹۶۰) وابن ماجه (۲۲۹۹، وقم ۴۹۶۰) وابن ماجه (۲۳۰۱، رقم ۱۹۶۱): هذا إسناد حسن، ومن طريق سعد: أخرجه ابن ماجه (۲۳۰۱، رقم ۱۹۲۱)، والبزار (۱۳۹۲، رقم ۱۹۲۱)، والبخاري في الأدب المفرد (ص۱۵۶، رقم ۱۹۲۱)، ومن طريق عبدالله بن مغفل: أخرجه أيضا: الطبراني في الأوسط (۲۲۳۱، رقم ۱۹۳۷) قال الهيثمي (۱۸۳۷): فيه كثير بن يحيى وهو ضعيف، ومن طريق عمرو بن النعمان: أخرجه الطبراني وهو ثقة. وابن أبي الدنيا في الصمت (ص۲۷۰، رقم ۹۰۰).

⁽١) أخرجه البخاري (٢٤٨٥/٦، رقم ٦٣٨٦)، ومسلم (٨٠/١، رقم ٦٢) من طريق أبي هريرة.

⁽۲) أخرجه أحمد (۱۲۹۲، رقم ۲۱۵۰۳)، والبخاري (۱۲۹۲/۳، رقم ۳۳۱۷)، ومسلم (۲) اخرجه أحمد (۲۱۹۲، رقم ۲۱۳۷)، ومسلم

⁽٣) صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، (ت: ٦٧٦هـ)، ج١٢، ص٢٢٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢، الطبعة الثانية.

ثم قال: «وظاهر الحديث أن منازعة الإمام الحق في إمامته لنزعها منه لا يجب، إلا إذا كفر كفرا ظاهرا، وكذا عماله وولاته، وأما الظلم والمعاصي فيجب إرجاعه عنها، مع بقاء إمامته وطاعته في المعروف دون المنكر، وإلا خلع ونصب غيره. ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إمام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر، يزيد ابن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب؛ الذيبن لا يزالون يستحبون عبادة الملوك الظالمين على مجاهدتهم لإقامة العدل والدين».

وقال بعده: «وقد صار رأي الأمم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين»(١).

⁽۱) تفسير المنار، ج٦، ص٢٠٤.

⁽٢) أخرجه ابن حبان (٢٠/٤٢٨، رقم ٤٥٦٦).

⁽٣) أخرجه أحمد (٣١/٥ رقم ٢٢٧٨٩).

⁽٤) أخرجه الحاكم (٢٠١/٣)، رقم ٥٥٢٨) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضا: أحمد (٣/٥٥)، وقم ٢٨٩٤).

عبادة، رفعه «سيكون عليكم أمراء، يأمرونكم بما لا تعرفون، ويفعلون ما تنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة»(١)»(٢).

وقال أبو العباس القرطبي: «فإن أمر بمعصية فلا تجوز طاعته في تلك المعصية قولا واحدا، ثم إن كانت تلك المعصية كفرا: وجب خلعه على المسلمين كلهم. وكذلك: لو ترك إقامة قاعدة من قواعد الدين، كإقام الصلاة، وصوم رمضان، وإقامة الحدود، ومنع من ذلك. وكذلك لو أباح شرب الخمر، والزنى، ولم يمنع منهما، لا يختلف في وجوب خلعه. فأما لو ابتدع بدعة، ودعا الناس إليها؛ فالجمهور: على أنه يخلع»(٣).

وحمل ابن حزم ما دل من الروايات على منع القيام على الجائر على أنه منسوخ بالروايات الدالة على خلافه، وذلك في قوله: «وأما الأحاديث، فقد صح عن رسول الله على: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، ليس وراء ذلك من الإيمان شهيء»(أ)، وصح عن رسول الله على: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر

⁽١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٦٩/٧)، رقم ٣٧٢٩٦).

⁽۲) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ت: ۸۵۲هـ)، ج۱۲، ص۸، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب. (۳) الدف المالة كالمنتاخ مسكتان مالم مالم مالم مسكتان مسك

⁽٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج١٢، ص٨٩، الشاملة.

⁽٤) أخرجه الطيالسي (ص٢٩٢، رقم ٢١٩٦)، وأحمد (٢٩/٣)، رقم ١١٤٧٨)، وعبد بن حميد (ص٢٨٤، رقم ٢٩٠١)، وعبد بن حميد (ص٢٨٤، رقم ٩٠) وأبو داود (٢٩٦١، رقم ٩٠٠)، والترمذي (٢٩٢٤، رقم ٢١٧١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١١٨، رقم ٢٠٠٧)، وابن حبان (١١٤، رقم ٢٠٠٧). وأخرجه أيضا: وابن ماجه (٢١٣٠، رقم ٢٠٠٧)، والبيهقي (٢٠/١، رقم ٢٠٩٦)، وأبو نعيم في الحلية أبو يعلى (٢٨٩٢، رقم ٢٠٠٩)، والبيهقي (٩٠/١٠، رقم ٢٩٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨/١٠).

- (۱) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما بلفظ «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» عند أحمد (۸۲/۱، رقم ۲۲۲)، وابن أبي شيبة (۳/۲۵، رقم ۳۳۷۰)، والبخاري (۱۵۷۷، رقم ٤٠/٥)، والبخاري (۲۲۲، رقم ٤٠/٥)، وأبو داود (۳/۰٤، رقم ٢٦٢٥)، والنسائي (۲۵۰۷، رقم ٤٠٠٤)، وأبو يعلى (۲۰۹۱، رقم ۲۲۷)، وأبو عوانة (٤٠٥/٤)، وأبو عوانة (۲۲۷، وابن حبان (۲۲۷، وابن حبان (۲۲۲۰)، ورقم ۲۵۲۷).
- (۲) لم أجده بهذا اللفظ، ولفظ الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ديه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد» أخرجه عبدالرزاق (١١٤/١٠)، رقم ١١٤/١٠)، وأحمد (١١٠٠)، وأحمد (١١٤/١٠)، وعبد ابن حميد (ص٦٦، رقم ٢٠١٦)، وأبو داود (٢٤٦٤، رقم ٢٧٧٤)، والترمذي (٢٠/٤، رقم ١٤٢١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١٦٧، رقم ٥٩٠٤)، وأبو يعلى (٢٤٨/٢، رقم ٥٩٤٩)، والبيهقي (٢٦٦/٣، رقم ٥٨٥٨)، والضياء (٢٩٢٣، رقم ٢٩٢٨) وقال: إسناده حسن.

وأما قوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد» فقد روى من طرق عديدة، فروى عن أنس عند الضياء (٢٨٤/٦)، رقم ٢٢٩٩). ومن طريق علقمة: أخرجه النسائي (١١٦/٧) رقم ٤٠٩٣)، ومن طريق أبي جعفر المرسل عند النسائي (١١٦/٧، رقم ٤٠٩٣)، وذكر أن الموصول خطأ والصواب المرسل، ومن طريق عبدالله بن عمرو: أخرجه عبدالرزاق (۱۱۳/۱۰) رقم ۱۸۵۲۲)، وأحمد (۲۲۳/۲، رقم ۷۰۸٤)، والبخاري (۸۷۷/۲ رقم ٢٣٤٨)، ومسلم (١٢٤/١، رقم ١٤١)، والترملذي (٢٩/٤، رقم ١٤١٩). وأخرجه أيضا: النسائي (١١٥/٧، رقم ٤٠٨٧). ومن طريق شداد بن أوس: أخرجه الطبراني (٢٩٢/٧)، رقم ٧١٧٠). قال الهيثمي (١٧٦/٤)، (٢٤٥/٦)؛ فيه قزعة بن سويد، وثقه ابن معين في رواية، وابن عدى، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. ومن طريق أبي هريرة: أخرجه الخطيب (٣٢٩/٢). ومن طريق ابن مسعود: أخرجه الطبراني (٢٠١/١٠) رقم ١٠٤٦٣). قال الهيثمي (٢٤٤/٦): فيه عبيد بن محمد المحارمي وهو ضعيف. ومن طريق عمر بن عبدالعزيز: أخرجه عبدالرزاق (١١٦/١٠، رقم ١٨٥٦٩). ومن طريق السيد الحسين: أخرجه أحمد (٧٨/١). ومن طريق على بن أبي طالب: أخرجه أبو يعلى (١٤٦/١٢) رقم ٥٧٧). وأخرجه أيضا: أحمد (٧٨/١)، رقم ٥٩٠). ومن طريق سعيد بن زيد: أخرجه الترمذي (٢٨/٤، رقم ١٤١٨)، وابن ماجه (٨٦١/٢، رقم ٢٥٨٠)، وابن حبان _ (١١١/١١)، رقم ٤٧٩٠)، والطبراني (١٥٢/١، رقم ٣٥٢). وأخرجه أيضا: الشافعي

بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده»(١)، فكان ظاهر هذه الأخبار معارضا للآخر، فصح أن إحدى هاتين الجملتين ناسخة للأخرى، لا يمكن غير ذلك، فوجب النظر في أيهما هو الناسخ، فوجدنا تلك الأحاديث التي منها النهي عن القتال موافقة لمعهود الأصل، ولما كانت الحال فيه في أول الإسلام بلا شك، وكانت هذه الأحاديث الأخر واردة بشريعة زائدة وهي القتال، هذا ما لا شك فيه، فقد صح نسخ معنى تلك الأحاديث ورفع حكمها، حين نطقه ١١٠ بهذه الأخر بلا شك، فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمنسوخ ويترك الناسخ، وأن يؤخذ الشك ويترك اليقين، ومن ادعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هي الناسخة فعادت منسوخة فقد ادعى الباطل، وقفا ما لا علم له به، فقال على الله ما لم يعلم، وهذا لا يحل، ولو كان هـذا لما أخلى الله ريجالي هذا الحكم عن دليـل وبرهان يبين به رجوع المنسوخ ناسخا لقوله تعالى في القرآن: ﴿ بِبُيْنَا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وبرهان آخر وهو أن الله ﷺ قال: ﴿ وَإِن طَآبِهَنَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْنَــَٰتُلُواْ فَأَصَّلِحُواْ بَيْنَهُمَّا ۚ فَإِنَّ بَغَتْ إِحْدَنَهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَائِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ يَفِيءَ ﴾ [الحجرات: ٩]، لم يختلف مسلمان في أن هذه الآية التي فيها فرض قتال الفئة الباغية محكمة غير منسوخة، فصح أنها الحاكمة في تلك الأحاديث، فما كان موافقا لهذه

⁽۱۹۳۱)، وأبو داود (۲۱۲/۱)، ومن طريق ما ٤٧٧٢)، وابن عساكر (۲۲۳/٥). ومن طريق جابر: أخرجه الخطيب (۲۱۷/۱۱). ومن طريق سويد بن مقرن: أخرجه ابن عساكر (۲۱۷/۱۱)، وأخرجه أيضا: ابن ومن طريق ابن الزبير وابن كريز معا: أخرجه ابن عساكر (۲٤۸/۲۹). وأخرجه أيضا: ابن أبي عاصم في الآحاد (۲۸/۱۱) وتم ۲۰۸۱)، وابن قانع (۲۲۰/۱۱)، والطبراني في الأوسط (۹۳/۸)، والحاكم (۲۱۵۱۷)، رقم ۷۲۹۱). قال الهيثمي (۲۵۰۱۱): رواه عنهما الطبراني في الأوسط، ورواه الكبير، عن ابن الزبير وحده. وكذلك رواه البزار، وفيه عبدالله ابن مصعب الزبيري، وهو ضعيف.

⁽١) أخرجه أحمد (٧/١، رقم ٣٠).

الآية فهو الناسخ الثابت، وما كان مخالفا لها فهو المنسوخ المرفوع». اهـ(١).

قلت: من الواضح بداهة أن الإسلام الحنيف جاء بالشريعة العادلة السمحة، التي تعطي كل أحد حقه وتنزل كل أمر منزله، وتبني حياة الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولكنه تدرج في تشريع أحكامه من الأدنى إلى الأعلى، فكان الملائم لحال الأمة في بداية أمرها وما كانت عليه من ضعف وقلة، وعدم اجتماع شتاتها، وائتلاف نظامها ـ أن لا تحمل على الأشد في ذلك، حتى يستوسق أمرها ويقوى عضدها ويشتد ساعدها، كما هو واضح في عدم مشروعية القتال لها إلى أن كانت الهجرة، وولدت دولة الإسلام، ووقف على قدميه، فتسنى له أن يتحدى عدوه، ومن ناحية أخرى فإن في حمل الأمة على الصبر بادئ ذي بدء اختبارا لحالها، وترويضا لها على ممارسة أمرها بنفس طويل، حتى يتسنى لها التصدي لما يعنيها والتحدي لمن يناوئها، فتبين بهذا صواب ما ذهب إليه ابن حزم، من كون أدلة المنع سابقة منسوخة وما عداها متأخرا ناسخا، لأنه الملائم لروح الإسلام.

ثم تعرض ابن حزم لدعوى من ادعى أن هذه الحجج، التي عدها ناسخة، إنما هي في اللصوص دون الجبابرة المتسلطين، وتعقبها بقوله:

«وهذا باطل متيقن، لأنه قول بلا برهان، وما يعجز مدع أن يدعي في تلك الأحاديث أنها في قوم دون قوم وفي زمان دون زمان، والدعوى دون برهان لا تصح، وتخصيص النصوص بالدعوى لا يجوز، لأنه قول على الله تعالى بلا علم، وقد جاء عن رسول الله على أن سائلا سأله عن من طلب ماله بغير حق، فقال على: «لا تعطه»، قال: فإن قاتلنى؟ قال: «قاتله»، قال: فإن

⁽١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

قتلته؟ قال: «إلى النار» قال: فإن قتلني؟ قال: «فأنت في الجنة»(۱) أو كلاما هذا معناه، وصح عنه على أنه قال: «المسلم أخو المسلم، لا يسلبه، ولا يظلمه»(۲)، وقد صح أنه على قال في الزكاة: «من سألها على وجهها فليعطها، ومن سألها على غير وجهها فلا يعطها»(۳) وهذا خبر ثابت رويناه من طريق الثقات، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر الصديق، عن رسول الله ، وهذا يبطل تأويل من تأول أحاديث القتال عن المال على اللصوص، فإنهم لا يطلبون الزكاة، وإنما يطلبها السلطان، فاقتصر على معها إذا سألها على غير ما أمر به على ، ولحو اجتمع أهل الحق ما قاواهم أهل الباطل، نسأل الله المعونة والتوفيق». اهدائ.

وقد اشتد إنكار الشوكاني على الذين جمدوا على ظواهر هذه الروايات، فحكموا على خيار المسلمين بالبغي، لقيامهم على أئمة الجور الفسقة المجرمين، وهم لم يقوموا عليهم إلا إنكارا لجورهم، واستنكارا لطمسهم معالم الإسلام، وانتهاكهم حرمه، فقال في ذلك: «لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من السلف الصالح من العترة وغيرهم على أئمة الجور، فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله وأطوع لسنة رسول الله من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم، ولقد أفرط بعض أهل العلم

⁽١) لم نجده.

 ⁽۲) روي بألفاظ متعددة عند أحمد (۲۷۷/۲، رقم ۷۷۱۳) و (۷۱/۵، رقم ۲۰۷۰۸)، ومسلم
 (۱۹۸٦/٤)، والبيهقي (۹۲/٦، رقم ۱۱۲۷۲).

⁽٣) أخرجه أحمد (١١/١، رقم ٧٧)، والبخاري (٢٧/٢، رقم ١٣٨٦)، وأبو داود (٢٦٩، رقم ١٩٢٨)، وابن رقم ١٥٦٧)، وابن رقم ١٥٦٧)، وابن الجارود (١٤/١، رقم ١٢٢٣)، وابن خزيمة (١٤/٤، رقم ٢٢٦١)، وابن حبان (٥٧/٨، رقم ٣٢٦٦)، والدارقطني (٢١٣/١، رقم ٢٢٦٦)، والحاكم (١٨/١، رقم ١٤٤١)، والبيهقي (١٥/٨، رقم ٢٠٣٨).

⁽٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

كالكرامية ومن وافقهم في الجمود على أحاديث الباب، حتى حكموا بأن الحسين السبط وأرضاه باغ على الخمير السكير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة، يزيد بن معاوية، لعنهم الله، فيالله، العجب من مقالات تقشعر منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلمود». اهـ(١).

وأما دعوى الإجماع على وجوب الخضوع والطاعة للظلمة، فقد نقضها ابن حزم، بما يدل أن نهج السلف شاهد على خلافها، فإن مواقفهم وأقوالهم دالة على أن انحراف الإمام عن نهج الحق مسقط لحقه في وجوب الطاعة، قال في (الفصل): «وهذا قول على بن أبي طالب رضي وكل من معه من الصحابة، وقول أم المؤمنين عائشة في وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة، وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير، وغيرهم ممن معهم من الصحابة في أجمعين، وهو قول عبدالله بن الزبير، ومحمد والحسن بن على، وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار، والقائمين يوم الحرة رضى الله عن جميعهم أجمعين، وقول كل من قام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة على جميعهم كأنس بن مالك، وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبد الرحمن ابن أبي ليلي، وسعيد بن جبير، وابن البحتري الطائي، وعطاء السلمي الأزدي، والحسن البصري، ومالك بن دينار، ومسلم بن بشار، وأبى الحوراء، والشعبي، وعبدالله بن غالب، وعقبة ابن عبدالغافر، وعقبة بن صهبان، وماهان، والمطرف بن المغيرة بن شعبة، وأبي المعد، وحنظلة ابن عبدالله، وأبي إسحاق الهنائي، وطلق بن حبيب، والمطرف بن عبدالله بن الشخير، والنصر بن أنس، وعطاء بن السائب، وإبراهيم ابن يزيد التيمي، وأبي الحوسا، وجبلة بن زحر، وغيرهم، ثم من

⁽۱) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت: ١٩٧٥هـ)، ج٧، ص٣٦٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

بعد هؤلاء من تابعي التابعين، ومن بعدهم، كعبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر، وكعبدالله ابن عمر ومحمد بن عجلان، ومن خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن، وهاشم بن بشر، ومطر ومن خرج مع إبراهيم بن عبدالله، وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة، والحسن بن حيي، وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم، فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه، وإما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرا». اهر(۱).

وذكر في «مراتب الإجماع» عن ابن مجاهد البصري الطائي أنه ادعى الإجماع على عدم الخروج على أئمة الجور، وتعقبه بقوله:

«فاستعظمت ذلك، ولعمري إنه عظيم أن يكون قد علم أن مخالف الإجماع كافر فيلقي هذا إلى الناس، وقد علم أن أفاضل الصحابة وبقية الناس يوم الحرة خرجوا على يزيد بن معاوية، وأن ابن الزبير ومن اتبعه من خيار المسلمين خرجوا عليه أيضا، رضي الله عن الخارجين عليه، ولعن قتلتهم، وأن الحسن البصري، وأكابر التابعين خرجوا على الحجاج بسيوفهم، أترى هؤلاء كفروا؟!! بل والله من كفّرهم أحق بالكفر منهم، ولعمري لو كان اختلافا يخفى لعذرناه، ولكنه أمر مشهور، يعرفه أكثر العوام في الأسواق، والمخدّرات في خدورهن لاشتهاره، فلقد يحق على المرء أن يخطم كلامه وأن يزمه إلا بعد تحقيق وميز، وأن يعلم أن الله تعالى بالمرصاد، وأن كلامه محسوب مكتوب، مسئول عنه يوم القيامة، وعن كل تابع له، إلى آخر من اتبعه عليه وزره». اهد(٢).

⁽١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

⁽٢) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، (ت: ٤٥٦هـ)، ص ١٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

ونقل ما قاله في (الفصل) الأستاذ إبراهيم العسعس أبو الهدى، وأتبعه قوله: «والعجب بعد هذا البيان ممن يلقب القائلين بجواز الخروج بالخوارج!! تشويها لسمعتهم وتنفيرا عنهم، وهو فعل باطل وقياس فاسد، يدل إما على جهل وإما على فساد طوية، فليختر القائل بهذا أحلاهما إليه!! _ إلى أن قال: _ أما إن كانوا خوارج لأنهم يرون الخروج على الحاكم المتسلط الظالم فأكرم بها من تهمة، وما الضير في تبني قول الخوارج إن كان قولهم موافقا للدليل، فكيف إذا كان قولهم موافقا لقول جمهور السلف أيضا؟!!»(١).

وقد أوضح الحافظ ابن حجر أن السلف كانوا يرون الخروج على الظلمة، وإنما ترك من بعد ذلك خشية أن ينفتح من أبواب الشرور ما هو أنكى وأشد على الأمة، فقد ذكر الخروج وقال: «وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك، لما رأوه قد أفضى إلى أشد منه، ففي وقعة الحرة ووقعة بن الأشعث وغيرهما عظة لمن تدبر»(7).

وأنت، إن استقريت ما كان عليه الصحابة والتابعون، وما جرى عليه العلماء المحققون المتحررون من العصبية للباطل والتقليد الأعمى، تدرك بلا ريب أن نهجهم كان على خلاف هذا الإجماع المزعوم، الذي يعزز جور الجورة وبطش الظالمين ومكر أكابر المجرمين، بتسويغ إجرامهم في الأمة وحرمان الأمة من انتزاع حقوقها منهم، ناهيك أن الله سبحانه بين أن مكرهم لا ينقلب إلا عليهم، إذ قال: ﴿ وَكَذَاكِ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشَعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، فأنى يكون شرعه المحكم معززا لإجرامهم! وخاذلا لأهل الصلاح والتقوى عن يكون شرعه المحكم معززا لإجرامهم! وخاذلا لأهل الصلاح والتقوى عن دفعه و دحره؟!!

الأمة والسلطة، ص٢٨ - ٢٩.

⁽۲) تهذیب التهذیب، ج۲، ص۲۵۰.

على أن القرآن الكريم واضح في كون فسادهم ـ إن لم يقبض على أيديهم ويردعوا عنه ـ هو الذي يترتب عليه هلاك الأمم ودمار الأمصار، فقد قـال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهُم لِكَ قَرَيّةً أَمَرْنَا مُثَرِفِهَا فَفَسَقُواْ فِهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمّرُنَهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

كما أنه واضح في عدم استواء البررة والفجرة في الأحكام، فقد قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ النَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَكِمُلُواْ الصّالِحَتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ النَّيْقِينَ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ النَّيْقِينَ كَالْفُجَارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السّيّعَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَتِ سَوَآءَ مَعْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُهُمْ كَالْدِينَ عَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَتِ سَوَآءً مَعْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُهُمُ وَمَمَاتُهُمْ مَا لَكُو كَنفَ يَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ اللّمَالِمِينَ كَالْمُجْوِمِينَ ﴿ أَن مَا لَكُو كَنفَ عَكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، فلا يستوون في أحكام الدنيا، كما أنهم لا يستوون في المآل الأخروي، ولكل مقامه وقدره وحكمه.

٣ ـ رد الروايات ولو صحت أسانيدها عندما تتعارض مع هذه السياسة:

انتهى الأمر ببعض الأئمة إلى رسوخ هذا الفكر في أذهانهم، واستيلائه على ألبابهم، حتى تجرأوا أن يردوا الروايات، ولو ثبتت أسانيدها، عندما تعارض موقفهم هذا من الظلمة، بل إلى شطبها رأسا حتى لا يبقى لها أثر؛ فهذا ابن حنبل اعترض على حديث أبي هريرة عن النبي هي، أنه قال: «يهلك أمتي هذا الحي من قريش، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم»(۱)، مع أنه ثابت عند الشيخين وغيرهما، بل رواه أحمد نفسه؛ فقد قال ابنه عبدالله قال أبي في مرضه الذي مات فيه: اضرب على هذا الحديث، فإنه خلاف الأحاديث عن النبي هي، يعني قوله: «اسمعوا

⁽۱) أخرجه أحمد (۳۰۱/۲، رقم ۷۹۹۲)، والبخاري (۱۳۱۹/۳، رقم ۳٤۰۹)، ومسلم (۲۳۱۶)، رقم ۲۹۱۷).

وأطيعوا واصبروا»، ومثله إنكاره حديث ابن مسعود: أن رسول الله وأصحاب «ما من نبي، بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(۱)؛ وهو عند مسلم وغيره، فقد حكى عنه النووي، أنه قال: «هذا الحديث غير محفوظ، قال: وهذا الكلام لا يشبه كلام بن أنه قال: «وابن مسعود يقول: «اصبروا حتى تلقوني» هذا، وأنت تدري أن الحديثين لا غبار عليهما، فهما يعتضدان بنصوص القرآن الدالة على وجوب تغيير المنكر، ويتفقان مع روح الإسلام، الذي يأبى أن يقر أتباعه المنكر ممن كان، كما يدل على صحتهما منهج الصحابة ، وقيامهم على الظلمة كما فعلوا في الحرة وغيرها، وليس إنكارهما إلا ناشئا من تغلغل الفكر الذي رسخ في حياة الأمة، بتأثير السياسة الأموية عليها، وأنت تدري أن الذي رسخ في حياة الأمة، بتأثير السياسة الأموية عليها، وأنت تدري أن الناسئا من تحاكم إلى القرآن والسُنَة، لا أن يحاكما إليها.

ومما هو واضح بداهة، أن هذا منهج اختطه الأمويون في نقد الروايات وردها عندما تعاكس سياستهم، ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه، قال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: كان محمد ابن جبير بن مطعم يحدث: أنه بلغ معاوية _ وهو عنده في وفد من قريش _ أن عبدالله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب معاوية، فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث، ليست في كتاب الله تعالى، ولا تؤثر عن

⁽۱) أخرجــه أحمــد (۲۸۸۱، رقم ۶۳۷۹)، ومســلم (۲۹/۱، رقم ۵۰). والبيهقي (۹۰/۱۰، رقم ۱۹۹۲۵)، وابن منده (۲/۱۵، رقم ۱۸۳).

رسول الله ﷺ؛ فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله على يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»؛ فتراه كيف سارع إلى إنكار هذه الرواية، خشية أن تتهيأ النفوس لتقبل سلطة تخرج عن محيطه القبلي، كأنما الإسلام جاء ليعزز سلطة طائفة من البشر في الأرض، لا ليقيم سلطان الله فيها، وتكون الحاكمية له! كما قال رَجْلُ: ﴿إِنِ ٱلْمُكُمُّمُ إِلَّا لِللَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهم بهذا يتجاهلون أن الناس سواسية بين يدي الله تعالى، لا يتفاضلون في موازين الحق إلا بالتقوى، لا بالأنساب والأحساب كما قال تعالى: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خِلَقْنَكُمْ مِن ذَكَرِ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآبِلَ لِتَعَارَفُواۚ إِنَّا أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَنْقَنكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُ خَبِيرُ ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فليس بين الله تعالى وبين أحد من خلقه نسب، ولا بينه وبينهم سبب إلا التقوى، على أن ما ذكره معاوية عن رسول الله ﷺ _ إن صح _ ليس بمجديهم شيئا؛ فإن بقاء الأمر فيهم إنما هو مشروط بإقامتهم الدين، ولا يخفى على ذي دين وعقل أن بنى أمية بدلوا الدين، منذ قيام معاوية على السلطة الشرعية، وانتزاع الأمر من الخليفة الشرعى وجعله ميراثا يتوارثه الفجرة، الذين نبذوا أحكام الله، وطمسوا معالم الحق، واتخذوا عباد الله خولا، وماله دولة بينهم؛ فليت شعرى هل إصلاته السيوف على رقاب المهاجرين والأنصار، من أجل أن يقبلوا استخلافه يزيد ـ مع علمه بعربدته وفجـوره ـ؛ هو من إقامة الدين؟ وهل ما فعله يزيد بالمهاجرين والأنصار في دار الهجرة، وما انتهكه من حرم، هو من إقامة الدين؟ وهل قصف الكعبة المشرفة بالمجانيق هو من إقامة الدين؟ وهل ترويع المسلمين، وتهديدهم بقطع رؤوسهم إن قالوا كلمة الحق، وأمروا بالتقوى، هو من إقامة الدين؟ وهل إشاعة أن الخليفة لا حساب عليه ولا عقاب، مهما ارتكب هو من إقامة الدين؟!.. كلا وإنما كل ذلك هـــ لله لصرحه وطمس لمعالمــه، ولولا أن الله سبحانه حفظ كتابه

العزيز _ كما وعد _ وآتى ذوي البصائر من العلم بما صح من سنة النبي ﷺ ؛ لما بقى للدين من أثر مع هذه الحرب الضروس التي شنت عليه.

٤ _ إسقاط حرمات دماء الأمة في سبيل تعزيز السلطة وإبقائها.

كان من أثر هذه السياسة الرعناء أن يسترسل الفقهاء في تسويغ سياسة الإبادة لجماهير الأمة، في سبيل تعزيز السلطة ودعمها، مع أنه من المعلوم أن الدماء لها حرمات عظيمة في الإسلام، لا يجوز انتهاكها إلا بمسوغ شرعى، فقد قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَالِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنَّ إِسْرَتِهِ يِلَ أَنَّهُ, مَن قَتَكُ نَفْسُا بِغَيْرِ نَفْسِ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّهَا آخْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَنْهَا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلُ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُ ٱلْعَكَابُ يَوْمَ ٱلْقِيكَمَةِ وَيَخَلُّدُ فِيهِ مُهَكَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]، وحسبك من هذا قرن قتل النفس بالإشراك بالله تعالى، وإذا كان هذا في مطلق النفس البشرية فما بالك بالنفس المؤمنة؟! لذلك شدد الله الوعيد في قتلها، حيث قال: ﴿ وَمَن يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، غير أن السياسة التي كانت تقوم على تبرير ما ترتكبه السلطات عززتها فتاوى فقهية، تبيح للقائم أن يقتل ثلث الأمة، من أجل استصلاحها كما يزعمون، وهو مروي عن الإمام مالك، وأنكر ذلك غالب الفقهاء، وسوغه آخرون(١).

⁽۱) ينظر: البرهان في أصول الفقه، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني أبو المعالي، (ت: ٤٧٨هـ)، ج٢، ص٧٨٥، الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبدالعظيم محمود الديب، غياث الأمم والتياث الظلم، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني أبو المعالي، (ت: ٤٧٨هـ)، ص٣٦٠، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٧٩م، =

وليس بخاف على ذي بصيرة خطورة هذه الفتوى، وأثرها البالغ في دعم الباطل وتسويغ الظلم، فإن كل طاغية إنما يزعم أنه لا يهدف إلا إلى الصلاح والإصلاح، ولا يقاوم إلا الفساد والإفساد، ففرعون الطاغية المتكبر في الأرض قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهَدِيكُمْ إِلّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ في الأرض قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهَدِيكُمُ إِلّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال في موسى: ﴿إِنِّ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، فماذا عسى أن يحجز من اعتاد سفك الدماء، وتغلغلت في نفسه شهوة الملك، أن يدعي كلما أباد أمة من الناس، أنه فعل ذلك لمصلحة الدين، ولسلامة من بقي من الأمة؟، فقد وصل الأمر ببعض سلاطين آل عثمان، أن يقتل أحدهم إخوته وأبناءه خشية منافستهم له، ولربما بادر إلى قتلهم وهم في مرحلة من العمر لا تتصور فيها المنافسة،

الطبعة: الأولى، تحقيق: د. فـؤاد عبدالمنعم، د. مصطفى حلمى، شـرح نهـج البلاغة، والمنخول في تعليقات الأصول، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ) ص٣٥، وص٥٠٠ دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، والمستصفى في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ)، ص١٧٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافي، والإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، على بن عبدالكافي السبكي، (ت: ٧٥٦هـ)، ج٣، ص١٨١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: جماعة من العلماء، وتحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، إبراهيم بن على بن أحمد بن عبدالواحد بن عبدالمنعم الطرسوسي، نجم الدين، (ت: ٧٥٨هـ)، ص٨، وص٨٨، والتحبير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبي الحسن على ابن سليمان المرداوي الحنبلي، (ت: ٨٨٥هـ)، ج٧، ص٣٩٦، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، والفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي، (ت: ١١٢٥هــ)، ج٢، ص١١٨، وج٢، ص١٨١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.، منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، محمد عليش، (ت: ١٢٩٩هـ)، ج٧، ص۱۲٥ - ۱۵، دار الفكر، بيروت، ۱٤٠٩هـ/۱۹۸۹م.

فقد يقتل أحيانا حتى الرضيع، حذر أن يقوم بتحرك ما عندما يبلغ أشده.

وإليك هذا النص الذي يصور هذا الإجرام، الذي كان يرتكب لأجل ما يتصورونه من مصلحة، في الحفاظ على نظام الملك، قال د. رضاء الطيب، الأمين العام للجمعيات الشرعية وعضو هيئة علماء الجمعية:

«كانت هناك عادة وحشية بربرية وهمجية، صاحبت بعض سلاطين آل عثمان، في عصر التخلف والتأخر، وتم فيها سفك دماءٍ بريئة كثيرة، بلا ذنب ولا جريرة حيث كان السلطان الجديد حين يرتقى العرش يقوم بقتل إخوته الذكور حتى لا ينافسوه على الحكم، وكمثال على ذلك، فإن السلطان السابع عشر، (مراد الرابع) قتل أخاه وولى عهده بايزيد، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، ثم قتل أخاه الثاني سليمان، ثم الثالث قاسم، ولم يبق من إخوته الذكور سوى الأخ الرابع إبراهيم، الذي أصبح ولياً للعهد بعد قتل إخوته الثلاثة، وكانت الخلافة في البيت العثماني تنتقل بعد وفاة الخليفة إلى أكبر إخوته، وليس أكبر أبنائه، فإن مات إخوته جميعاً أو قُتِلوا انتقلت الخلافة إلى أكبر أبنائه، وشاءت إرادة الله أنه كلما أنجب السلطان (مراد الرابـع)، ابناً تُوفى بعد فترة، فلم يعش لــه أي من أولاده ليكون ولياً للعهد، وقد بلغت الحماقة به أنه عزم على قتل أخيه الرابع إبراهيم، لكن والدته السلطانة نصحته بتأجيل ذلك، حتى يُرْزَق بابن يجعله ولياً للعهد، ولكن ذلك لم يتحقق وهكذا نجا إبراهيم من القتل، وأصبح الوحيد من آل عثمان الذي بقى على قيد الحياة، وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه السلطان (مراد الرابع)، ولو كان قد قُدِّر له أن يُقتل لكانت ذرية عثمان قد انقرضت، وسلسلة رجالهم قد انقطعت، ودولتهم قد اندثرت»(۱).

⁽١) دولة الخلافة العثمانية (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)، رضا الطيب، ص٠٥، المكتبة الشاملة.

ولربما كان تأثير الجارية المحظية عند السلطان، هو الذي يجعله يلبي رغبتها في قتل أولاده من غيرها، ليصفو الأمر لولدها، كما كان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني، الذي قتل ولده مصطفى الذي كان برا به إرضاء لمحظيته، حتى يؤول الأمر من بعده إلى ابنها سليم، ولم تكتف بقتل مصطفى، وإنما أرسلت إلى طفله الرضيع من يقتله في قراره. (١) وكان للسلطان محمد الثالث تسعة عشر أخا، أمر بخنقهم جميعا يوم تولى السلطة بعد وفاة أبيه، قبل دفن السلطان السابق فدفنوا معه (١).

وكان هذا كله، يجري على مسمع ومرأى من الفقهاء وذوي المناصب الدينية، ولم يكونوا يحركون ساكنا، أو يقفون في وجه هذا الفساد، كل ذلك بتأثير مبدأ الطاعة المطلقة للجائر كالعادل وللمفسد كالمصلح، وقد نص على هذا أحد المؤرخين للدولة العثمانية، فقال: «وكان العلماء والأدباء لا يهتمون إلا بالدين وحده هذا على الرغم من بعض التصرفات التي كان يقوم بها بعض الخلفاء والتي تخالف الإسلام صراحة مثل قتل الأقرباء خوفا من المنازعة على الحكم أو للتفرد بالسلطة أو إباحة شرب الخمور»(٣).

بل ذكرتُ هذا لبعض الشباب المثقفين المهتمين بالدراسات الإسلامية في تركيا، وأضاف إلى ذلك، أن هذا كان يجري بمساندة من الفقهاء، الذين كانت فتاواهم تسوغ هذه التصرفات من سلاطين آل عثمان، وذكر أن معظم هؤلاء الضحايا كانوا يقتلون في أعمار الزهور، وكانوا يتوسلون إلى قاتليهم أن يدعوهم يعيشون كسائر عامة الناس، من غير أن تكون لهم سلطة أو امتيازات خاصة، ولكن ما كانوا يجدون من يصغي إلى طلبهم، فكانوا

⁽١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، فريد بك المحامي، ص٢٤٥ - ٢٤٦، المكتبة الشاملة.

⁽٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٦٧.

⁽٣) انهيار الدولة العثمانية، ص١٣٩، المكتبة الشاملة.

يبادون في زهرة الشباب، كما تأتي النار على الروض النضير فتذره رمادا تذروه الرياح.

وتحول هذا الإجرام إلى قانون رسمي ونظام ثابت في الدولة، حتى جاء من عطله، ورغم تعطيله، فقد كانت تمارس في حق هؤلاء سياسة وقائية، تتمشل في عزلهم عن الناس، في بيوت أو أقفاص خاصة، تمنعهم من الاتصال بالعالم الخارجي(١).

فيا ترى، هل كان سكوت الفقهاء عن هذا المنكر الفظيع، وإقرارهم لهذا الجور الفاحش، إلا أثرا من آثار ذلك الفكر، الذي استقر في نفوس الأمة، منذ نكبت بحكم الجور، وتسلط الظلم عليهم؟.

٥ _ إباحة المحرمات لذوى السلطة.

من المعلوم في الدين بالضرورة، أن الله تعالى حرم على عباده محارم، وأباح لهم ما أراد، لتنضبط حياة الناس وفق شرعه، وليكون في ذلك اختبار لإيمانهم، فإن الانقياد لحكم الله في أمره ونهيه يجسد صدق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُوْمِنِ وَلَا مُوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ وَاللّهُ مُرِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولم الله يكرن أمْرِهِم ومن يعقى الله ورَسُولُهُ فقد ضل ضلاً لله مُرينا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولم يجعل لأحد من خلقه سلطة تشريعية، تخوله أن يحلل أو يحرم من تلقاء نفسه، ولذلك شدد في التحليل والتحريم كما يمليه هوى المحللين أو المحرمين، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَكُ مُ ٱلْكَذِبَ هَذَا المحرمين، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَكُ مُ ٱلْكَذِبَ هَذَا لِنَا اللّهِ ٱلْكَذِبَ لِنَا اللّهِ الْكَذِبَ لَا اللّهِ الْكَذِبَ لاَ النحل: ١١٦].

⁽۱) تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، أحمد الكاتب، ص٢٠٩، مؤسسة الانتشار العربية.

وعدَّ تحريم ما أحل من صفات المشركين وديدنهم، كما في قوله:
﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشَرَكُواْ لَوَ شَاءَ اللّهُ مَا آشْرَكُنا وَلاَ عَابَاؤُنا وَلاَ حَرَّمْنا مِن شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَب النِّينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلُ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمِ
كَذَلِكَ كَذَب النِّينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلُ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمِ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَنْبِعُونَ إِلّا الظّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله:
﴿ وَقَالَ النَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا عَبَدُنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ خَنُ وَلا عَلَى الرُّسُلِ إِلّا
وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ النَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلَ عَلَى الرُّسُلِ إِلّا
وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلَ عَلَى الرُّسُلِ إِلّا
الْبَلْنَعُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]، وتوعد أولئك شر الوعيد ووصفهم بأسوأ
اللهوصاف في قوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ اللّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلَكَهُمْ سَفَهَا يِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُواْ وَمَا كَانُواْ مُهَتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وإذا كان هذا في تحريم الحلال، فما بالك بتحليل الحرام؟! فإن محارم الله تعالى هي حماه، الذي يجب الحذر من الحوم حوله، كما قال النبي على الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه (۱).

وقد يكون التحريم خاصا بجنس من البشر، لما في ذلك من الحكمة الربانية في إنزال كل شيء منزله وإعطاء كل أمر حكمه، وذلك كتحريم

⁽۱) أخرجه أحمد (۲۷۰/۶، رقم ۱۸۳۹۸)، والبخاري (۲۸/۱، رقم ۵۲)، ومسلم (۱۲۱۹٬۳ رقم ۱۲۱۹، رقم ۱۵۹۱)، وأبو داود (۱۸۳۳، رقم ۳۳۳۹، رقم ۳۳۳۰)، والترمندي (۱۱۱۸، رقم ۱۲۰۵، رقم ۱۲۰۵)، وابن ماجه (۱۳۱۸/۱، رقم ۱۲۰۵)، وابن ماجه (۲۲۱۸، رقم ۳۹۸۶)، وأخرجه أيضا: الدارميي (۲۱۹، رقم ۲۳۵۱)، والبيهقي (۲۲۶، رقم ۱۳۵۸)، والبيهقي (۲۱۱۸، رقم ۱۳۵۸).

الذهب والحرير على الرجال دون النساء، لأجل ما طبع عليه الله تعالى الرجال من الخشونة والقوة المنافيتين للبس الحرير والتحلي بالذهب، وقد نص على هذا قوله على: «أحل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحرم على ذكورها»(۱)، وقوله: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم»(۱).

وقد شدد النبي في التختم بالذهب، فعن ابن عباس: أن رسول الله وقد شدد النبي في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «عمد أحدكم الله في حاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «عمد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده»(۱)، وعن علي ابن أبي طالب قال: «نهاني رسول الله في عن لبس القسي، وعن لبس المعصفر، وعن خاتم الذهب، وعن قراءة القرآن في الركوع والسجود»(١).

غير أن الفقهاء، الذين كانوا يسيرون في ركب السلطات الجائرة، أبوا إلا أن يتدخلوا في هذا، فيحلوا لأولى السلطة التختم بالذهب ولبس الحرير^(٥).

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۲۹۲/۶، رقم ۱۹۰۲)، والنسـائي (۱۹۱۸، رقم ۱۹۱۸)، والبيهقـي (۱۹۰۸، رقم ۲۰۱۸)، والبيهقـي (۲۰۲۸، رقم ۲۰۰۹)، والطيالسي (ص ۲۹، رقم ۲۰۰۱)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (۲۸/۱۱، رقم ۱۹۹۳)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (۲۸/۱۱)، رقم ۱۹۹۰).

⁽۲) أخرجه أحمد (۹۲/۱، رقم ۷۰۰)، وأبو داود (۵۰/۵، رقم ۲۰۰۷)، والنسائي (۱۲۰/۸، رقم ۵۱۲۵)، ورقم ۵۱۲۵)، وابسن ماجه (۱۱۸۹/۱، رقم ۳۵۹۵)، والبيهقي (۲/۵۲، رقم ۴۲۵۱)، وأبو وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (۱۰۲/۵، رقم ۲۵۲۹)، والبزار (۲۲/۱، رقم ۲۸۸۱)، وأبو يعلى (۲۳۵/۱، رقم ۲۲۷)، وابن حبان (۲/۱۶۲، رقم ۵۳۲۵).

⁽٣) أخرجه مسلم (١٦٥٥/٣)، رقم ٢٠٩٠)، وابن حبان (١٩٢/١، رقم ١٥)، والبيهقي (٣) أخرجه مسلم (٤٠١٤، رقم ٤٠١٤).

⁽٤) أخرجه الربيع ص٩٨ رقم ٢٣١.

⁽٥) ينظر: الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، (ت: ٧٩٠هـ)، ج٢، ص٨٢، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر. والفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق (مع الهوامـش)، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجـي القرافـي، (ت: ٦٨٤هـ)، ج٤، ص٣٥٣، دار الكتـب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٤٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل المنصور، والسلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، ص٧٤، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

وكان تعليل هذه الإباحة _ كما ذكر الدكتور البوطي _ أن المسلمين فتحوا أعينهم على ما يمتاز به حكام العالم وملوكه، من مظاهر الهيبة والأبهة، في الملبس والمسكن والحياطة والحجابة، فاتجهت الأنظار إلى الأخذ بذلك كله أو شيء منه، واقتنع أكثر الناس، وفي مقدمتهم العلماء والباحثون، بأن الخليفة لم يعد يصلحه _ للنهوض بواجباته تجاه الأمة _ إلا أن يعيش وسط هالة من الهيبة والأبهة والحماية، وإنما يكون ذلك من خلال المظهر الذي يبدو فيه، والمسكن الذي يستقبل فيه شتى فئات الناس، والحماية التي يجب أن تحيط به(۱).

ومعنى ذلك، أن أولئك الحكام حرصوا على أن ينقلوا إلى حياتهم ما وجدوه أو عرفوا عنه في حياة الأكاسرة والقياصرة، من البذخ والإسراف، والتلاعب بأموال الأمة، وعدم الاكتراث بما تكون عليه العامة من البؤس والفقر والحرمان، فلم يكونوا يهتمون إلا بشهواتهم ولا يلتفتون إلا إلى ملذاتهم، وقد سايرهم الفقهاء الرسميون، فجادوا عليهم بالفتاوى السخية التي تبرر ذلك، ولا غرو؛ فإن هؤلاء هم الذين سخوا عليهم، بالتشجيع على ارتكاب المظالم والانغماس في المحارم، مسولين لهم أن لهم عند الله وضعا خاصا بسبب تسلطهم في الأرض، فلا حساب عليهم ولا عقاب!!! كما شهد بذلك الأربعون ليزيد بن عبدالملك، وبهذا تدرك _ أخي القارئ الكريم _ بذلك الأربعون ليزيد بن عبدالملك، وبهذا تدرك _ أخي القارئ الكريم _ ابتز بنو أمية الحكم وساسوه حسب هواهم، فأباحوا لأنفسهم ما لم يحله الله تعالى لنبى مرسل ولا لصديق رضى.

ولم تكن هذه الفتاوى الشادة إلا تصديقا لقول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب

⁽١) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص٤٦.

لسلكتموه، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟، قال: فمن (١)، وعن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن». وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ اَتَّخَاذُوا الحبارَهُمُ وَرُهُبَنَهُمُ أَرُبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه» (١).

(١) سبق تخريجه.

⁽٢) أخرجه الترمذي (٢١١) ٣٥٤/١١).

القسم الأول:

مظاهر الاستبداد

قِيَامُ الْأُمَّة على بني أُمَيَّة «ثورة طالب الحقّ وأبي حمزة نمُوذجًا»:

لما فشا في الأمة الطغيان الأموي، وحاد حكامهم عن شرعة الله، وبنوا سلطتهم على الهوى، واتخذوا عباد الله خولا وماله دولا، لم تتلكأ الأمة في القيام عليهم، ومحاولة استرداد الحق منهم، وانتزاع السلطة من أيديهم، وردهم إلى حكم الله كارهين، فكل من أمكنه القيام عليهم هب إليه، مستجيبا لداعي الله، الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، الذي قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمُ أَن تُودُولُ عَن الفحشاء والمنكر والبغي، الذي قال في كتابه وإنَّ الله يَأْمُرُكُمُ أَن تُودُولُ النساء من الصحابة والتابعين ومن المحابة والتابعين ومن علي، سبط رسول الله على تبعهم بإحسان، وكان ممن قام عليهم الحسين بن علي، سبط رسول الله على وقد انتهت به محاولته إلى الاستشهاد، في وقعة كربلاء الشهيرة، وقد اجتمع حوله لفيف من المسلمين.

وسار على نهجه من بعده، حفيده زيد بن علي، الذي هب للجهاد، في عصر هشام بن عبدالملك الأحول، وانتهى به الأمر إلى مصير جده.

كما هب أهل المدينة المنورة، بمن كان فيهم من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، إلى تحدي كبريائهم، ودفع بطشهم وجورهم

بالسيف، عندما قاموا في وجه الطاغية يزيد ابن معاوية، وقائده العنيد مسرف بن عقبة، فكانت وقعة الحرة المشهورة، وثار عليهم ابن الزبير بمن التف حوله من الصحابة والتابعين، وتمكن حقبة من الدهر من تحرير بعض البلاد، التي كانت واقعة تحت حكمهم، منهم ومن بينها الحرم الشريف صانه الله وحماه _ إلى أن انتهى حكمه بالإجهاز عليه في عهد عبدالملك بن مروان، بقيادة عامله الطاغية الحجاج بن يوسف، ولم يبال الطغاة في هتك حرمة الحرم الشريف، وقصف بيت الله الحرام بالمجانيق، لتحقيق مناهم، من بسط سلطتهم والانتقام من خصمهم.

وقام عليهم جماعة من المسلمين، بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث، وكان فيهم سعيد بن جبير من أئمة التابعين وخيارهم، وعرفت هذه الثورة بثورة التوّابين، إلى أن تمكن الطغاة من إخمادها وإبادة رجالها، بالأسلوب الذي عرفوا به من البطش الشديد والمبالغة في الانتقام.

وما من ريب، أن هذه الحركات جميعا كانت تهدف إلى مقاومة ظلمهم ودفع بطشهم وإخماد فسادهم، ولكن نظرا إلى أن معظم هذه الثورات أجهز عليها قبل أن تصل إلى غاياتها، من إقامة العدل وبسط المعروف وإزهاق الباطل، ما عدا حركة ابن الزبير، التي تمكنت من الحكم برهة من الزمن، رأيت أن أعرض هنا الثورة التي قادها الإمام عبدالله بن يحيى الكندي، وقائده أبو حمزة المختار ابن عوف الشارى، للاعتبارات الآتية:

ا ـ أن هذه الثورة تمكنت من دحر قوى الباطل ـ ولـ و لفترة قصيرة من الزمن، وأماكن محدودة من الأرض ـ، فتيسـ لها أن تجسد النموذج الحي للحكم الإسـ لامي النظيف، حيث يظهر لـ كل ذي عينين البون الشاسع بالمقارنة بين ممارساتها العادلة وممارسات عدوها الجائرة.

- ٢ أنها تنتمي إلى مدرسة، تمكنت في عهود لاحقة أن تحقق هذه الغاية المنشودة في بقاع من بلاد الإسلام، فكانت صورة حية للحكم العادل، والنموذج الأمثل لإحياء الخلافة الراشدة، ولو في بقاع محدودة.
- ٣ـ كثرة لغط الحاقدين في حقها، وحق قادتها ورجالها، وبروز شهادات
 صادقة من قوم منصفين، فندوا ما قاله الحاقدون وما حبكه المغرضون.

ومن المعلوم، أن قيام عمر بن عبد العزيز بنقض ما شاده بنو أمية من الباطل، وعمارة ما هدموه من الحق، يعد شورة عليهم وعلى حكمهم، وإن كانت سلمية، لم يصل إلى مبتغاه فيها بإشهار سلاح أو تكوين جيش، وإنما سيق إليه الخير بعناية الله تعالى.

المهد الذي ترعرعت فيه ثورة طالب الحق.

جاءت ثورة طالب الحق ثمرة من ثمار الممارسات الدعوية، التي تولاها قادة الدعوة في مرحلة الكتمان، بعد صبر ومصابرة وعنت ومعاناة، فقد أنشأ الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد ولها مدرسة خاصة، تعنى بإعداد رجال يحملون ـ مع الفقه في الدين، والبصيرة في العمل، وجهاد النفس ـ هموم الأمة ومحاولة إصلاح ما فسد من أمرها، وبما أن السلطة الظالمة يزعجها هذا الاتجاه، فقد كانت هذه الحركة مواراة بستار الكتمان، خشية أن تمتد إليها يد العدو فتئدها.

ومع تكتم الإمام أبي الشعثاء على أمره، لم يسلم من مضايقة الطغاة، وكان نفيه من البصرة إلى عُمان، حلقة في سلسلة المضايقات التي لقيها، ولا يخفى على مطلع أن جابرا رَحِيَّلُهُ كرع من معين العلم الصافي، من أصحاب رسول الله على الذين أدركهم بالحجاز وبالعراق، فأخذ الدين من

معدنه، وتلقى الفقه من حملته الأمناء، الذين لم تستهوهم مطامع الدنيا ولم يرق لهم بريقها الخلاب، فكانت بسبب هذا مدرسته التي أنشأها بعيدة عن التأثر بالسياسة السائدة، التي انحرفت بأتباعها، فكانوا أبواقا لدعايات الباطل وتبرير الظلم وتسويغ الفساد، كما سبق في شأن الأربعين، الذين شهدوا أن الخليفة لا حساب عليه ولا عقاب.

وتميزت هذه المدرسة، بأنها كانت خطاها نتيجة دراسة عميقة وفهم واع وتخطيط سليم، إذ لم تكن اندفاعا بتأثير عاطفة ملتهبة وحماس متأجج، كما كانت حركات الخوارج، التي أجهز عليها قبل أن تحقق رجاء وتصل إلى غاية، وإنما كان من طبيعتها طول النفس وقوة الصبر، ولذلك لم يندفع الإمام أبو الشعثاء، وراء رغبة النفس في الثورة على الباطل ومحاولة استئصال شأفته، قبل أن يعد لذلك عدته.

ولهذا عني بإعداد الرجال، الذين يجمعون بين عمق التصور وإحكام الخطى، وبين الهمم العالية والصبر الشديد، ويخلصون لله تعالى أقوالهم وأعمالهم، وينذرون له حياتهم، ويسخرون في نصرة دينه طاقاتهم، فأعد لفيفا من الرجال، الذين يعد كل منهم أمة في رجل ورجلا في أمة، وقد لقي الله تعالى قبل أن تتحقق أمنيته في الإثنار للحق والانتصار من الباطل، وإنما سلم القيادة من بعده لتلميذه العملاق، القائد المحنك أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء، الذي قاد السفينة بحنكة الربان الماهر وخبرة الرائد الحصيف، وكان عزمه وإخلاصه لله تعالى وابتغاؤه ما عنده قوته وعتاده، وصبره على الشدائد والمكاره درعه الواقى وحصنه الحصين.

فقد ابتلاه الله تعالى فصبر وشكر، واجتاز مراحل البلاء بنجاح وتوفيق، ومن ذلك تسلط الحجاج عليه، وإلقاؤه في غياهب السجون مع أخيه وحميمه ضمام بن السائب، وإهمالهما حتى كانا يجزان شاربهما بأسنانهما،

وقد تفنن الطاغية في إيذائهما، حتى استشار طبيبا مجوسيا فيما يطعمهما من طعام يعذبهما، فأشار عليه أن يطعمهما الزيت والكراث، وربما ضاق ضمام ذرعا من ذلك، فيقول له أبو عبيدة: على من تضيق؟(١).

وذكر البدر الشماخي الله أن رجلا من المسلمين يسمى أبا سالم سجن معهما، ذكر أنهم يوما قالوا لرجل ممن يدخل عليهم: «اشو لنا دجاجة، وآتنا بأربعة أرغفة، وصانع عليها صاحب السجن، فلما أوصلها واقتسمناها، فإذا بجلبة نحو البيت الذي نحن فيه، فخفنا أن يكون فطن بنا، فرمينا بالجميع في الكنيف، فإذا لم يفطن بنا، في كان طرحنا لها أشد علينا مما مر للمعاينة»(٢).

وهي قصة تنبئ عن معاناتهم في السبجن، حيث كانوا يحرمون من الطعام المألوف ويطعمون ما لم يؤلف، وتشدد عليهم الرقابة، غير أن أبا عبيدة وضماما صبرا على هذا كله، حتى أتاهما الفرج بهلاك الحجاج، ومع شدة الرقابة التي فرضت عليهما بعد إطلاق سراحهما أبى أبو عبيدة إلا أن يقوم بدوره الريادي في إبلاغ رسالة الحق وتبصير الناس بالإسلام، وإعداد جيل من المؤمنين يحمل الأمانة إلى آفاق الأرض.

وقد عمد إلى سرداب في الأرض، فجعله مدرسة له، يربي فيها رجالا يعرفون كيف يحملون الأمانة ويؤدونها، وكيف يصبرون على المكاره، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيل الحق، وكان يظهر للعامة أنه وتلامذته يعتنون في ذلك السرداب بصنع القفاف _ ولذلك اشتهر بالقفاف _، وقد وضع على باب السرداب سلسلة تتحرك بالضغط على ما حولها في المرور،

⁽۱) ينظر: كتاب السير، لأحمد بن سعيد الشماخي، ج۱، ص۸۱، سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد بن سعود السيابي.

⁽٢) ينظر: المرجع السابق، ص٨٩.

فإذا تحركت عرفوا أن أحدا قادم عليهم، فيمسكون عن الدرس، ويقبلون على صنع القفاف، حتى يطمئنوا إلى الداخل، فيعودوا إلى الدرس(١١).

وبهذه الطريقة ربى قادة وهيأ رادة، كانوا نجوما في الأرض هادية إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، فكان من تلامذته حملة العلم إلى المغرب، وهم: أبو الخطاب المعافري اليمني، وعبدالرحمن بن رستم، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفزاوي، وعاصم السدراتي، وقد عقدت إمامة الظهور للأولين منهم ببلاد المغرب، فكانا مثالاً للعدل والاستقامة والبذل والتضحية، وقد سبقهم إلى المغرب من تلامذته وجنده، سلمة بن سعد، الذي كان الرائد الأول لهذه الدعوة ببلاد المغرب، فقد خرج من البصرة في العام الرابع من القرن الثاني الهجري، بعدما وصلت الأنباء إلى أبي عبيدة، بما كان يعانيه المغرب الإسلامي، من ظلم ولاة بني أمية وبطشهم وانتهاكهم الحرم، فجرد تلميذه هذا لمهمة الدعوة هنالك، فخرج إليها وهو يقول عندما كان يودع قائده وشيخه: وددت لو ظهر هذا الأمر، ولو يوما واحدا بالمغرب، ثم لا أبالي أن تضرب عنقي.

ولم تكن قولته هذه شقشقة جرت على لسانه، وإنما كانت عقيدة راسخة في قرارة نفسه وعمق وجدانه، وقد صدقها بفعله، إذ شق بعزمته من أرض المغرب العزيزة جبالها الوعرة الشاهقة، وطوى وهادها الفسيحة المترامية، فبث الدعوة بين قبائل البربر من سرت إلى تلمسان، مع أنه أتى قوما غرباء من غير جنسه، ولا يتحدثون بلسانه، ولا يتطبعون بطبعه، فاستطاع بإخلاصه وهمته وحنكته أن يتغلغل في أعماق نفوسهم ويصل إلى سويداء قلوبهم،

⁽۱) ينظر: المرجع السابق، ص۱۰۱، الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى (نشأة المذهب الإباضي)، على يحيى معمر، ص١٢٠، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السبب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

فكان لدعوته فيهم أثر الشمس في الفضاء، والماء في الثرى، حتى تحقق ما كان يصبو إليه من خير(١).

وكان من تلامذة أبي عبيدة رادة الدعوة في اليمن وعُمان وخراسان، وقد عقدت الإمامة لاثنين منهم بأرض المشرق، هما طالب الحق الذي بويع باليمن، والجلندى بن مسعود الذي بويع بعُمان، وقد تربى كل من طالب الحق اليمني المنبت وأبي حمزة الشاري العُماني المولد والمنشأ في مدرسة أبي عبيدة، فتلقيا منه عقيدة الإيمان والفقه في الدين ومناهج الدعوة، فكانت هموم دعوة الحق وإحيائه هي نبض أفئدتهما ومطمح أبصارهما.

ومن خلال هذا، يتبين للقارئ الكريم أن طالب الحق وأبا حمزة غصنان نبتا في دوحة واحدة، سرت فيهما جميعا خصائصها، فكانت طبيعتهما واحدة ومنزعهما واحدا، إذ باعا جميعا دنياهما بأخراهما، فآثرا شطف العيش والجهاد في سبيل الله على الدعة وراحة الدنيا، وقد امتلك ألبابهما حب الله تعالى، والرغبة في التقرب إليه ببذل النفس والنفيس في نصرة دينه، وإقامة شرعه وإحياء تعاليم كتابه ونهج رسوله هم، وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين من عباده وتحدي كبرياء أعدائه، وإعزاز ما أذلوه من الحق وإذلال ما أعزوه من الباطل، وقد خبر كل منهما صاحبه بنفسه، ولم يكن أمرهما كما تصور بعض المراجع أنهما التقيا لقاء عفويا، فاتفقا على الثورة.

أسباب قيام طالب الحق:

لا يخفى على من درس سيرة بني أمية، واطلع على ما ذكرناه ـ من نقضهم عهد الله، وحربهـم لدينه، وإهانتهم لعباده، واستعلائهم في أرضه،

⁽١) ينظر: المرجع السابق، ص١٤٥ - ١٤٦

وإفسادهم فيها ـ أن أعمالهم جميعا كانت مبررة للقيام عليهم، كيف وقد أمر الله بالقيام بالقسط، وفرض على الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق فيما نقلناه من كلام مفكري الأمة أن عهد بني أمية لم يكن عهدا إسلاميا، فقد وصفه الإمام المودودي بأنه عهد جاهلي ـ كما تقدم ـ، وقال فيه العلامة الندوي بأنه «لا ينبغي أن يبقى يوما واحدا، فضلا عن أن يبقى أعواما، وأن بقاءه إنما كان على غفلة من الأمة أو على الرغم منها»، وقد كان ذلك في ضعف الإسلام وقوة الجاهلية كما سبق ذلك عنه، وتقدم قول الشهيد سيد قطب: «ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أُميَّة كفيلة بتغيير مجراه الأصيل».

في هذه الظروف الكالحة المكفهرة، التي كشرت فيها الجاهلية عن أنيابها العصل لقضم ما تبقى من الإسلام، كانت الحركة التصحيحية التي قادها طالب الحق، وقد اتفقت المراجع على أنه رأى باليمن ما لا يطاق، وهاك ما قاله البلاذري:

«رأى باليمن جوراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه: لا يحل لنا المقام على ما نرى، ولا يسعنا احتماله والصبر عليه، فكتب إلى أبي عبيدة مسلم كودين مولى بني تميم، وإلى غيره من إباضية البصرة، يشاورهم في الخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، فإنك لا تدري متى يبلغ أجلك، ولله خيرة من عباده يبتعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويخصهم بالشهادة إكراماً لهم بها»(۱).

ويقول الأستاذ مهدي طالب هاشم: «إن خضوع اليمن وحضرموت هذه

⁽١) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، ج٣، ص٢٣٦.

الحقبة الطويلة، يرافقه الظلم والتعسف، وروح الاستعلاء البغيض المبني على أساس التعصب القبلي، المخالف لروح الشريعة الإسلامية، التي جعلت الإخاء أساسا للروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، والتقوى أساس التفاضل فيه؛ مكنت الدعوة الأباضية من قيادة الحركة السياسية في اليمن، لتصحيح الانحرافات العديدة، التي مارسها الخلفاء الأمويون وولاتهم في اليمن»(۱).

وأكد هذا الدكتور عوض خليفات بقوله: «تَزَعَه الدعوة الإباضية في حضرموت طالب الحق السالف الذكر، الذي يبدو أنه كان يتمتع بمؤازرة قبيلته كندة، وأصبحت السند القوي للدعوة الأباضية في تلك المنطقة، وقد ساعدت الأحوال السيئة - التي كان يعاني منها السكان - المهمة التي كان يقوم بها طالب الحق وأعوانه من أهل دعوته، وتؤكد المصادر السنية والأباضية والشيعية على رغبة الناس في التخلص من عسف الولاة الثقفيين، الذين حكموا البلاد بيد من حديد، وبروح قبلية حاقدة مخالفة للمبادئ الإسلامية»(٢).

وقد جسد طالب الحق ما يعتمل بين حنايا قلبه من مشاعر الحزن والأسي، لهول ما يلقاه المستضعفون من عسف الظلمة وجورهم، بقوله:

كوى بالأسى قلبي وأبكى نواظري بكاء اليتامى وابتسام الجبابر وكلفنى حمل القواضب والقنا وسفك الدما إسراف أهل الكبائر

⁽١) الحركة الإباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم، ص٩٣ - ٩٤، دار الحكمة، لندن.

⁽۲) نشأة الحركة الأباضية، عوض خليفات، ص۱۷۳، دار الحكمة لندن، ط۱، ۱٤۲۸هـ/۲۰۰۷م.

كما بين أبو حمزة الشاري، في إحدى خطبه التي ألقاها في المدينة المنورة، ما دعاهم إلى هذه الحركة، حيث قال: «أتعلمون يا أهل المدينة، أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا، أشرا ولا بطرا ولا عبثا ولا لهوا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا ثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله ﴿ وَمَن لّا يُجِبُ دَاعِي اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزِ فِي ٱلْأَرْضِ فَ الْأَرْضِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الله

وتحكي المراجع الأباضية أن طالب الحق كتب إلى أبي عبيدة وَكُلُلهُ حاكيا له ما وجده باليمن _ بعد عودته إليها _ من العسف والجور مستشيرا في القيام، فأمره بالقيام وكتب إليه: (إنا بعثنا إليك برجل إنجيله في صدره)، وهو يعني بهذا أبا حمزة الشاري، وأرسل إليه ببلج بن عقبة الأزدي، وكتب إليه: (إنا بعثنا لك اثني عشر رجلا وألفا) ويعني بالألف بلج بن عقبة (أنا بعثنا لك اثني عشر عاما، وقد قيل إن عمره كان ثمانية عشر عاما، وخلد له الذي كان يعدُّ بألف بطل، وقد قيل إن عمره كان ثمانية عشر عاما، وخلد له هذا الوصف في الأدب الإباضي، فقد قال فيه الإمام أبو إسحاق الهمداني الحضرمي.

سل من غزا وادي القرى بالصيلم بلج الذي لألف قرن ينتمي وقال فيه الإمام ابن النضر:

أو كالفتى بلج الهمام البطل في الحرب من جحجاح ليث الجحفل

عن ألف قرن في الوغي لا ينجلي

⁽١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.

⁽٢) السير للشماخي، ج١، ص٩١.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن إباضية البصرة كتبوا إلى طالب الحق ومن معه: «إذا خرجتم فلا تغلوا، ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»(۱).

وهو كلام _ لعمر الحق _ لا يدل إلا على سلامة المنهج وصحة العقيدة واستقامة الفكر، والحمد لله.

وشتان _ لعمر الله _ بين هذه الوصية ووصايا بني أمية لعمالهم، أن يبيدوا الأخضر واليابس، ويهلكوا الحرث والنسل، ناهيك أن طالب الحق تمكن من والي حضرموت لبني أمية إبراهيم بن جبلة بحضرموت أولا، فلم يتعرض له بسوء، بل تركه ينصرف إلى الوجهة التي يختارها، مع إدراكه أن له مأوى يرجع إليه، وهو عامل بني أمية بصنعاء، شم تمكن منه بصنعاء ثانيا، وقد أخذه هذه المرة وهو يقاتل مع والي بني أمية عليها القاسم بن عمر الثقفي، فلم يزد على حبسه أياما لا للانتقام ولكن لكف العامة عنه، ثم منحه الحرية مرة أخرى، لينصرف حيث شاء.

قال أبو الفرج الأصفهاني: «ودخل عبدالله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها، ثم أرسل إلى الضحاك وإبراهيم فأرسلهما، وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه، فأقيما إن شئتما، أو اشخصا فخرجا»(٢).

فليت شعري؛ ماذا عسى أن يكون لو أن بني أمية وولاتهم ظفروا بأحد

⁽١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٣٤.

⁽٢) المرجع السابق، ج٢٣، ص٢٣٦.

في الحرب مرتين، أتراهم يعفون عنه، أم أنهم يعدون له المقصلة ثم المصلبة، كما هو ديدنهم؟!.

ولم يكن هم طالب الحق ورجاله إلا الوصول إلى نصرة الحق، وكف الظلم عن الأمة، وإيتاء اليتامى والمساكين والأرامل وذوي الحاجات حقوقهم المشروعة من مال الله تعالى، ناهيك أنهم عندما فتحت عليهم الدنيا، وتمكنوا من متاعها، لم يفتحوا عليها عينا، ولم يمدوا إليها يدا، ولم يُسِيلُوا من أجلها لعابا، بل تساوى في موازينهم تبرها وترابها وعذبها وعذابها.

كأن حطام الأرض من لحم ميتة فهم عنه في عليائهم قد ترفعوا

تمثلت لهم الدنيا فما جهلوا حقيقة الأمر أن العيش ثعبان

فعندما أقبلوا إلى حضرموت، ثم منها إلى صنعاء، كانوا من الحاجة والفقر كما يصف أبو حمزة الشاري وضعهم بقوله: «فأقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد، عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا»(١).

ففتح الله عليهم بلاد اليمن الفسيحة، ودخلوا عاصمتها صنعاء، فوجدوا خزائن الأموال، التي جباها القاسم بن عمر الثقفي من أهل صنعاء، فلم يستحلوا شيئا منها لأنفسهم، وإنما وزعها طالب الحق بين أهل صنعاء أنفسهم، لأنها جبايات أخذت منهم بغير حق، فهم أولى بأن ترد إليهم.

قال البدر الشماخي في السير: «وقسم ما وجد من مال على فقراء صنعاء، قصد إليه ابن خيران وعبدالله بن مسعود وغيرهما من المسلمين، فأتوا به من الخزانة إلى المسجد فقسمه عبدالله على فقراء صنعاء، ولم يأخذ منه شيئا ولم يستحل منه لأصحابه متاعا»(٢).

⁽١) المرجع السابق، ج٢٣، ص٢٤٩.

⁽۲) السير، ج۱، ص۹۱ – ۹۲.

وقال الإمام السالمي:

وطالب الحق بصنعا حكما لم يأخذن عند مضيق يومه تعفف منهم ومن كمثلهم كانوا يموتون على ما أبصروا

بجعله في أهلها واحتشما شيئا لنفسه ولا لقومه أكرم بهم من عصبة أكرم بهم من الهدى ما بدلوا وغيروا(١)

وقال الأستاذ مهدي طالب هاشم: «كانت أولى الإجراءات التي قام بها عبدالله بن يحيى (طالب الحق) بعد أن استولى على الخزائن والأموال، أمر بتوزيعها بين الناس بالسوية، ليؤكد لأهل اليمن عهدا جديدا قائما على أساس العدل والمساواة دون مراعاة للاتجاهات المذهبية _ إلى أن قال: _ وبسبب هذه الإصلاحات والسياسة المرنة مع أعدائه، أجمع المؤرخون كافة على حسن سيرته وسياسته، ولم نجد فيهم من يطعن في عدالته، كما أحبه المتدينون من أهل اليمن، بسبب تمسكه بالشريعة الإسلامية»(٢).

وتعرض الأستاذ مهدي طالب هاشم للمنهجية السياسية التي سار عليها طالب الحق عندما انتصر على أعدائه، إذ لم يكن همه شفاء غيظه، بحز رؤوسهم وصلب جثثهم والتنكيل بهم، ولكنه عاملهم بالرأفة والرحمة، وسوَّى بين الصديق والعدو والقريب والبعيد في العدل والإنصاف، ملتزما الشريعة الإسلامية بخلاف سيرة بني أمية الذين لم يجد الناس منهم إلا البطش الشديد والعسف والجور والحرمان من أدنى حقوقهم، وكان مما قاله الأستاذ في هذا:

⁽۱) جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي العُماني، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، ج٢، ص٣٥٧، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع.

⁽٢) الحركة الأباضية في المشرق العربي، ص١٠٥ - ١٠٦.

«كانت سياسة عبدالله بن يحيى (طالب الحق) مصداقا للالتزام بالشريعة الإسلامية، في معاملة المخالفين له مذهبيا، واستطاع أن يوفق بين النظرية والتطبيق، دون أن يسمح لحكم العواطف في اللحظات الحرجة، كلحظات ومواقف القتال التي تثور فيها العواطف الجياشة وحب الانتقام، فعندما طلب قائده أبرهة بن الصباح الحميري الإجهاز على المحاربين وقتلهم منعه، مع أن طالب الحق كان قد تمكن منهم على ما يبدو من رواية البلاذري، لأن الإباضية لا تجوز الإجهاز ولحوق المدبر في الحرب، وهذا يدل على الطابع المعتدل لسلوك هذه الفرقة حتى في حالة الحرب، ولو قارنا بينهم وبين الأمويين الوحشية لوجدنا بونا شاسعا في هذه الناحية، فقد ظهرت في حروب الأمويين الوحشية والطابع البدوي والخروج على القيم الإسلامية في حروبهم للإباضية.

ونستطيع أن نتلمس الصدق في هذه السلوكية، في الإجراءات التي اتخذها طالب الحق حيال العمال والولاة الأمويين، فعندما دخل صنعاء حبس الضحاك بن زمل - الذي تركه القاسم بن عمر واليا على صنعاء بعد خروجه لطالب الحق - وإبراهيم بن جبلة الكندي الذي وقع في الأسر للمرة الثانية بعد طرده من حضرموت، وحبسهما لمدة قصيرة وأطلق سراحهما، وقال: «إنما حبستكما مخافة من العامة عليكما، وليس عليكما مكروه، فأقيما، أو اشخصا»، فطلبا الخروج من اليمن.

إن هذه الإجراءات، التي اتخذها طالب الحق في حضرموت أولاً وفي صنعاء ثانيا أراد أن يبرهن بها لأعدائه والمسلمين عامة صدق التطبيق، ومحو الصورة المشوهة التي رسخت في أذهان المسلمين، نتيجة للممارسات السياسية السابقة للحركات الخارجية، كالأزارقة والنجدات على سبيل المثال»(١).

⁽۱) المصدر السابق، ص۱۰۲ – ۱۰۳.

هذا؛ وقد تضمنت خطبة طالب الحق التي ألقاها بصنعاء معالم دعوته، وبرزت فيها مزايا سياسته، فقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف أن مما تضمنت خطبته قوله: «أيها الناس إنكم حذرتم عظيماً، وخوفتم جسيماً، لا تبغه الصفات، ولا تحيط به الأوهام، العذاب الأليم جهنم، وسعير ولظى والهاوية والحامية، وسقر التي لا تبقي ولا تذر، نسأل الله مولانا ولي الإحسان أن يجيرنا من عذابه الذي خوفنا، أيها الناس إنا نخيركم بين ثلاث خصال أيها شئتم فخذوا لأنفسكم، رحم الله امراً أخذ الخيار لنفسه: إما قال امرؤ بقولنا، ودان بالدين الذي دنا، فحملته نيته على أن يجاهد معنا بنفسه، فيكون له من الأجر ما لأفضلنا، ومن قسم الفيء ما لبعضنا(۱۱)، أو قال هذا القول ثم أقام في داره، فدعا الناس إليه بقلبه ولسانه فعلله ألّا يكون ذلك أخس منازله، أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله، ويكف عنا يده ولسانه، فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه، ولم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفي مؤونتنا، وعسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلاً.

ندعو: إلى الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه هي ونجيب من دعا إليها، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالاً لا نبغي به بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى وعليه المعول.

ندعو: إلى فرائض بينات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم.

⁽۱) مراده بالفيء هنا إما أن يكون ما يفيء الله عليهم في ما لو تمكنوا من الجهاد خارج بلاد الإسلام لنشر الدين فأفاء الله عليهم من أرض المشركين، أو يكون مراده به ما يستحقه المسلمون من بيت المال الذي فيه حق لكل واحد منهم، ولا يعني به غنيمة من مال موحد، فإنهم لم يكونوا يستحلونها بحال.

ندعو: إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، وإن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم في حب الله، يقتلون في سالف الدهر، فما نسيهم ربهم «وما كان ربك نَسِيًا»، أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلكم بالقيام به، قابلوا الله حسناً في أمره وزجره»(۱).

ولا يخفى على متأمل كلماته هذه ما ضمنها من دعوته إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العمل له، وحسن الرجاء لوعده، والحذر من وعيده، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن الموعظة، بالتذكير باليوم الآخر، وما ينتظر الفجار فيه من عقابه تعالى، وأن الأمر أعظم من أن تتصوره الأفهام أو تتخيله الأوهام، فما على الإنسان إلا أن يعد عدته لذلك اليوم، بتوطين النفس على التقوى، وتحري مرضاة الله تعالى في الفعل والترك، والقبول والرفض والمكره والمنشط.

وقد تجلت سياسته ودقته في العدل والإنصاف فيها، إذ خير الناس بين انضمامهم إليه وإلى أصحابه والجهاد معهم، أو البقاء في كنفهم وإن لم يشاركوهم الجهاد، أو الخروج لمن كره البقاء إلى حيث شاء آمنا مطمئنا، على أن لا يتعرض لما يؤدي إلى سفك دمه _ بممارسته من الأعمال العدائية ما يسوغ ذلك شرعا _ وإلا فلا يلومن إلا نفسه، على أنه قد يصل إلى مبتغاه منهم، إن دارت عليهم الدائرة، ولو لم يمد يده إليهم بسوء، ويحملهم على مواجهة صنيعه بمثله.

وهي سياسة نابعة من شرع الله، فيها تعظيم حرمات الله وإنصاف عباده،

⁽١) أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧.

إذ لم تكن سياسة مَنْ تعطش لسفك الدماء، وإذلال الناس وحرمانهم من الحقوق المشروعة، كسياسة بني أمية وولاتهم، الذين لم يقيموا وزنا لحرمات الله ولم يرعوا إلا ولا ذمة في عباده، وإنما كانوا ظمأى إلى دمائهم يسفكونها، غرثى إلى لحومهم ينهشونها، ولا يبالون مع ذلك بهتك الأعراض ونهب الأموال وإهدار الحقوق، وبهذا يتضح الفرق بين الفئتين، ويظهر البون بين الفكرين، كما قال الشاعر:

فلمَّا ملكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أَبْطَحُ غَدوْنا عن الأَسْرى نَعفُّ ونصفَح وكلُّ إِناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ مَلكْنا فكان العَفْو منَّا سَجِيَّةً وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأسارى وطالَما فحسْ بُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيْنَنا

امتداد حركة طالب الحق إلى الحجاز:

كانت حركة طالب الحق وأبي حمزة الشاري تهدف إلى تغيير الأوضاع من الفساد إلى الصلاح، وتحرير الأمة من الجور الذي طوقته من بني أمية وولاتهم، لتنعم بالعدل والإنصاف، ولتتبوأ مكان العزة والكرامة بعدما رزحت مكبلة بقيود الذلة والمهانة ردحا من الزمن، فهي من حيث المبدأ حركة عالمية وليست إقليمية لا تهتم إلا بتحرير اليمن، كيف وهدفها الأسمى إعادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة موازين القسط بين الناس، ورفع كابوس الظلم الذي جثم على صدر الأمة.

ومن المعلوم، أن أولى البقاع بذلك البقاع المقدسة التي فيها بيت الله العتيق وحرمه الآمن، وإليها تهوي أفئدة المؤمنين، ومن أرجائها انطلقت دعوة الله إلى سائر أرجاء الأرض، وفيها كان مثوى رسول الله هي - بلا ريب - أحق البقاع بتطهيرها من رجس الظلم

والاستبداد، وإمتاعها بنعمة تطبيق شريعة الله العادلة.

وما كان فتح اليمن السعيد قبل ذلك إلا تهيئة لهذه الأمنية الغالية والغاية المنشودة، على أن الأجواء في اليمن كانت أكثر تهيؤا لنجاح هذا الأمر، إذ كانت أرض اليمن تضم عددا أكبر من الذين يحملون هذا الهم ويحلمون بهذه الغاية، لاقتناعهم بهذا الفكر، على أن أرض الحجاز مع طهرها وقداستها ـ رزئ أهلها بدسائس السياسة الأموية المنحرفة، فكانت خططها محكمة في تمييع سكان الحجاز، وإغراقهم في اللهو والمجون، وتحبيب الخلاعة إليهم، وتنويم ضمائرهم، وتخدير عزائمهم، فما كانت مع هذه الحالة لتستجيب لهذا الداعي وتتقبل هذه الحركة، وقد وضح ذلك جليا عندما أتاهم أبو حمزة الشاري، وصدع بينهم بكلمة الحق وجلجل صوته بعزائم الإيمان.

ومن المعلوم، أن الغزو الفكري والخلقي يسري أثره في النفوس عندما يحبب إليها الشهوات ويزين لها الفساد ـ سريان النار في الهشيم، وقد وضح ذلك جليا في انقلاب البيئة بالحجاز ـ نتيجة هذا المخطط الرهيب ـ إلى أن تكون مناخا للغناء واللهو، وأن يشتهر فيها أمثال طويس ودلال ومعبد وابن عائشة وسلامة القس، وأن تحفل كتب الأدب من أخبارهم وترهاتهم بما يندى منه الجبين، ويطير منه اللب، ويبعث على الحسرة والأسى.

وإذا كانت حركة طالب الحق تهدف إلى تحقيق الحق، غير لاوية على شيء، فإنه ولا ريب كان من أهم أهدافها إعادة الحرمين الشريفين إلى قداستهما، وتطهيرهما من حياة الخنا والخلاعة والمجون، ليظلا قلعتين للإسلام وحمى منيعا للدين، ومركزين يشعان في العالم نورا وهداية.

ومع ذلك، فإن تعريف الناس بمبادئ هـذه الحركة وأهدافها على منابر الحرمين الشريفين مدعاة لوصول صوتها إلى آفاق الأرض، وذلك بسبب تزاحم وفود الرحمن عليهما ووجود الحجيج في عراصهما، وقد كان هذا سببا لانتشار خطب أبي حمزة الشاري وتناقل الناس لها، وهو مكسب دعوي يعود على الدعوة بالربح، ولو بعد أمد بعيد.

لأجل هذا كله؛ جرد طالب الحق حملة إلى الحجاز بقيادة أبي حمزة الشاري، الرجل الذي وصفه قادة الدعوة بالبصرة بأن إنجيله في صدره، وقد كانت شخصية أبي حمزة جامعة للمؤهلات القيادية، التي تفتقر إليها الحركات الإسلامية، إذ كان يجمع بين سلامة الفكر، وصفاء الذهن، وحسن العبادة، وعمق التصور، وجمال الأداء، وملكة التعبير، وقوة الحجة، ودربة اللسان، وحصافة الرأي، والتفوق في الشجاعة والإقدام، والإخلاص لله تعالى في القول والعمل، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله.

وكان مصداقا للالتزام بالشريعة الإسلامية في سلمه وحربه، وترجمة حية للعدل والإنصاف مع صديقه وعدوه، حتى كان يؤثر الحزم في الدين على الحزم في السياسة، كما سيتجلى ذلك واضحا في مواقفه، وهو وإن خرج إلى مكة في جيش مدجج بالسلاح، يتراوح عدده بين سبعمائة رجل وألف ومائة رجل له يكن يهدف إلى قتال في الحرم الشريف وفي الشهر الحرام، فهو أرعى لحرمات الله تعالى، وإنما كان ذلك من باب (الاستعداد للحرب يمنع الحرب)، وكان اختياره لمكة للاعتبارات التي ذكرناها، كما اختار موسم الحج لأجل هذا الغرض نفسه، على أنه حرص على مفاجأة الوالي الأموي على الحجاز، عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك، بدخوله الحرم في الموسم، ليُفَوِّت عليه فرصة الاستعداد للحرب، حتى لا يكون بينهما صدام في الحرم.

ويسجل الأستاذ مهدي طالب هاشم في أطروحته هذه الملاحظات بقوله:

«وقد كان اختيارهم لموسم الحج اختيارا موفقا لدخول مكة، إذ سيمكنهم من ناحية دعائية، في عرض أفكار وأهداف الحركة السياسية التي انطلقت من اليمن، لتقضى على الخلافة الأموية، لا سيما وأن الحجاج قد اجتمعوا من كافة الأقاليم الإسلامية، ومن ناحية أخرى سوف لا يمكنون عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك والى الحجاز لمروان بن محمد من الاستعداد لحربهم، إلا بعد الاستيلاء على مكة، وبذلك سوف يحرم من القوة البشرية والاقتصادية في مدينة مكة، وتجنيدها لحرب الإباضية، ولهذا كان موقف عبد الواحد بن سليمان ضعيفًا من الناحية العسكرية، فعقد اتفاقا بينه وبين أبى حمزة المختار بن عوف الأزدى، وقد توسط بين الطرفين مجموعة من أحفاد الصحابة، ترأسهم عبدالله بن الحسن بن على بن أبي طالب، وأمية بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، وعبدالعزيز ابن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وسألوا أبا حمزة الكف عن الحرب حتى ينتهي الناس من مناسك الحج، على أن يترك عبدالواحد بن سليمان مكة لأبي حمزة بعد الانتهاء من مناسك الحج، فقبل أبو حمزة هذا الاتفاق، ووقف وشيعته بعرفة، في حين تجمع عبدالواحد في منطقة منى ليؤم كل منهما جماعته، وقد تم ذلك فعلا بعد الحج مباشرة حيث غادر عبدالواحد مكة في العاشر من ذي الحجة، ليدخلها أبو حمزة بغير قتال يذكر، وكان لا بد لأبي حمزة أن يعرض مبادئ الحركة الإباضية، ككل الحركات التي تبدأ بدايات جديدة في الحكم، ولهذا الغرض ألقي أبو حمزة خطبته البليغة، التي خلدت ذكره $^{(1)}$ كو احد من أبرز خطباء العصر

⁽١) الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص١١٦ - ١١١٠.

هذا؛ وقد انضم إلى أبي حمزة الشاري من أهل مكة أربعمائة رجل، على رأسهم أبو الحرعلي ابن الحصين، الذي كان مقيما بمكة، وكان من أهل اليسار، تأتيه غلته من البصرة، فينفقها بمكة فيما يقربه إلى الله، قال البدر الشماخي: «عن عيسى بن علقمة، قال: كان أبو الحر موسرا، وتأتيه غلته من البصرة إلى مكة نقرة واحدة ذهبا، ويقسمها نصفين، فيفرق نصفها في فقراء المسلمين، وربعا في نفقته، وربعا يحبسه ليهيئه لمن يمر به من المسلمين وفي معاونتهم»(۱).

وقبل أن يأتي أبو حمزة تعرض الوالي الأموي لأبي الحر رَحِّلُهُ فحمله مكبلا بالحديد إلى مروان بن محمد ومعه أحد الشيعة المقيمين بمكة، غير أن من كان هنالك من جماعة المسلمين خلصوا الرجلين معا من رجال بني أمية، ففكوا عنهما الأصفاد وأطلقوا سراحهما، قال أبو العباس الدرجيني في الطبقات:

«وقال أبو سفيان، أدركت عيسى بن عمر وهو شيخ كبير، يحدثنا أن مروان بن محمد بعث إلى أبي الحر إذ كان بمكة، فأُخذَ فشُلَ في الحديد، وأخذ رجل من الرافضية يقال له أصفر، فشد في الحديد، ثم ساروا بهما نحو مروان، قال عيسي: فخرجنا في أربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه، قال: فلما مشينا أياما أرسلنا إليه أنا نأتيكم الليلة، قال: فقال لا تفعلوا، مكة منكم قريبة والطلب سريع، فسرنا على طريق الساحل، وغلامه يأتينا بخبره، ويأتيه بخبرنا، فما زلنا نطلب إليه، ونسأله يدعنا حتى نخلصه من أيديهم، قال فكان يأبي ذلك علينا حتى جاوزنا المدينة بمراحل، فأرسلنا إليه أنا قد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة، قال: فأبي، قال: فأرسلنا إليه أنا نأتيكم على كل حال، فتباطأ في وضوئك، حتى لا تعجل الرحيل، لنقعد

⁽١) السير، ج١، ص٩٣.

مقاعدنا، قال: ففعل، فتقدمنا فنزلنا عن رواحلنا وعقلناها بعيدا من الطريق، ثم جئنا أمامه إلى الطريق، فجثمنا عليه، فلما دنوا منه سرنا في وجوههم بالتحكيم، والسيوف في أيدينا مصلتة، فألقوا بأيديهم وقالوا: الأمان، الأمان، قال: فبادر رجل منا، فأعطاهم الأمان، فشق ذلك على أبي الحر، قال: أما إذا فعلتم فلا تختلجوا، ولا تهيبوا منهم أحدا، قال: فأسرناهم، فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم، خلينا سبيلهم واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته، وفككنا عن الرافضي»(۱).

وهذه القصة إن دلت على شيء، فإنها تدل على أمرين:

أولهما: أن هدف هذه الحملة رفع الظلم عن المظلومين، من غير تحيز إلى أحد أو تمييز بين مظلوم وآخر، فأنتم ترون أن أصحاب أبي الحرلم يقتصروا على فكاك صاحبهم، وإنما حرصوا أيضا على فكاك الشيعي الذي كان مأسورا معه.

ثانيهما: التزامهم بالعهد، من غير أن يسمحوا لأنفسهم أن يخيسوا فيه لأي سبب من الأسباب، فعندما أعطى أحدهم الأمان للطغمة المجرمة التي أسرت أبا الحر التزموا تنفيذه، على الرغم من كون أبي الحر نفسه ساءه أن يعطوا لهم الأمان، ولكنه أمرهم أن يلتزموا ما أعطوهم، فأطلقوا سراحهم مع أنهم كانوا قادرين عليهم.

هذا؛ وقد سبجل البدر الشماخي انضمام أبي الحر إلى أبي حمزة وأصحابه وما اكتنف ذلك من أحداث، فقال: «وأقام أبو حمزة بمكة أربعين يوما، فلمّا التأم إليه أصحابه ودخلوا مكة يحكمون، قال أبو الحر علي بن الحصين: هذا صوت غريب في أرض الحرم، وخطب في مكة خطبا، وأقام

⁽١) طبقات المشايخ، للدرجيني، ج٢، ص٢٦٢ - ٢٦٣، وينظر: السير للشماخي، ج١، ص٩٢.

بها ما شاء الله أن يقيم وهو يكاتب أبا يحيى، وكان أبو الحر علي بن الحصين العنبري من علماء المسلمين وفقهائهم أقام بمكة.

عن عيسى بن أبي عمرو، قال أبو سفيان: أدركته شيخا كبيرا، بعث مروان بن محمد إلى أبي الحر إذ كان بمكة، وشد في الحديد مع رجل من الرافضة اسمه أصفر، ثم ساروا بهما، فخرج عيسى في أربعة عشر رجلا من المسلمين، فخلصوه منهم بعدما جاوزوا المدينة بمراحل، ثم رجعوا حتى دخلوا مكة مستخفين فخرجوا إلى منى وإلى عرفات، وكانوا ينتظرون قدوم أبي حمزة، فعند الرواح فاجأهم أبو حمزة في نواصي الخيل قد طلعت، فلمّا رآهم أبو الحر، قال: أحرموا، فاغتسلنا وأحرمنا، ودخلنا في عسكر أبي حمزة، فأرسل عبد الواحد إلى أبي حمزة الخطباء فأفحمهم، فتهادنوا، فوقفنا وأفضنا إلى جمع ثم منى، فنزلنا في مؤخر منى»(۱).

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» أن أبا حمزة الشاري لما راسله عبدالواحد بن سليمان في الهدنة، رد بقوله: «نحن بحجنا أضن، وعليه أشح» غير أن جمهور الناس لاموا عبدالواحد، وقالوا له: «إنك قد أخطأت فيهم ولو حملت عليهم الحاج ما كانوا إلا أكلة رأس»، فراسلهم بنقض العهد الذي بينه وبينهم، فلما سمع ذلك بلج وإبراهيم، وكانا قائدين له قالا: «الساعة الساعة» فأقبل عليهما أبو حمزة، وقال: معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن تنقضي هذه الهدنة بيننا وبينكم، فلما أبى عليهم خرجوا فابلغوا عبدالواحد»(٢).

ومن هذين الموقفين المتباينين يتضح لكل ذي عينين من هو المحق أو

⁽١) السير، ج١، ص٩٢.

⁽٢) الأغاني، ج٢٣، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

المبطل من الطائفتين، طائفة لا تبالي أن تنتهك حرمات الحج، والمناسك العظام في البلد الحرام والشهر الحرام، مؤلبة العامل الأموي على أن يحمل الحجيج على مقاتلة من جاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حجة الله على عباده، والدعوة إلى تطبيق شرعه في أرضه، مسولين لأنفسهم أن هؤلاء لن يكونوا إلا أكلة رأس لقلتهم بين السواد الأعظم، فلم يروا حرجا في إبادتهم عن بكرة أبيهم ولو كانوا ملبين محرمين، كافين أيديهم أن تمتد بالسوء إلى الحجيج أو غيرهم، وطائفة تأبى أن تنقض العهد أو تخيس فيه ولو قطعت رقابها، فشتان لعمر الله بين الهدى والضلال وبين الورع والفجور.

وقد شاء الله تعالى أن يوجف الحق قلب عبدالواحد، فلم يلبث أن غادر مكة في اليوم العاشر من ذي الحجة، فارا بجلده غير لاو على شيء، فتمكن أبو حمزة من إقامة موازين، القسط فيها والصدع بكلمات الحق لتجلجل في جنباتها، من خلال خطبه التي ألقاها على منابرها، فأخذت بمجامع الألباب، ووعتها قلوب، واعية فخلدها التأريخ وتناقلتها الألسن، وكعادة أسلافه لم ينزع إلى التشفي والإثئار من أي أحد، وإنما كان التسامح شيمته، كما هي سجيته وسجية من يحمل فكره.

العناية بالطائف،

وجه أبو حمزة الشاري بعد استتباب الأمر بمكة المكرمة عنايته إلى الطائف، فجهز إليها جماعة من أصحابه، وقد ظن أهل الطائف أنهم جاؤوهم لسفك دمائهم ونهب أموالهم، كما جرت العادة في حروب بني أمية، فقلقوا على أنفسهم، وغادر رجالهم بلدهم وتركوها للنساء، ولما دخلها جند أبي حمزة كانوا _ كعادتهم _ مثالا للتسامح وحسن المعاملة، فما وجدت النساء منهم إلا البر والإحسان، وبسطوا الأمان لمن رجع،

فآب إليها رجالها ليجدوا ما تطمئن إليه نفوسهم من العدل والإنصاف(١)، وذكر البلاذري أن منادي أبي حمزة نادى أربعة أيام، في كل يوم: الناس آمنون إلا من حاربنا(٢).

وقد كان تصرف أهل الطائف هذا مثار سخرية واستهجان من القرشيين الذين كانوا بالمدينة، حتى قال قائلهم: لو شاء أهل الطائف لكفونا أمر هذه المارقة، أما والله لئن ظفرنا لنسبين أهل الطائف. من يشتري مني سبي أهل الطائف؟ فلما التقوا بقديد، حين التقوا، وانهزم أهل المدينة قال لخادمته: غاق باق، يريد أغلقي الباب دهشاً، وذلك بعد أربعة أيام يرى أنهم خلفه (۳)، فلقبه أهل المدينة، بعد ذلك غاق باق (٤).

ولعمري؛ إن من قلب الحقائق أن يطلق لقب المارقة على هذه الفئة المؤمنة، الحريصة على تطبيق شرع الله، واتباع كتابه، والاقتداء برسوله هم وينسى قائل ذلك أن أولى الناس بالمروق من عطل كتاب الله، وانتهك حرمه، وأفسد على الناس دينهم، ناهيك بما كان يتهدد به أهل الطائف من سبيهم، وليت شعري؛ بأي وجه استباح سبيهم؟ فهل سبي من قال (لا إله إلا الله) مشروع في الإسلام؟!! وهل كان ما ينويه هو من صميم ما تعلمه من الدين، والمروق هو فيما كان من تسامح أبي حمزة وأصحابه؟!!.

من خلال هذا، تدرك أخي القارئ الكريم إلى أي مدى وصل انحراف بنى أمية بفكر هذه الأمة، وفي أي هاوية سحيقة من الضلال رموا بها.

⁽١) ينظر: أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧.

⁽٢) المرجع السابق.

⁽٣) المرجع السابق، ج٤، ص٣٩، والأغاني، ج٢٣، ص٢٤٢.

⁽٤) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٢.

مثالية أبي حمزة وأصحابه في التعامل مع أهل المدينة بقديد:

عندما غادر عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك مكة المكرمة توجه إلى المدينة المنورة، ليحمس أهلها على قتال أبي حمزة وجنده، وسجل في الديوان الخاص بالمقاتلين أسماءهم، وزاد في أعطياتهم، ليلهب حماسهم لأداء هذه المهمة، فخرج نحو ثمانية آلاف مقاتل بقيادة أحد الأمويين.

وعندما نما ذلك إلى علم أبي حمزة آثر الخروج من مكة، ليكون لقاؤهم خارجها، وذلك لأكثر من مغزى، فمن ناحية راعى حرمات البيت والحرم، وأراد أن يكون الصدام خارج حدود الحرم، ومن ناحية أخرى رأى أن الخروج أنجح له في التخطيط العسكري، إذ لعل المكيين الذين تشربوا الفكر الأموي وهيمنت على ألبابهم العصبية لبني أمية، لا يلبثون إذا دخلت جموع أهل المدينة مكة أن ينضموا إليهم، فتقوى بذلك شوكتهم، ويكون الأمر أشق على أبى حمزة وأصحابه.

لهذا خرج أبو حمزة بنفسه، ومعه فئة من أصحابه، بعدما استخلف أحدهم على مكة المكرمة، ولم يكن لأبي حمزة وأصحابه في هذه الحركة غرض إلا إحقاق الحق وإخماد الباطل، إذ لم يكونوا أهل عصبية لعنصر معين أو طائفة من البشر، لذلك كانت مجموعتهم نسيجا يجمع أشتاتا من الناس، فكان بعضهم من اليمن، وبعضهم من عُمان، وآخرون من البصرة والموصل، والبعض الآخر من الحجاز، وأهل الحجاز بعضهم من خزاعة، والبعض الآخر من قريش، وكان أبو بكر محمد بن عبدالله ابن عمرو من القرشيين أحد قواد أبى حمزة الشارى في هذه المعركة(۱).

⁽۱) ينظر: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٦٥، وتاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٩، ونسب قريش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله ابن المصعب الزبيري، (ت: ٢٣٦هـ)، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال، جمهرة أنساب العرب، أبو محمد على بن أحمد ابن =

وعندما التقى الفريقان في قديد أبى أبو حمزة الشاري أن يشرع في القتال _ كعادته _، حرصا على صون الدماء أن تسفك، والحرمات أن تهتك، فأصر على إقامة الحجة على أهل المدينة، وهذا ما اتفق عليه المؤرخون، قال البلاذري: «وأرسل المختار إليهم بلج بن عقبة ليدعوهم، فأتاهم في ثلاثين راكباً، فذكرهم الله، وسألهم أن يكفوا أيديهم عنهم حتى يسيروا إلى مروان وقال: خلو لنا سبيلنا لنلقى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، فشتمهم أهل المدينة وقالوا: نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض، فقالت الخوارج: يا أعداء الله، ونحن نفسد في الأرض؟ وإنما خرجنا لنكف الفساد، ونقاتل من استأثر بالفيء عليكم، فانظروا لأنفسكم، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق»(۱).

وبعد حوار بين الجانبين، قال القائد الأموي لبلج: ارجع إلى أصحابك فليس بيننا إلا السيف، فرجع إلى أبي حمزة وأخبره بنتيجة الحوار، وقد كان هذا بلا ريب إيذانا ببدء القتال، ولكن أبا حمزة _ الرجل المتسامح الذي لم يكن متعطشا إلى الدماء، ولا من ديدنه التشفي والانتقام _ أبى أن يناجزهم حتى يبدأوا بالقتال، فأمر أصحابه أن يكفوا أيديهم عنهم، وما هي إلا هنيهة من الوقت فإذا بوابل من السهام يمطرهم بها أهل المدينة، وهنا ما كان مفر لأبي حمزة وأصحابه من مناجزتهم، فقال لأصحابه: «دونكم فقد حل الآن قتالهم»(١).

⁼ سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: ٥٦١هـ)، ج١، ص ١٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: لا يوجد، الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص ١٢١ - ١٢٢٠.

⁽۱) أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٤٠، وينظر: الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٣، وشرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١، تاريخ بن خياط، ص٣٩٢.

⁽٢) ينظر: المراجع السابقة.

وهو موقف إن دل على شيء فإنما يدل على الاحتراز من الولوغ في الدماء، والحرص على وزن الخطى بموازين الشرع والتحكم في جيشان العواطف حال الاستفزاز من الطرف الآخر، ولم يمض إلا قليل من اليوم حتى انكشف أهل المدينة بعدما جندل عدد لا يستهان به من جنودهم قيل إنهم بلغوا ألفين ومائتين وثلاثين رجلا(۱)، كما خلفوا كثرةً من الجرحى وولوا هاربين مع كثرة عَدَدِهم ووَفْرَةِ عُدَدِهم، إذ كانوا أضعاف جند أبي حمزة، كما أنهم كانوا بحوزتهم من العتاد ما لم يكن عند أبي حمزة وأصحابه، إلا أن أولئك إنما كانوا يقاتلون ليلقوا الله، فلذلك ثبتوا في الميدان ثبوت الرواسي.

وقد جال الأستاذ مهدي طالب هاشم في بحث الأسباب التي أدت إلى انتصار جند أبي حمزة، الذين لم يكونوا يتجاوزون ألف مقاتل، على القائد الأموي وجنده، الذين كانوا بلغوا ثمانية آلاف مقاتل، وبعد استعراض عدد من الأسباب المفترضة، قال: «كان العامل الأساسي في انتصار الإباضية حبهم الاستشهاد في سبيل المبادئ التي يعتنقونها، وقد امتازوا بصلابتهم وصمودهم في مسرح القتال، ويشير الشماخي إلى أنه لا يمكن للإباضي أن يفر من ساحة المعركة إلا أن يكون متحيزا إلى فئة، لأن الفرار من الزحف كبيرة لا تغتفر لدى الشراة الإباضية»(٢).

ولعمري؛ إن ما عزاه إليهم لا يعكس إلا تعاليم القرآن على سلوكهم في السلم والحرب، ومواقفهم في المكره والمنشط، فالفرار من الزحف كبيرة توعد عليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفَا فَلَا ثُولُوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿ اللَّهِ وَمَن يُولِهِمْ يَوْمَبِذِ دُبُرَهُ وَإِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِينًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللّهِ وَمَأُونهُ جَهَنَّمُ اللّهِ وَمَأُونهُ جَهَنَّمُ أَلّهُ عَنْ فَيَا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللهِ وَمَأُونهُ جَهَنَّمُ أَلّهِ اللهِ وَمَأُونهُ جَهَنَّمُ أَلْ

⁽١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٥، شرح نهج البلاغة، ج٢٦٥.

⁽٢) الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص١٢٧.

وَبِئُسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، وهـو وإن نص على الذيـن كفروا، فإن حكمه لا ينحصر في لقاء المشركين، إذ القياس في إلحاق لقاء البغاة الذين أذن الله بقتالهم بهذا الحكم قياس جلي، على أن وصف الذين كفروا يصدق على كفار الملة وكفار النعمة، كما سبق تحرير ذلك.

وحسبك ما مضى ذكره، من جرائم بني أمية وأشياعهم، وهتكهم لحرم الإسلام، ونبذهم كتاب الله، مسوغا شرعا لقتالهم وملحقا لهم بفئة الذين كفروا، فإنهم إن كانوا تعصمهم كلمة التوحيد عن إدراجهم في أهل كفر الشرك، فقد شهدت أفعالهم بأنهم من أهل كفر النعمة، والله المستعان.

هذا؛ وأبى أبو حمزة الشاري أن يتبع مدبرهم ويذفف على جريحهم، وقال كلمته المشهورة: «لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا»(۱)، مع أنه أفتاه أبو الحر علي بن الحصين ـ من كبار فقهاء الشراة ـ، واقترح عليه بأن يفعل ذلك، نظرا إلى أن أولئك كان لهم مأوى يرجعون إليه، وهو رأس البغاة بالشام، فما كانوا مقطوعين من قوة يحتمون بها، وهو مما يسوِّغ شرعا اتباع هذه الخطة الوقائية في مثل هذا الظرف، وقد بين له ذلك أبو الحر، حيث قال له: «فإن هؤلاء أشر علينا من أهل الشام، فلو جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»(۱)، وقد وقع فعلا ما كان يحذره أبو الحر منهم، ولهذا عزز الإمام السالمي رأي أبي الحر، حيث قال:

حث على القتل مع الإدبار ردء وما ساعفه المختار لأنه مارسهم وقد نظر

ولأبي الحر مع المختار يوم قديد إذ لهم جبار وكان فيها لأبي الحر النظر

⁽١) الأغاني، ج٢٢، ص٢٤٤، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١.

⁽٢) نفس المرجعين.

ولعل هذا الإجراء يعد خطأ عسكريا من أبي حمزة، ولكنه كان صورة حية للمثالية التي يتسم بها، وقد أعجبت جهابذة العلماء المنصفين الذين تحدثوا عن ذلك بإكبار، ومن بين هؤلاء المجاهد البطل العلامة الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار، الذي قال: «وهذه مثالية لا تعرف إلا لمثل أبي حمزة كَلِّلَةُ» (١).

خطب أبي حمزة الشاري بالمدينة المنورة:

«أوصيكم بتقوى الله وطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه هم، وصلة الرحم، وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله، وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق

⁽۱) تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية في المواقف العسكرية، بحث مقدم إلى ندوة الاحتفال بالإمام المختار أبي حمزة الشاري كَلِّلَهُ، التي أقامتها دار الإفتاء ورعاية الشباب سنة ١٤١٠هـ، بسلطنة عُمان، عبدالمعز عبدالستار، ص٥١ تعليق رقم ١، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مدينة نصر، القاهرة، ٢٠٠١م.

⁽٢) العقد الفريد، ج٤، ص١٣٢.

في معصية الخالق، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه، والقسم بالسوية والعدل في الرعية، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها، إنا والله ما خرجنا أشرا ولا بطرا، ولا لهوا ولا لعبا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل منا، ولكنا لما رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الادعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائل بالحق، سمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا داعي الله، فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخوانا، وعلى الدين أعوانا.

يا أهل المدينة، أولكم خير أول وآخركم شر آخر، إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءهم، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتا غير أحياء وما تشعرون، يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصح أصلكم وأسقم فرعكم، كان آباؤكم أهل اليقين، وأهل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة والقلوب الواعية، وأنتم أهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم، والأماني فأضلتكم، فتح الله لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه، سراع إلى الفتنة، بطاء عن السنة، عمى عن البرهان، صم عن العرفان، عبيد الطمع حلفاء الجنزع، نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتموه، وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به، نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل، كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثير خبيث، اتبعتم الهوى فأرداكم، واللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل، أخذوا المال من غير حله، ووضعوه في غير حقه، وجاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله، واستأثروا

بفيئنا، فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء، وفروج الإماء، وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله، فقلتم: لا نقوى على ذلك، ووددنا أنا أصبنا من يكفينا، قلنا نحن نكفيكم، ثم الله راع علينا وعليكم، إن ظفرنا لنعطين كل ذي حق حقه، فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم، فقاتلتمونا فأبعدكم الله، فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أعذر، مع أنه لا عذر للجاهل، ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة.

ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا ثلاثة، حاكما جاء بغير ما أنزل الله، أو متبعا له، أو راضيا بعمله «(١).

وهي كلمات إن لم تكن دالة على صفاء الطوية، وصحة المعتقد، ونقاء الفكر، واعتدال المسلك، وسلامة الهدف؛ فليس يصح في الأذهان شيء، فإن كل جملة منها يشع من مفرداتها نور الإيمان، وتعبر عما يعتمل بين حنايا قائلها من الغيرة على حرمات الله، والحرص على طاعته، والنصح لعباده، وكل ما دعا إليه فيها هو من صميم الدين، له أصل أصيل في كتاب الله المبين، وسنة نبيه الهادي الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، وهو عين ما دعا إليه السلف الصالح وتمسك به.

وقد أبان فيها أنه لم يكن الهدف من قيامه وقيام أصحابه حاجة في نفوسهم، أو غرضا دنيويا يحققونه، أو إثنارا ممن أصابهم بسوء، وإنما كان همهم كله في إقامة الدين الذي اندرس، وتحكيم الكتاب الذي عطل، وإحياء السنة التي أميتت، والحفاظ على الحقوق التي أهدرت، وصون

⁽١) المرجع السابق، ج٤، ص١٣٢ - ١٣٣، وينظر: جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٦.

الحرمات التي انتهكت، وإعزاز الحق الذي أذل، وإذلال الباطل الذي أعز، ورفع مقامات أولياء الله وخفض أقدار أعدائه، وأن تكون الطاعة لله ولمن أطاعه، وأن تكون القسمة بالسوية شاملة جميع طبقات الرعية.

وأبان أن خروجهم إنما كان استجابة لداعي الرحمن لما دعا، وأنهم أتوا من قبائل شــتى تشــد بعضهم إلى بعض رابطة الإيمان وصلة التقوى، وقد آواهم الله فقواهم بعد الضعف وأعزهم بعد الذل.

وتضمنت خطبته تذكير أهل المدينة بما كان لهم من سابقة في الخير وأعراق في الفضيلة، فآباؤهم المهاجرون والأنصار، الذين شدوا أزر رسول الله هيء، ونصروا الدين فنصرهم الله، وكيف انقلبوا على أعقابهم فانحرفوا عن ذلك النهج ونكصوا عن تلكم الوجهة، وهي كلمات تعرب عن الأسى والحسرة لما وصلت إليه مدينة رسول الله هيء، إذ أصبحت بؤرة للغناء والفساد، وقد ألهى ذلك أهلها عن القيام بالحق، والوقوف في وجه بني أمية الذين ساموا الناس الخسف وجرعوهم كؤوس الهوان، على أن أعمالهم بالمدينة المنورة لم تكن من هؤلاء ببعيد، فإن جرائمهم في واقعة الحرة لا تزال مشاهدها الأليمة منطبعة في ذاكرتهم، وصورها الموحشة مرتسمة في خيالهم، فما بالهم مع ذلك يعضدونهم على باطلهم؟!!.

على أن الخطبة تنم عن حوار سبق بينه وبينهم، صرحوا فيه أن بني أمية يحكمون بالهوى ويقتلون بالظنة، وأنهم مستأثرون بالفيء دونهم، وقد جعلوه دولة بين الأغنياء منهم وسخروه في شهواتهم، وأن أبا حمزة عرض عليهم القيام فاعتذروا بالعجز عن ذلك! فوعدهم أن يكفيهم بمن عنده مؤونة ذلك، وأن يكون الحكم بعد ذلك إلى شريعة الله العادلة، وأن يتولاه من يزن بموازين القسط ويسير في منهج العدل، ولكنهم عندما قاموا لذلك عرضوا لهم دونهم وأبوا إلا أن يقاتلوهم، فآثروا أن يكونوا شادين على

عضد الظلمة، الذين أخذوا الحكم عنوة بغير حق، وعاثوا في الأرض فسادا.

هذا؛ وقد تضمنت بعض روايات الخطبة أنه دعاهم إلى حكم القرآن وطاعة الرحمن، قبل التلاحم بين الطرفين، ودعوه إلى خلاف ذلك، فكان مما تضمنه هذا النص قوله: «ثم لقينا رجالكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان، شتان لعمر الله ما بين الغي والرشد، ثم أقبلوا يهرعون ويزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور مؤمنين»(۱).

وقال أيضا: «يا أهل المدينة، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم لعمر الله فيهم القول، وسألناكم: هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام، والفرج الحرام، فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشدهم الله أن يتنحوا عنا وعنكم، ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا تفعلون، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، نلقاهم فإن نظهر نحن وأنتم فأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه، وإن نظفر نعمل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم فأبيتم، وقاتلتمونا دونهم..»(٢).

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على تردده عليهم _ ولعل ذلك في

⁽١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.

⁽٢) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٤٨.

مواسم الحج -، لتذكيرهم بحقوقهم المهدرة، ووجوب القيام عليهم لنصرة الحق كما نصره آباؤهم الأقدمون، ولكنه لم يعيروه إلا آذانا صما، لذلك صب عليهم قوارع الإنكار في كلامه، وقد أقام عليهم الحجة بتذكيرهم بحق الله تعالى فيما بأيدي الناس من المال، حيث قال: «يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم، فرضها الله تعالى في كتابه على القوي للضعيف، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟!»(١).

ولم يزل وهو ثاو في المدينة يستنفر من أهلها نخواتهم، ويحرك أوتار مشاعرهم وشعورهم، بتذكيرهم ما هم عارفوه من سيرة أسلافهم، ومقارنة ذلك بسيرتهم، وكان مما قاله في ذلك: «يا أهل المدينة، مالي رأيت رسم الدين فيكم عافيا وآثاره دارسة، لا تقبلون عليه عظة ولا تفقهون من أهله حجة، قد بليت فيكم جدته وانطمست عنكم سنته، ترون معروفه منكرا والمنكر من غيره معروفا، إذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النذر، عميت عنها أبصاركم وصمت عنها أسماعكم، ساهين في غمرة لاهين في غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق إذا ذكر، مستوحشة من العلم مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورا، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة، أو لم تأن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

يا أهل المدينة، ما تغني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، إن الله قد جعل لكل شيء غالبا يقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبة على الأبدان فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو

⁽١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥١ - ٢٥٢.

استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم، يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله هي، لما نبت به داره وضاق به قراره وآذاه الأعداء وتجهمت له، فنقله إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحق على الباطل ومختارين للآجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله في ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، قال الله تعالى لهم ولأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَكِكَ هُمُ المُفلِحُون في الحشر؛ ٩]، وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم، عمي القلوب صم الآذان، اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى، وأسهاكم فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتم بسيرتهم ولا حفظتم وصيتهم ولا احتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم»(۱).

وكل هذه العبارات المتدفقة بالحجج إنما كانت تنبعث من الحسرة والأسى على ما أصاب الدين من التبديل، وما لقيت الأمة من الظلم، وما شاع بين الناس من الاستخذاء والاستكانة للظالمين، فزادهم ذلك جرأة على ركوب الظلم والإغراق فيه، وكثيرا ما كان يتعرض لبيان الظلم الذي وقعت فيه الأمة، والفساد الذي انحطت إليه، كقوله في تعداد مثالب بني مروان: «أكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعبا، واتخذوا عباد الله عبيدا، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيالها أمة ما أضيعها وأضعفها والحمد لله رب العالمين، ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى، قد نبذوه وراء ظهورهم»(٢).

⁽١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٤٩ - ٢٥٠.

⁽٢) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥٤.

وهي شهادة أدلى بها أمام الجمهور، بما كان يرتكب من قبل المتسلطين من محارم الله تعالى، وما كانوا يتلاعبون به من ماله الذي جعل فيه حقوقا لعباده، ومن المعلوم أن أهل المدينة الذين كان يخاطبهم بهذا كانوا عارفين بجرائم أولئك المتسلطين، وقد أراد أبو حمزة بهذا أن يقيم الحجة عليهم، بأنه لا يسوغ لهم أن يكونوا مع هذه الفئة بعدما انكشفت جرائرها، ووضح لذي عينين ما كانوا يأتونه جهارا من نقض عرى الدين وهتك حرماته.

ولم يكن أبو حمزة _ مع صبره وصلابته وقوته وجلادته _ بعيدا عن تأثير العاطفة على نفسه، فقد كان وهو بالمدينة المنورة يدور في ذاكرته شريط ذكريات صاحب الرسالة العظمى، التي أشرق نورها على العالم كله

⁽١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

من خلال دعوت الصادقة في تلك الأرض الطهور، فلم يكن يملك عينيه وهو تجيش في نفسه هذه الذكريات العزيزة، وتستأثر بقلبه تلك المواقف العظيمة، ويقارن بين حال المدينة عندما كانت مأرز الإسلام وقلعته الصلبة وحماه المصون، وما آلت إليه عندما تولى شأنها المفسدون _ كما تولوا شأن الأمة جميعا _، فاجتمع فيها الخنا والمجون وعادت مسرحا للهو والغناء، ومظهرا للانحلال والميوعة، عندما عد من أعلامها دلال وطويس وأمثالهما.

فعندما أتى أبو حمزة منبر رسول الله ه ، وضع جبهته في الموضع الذي كان رسول الله ه يضع قدمه فيه، وبكى فاشتد بكاؤه، ثم قال: «ها، كم قدم عاص لله، عاملة بغير كتاب الله، مؤثرة هواها على رضى الله ورسوله؛ قد وطئت موضع قدم رسول الله ه ي ـ بأبي هو وأمي ـ».

ثم استهل خطبته العصماء بحمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه هم ، وذِكْرِ طَرَفٍ من مناقبه هم ، وكان مما قاله: «إن رسول الله هم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشرع له فيه الشرائع، وبين له فيه ما يأتي وما يلذر، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ولا يحجم إلا عن أمر الله، يمده بملائكته ويضمن ظفر عاقبة الأمور، وأمر بالجهاد فصدع بأمر الله ومضى فيما أمره من مجاهدة أعدائه، ثم قبضه على منهج أنبيائه بعد تبليغه الرسالة وإنذاره وقيامه بالحجة، وقد أعلم الناس معالم دينهم، وأدى الذي عليه من الحق لهم، ولم يذرهم في لبس ولا شبهة من أمر دينهم، ثم قبضه هم وقد أدى الذي عليه، الم يدعكم من أمركم في شبهة»(١).

⁽۱) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، سرحان بن سعيد الأزكوي، ج٥، ص٢٢، تحقيق وتقديم أ. د. محمد حبيب صالح، د. محمود بن مبارك السليمي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م. وينظر: المجاهد أبو حمزة الشاري، مجموعة بحوث، ندوة من أعلامنا الثانية، عن المجاهد أبي حمزة الشاري، ص١٤١٠، المطابع العالمية، سلطنة عُمان، روي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ومن المعلوم، أن معظم الناس ركنوا إلى الباطل واستساغوا المنكرات وعافوا المعروف، ولهذا كانت نظرتهم إلى أبي حمزة الشاري وأصحابه ـ الذين جاؤوا ليُقوِّمُوا عودهم ويردوهم إلى جادة الحق ـ نظرة سلبية، ولم يجدوا ما يحطون به أقدارهم إلا أن سوادهم الأعظم كان من فئة الشباب!! فرشقوهم بسهام الاتهام أنهم أهل طيش وسفه، فكانوا يقولون: «هؤلاء شباب أغمار سفيهة أحلامهم»، وقد شاع ذلك حتى نما إلى مسامع أبي حمزة، فوقف في بعض خطبه منبريا للدفاع عن هؤلاء الشباب، مؤكدا أنهم وإن كانوا في مرحلة الشباب فإنهم يجللهم الوقار، ويحليهم الإيمان وتستأثر بهم عبادة الله، ويحدوهم إليه الشوق الملح، فهم رهبان بالليل ليوث بالنهار، وقد أقام الحجة على خصومهم بأن أصحاب النبي كانوا أيضا شبابا.

وقد ألبس هؤلاء الشباب من حلية الأوصاف التي صاغتها عباراته المستأثرة بالألباب، المدهشة للعقول، ما عدَّ مثالاً حيا لما يجب أن يكون عليه الشباب الصالح، ويتصور أن يرقى إليه من مدارج الكمال ومعارج الشرف.

وقد اختلف الكاتبون فمنهم من ذهب إلى أن هذا الانتقاص كان بالمدينة المنورة، فدافع عنهم أبو حمزة قائلا: «يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويلكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله في إلا شبابا؟!.. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله ولله أنفسا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة، لوعيد الله وكلى، ولم

يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر فاضت في جوف الليل من خوف الله وكلى، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله، وكم من خد عتيق وجبين رقيق فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»(۱).

ومنهم من عزاه إلى أهل مكة، وذكر أن أبا حمزة خاطبهم بقوله: «يا أهل مكة تعيروني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله هي إلا شبابا؟!.. أما إني عالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا الستغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، نعم شباب مكتهلون في شبابهم، ثقال غبية عن الشر أعينهم، بطية عن الباطل أرجلهم، قد نظر إليهم شبابهم، ثقال غبية عن السر أعينهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلالهم بكلالهم، كلال ليلهم بكلال نهارهم، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، مستقلين لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله منجزون لوعد الله، إذا رأوا سهام العدو فوقت ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انتضيت وأبرقت الكتيبة وأرعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، مضى الشاب منهم قدما حتى تختلف رجلاه عن عنق فرسه، قد رملت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه في الثرى،

⁽۱) تفسير الطبري، ج٤، ص٣٢٩ - ٣٣٠، الأغاني، ج٢٣، ص٢٥٠، وص٢٥٦، الكامل في التأريخ، ج٥، ص٥٠، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٣٦ وص٢٦، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٣٥، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٥.

وأسرعت إليه سباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر طال ما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف قد بانت بمعصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده في جوف الليل لله، وكم من خد رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان»(١).

ولعل هـولاء وهؤلاء نزعـوا هذا المنزع في الاستخفاف بهـذه الفئة المؤمنة، التي كان شبابها جمالا لها ووقارا، لأنهم من الصنف الذي قال فيه رسول الله على: «وشاب نشاً في عبادة الله»(٢)، فهم موعودون بأن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وقد انبرى قائدهم أبو حمـزة يدفع في صدور متهميهم بهذه الحجج الدالة على أن شبابهم لم يكن عارا عليهم، وإنما كان شرفا وفخارا، إذ لم يكونوا من جنس الشباب اللاهي الذي لا هم له إلا أن يتسكع في الطرقات، وأن يغازل الحسان ويحسو الخمور وينغمس في أوحال الرذيلة، ولكنهم كانوا شـبابا يتزاحم في قلوبهم خوف الله ورجاؤه، فنذروا لله حياتهم وقدموا إليه مهجهم، ودفعوا في حياتهم ضريبة العرق والأرق والدمع والدم ثمنا لجنة عرضها السموات والأرض.

ونجد الناس مبهورين ببلاغة أبي حمزة، مأخوذين بطلاوة أسلوبه وقوة سبكه في عباراته، ولذلك صارت خطبه من بين الخطب المشهورة في العالم، وصار معدودا من أبرز خطباء العرب، وتصدرت خطبه النصوص الأدبية التي تدرس في فن الأدب، لا سيما المقطع الذي فيه وصف أصحابه

⁽١) تاريخ ابن خياط، ص٣٨٦، أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٩، العقد الفريد، ج٤، ص١٣١.

⁽۲) أخرجـه الربيـع، ص۳۹ رقم ٤٨، وأحمـد (٢/٣٩٤، رقم ٩٦٦٣)، والبخاري (٢٣٤/١، رقم ٩٦٦٠)، ورقم ٩٦٦، رقم ٩٦١، والنسائي في الكبرى (٣١/٤، رقم ٥٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٣١/٤، رقم ٥٩٢١)، والترمـذي (٤٤٨٦، رقم ٢٣٩١)، وابـن حبـان (٢٥/١٠، رقم ٤٤٨٦). ابـن خزيمة (١٨٥/١، رقم ٣٥٨).

والدفاع عنهم، والحق أن أبا حمزة كان علما في بلغاء العرب، وكانت عباراته من جواهر الكلمات التي تزين العربية، ولكن السرَّ في قوة تأثير عباراته وامتلاكها الألباب، ليس في كلامه فحسب، وإنما هو في الروح الحية الدافقة السارية في كل كلمة من كلماته، وهي روح الصدق والإيمان، والإخلاص لله تعالى والتفاني في نصرة الحق، فلم تكن كلماته تصنعا أو تجملا ليلفت انتباه الناس إليه ويشدهم إلى شخصيته، وإنما كانت نابعة من صميم قلبه وعمق فطرته، بل كانت نبضات قلبه وإيحاءات مشاعره وأحاسيسه، وقد صدقها عمله، وزكاها إخلاصه، وزينها صدقه وأمانته، فكانت كما قال تعالى: ﴿ أَلُمْ تَرَكَيْفَ ضَرَبُ اللهُ مَثَلًا كُلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ وَيَعْمَلُهُا ثَابِتُ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ فَنَ مُرَبُ اللهُ مَثَلًا كُلُومِينَ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَعْمَلُو وَيَعْمَا فِي السَّمَاءِ فَنَ المَّكَمَاءِ فَنَ السَّمَاءِ فَا اللهُ عن الحقيقة، ولا تحكي إلا الصدق:

وَإِنَّ أَشَعَرَ بَيَتٍ أَنَتَ قَائِلُهُ بَيتٌ يُقَالَ إِذَا أَنشَدتَهُ صَدَقا ولم يكن وصف لأصحابه اعتباطا، وإنما كانت أعمالهم وأحوالهم ترجمة حية لما قاله فيهم.

أبو حمزة وأصحابه في مواجهة أهل الشام:

ما كان للطغاة في الشام أن يسكتوا عن هذا الأمر الجلل، الذي وقع باليمن والحجاز، فأقلقهم وأقض مضجعهم، فإنهم بلا ريب يدركون أن طالب الحق وأبا حمزة لم يكونا ليدعاهم يمرحون في غيهم ويسرحون في هواهم، وإنما قاموا لينتزعوا هذا الأمر من يد الظلم، ويرفعوا عن الناس وطأة العسف والجور، ويعيدوا الحق إلى نصابه، ويحيوا ما أميت من حكم الطاغوت، لهذا أعد مروان الطاغية لمواجهة لمواجهة

هذه الفئة عدته، وأغرى أتباعه بما أجراه عليهم من المال وما زودهم به من العطايا، وكان على رأس جنده عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي، وودع أبو حمزة أهل المدينة قائلا: «يا أهل المدينة، إنا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم بينكم، وإن يكن ما تمنون لنا فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»(۱).

وهو بهذا يؤكد الهدف الأسمى الذي خرج من أجله، وهو العدل بين الناس، وحملهم على سنة النبي المصطفى على النبي المصطفى

هذا؛ مع عدم الذهول عن الغاية الكبرى التي ينشدها هو وأصحابه، وهي الشهادة في سبيل الله، للفوز برضوان الله والانقلاب إلى جنة عرضها السموات والأرض، وعندما التقى الزحفان تجلى الصبح لذي عينين، فوضح لكل أحد ما يحمله كل فريق من فكر ويسعى إليه من هدف، فقد «ذكر ابن الماجشون أن ابن عطية لما التقى بأبي حمزة، قال أبو حمزة لأصحابه؛ لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاحوا فقالوا؛ يا أهل الشام، ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قالوا؛ فما تقولون في اليتيم؟ قالوا؛ نأكل ماله ونفجر بأمه، في أشياء بلغني أنهم سئلوا عنها، فلما سمعوا كلامهم قاتلوهم حتى أمسوا»(٢).

نعم؛ إن الفرق لواضح وإن البون لشاسع بين الفئتين، فأبو حمزة ومن معه إنما يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلي، وما

⁽۱) الأغاني، ج٣٦، ص٣٦٢، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٨١، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨.

⁽٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٣١، المنتظم، ج٧، ص٢٧٨، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥١، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٣٢٥، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨، الأغاني، ج٣٢، ص٣٦٢،

لهم من هم إلا تطبيق القرآن، واتباع هدي الرسول _ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام _، وإنصاف المظلومين، ورعاية اليتامي والمساكين، وإحياء البر وإماتة الفجور، أما ابن عطية ومن معه ممن بعثهم الطاغوت الأكبر بالشام فإن قدر القرآن عندهم أن يلقوه في جوف الجوالق، إذ لا شأن لهم بهدايته ولا أثر له في نفوسهم، فهم حرب عليه وعلى حزبه، وما خرجوا إلا لطمس معالمه والصد عن هدايته والحيلولة بين الناس وبينه، وما حق اليتيم عندهم إلا أن يأكلوا ماله ويفجروا بأمه، وما ذلك إلا لأنهم كذبوا بالدين وسهوا عن الصلاة وغرقوا في شهوات أنفسهم، فلم يحسبوا للآخرة عسابا ولم يقيموا للدين وزنا، ﴿أَرْءَيْتَ الّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿ وَلَا يَحُضُ عَلَى طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿ وَلَا يَحُسُ مَلَى اللَّذِينَ هُمْ يُراّهُونَ ﴾ [الماءون: ١-٧].

وهل بعد هـذا كله، يبقى في نفسـك _ أيها القـارئ الكريم _ ريب أو التباس في الفئة المحقة والفئة المبطلة مـن هاتين الفئتين، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ وَالْمَنُوا وَعَكِملُوا ٱلصَّلِحَتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّادِ ﴾ [ص: ٢٨].

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وترى أن أبا حمزة الشاري وأصحابه لم يستبيحوا قتال أهل الشام إلا بعد إقامة الحجة عليهم، مع أنهم _ بلا ريب _ آتون لحربهم، وقد سألوهم أولا عن كتاب الله الذي هو الميزان الحق والحكم العدل والقول الفصل، وكان ردهم عليهم ما علمت، وسألوهم عن اليتيم فردوا عليهم ذلك الرد الوقح، الذي لا يدل إلا على غاية الصلف ومنتهى الاستكبار، وهل تبقى بعد هذا لهم من حرمة تمنع من قتالهم؟..

وما كان هذا الموقف الحذر من أبي حمزة ومن معه إلا إمعانا في الحذر من إراقة قطرة دم، إلا بحجة بينة وبرهان من الله تعالى، وليت شعري؛ أي حرمة لدماء هـولاء تبقى، بعد هذه البـذاءة في الكفر والمجاهرة بالفساد والغلواء في العناد؟!.. ولا أعجب إلا ممن استمات في الدفاع عنهم، وتسفيه خصومهم وتضليلهم، بعد قيام هذه الحجج وانكشاف خباياهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وبعد ما أبلى أبو حمزة وأصحابه الشراة بلاء حسنا، أكرمهم الله تعالى بالشهادة، ليجمع لهم كلتا الحسنيين، فقد أكرمهم الله أولا بالنصر والتمكين، لتقوم بأعمالهم الحجة وتتضح بسلوكهم المحجة، ولتشع كلماتهم التي ترددت في الحرمين الشريفين نورا، إذ كانت شهبا تجمع بين سناء النور ولهيب النار، فهي نور يهدي إلى الحق والحقيقة، ونار تشتعل في قلوب الحاقدين، وقد حفظتها ذاكرة التأريخ ووعاها قلب الزمن، لتكون حجة في كل جيل، يهتدي بها المهتدون وينكص عنها الناكصون، وأكرمهم بعد ذلك بالشهادة ليفوزوا برضوانه، ويبوؤا إلى جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا.

بايع صحبه على الشرا وما طال زمانه إلى أن أكرما نالوا الشهادة التى قد طلبوا وبرضى الرحمن فيها انقلبوا

وعندما انقلبوا إلى الله تعالى خفت صوت الحق، الذي كان يجلجل من ألسنتهم بالدعوة إلى الله، وإقامة حجته على عباده، وإيضاح المحجة الصحيحة لهم، إذ عاد الفساد برمته إلى الحرمين الشريفين، فبرز المغنون والمفسدون من جديد، فتجددت حياة الترف والمجون التي امتلأت بها دواوين القصص والأدب ككتاب (ألف ليلة وليلة)، و(الأغاني)، و(محاضرات الأدباء)، و(العقد الفريد).

وبعد أن عادت الكرة لحزب الباطل، أعادوا سيرتهم في التشفي والانتقام وهتك حرمات الإنسانية، فقد حزوا الرؤوس وقدموها إلى الطاغية في الشام، ولم يكتفوا بقتل خصومهم وإنما كانوا يصلبونهم، فظل شهداء الحق مصلوبين، إلى أن آل الأمر إلى بني العباس، فأنزلوهم ودفنوهم.

ومع حسن معاملة أبي حمزة لأهل المدينة، وصفحه عنهم، وعدم مؤاخذتهم بجريرة مقاتلتهم له بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ما كان منهم بعد أن بلغهم مصرعه إلا أن انقضوا على أصحابه يقتلونهم تقتيلا، حتى من اقتنع بدعوته من أهل المدينة أنفسهم كان جزاؤه القتل.

فكان من بين الذين قبلوا دعوته من أهل المدينة بشكست النحوي، فانقلب عليه أهل داره وقتلوه فيمن قتلوا، قال ابن الماجشون: «وقد كان اتبعه على رأيه قوم من أهل المدينة وبايعوه، منهم بشكست النحوي، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوهم. وكان ممن قتلوه بشكست النحوي، طلبوه فرقي في درجة دار، فلحقوه فأنزلوه، وقتلوه وهو يصيح: يا عباد الله، فيم تقتلونني»(۱).

وهذا مما يعزز نظرة أبي الحرعلي بن الحصين عندما اقترح على أبي حمزة أن يؤاخذ أهل المدينة بعد فرارهم ويجهز على أسراهم، لأنهم أخذوا وهم يقاتلون، ولهم مأوى يرجعون إليه، وقال: «فإن هؤلاء أشرعلينا من أهل الشام، فلو جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»(٢).

وهذا الذي وقع فعلا، ولكن أبا حمزة كان أحرص على الاحتياط في

⁽۱) ينظر: شــرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨، ومختصر تاريخ دمشــق، ج٥، ص٦٥، الأغاني، ج١، ص٢٨١ وج٢٣، ص٢٦٢.

⁽٢) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٤، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١.

دينه منه على الحزم في سياسته، ولذلك رد على أبي الحر بقوله: «لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا»، وقد سجل كل واحد من الفريقين بفعله صفحته فكانت صفحة أبي حمزة والحمد لله بيضاء نقية، بينما كانت صفحات خصومه سوداء معتمة.

أبو حمزة الشاري (بين شهادات المنصفين وافتراءات الحاقدين)

من شان الناس أن يتباينوا في المواقف، بين شاهد بالحق وجاحد له، وهذه هي سنة الله في خلقه، فهؤلاء رسله المصطفون الأخيار لم يسلم أحدهم من قادح حرص على تشويه سمعته وتسفيه دعوته، وحسبنا نبينا الذي وصفه من وصفه بالسحر والكهانة، ووصموه بالجنون، واتهموه بافتراء الذي وصفه معرفتهم بصدقه وأمانته، وبروز معجزته التي أخفقت محاولاتهم أن يطمسوا نورها ويخفتوا صوتها، فلا غرو مع هذا إذا وجدنا الناس في أمر حركة طالب الحق وأبي حمزة الشاري بين معجب بها شاهد بأنها كانت على ذروة الحق، وآخر حاقد عليها لا ينطق لسانه فيها إلا بما يغص به صدره من السخيمة والحقد، ولا نريد أن نتعرض للذين سبقوا وتحدثوا عن هذا من أبناء القرون الخالية، وإنما نذكر نماذج وأمثالا مما قاله معاصرون.

شهداء القسط:

لقد شهد لهؤلاء شهداء لم يرعوا في شهادتهم إلا أمانة الكلمة، وصدق الحديث والاعتراف بالحقيقة، وأداء ما فرض الله عليهم من القيام بالقسط والشهادة بالحق، وهذه أمثلة من هؤلاء: _

١ ـ المجاهد البطل العلامة الصدوق الشيخ عبد المعز عبد الستار، الذي وجه إليَّ رسالة عندما دعوته للمشاركة في ندوة أبي حمزة الشاري، التي

عقدت في عام ١٤١٠هـ بمسقط عاصمة سلطنة عُمان، وقد احتوت رسالته ما هو جدير بأن يقال في أبي حمزة، وقد صدر بها بحثه المعنون بـ«تطبيق المبادئ الإسلامية في المواقف العسكرية، بحث مقدم إلى ندوة الاحتفال بالإمام أبي حمزة الشاري كَلِّلَهُ »، ولأهمية هذه الرسالة أنقلها إلى القارئ الكريم، بنصها وفصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم تحية.. وتهنئة.. وتقدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه.

سماحة الأخ الجليل العلامة الشيخ أحمد الخليلي مفتي عُمان حفظه الله.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى آلكم وعامة الأحبة عندكم، حفظكم الله وزودكم التقوى، وجمعنا وإياكم على خير ما يحب ويرضى.

تلقيت بكل اعتزاز وتقدير هذه الدعوة الكريمة، للمشاركة ببحث عن تطبيق الشريعة في المواقف العسكرية، في الندوة التي تقيمها السلطنة الفتية الرشيدة، بلفتة من القائد الموفق السلطان قابوس حفظه الله، احتفالا بذكرى البطل الجاهد المجاهد المختار أبي حمزة الشاري كَيْلَتُهُ.

وقد سرني هذا الاتجاه الكريم الموفق في السلطنة ورجالها وقادة الشباب فيها لبعث أمجادنا واستعادة تاريخنا وإحياء السير العطرة لرجالنا وأعلامنا، فذلك أمر طبيعي فيكم منتظر منكم، لما جبلكم الله عليه من الوفاء لدينكم والاعتزاز بإسلامكم والتمسك بعقائده وأحكامه وفضائله وآدابه، وما عرف به أسلافكم من الدعوة والجهاد، وهو أهم ما نحتاج إليه اليوم.

إن شبابنا اليوم في حاجة شديدة لمثل هذا الولاء لسلفهم، والتعرف على أمجادهم وتاريخهم واتخاذ الأسوة الحسنة منهم، فنحن في زمن قل فيه الهداة بيننا، فما بد أن نطلبهم من تاريخنا، وقد كان (ابن مسعود) فيه يقول: «من كان مقتديا فليقتد بمن مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة».

وقد كان أكثر ما سرني أن تختار الندوة شخصية المختار أبي حمزة الشاري وَهُلِيلُهُ، أصدق من آمن بحق وعمل به ودعا إليه وجاهد في سبيله ونذر حياته لجهاد الطغاة وشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، حتى قتل فيه وصلب وقتلت معه زوجه في ميدان البطولة والفداء.

إن الشباب بحاجة إلى أن يتعرفوا إلى أبي حمزة وأمثاله في صدق الإيمان وتطبيق القرآن وقوة البيان وتحدي الجبارين وجهاد الظالمين بالحجة والبيان والسيف والسنان إلى آخر قطرة من دم، حتى صاروا أعلاماً للبطولة والفداء والمقاومة والتحدي.

وما أكثر هذه المثل الرفيعة عند الإباضية والخوارج، وإن كان كثير من الإباضية يرفضون أن يعدوا فرقة من الخوارج، وهذا صحيح إن أريد بالخوارج الأزارقة والنجدات ومن على شاكلتهم ممن كفَّرُوا وشرَّكُوا من عداهم من المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم وذرياتهم وديارهم، وانقلبوا كالإعصار المدمر والريح العقيم التي ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

ولكن هؤلاء كانوا شــذوذا في القاعدة وفســادا في التطبيق، فلذلك ما أسرع ما انتهوا وبادوا.

وبقي الإباضية يمثلون الوجه الجميل للخروج على الطغاة والجهاد في سبيل الله، يرتقون قمة الكمال الإنساني في تصنيف البشر، فما لهم في الناس من نظير.

فالناس ثلاثة أصناف كما قسمهم العلماء:

- ا صنف يفنى في ذاته وملذاته وأنانيته وشهواته، ثم لا يبالي إن وسع داره أن يهدم جاره، وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، وهذا صنف هالك نعوذ بالله منه ولا حديث لنا عنه.
- ٢ وصنف صلح في ذات نفسه واشتغل بعبادة ربه وتحصيل رزقه، ومن
 بيته لمسجده ولا شأن له بغيره، وهذا لا بأس به فقد أصلح أمره وعزل
 عن الناس شره.
- ٣- وصنف اشتغل بإصلاح نفسه وكسب رزقه كسابقه، لكنه لم يكتف بهذا، بل اشتغل بإصلاح غيره تطوعا واحتسابا، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وهذا صنف يعتبر بأرفع درجات الكمال الإنساني، الذي يتبوأ ذروته النبيون والمؤمنون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله.

وهم ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دُعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا وَقَالَ إِنّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، ولا نعلم قوما انتدبوا لمثل هذا العمل واحترفوا مقاومة الطغيان واحتسبوا تغيير المنكر بالسيف والسنان مثل الخوارج، أو على الأصح الإباضيين، منهم فهم الذي أخذوا أنفسهم بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجا وتطبيقا بكل إخلاص وقوة، وألزموا أنفسهم الجد والزهد والجهاد في سبيل الله والمستضعفين احتسابا وقربى، في زمان فتحت على الناس فيه الدنيا بزينتها وفتنها كما يدخل الليل على النهار فأزلتهم وأذلتهم، إلا هؤلاء الشراة الذين اعتصموا بالله، فقد بقوا على فطرتهم وثباتهم وصلابتهم، شاكي أسلحتهم كلما سمعوا هيعة طاروا لها. قال ابن عبد ربه: «ليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أشد اجتهادا ولا أوطن أنفسا على الموت منهم».

ونحن في فتنة الدنيا وبريق الحضارة التي دخلت على المسلمين اليوم بحاجة إلى مسة منهم تكسينا حصانة ومناعة، وتجعل من أبنائنا امتدادا لحياة آبائنا الأولين، وسبيلنا لذلك أن نُحفِّظهم مآثرنا ونربط حاضرهم بماضينا، ورضي الله عن سعد بن أبي وقاص فقد كان يقول: إن كنا لنروي لأبنائنا مغازي رسول الله وسيرته كما نحفِّظهم السورة من القرآن.

ويقيني أن ما أمسك أبا حمزة وأضرابه على الحق والمقاومة إلا روح القرآن والنبي في وأصحابه، وإنما ابتليت هذه الأمة بالوهن وحب الدنيا وكراهية الموت، لما انقطعت من نبيها وسلفها، وابتليت بمن شوهوا تاريخها وأمجادها، وصنعوا لأعدائها أمجادا كاذبة وبطولات زائفة، فكانوا كما قال شوقى كَلِيَّةُ:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الحي انتسابا

فلذلك نحن نستبشر خيرا ونؤمل في جيل جديد من الأباة والحماة والشراة الصادقين، يقفون سدا منيعا في وجه الغزو المادي والمعنوي، ويعيدون لهذه الدعوة مدها وللأمة مجدها، بفضل جهودكم والرجال الصادقين المخلصين من أمثالكم، ونسأل الله أن يزيدكم ثباتا في الخير وعزيمة على الرشد.

وهو سبحانه ولي المحسنين، ويتولى الصالحين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه، ومن دعا بدعوته وعمل بسنته ونصح لأمته وجاهد في الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من محبكم عبد المعز عبد الستار القاهرة _ غرة صفر _ ١٤١٠هـ».

هذه كلماته التي تترجم ما في حنايا نفسه وطوايا ضميره، من الإعجاب والتقدير لشخصية أبي حمزة وجهاده وسلامة فكره وحسن طويته واستقامة منهجه، وأنه كان مشال صدق للتعلق بالقرآن والتزام خطته، والارتواء من معينه والاستهداء بنوره، وهي بعض من كل من شهاداته الصادقة لهذه الشخصية المؤمنة وأصحابها المؤمنين، وكان لبحثه في الندوة ومداخلاته في وقائع الندوة وأعمالها أثر في إبراز الحقيقة التي يجادل فيها كثير من الناس فيما يتعلق بأبي حمزة وفكره.

وقد تولى طبع هذا البحث على حسابه، وقدمه هدية إلى الشباب العُماني عامة، بمناسبة افتتاح جامع السلطان قابوس الأكبر في شهر صفر ١٤٢٢هـ، وأدلى بتصريح لتلفزيون سلطنة عُمان ربط فيه بين المآثر الحاضرة والأمجاد الماضية، وأشاد بدور أبي حمزة التأريخي مذكرا به الشباب الحاضر ليتخذ منه قدوة صالحة وأسوة حسنة.

الذي أعد الداعية المخلص المجاهد الشيخ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني، الذي أعد بحثا تضمن دراسة تحليلية لخطب أبي حمزة الشاري، وقدم بين يدي هذه الدراسة ما نصه: «إن الدارس لخطب أبي حمزة الشاري يجد جذوة من وهج العقيدة ونورها، ثبتت للخطوب جميعا واستعصت على الأحداث جميعا، تخاطب المؤمن بإيمانه وتستثير ساكن وجدانه، وتذكر في قلبه معاني قرآنه، وتهتف به أن ينصر الحق كما نصره أصحاب رسول الله ، وتتخذ من آيات الكتاب وسيرة المصطفى وسير أصحابه رضوان الله عليهم منطلقات للدعوة، وحججا للداعية يظهر بها الحق وتبطل الباطل، وتواجه الحكام الظالمين بظلمهم وتعلن منذ ذلك العصر أن السيادة للشرع، والسلطان للأمة المطالبة بإقامة أحكام الله، فإذا ما خرج الحاكم عن حكم الله تعالى، وجب على الأمة صاحبة السلطان التي فوضت الحاكم بالإمامة أوالخلافة عزله.

وحتى تعرف الأمة حقها وتدافع عنه وتضحي من أجله، لا بد أن يقوم العلماء ورجال الأدب والفكر بالتوعية الإيمانية، التي يوظفون فيها الأدب لخدمة الدعوة، وهذا ما نجده في خطب أبي حمزة كَلِّلَةُ.

والدارس لخطب أبي حمزة دراسة متدبرة يمكن أن يجد الخصائص التالية:

- ١ _ جذوة متوقدة تحملها خطبه المستعرة بهموم المجتمع الإسلامي، لم تخمد ولم تمالئ ولم تهادن، ولم تقبل بأنصاف الحلول.
- ٢ استثارة مبادئ العقيدة وقيمها من أجل التوعية والإعداد لمقاومة الظالمين، فمبادئ التوحيد والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معالم واضحة في خطبه رَخِلَتْهُ.
- ٣_ حسن الاستشهاد بالنصوص القرآنية وحوادث التأريخ لنصرة الحق ومقاومة الباطل.
- ٤ _ الحوار مع الشعب من أجل تبصيره بقضاياه وتوعيته للمطالبة بحقوقه.
 - ٥ _ تصوير الظلم والاستبداد بأبشع صوره.
 - ٦ _ مواجهة الحكام الظالمين بجرائمهم.
- ٧ مواجهة الشعب بأمراضه، ومنها سكوته على الظالمين، في سبيل بعث الوعي الثوري في نفوس الجماهير.

هذا أبو حمزة وهذه خطبه: جذوة مضطرمة يختلف عليها الليل والنهار، وتتعاقب عليها السنون وهي متوقدة لا تخبو نارها، ولا يضعف وهجها، هذه الجذوة المضطرمة التي استعصت على الموت لأن الفكر الذي حملها فكرحي، والقلب الذي حملها قلب خافق بمعاني العقيدة الحية، والدماء التي

سالت من أجلها لا تزال فوارة في قلوب المؤمنين تمدها بأسباب الحياة.

فكتب الله الخلود لخطب أبي حمزة الشاري، ولا تزال الأجيال تتلوها وتعيش معها حرارة المواجهة مع الباطل ونار المعركة ودروس الإيمان والصبر في مواجهة الظلام والظالمين، هذه الجذوة الخالدة هي التصوير الصادق لأدب أبي حمزة الشاري وخطبه وحياته.

إنه القلب الموصول بالله. الموصول بكتابه، المتلظي بهموم دعوته المستعلي على الباطل وبهرجته وطغيانه وسلطانه وجنده، الذي يجعل من الخطوب المتلاحقة والهموم الثقال، والبأساء والضراء تنتابه وتنتاب أخوانه؛ وسيلة كريمة لإذكاء روح المقاومة والجهاد، ليمس بها قلوب الناس ومشاعرهم ويستثير بنارها هممهم وعزائمهم.

وإذا أعطت خطبه وآثاره في حياته عطاءها، فإنها بقيت بعد موته تشهد بحياة أصحابها، كما يشهد هذا الملتقى الفكري بحياته بعد قرابة نيف وثلاثة عشر قرنا، وما أجل تعبير شهيد الإسلام سيد قطب كَلِيَّهُ عن هذا المعنى بقوله: «إن كلماتنا عرائس من الشمع، إذا متنا في سبيلها أضاءت ودبت فيها الحياة».

اقرأ هذه الخطب.. كأنها بنت عصرنا هذا، تقرأها حية جديدة خصبة معطاءة متصلة تصور صاحب العقيدة صلبا لا يعرف المرونة، ماضيا لا يعرف التردد ثابتا في الحق لا يعرف لينا، لا يتلون تلون الحرباء حسب الظروف والمناسبات ويلبس لكل عهد لبوسه ولكل حكم جبته».

ثم أضاف إلى ذلك قائلا:

«ويحسن وصف شخصية أبي حمزة الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رَخِيًنيُ فيقول: «أما أبو حمزة، فأسد في الحرب، المستعد للطعن

والضرب، ليث في الهيجاء إن ركب وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب، ذو رفق ولين لأولياء الله المتقين، وذو غلظة على الشاقين، وجميع إخوانه على هذه الطرائق متخلقون بمحمود الخلائق، ليس من الكل إلا جاهد أو مجاهد محالف الأرق ساهد، قاطع ليله في الهجود، بالركوع والسجود، وتلاوة القرآن والضراعة إلى الرحمن، والحراسة في سبيل الله، وكف أعداء الله، منفذ أيام العمر في إحياء العلوم وإنجاد المظلوم ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم، هاجروا في سبيل الله الأوطان والمال وربوا بأنفسهم عن اتخاذ النشب والمال، وآثروا أولياء الله وقاتلوا أولياء الشيطان، وشرفوا أنفسهم البغياء الرضوان، فلم يلتفتوا إلى زهرة الحياة الدنيا، حتى فارقوا ثوب المحيا، فودع كل منهم حميدا».

ويبين لنا من هذا النص الصفات التالية:

- ١ _ التقوى والعبادة.
- ٢ _ كرم النفس والرفق واللين لأولياء الله.
 - ٣ _ الشدة والحزم في مواجهة أعداء الله.
- ٤ ـ الجهاد في نصرة الدعوة والهجرة في سبيل الله والتضحية بالنفس والمال.
- ٥ _ إفناء سني عمره في إحياء العلوم وإنجاد المظلوم ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم.

ونجد صفات أبي حمزة هذه نموذجا كريما للشخصية الإسلامية التي وصفها الله بقوله: ﴿ تُحَمَّدُ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ وَ أَشِدًا مُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى

كما نجد أبا حمزة في خطبته التي وصف فيها أصحاب النبي الكريم. وكان أبو حمزة بهذه الأخلاق أهلا لأن يقود جماعته، وتكون خطبه صادرة من قلب صادق مخلص محترق بهموم المسلمين، وما خرج من القلب دخل إلى القلب بغير استئذان، وهكذا كانت خطب أبي حمزة في حرارتها ووهجها وصدقها صورة ناطقة عن قلبه المحروق، ونفسه الملتهبة وعطشه لنصرة الحق، وإقامة معالمه.

ولعل هذه الأبيات التي أنشدها أبرهة بن الصباح الحضرمي رفيق أبي حمزة وعضده في مواجهة جيش عبدالله بن عطية، تصور تصويرا رائعا عظم المواجهة وحرارة الموقف التي عاشها أصحاب العقيدة في نصرة الحق:

أنا الغلام الحضرمي الشاري مهذب لا يصطلي بناري جوركم جنبني قراري وجاء بي من وطني وداري حب جلاد القوم في الصحاري». اهـ(١)

وهي شهادة حق ما أريد بها إلا وجه الله من قلب مفعم بحب الحق، ولسان ناطق بالصدق، جسدت الواقع وصورته كما ينبغي أن يتصور، وبددت ما نسجته أحقاد المغرضين من الصورة الكاذبة المشوهة لهذه الشخصية المؤمنة الفذة.

٣ ـ العالم المفكر الكاتب المخلص الشيخ الدكتور عبد العزيز المجدوب (من علماء جامع الزيتونة بتونس الخضراء) أعد بحثا بعنوان «أبوحمزة الشارى حركته وأبعادها وأسباب انحسارها»، جاء فيه ما نصه:

«إن أبا حمزة الشاري من أصدق أسلافنا إيمانا وأخلصهم عملا،

⁽۱) المجاهد أبو حمزة الشارى، ص ۲۷ ـ ۳۰.

وأخشاهم لله في خلقه وأشدهم عطفا وغيرة على الناس، ومن أكثرهم حرصا على إنقاذهم مما يعنتهم، وما كانوا يرزحون تحته من ظلم النفس وظلم الإخوان وظلم السلطان، أو هو كما وصفته بعض المصادر: ليث في الهيجاء إذا ركب، وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، ذو رفق ولين لأوليائه المتقين، وغلظة على الشاقين»(١).

ثم قال مبينا ظروف ثـورة أبي حمزة ودوافعها: «إن هذه الثورة في واقع أمرها تعـد امتدادا لثورات متتابعة أو لكفاح متواصـل لم ينقطع منذ قامت الدولة الأموية إلى أن انقرضت، فهي حركـة تصحيحية أو إصلاحية كان لا بد أن تظهر، وقيض لها الله من يشري نفسه ابتغاء مرضاته، وبيد الأقدار بعد ذلك وقبله أن تنجح أو تفشل».

وأضاف إلى ذلك: «قامت دولة بني أمية على غير ما يرضي الله ورسوله وألغت الخلافة وما فيها من مبدأ الشورى وحولتها إلى ملكية بل قيصرية أو كسروية، تسلم فيها يزيد مقاليد الأمور من بعد أبيه، وهو من سقط المتاع!! ومن أحقر الناس خلقا وسلوكا!! ثم كان من بعده آل مروان تداولوا الحكم فيها واحدا من بعد آخر، إلى آخر خليفة فيهم مروان بن محمد، الذي على يديه دالت دولتهم، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية، وعليه وعلى ولاة الأمر لديه كانت ثورة أبي حمزة.

وأهم ما كان سببا في قيام أبي حمزة وخروجه ما أمست عليه الأحوال في ذلك العهد، فقد ساءت على المستوى الديني والخلقي والاجتماعي، وبعد ما بينها وما كانت عليه في فجر الإسلام وفي زمن الرسول في ، يؤكد ذلك التأريخ، وقد ألح في وصفه أبو حمزة في سائر خطبه ويلمسه كل من

⁽١) المصدر السابق، ص١٣.

يعود إلى خطبه التي ألقاها بمكة أو بالحرم النبوي بالمدينة أو بغير هذين الموضعين، وكل من يقف على محاوراته مع خصومه أو مع عموم الناس $^{(1)}$.

ثم صور الواقع تصويرا حياً مقتبسا ومضات من كلام أبي حمزة في خطبه، ثم عاد وأثبت أن الناس رأوا في حكم طالب الحق باليمن وأبي حمزة الشاري أسلوبا جديدا في تدبير الأمور وفي سياسة الرعية وأضاف: «هذا الأسلوب الذي عرفته الأمة في ظل الخلافة الراشدة ثم اختفى، أمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، ونال فيه المستضعف حقه ولقي فيه الظالم جزاءه»(٢).

ثم أخذ يصف كيف اشترى بنو أمية ضمائر الناس حتى صرفوهم عن الحق، فلم تجد فيهم موعظة أبي حمزة البليغة وحجته الدامغة، ولم يؤثر فيهم لطف معاملته لهم وحسن تصرفه في شؤونهم، وكان مما قاله في هذا:

«إن من اشترى بنو أمية هممهم وامتلكوا قلوبهم حتى أضحوا يعتبرون الشراة أعداء لله لا يمكن أن يقنعوا أن أعداء الله هم الذين لم يجعل الله لهم طاعة على الخلق، فاستبدوا وظلموا.

والناس بمقتضى سياسة بني أمية ألفوا الخضوع والاستكانة واستمرأوا حياة الاستسلام واللامبالاة، وطاب لهم عيش اللذائذ ومقارفة المعاصي... كل ذلك أمسى في اعتقادهم قدرا لازما ما دام حكام البغي وأعوانهم وعمالهم قد علموهم أن الجبر حكم الأقدار، وأنه لا حرية للعبد ولا اختيار، وطبيعي فيمن كان هذا شأنهم أن لا يغيروا ما بأنفسهم، لذلك حرص أبو حمزة أن يجوس خلال النفوس ويحاول أن يبعث فيها حافز الخير

⁽١) المصدر السابق، ص١٤ - ١٥.

⁽٢) المصدر السابق، ص١٨.

والإحساس بالواجب، ويحيي فيها الشعور بالمسؤولية، فطالب وهو بمكة وبالمدينة في شخص واليه، كل فرد من أفراد الأمة بأن يرعى الأوامر والنواهي الدينية، وأن يؤمن بأنه حر ومسؤول عما يفعل، وأن لا يستمع لدعوى أن الله يكلف عبده ما لا طاقة له به، وتؤكد الآثار المكتوبة أن الأحوال تحسنت تحسنا واضحا ملموسا، وأن عمل الصالحين المصلحين قد أثمر رغم قلة عدد المتعاطفين، وما كان للأغلبية إلا أن تخضع وتظهر الطاعة، وإن هي أخفت حقدا دفينا وعداء ظهرت آثاره يوم خروج الإباضية من المدينة ثم من مكة، فيما أظهروا من شماتة وما ألحقوا بهم من ألوان التنكيل والتقتيل!!»(۱).

ثم عرج على الأسباب التي أدت إلى تقويض دولة الشراة مع ما كانوا يتصفون به من حسن السياسة مع الشجاعة النادرة والتضحية في جهاد الأعداء، وحصر الأسباب فيما يلي:

أولاً: ما شهدت به الأخبار وأثبتته المصادر أن الشراة أبعد الناس عن العدوان والظلم، وأبعدهم كذلك عن الانتقام لا في حرب ولا قتال ولا في حالة السلم، شأنهم التسامح والعفو والتزام سيرة السلف الصالح في ذلك، وما يستلزمه التعاطف الأخوي في الدين، كل هذا وإن كان مكرمة بل واجبا فهو لا يقابل من قبل اللئام إلا بالاستخفاف من إضمار الحقد وتحين فرصة الغدر، جاء في كتب الشراة التي قدم بها أبو حمزة على عبدالله بن يحيى هذه الوصية: «إذا خرجتم فلا تغلوا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»، ولما انهزم أهل صنعاء أراد أبرهة بن الصباح اتباعهم فمنعه طالب الحق الذي «جمع الخزائن والأموال وأحرزها» بدل تبذيرها وإضاعتها. وأرجع عامل مروان على المدينة

⁽١) المصدر السابق، ص١٩.

رسول أبى حمزة وقد جاءه واعظا داعيا إلى الخير قائلا له: «ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف» فما زاد أبو حمزة على أن قال: «كفوا عنهم ولا تقتلوهم حتى يبدأوكم بالقتال»، وموقف عنهم مأثور ومنهم معروف وهو أنهم لم يقاتلوا إلا من يبدأ بمقاتلتهم، وألح على بن الحصين على أبي حمزة أن يأذن له بملاحقة أهل العدوان منهم ومعاقبتهم فأبى أبو حمزة رغم قوله له: «إن هؤلاء شر علينا من أهل الشام، فلو قد جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»، فما كان جواب أبى حمزة إلا أن قال: «لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا»، بل إنه هم أن يطلق سراح بعض الأسرى لولا أن منعه ابن الحصين وقال له: «إن لكل أهل زمان سيرة، وإن هؤلاء لم يؤسروا وهم هراب، وإنما أسروا وهم يقاتلون، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرم قتلهم وكذلك الآن قتلهم حلال» وبعد الهزيمة بسبب مكر أهل مكة وتعاونهم مع جيش مروان، ذكَّر ابن الحصين إمامه أبا حمزة بأن هذا ما كان ليحدث لو أنه مارس الشدة مع من أخذهم باللين، بل إنه قد كان حذره من شرهم من قبل المعركة، قال: «إنى قد أشرت عليك اليوم أن تضع السيف في هؤلاء، فإنهم كفرة فجرة، ولو قدم عليك ابن عطية لكانوا أشد عليك منه، فقال: «لا أرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة وأقروا بالحكم، ووجب لهم حق الولاية. قال: إنهم سيغدرون فقال: أبعدهم الله ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ١٠] الفتح: ١٠].

ثانياً: السبب الثاني وليس بمنفصل عن الأول في الحقيقة هو الغدر، وقد كان لا بد من توقعه وتوقيه من أهل المكر ممن ألفوا الرياء. كان هذا سببا واضحا لحصول الهزيمة وفشل الجماعة.

ثالثاً: وفاء أبي حمزة بالعهد رغم استشعار الخطر، قال في بعض المواقف التي يضعف فيها الرجال ويخونون «معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس، والله لا أفعل ولا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه».

الرابع: لجوء الأعداء من الأمويين إلى شتى الوسائل التي يمكن أن تحقق أهدافهم، من ذلك ما يبذلون من رشاوى بلا حساب لاصطناع الجيش واشتراء همم الناس».

الخامس: وهو سبب محتمل، يمكن استنتاجه من خبر أورده (فلهوزن)، و فحواه أن الشراة قد سمحوا لغير الإباضية من الفرق والطوائف الأخرى أن يدخلوا في زمرتهم ليكونوا أعوانا على الأمويين، إن صدق هذا الخبر فإن من بين الداخلين في زمرة الشراة من قد يكون من طبعه الغدر والمخادعة؛ الأمر الذي ربما ساهم فيما أصاب الجماعة وفي حصول ما حصل، لا سيما إذا أدركنا مقصد الباحث بقوله: «لكن هذا مبدأ سياسي ولا يتفق مع مذهب الخوارج» ويشير بذلك إلى المبدأ الذي يقول «من ليس ضدنا فهو معنا» فإذا ما سلمنا بذلك وأضفنا إليه قوله في نفس الموضع «لم يشاً أبو حمزة أن يتخذ إجراءات شديدة لحماية نفسه من غدر أهل مكة، ولهذا كانت مقاومته عبثا» فإنه يمكن القول بأن أبا حمزة وإن كان مقاتلا مقداما وفارسا مغوارا فإنه ليس عسكريا _ بالمعنى المستحدث _ أي أنه لم يكن سفاحا يستعذب التقتيل، تواقا إلى اضطهاد الناس، وأن ثورته لم تكن حركة ثورية تمردية اعتسافية، لا من حيث دوافعها ولا من حيث أهدافها، بل إنه ليس من الخطأ إذا قلنا مع من قال إن هذه الثورة أقل أهمية من سابقاتها من الناحية السياسية ولكنها أقرب إلى مذهب الخوارج، وهو يعنى أنها ثورة ثقافية إن جاز هذا التعبير، لهذا كان من الـ الزم أخذ الاحتياطات، بل إن من العصمة حماية مثل هذه الثورات بما ينبغى لها من وسائل الحماية المادية $^{(1)}$.

ثم أضاف إلى ذلك: «وأحسب أنه يحق لي القول: إن الشراة إلى جانب ما سجلوا من نتائج باهرة على المستوى الإصلاحي دينيا وخلقيا واجتماعيا..

⁽١) المصدر السابق، ص٢٠ - ٢٢.

فإنهم أقاموا _ ولو لمدة وجيزة _ دولة إباضية وسعت الحجاز ومعظم أطراف الجزيرة، وهذا غنم سياسي يضاف إلى قائمة ما استطاعوا أن يقيموا من دول بالمشرق والمغرب، وهو كذلك غنم لا يوصف إذا ما استحضرنا أن بزوال هذا الحكم قد زال حكم بني أمية، وهو الهدف الأساسي من قيام هذه الثورة وما سبقها منذ قامت دولتهم». اهـ(١).

وهي كسابقاتها من الشهادات الصادقة صدرت من قلب يؤمن بما يقول من الحق، فلم يبال إن رضي النه الحق، فلم يبال إن رضي الناس عما يقوله أو سخطوا، وإنما المهم هو رضى الله تعالى القائل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ۖ وَبِعَهَدِ ٱللّهِ أَوْفُواْ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٤ ـ الشيخ الفاضل الوفي محمد شحاته أبو الحسن (من جمهورية مصر العربية) المدرس بمعهد القضاء الشرعي سابقا، وقد أعد بحثا بعنوان «أبو حمزة الشاري المختار بن عوف القائد الداعية» وبحثه من أوله إلى آخره مليء بذكر مناقب أبي حمزة وصدق لهجته وإخلاصه في دعوته، وحرصه على نصرة الحق، وهو مليء كذلك بذكر جرائم الطرف الآخر الذي قام عليه أبو حمزة، وإمامه طالب الحق، وكان مما قاله:

«فمن لنا بأبي حمزة وأمثاله...

يوقظ الهمم ويوحد الجهد ويدعو الأمة إلى ما أراده الله لها خير أمة أخرجت للناس، تحمل تكاليف دينها راضية، وتقف في وجه تيارات الإلحاد التى سلبت البشرية كل فضيلة، وتجاهد في سبيل الله ليكون الدين كله لله.

إن المتأمل في خطب أبي حمزة يجد أنها تتميز بالدعوة إلى منهج الله، وهي تتسم بهذه السمات في جميع مراحلها واتجاهاتها»(٢).

⁽١) المصدر السابق، ص٢٣.

⁽٢) المصدر السابق، ص٨٣.

وقال أيضا: «إن المتأمل في نهج أبي حمزة الشاري الذي بينه وأعلنه على منبر رسول الله على يجد أن حديثه لم يكن خطبة منبرية، ولا نصا أدبيا يتناوله النقاد بالدراسة، ويستعرضون ما فيه من بلاغة وقوة تعبير.

لقد كانت خطبته عرض منهج يشرح فيه _ بصدق وأمانة _ الدافع الذي أخرجه وصحبه من دياره_م وأموالهم، إنهم لم يخرجوا طلاب دنيا أو ملك يخوضون فيه.

وقد ثبَّت رسول الله ﷺ دعائم الدين بالمؤمنين القلائل الذين واجه بهم ومعهم _ في قلة من العَدَدِ وضعف من العُدَدِ _ قوى الشرك على _ تنوعها _ وملأوا الدنيا بكلمة التوحيد.

وكما قال عبدالله بن الزبير: أما بعد.. فإنه لـم يعز من كان الباطل معه، ولو كان فردا. ولم يذل من كان الحق معه، ولو كان فردا.

حقا أرأيتم بلج بن عقبة، معه ستمائة من أمثاله _ فتوة وعقيدة _ يقابلون جيشا يأكل الفضائل ويطمس معالم الحق ولا تأخذه لومة لائم، فيقابلونهم غير هيابين لا تهمهم النتائج، فهي بين يدي الله يفعل بهم ما يشاء، إنها الفئة المؤمنة في كل وقت وزمان تواجه الباطل لا يعنيها انتفاشه وبطره وفجوره، بل يعنيهم أداء الواجب على أحب ما يريد الله.

قال مالك بن أنس كَثِلَيُّهُ: خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب.

قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور وإحياء ما أماتوا من الحقوق وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والقسم بالسوية والعدل في الرعية، ووضع الأخماس (الزكاة) في المواضع التي أمر الله بها.

إنها الدعوة إلى منهج الله الذي يحيي هذه الأمة، إنه إعلان المبادئ الذي يعلنه أبو حمزة الشاري من فوق منبر رسول الله هذه، تلقًاه من طالب الحق وعاهده على أن يدعو إليه حياته.

أين هذا القول الخاشع الصادق من قلب يخاف الله ويتقيه ويدعو إلى تصورات الإسلام الصحيحة ويوصي بالتقوى وطاعة الله ورسوله والعمل بكتاب الله وسنة نبيه هي مثل قوله: «فالطاعة لله ولأهل طاعة الله»، وكذلك «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

أين هذا الموقف الكريم من صاحب دعوة تعشقها؟!.

أين تلك الوصية التي تفيض بمعاني الإيمان وحبه من فجور بلغ حدته، ومن أمراء خانوا الأمانات وضيعوا حلاوة التطبيق لكل ما جاء به الإسلام من خير؟! إن مخازيهم مزرية...

بلغ هشام بن عبد الملك أن ابنه سعيد يزني ويسكر، فأشخصه وقال له: يا ابن الخبيثة (هكذا!!) تزني وأنت ابن أمير المؤمنين!! ويلك! أعجزت أن تفجر فجور قريش!! أوتدري ما فجور قريش لا أم لك؟ قتل هذا وأخذ مال هذا؟، أرأيتم هذه واحدة من مفاسد هشام.

هل هذه وصية خليفة يربي ابنه على أن يفجر فجور قريش؟ أن يقتل نفوسا حرم الله قتلها إلا بالحق، وأن يسلب الناس أموالهم.

أما مخازي الوليد بن يزيد بن عبد الملك فلا تقل جرأة على حدود الله عمن سبقه، فقد كان أشد على الأمة من فرعون على قومه.

تعشق سعدى وسلمى ابنتي سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، عكف على البطالة وحب القيان والملاهى ومعاشقة النساء.

وإن المرء ليستحيي مما تذكر كتب التاريخ من مخازيه (عدو الله)... ذكر ابن عبد ربه قال: قال إسحاق بن محمد الأزرق: دخلت على منصور بن جمهور الكلبي بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال لي اسمع من هاتين الجاريتين ما تقولان، قالتا: قد حدثناك، قال: بل حدثاه كما حدثتماني، قالت إحداهما: كنا أعز جواريه عنده، فنكح هذه وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فأخرجها وهي سكرى جنبة متلثمة فصلت بالناس.

نستغفر الله العظيم، ونعوذ به من فعل هذا الفرعون.

هذا الذي دفع أبا حمزة الشاري وأصحابه إلى أن يتحملوا مسؤولياتهم فجزاهم الله عنا وعن الأمة أجزل الثواب»(١).

وبعد تطواف طويل في أحوال بني مروان وما عانته الأمة منهم، عرج على خطب أبي حمزة المختار يحلل جواهر كلمها، ويكشف عن القيم

⁽۱) المصدر السابق، ص١١٠ - ١١٢.

الإيمانية التي احتوت عليها، وعندما جاء إلى خطبة له قصيرة قال: «يمكننا أن نعتبر هذه الخطبة ذات اتجاه في الدعوة غايته أن يعد الداعية ويربي نفسه تربية إيمانية تشعر المؤمن بتبعاته وواجباته نحو عقيدته ودينه، إنه يفتح بصيرة المجاهد من فتيانه على ما يحيط به من خروج على الحق وانتشار الفتنة، حتى طال ظلام ليلها وملأت شدتها صدور المؤمنين هموما، أين المخرج وكيف الخلاص، ولقد تجبر أهل الباطل فقادوا الناس إلى مهاوي الهلاك حتى أعمت أعينهم وصموا، فغفلوا عما أوقعهم فيه غلاتهم ولم يستبينوا النصح لا ضحى الغد ولا بعده... لأن القائم ألقى شباكا معقدة أحكم رتاجها على أصحاب الحق، يراقبهم ويعد خطواتهم ويتأول أفعالهم وأقوالهم بما يجد فيه مبررا لإحكام القبضة ونشر الباطل حتى ساد الظلام ودب اليأس في النفوس....

ثم قال: ولله في خلقه شوون وهو سبحانه مدبر الأمر، بيده تدمير كل جبار عنيد، يهد أعمدة الظلم وينزع أوتاد الباطل ويقيض بفضله وكرمه من يحمي حماها ويهب نفسه لنشر ضياء الإسلام في ربوعها، يتصل بالله اتصال عزة، ويستمد منه العون على حمل الأمانات، يفاصل بين منهج حياته وحياة المشايعين للباطل.

إنها منهاج تربية ونظام حياة لعبد اصطفاه الله ليكون هو الذي ينقذ الأمة مما تقاسيه، ما أحوجنا لهذا النوع من عباد الله الذي يمن بهم على أمة نبيه ليجددوا الأمل في أن تتبوأ مكانتها وتتسلم قيادة البشرية إلى نور الله سبحانه.

إنها كلمة، رغم إيجازها، كبيرة القدر كثيرة المعاني عميقة الإخلاص، قال: «أما بعد.. فإنك في ناشئ فتنة وقائم ضلالة، قد طال جثومها واشتدت عليك همومها وتلوت مصائد عدو الله منها، وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عم في عواقبها، يهد عمودها.

ولن ينزع أوتادها إلا الذي بيده ملك الأشياء وهو الرحمن الرحيم، ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظُلَمِهَا ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور في أفواههم تزهو وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا منهج السبيل وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم، بهم يصلح الله البلاد ويدفع عن العباد، طوبي لهم وللمستصبحين بنورهم»(١).

واختتم بحثه بذكر المعاني السامية التي يتحلى بها عباد الله المؤمنون ثم قال: «كل هذه المعاني السامية الرفيعة، والمثل العليا تشربها وعاشها وتلقاها القائد الفقيه الداعية من إمامه طالب الحق الإمام عبدالله بن يحيى. لقد التقيا على طريق الحق، وتوحد هدفهما من أول الطريق.

أبو حمزة الشاري رضع مبادئ الحق والعدل والمساواة من تربته المعطاء، في مركز الإشعاع الإسلامي في ذلك الزمن الفتي الناضج، في ذلك الموضع الوضيء المبارك بالبصرة فتربى... وربى: _

تربى على يد أبي عبيدة وأصحابه، يتلقى منهم ومعهم معنى البذل والتضحية في سبيل المبدأ، ويتعلم كيف يحمل الحق وينفح عنه، وكان من ثمرات هذا التلقي؛ أن أبا حمزة عشق الحق، وباع نفسه لله يكافح عن دينه، ويدفع عن المسلمين مظالم بني مروان، ولم يقف عند حد الدعوة النظرية بالكلمة ينادي بكلمة الحق في بيئته كما يفعل الناس، ممن وجدوا مسئوليتهم تقفز عند حد القول.

لا لم يفعل ذلك وحده.

ولكنه تدرج مع المنهج الحركي للإسلام ومراحله «كان يوافي في كل سنة _ في موسم الحجيج _ يدعو إلى خلاف مروان بن محمد وآل مروان»

⁽١) المصدر السابق، ص١٢٣ - ١٢٤.

وظل على هذه المرحلة الحركية حتى أراد الله أن تتحول إلى كفاح مسلح بالسيف.

ولم يقف عند هذا الحد.

بل إلى جانب تلقيه وتربيته على يد علماء المذهب بالبصرة كان يربي، يربي فتيته فيمزج القيم والمبادئ والمثل العليا، بالعمل والجهد والصبر، وتحمل الشدائد، ونشأ شباب «مكتهلون» كما قال.

وإنك لتمتلئ نفسك اعتزازا بفعل الإسلام في هذه النفوس، الفتى فيهم بألف، هيأهم أبو حمزة جميعا لتحمل أمانة الأمة، يزيحون عنها ركام سني طغاة آل مروان، مهمة شاقة ومواجهة غير متكافئة.... ماذا يفعل فتية قليلو العدد والعدة في مواجهة متعددة الاتجاهات، أمة متخاذلة، وتبلدت عقول أبنائها وشمل التنازع كل حياتهم. وولاة لا يخافون الله في الأمة ولا يرقبون إلا ولا ذمة، سلطوا عبيدهم وجبابرتهم المأجورين على الناس فساموهم سوء العذاب.

وعلى الجانب الحضرمي كانت إرادة الله سبحانه تقدم للحق طالباً.

وألهم الله سبحانه _ بفضله ومنه وكرمه _ عبدالله بن يحيى الكندي _ أحد بني عمر ابن معاوية المجاهد العابد الزاهد، وانتدبه الله سبحانه لأمر جلل. «وكان يقول قبل أن يخرج: _ لقيني رجل، فأطال النظر إلي، وقال: ممن أنت؟ فقلت: من كندة... قال: والله لتملكن، وتبلغن خيلك وادي القرى... فذهبت أتخوف ما قال، وأستخير الله، فرأيت باليمن جورا وظلما وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة، قال: ما يحل لنا المقام على ما نرى، ولا يسعنا الصبر عليه.

والتقى الداعيان؛ طالب الحق الإمام، أمكنه الله من طغاة الولاة باليمن،

وتلميذه طالب عدل الإسلام، بعثه أبو عبيدة وأصحابه _ في رجال من الإباضية _ حيث بايعوه، وشاركوه جهاده، فخلصوا اليمن من سيطرة آل مروان.

وإنك لتجد في مثل هذا العمل، اتجاه الدعوة، وأسلوبها، مما يجعل كل تصرفاتهم دعوة إلى الله، وهذه النصوص تؤيد: _

- ۱ ـ ينصح أبو عبيدة وأصحابه طالب الحق وقواده فيقولون: إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولله خيرة من عباده يبعثهم ـ إذا شاء ـ لنصرة دينه، ويخص بالشهادة منهم من يشاء.
- ٢ منذ وضع أبو حمزة ورجاله بيعتهم بين يدي إمامهم طالب الحق، ووجهتهم الجهاد، يزيلون به كل الحواجز والمظالم والسخائم التي طمس بها آل مروان رونق هذا الدين، وبهجته وسماحته وضياءه. ساروا في طريق التضحية إلى أن كتب الله لهم م مع إمامهم الشهادة. لم تثن عزيمتهم كثرة الجراح، ولا إعراض البلهاء، ولا فجور المرتزقة الذين بثهم مروان في كل ثنية وشعب.
- ٣_ إن الداعية يضع الدعوة إلى الله والحق والعدل في الدرجة الأولى من اهتماماته، لأنه يُرضى ربه بجهاده.

فَهِم ذلك أبو حمزة الشاري وفتيانه، وفهمه إمامهم طالب الحق، وفهمه مستشاروه من علماء الإباضية في البصرة، يقولون له ولهم في كتب أحضرها أبو حمزة: «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان، العيب لأعمالهم.

وكذلك الإمام طالب الحق، أبى أن يتبع أهل صنعاء بعد انهزامهم. ودعا الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، وقد أحسن السيرة في الناس وألان لهم جانبه، ومارس الدعوة إلى الله على أوفى ما تكون.

وكذلك فعل أبو حمزة: اتقى الله في الناس، ودعاهم بالحسنى وتجنب البطش بهم _ رغم استحقاقهم _ ولم يبدأ مرة بقتال، ولم يغفل عن ذكر الله تعالى وتلاوة تعالى وتلاوة القرآن، وكان يوصي رجاله: «أكثروا ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ووطنوا أنفسكم على الصبر» وعندما التقى الجمعان تحرج أن يقاتل القوم قبل أن يدعوهم، ويوضح لهم هدفه، وقد أرسل قائده بلج بن عقبة ليدعوهم:

فذكرهم بلج الله، وسألهم أن يكفوا عنهم، وقال لهم: خلوا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار عليكم في الحكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، نحن إنما خرجنا لنكف أهل الفساد، ونقاتل من قاتلنا واستأثر بالفيء، فانظروا لأنفسكم، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم، وعاونوا أهل الحق.

ولما لم يقبل أهل المدينة النصح وأصروا على القتال قال أبو حمزة: «كفوا عنهم ولا تقاتلوهم حتى يبدأوكم بالقتال»... فرمى رجل من أهل المدينة بسهم جرح رجلا في معسكر أبي حمزة فقال: «شأنكم الآن، فقد حل قتالهم».

وعندما نصحه علي بن الحصين أن يتبع المنهزمين ويجهز على الجرحي، قال: «لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا».

إنهم دعاة، همهم أن يسمع المدعو القضية، ويتدبر تفاصيلها ويدرك غاياتها، إنها الإسلام. إنه منهج الله يريد به الطغاة شرا، والناس منهم في

أحد مواقف ثلاثة: أن يشارك الشراة في الدعوة إلى تطبيق الإسلام على الوجه الذي كان عليه في سيرته الأولى، أو يقيم في داره، أو ثالث يكف نفسه عن الوقوف في وجه دعاة الحق.

لقد أحسن أبو حمزة السيرة في أهل المدينة، حتى سمع الناس له وأدركوا غايته، وعلموا صدقه، علموا أنه ممن عاهدوا الله سبحانه، وأن هذا العهد بيعة لا يبقى للمؤمن بعدها شيء في نفسه ولا في ماله، دون الله، ودون الجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

علموا من سيرته وأصحابه، أنهم يتصفون بصفات تتصل بذوات أنفسهم، فهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة السامية، إلا بعد أن حقوا ما يجعلهم أهلا للاستشهاد أو النصر، هذا بالإضافة إلى صفات تختص بتكاليف البيعة، والدعوة إلى تحقيق دين الله في الأرض.

فهم تائبون؛ ولو دون ذنب اقترفوه.

وهم عابدون واصلوا كلال ليلهم بنهارهم.

وهم حامدون لأن الله انتدبهم لمهمة مقدسة.

وهم سائحون خرجوا من ديارهم مستضعفين وقد استجابوا لمنادي الحق وطريق مستقيم.

وهم صائمون؛ صاموا عن مخازي الدنيا وملذاتها وانشغلوا بالمهام العظام التي كلفوا بها.

لقد صدق في وصف فتيانه: ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن الكريم..

والسؤال الآن.....

هل خسر أبو حمزة وإمامه وأصحابه، وهم يجودون بأنفسهم، في مواجهة باطل مروان وزبانيته؟.

هل يضار الحق وأصحابه عندما يتكالب عليهم الغوغاء المأجورون، يحاولون طمس معالم الحق، وإبادة أصحابه؟!.

هل تضيع الدماء الزكية التي جاد بها أصحابها في ميدان الشرف والكرامة يجاهدون في سبيل الله؟..

هل ينتصر أصحاب الباطل بحيلهم ومكرهم وأموالهم التي يشترون بها الذمم، ويعبئون جيوش المرتزقة ضد أصحاب الدعوة الإسلامية في كل زمان؟ كلًا كلًا.

لقد أعلن أبو حمزة عن نهجه ونهج إمامه، في كل تحركاته يحض الناس ويدعوهم إلى إعزاز الدين.

وكذلك أعلن عبد الملك بن محمد بن عطية خادم مروان وصنيعته؛ الذي اشتراه ورجاله ليقابلوا أصحاب الحق في عدد وعدة تفوقهم أضعافا كعادة بني مروان، يوجهون فيء ومال المسلمين في محاربة من يقف في وجه طغيانهم، ويحاول تخليص الأمة من مفاسدهم.

أعلن ابن عطية عن وجهته ووجهة سيده، عندما سأله أبو حمزة عن سلوكهم ونهجهم في سياسة حياة الأمة.

قال أبو حمزة لرجاله: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاح بهم: ما تقولون في القرآن الكريم والعمل به؟ فصاح ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق!!

يا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

هكذا تكون الجررأة على الله، وعلى كتابه الكريم، وهكذا يظهر هدف ابن عطية وأسياده، إنهم يحادون الله ورسوله وكتابه، ومن ينتسب إليهم، ويؤمن بهم ويلهج بالدعوة إليهم.

قال أبو حمزة: ما تقولون في مال اليتيم؟..

قال ابن عطية: نأكل ماله، ونفجر بأمه.

هكذا تضيع قيم الإسلام ومبادئه بين أيدي هؤلاء الفجرة. فعل يخالف كل تصور وأمر وخلق يدعو إليه هذا الدين الحنيف. هل بقي في ابن عطية ذرة من دين، وهو ينطق بكلمة الكفر ويعلن فجوره؟.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا نَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِى آَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَهُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمُوالَ ٱلْيَتَهَىٰ أَشُدَهُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمُوالَ ٱلْيَتَهَىٰ ظُلُمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۗ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وابن عطية يفجر ويتجبر ويعلن عن سلوك أميره، ويعترف بما يفعلون في يتامى الأمة ومال الأمة. ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا نَقُرَبُوا ٱلرِّنَيُ ۖ إِنَّهُ، كَانَ فَحَرِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وابن عطية يعلن الفجور، ويبين سلوكهم مع الحرائر المحصنات المؤمنات الغافلات.

لقد وضحت غاية الفريقين، ووضح الصبح لذي عينين.

لقد أدى المؤمنون المجاهدون ما عليهم من عهد، ووفوا وراحت أرواحهم إلى بارئها راضية، مطمئنة إلى وعد ربها وجزائه الحسن.

وراح أصحاب الباطل إلى دنياهم، فبئس البيع، خالفوا بدنياهم أمر ربهم، وخانوا عهدهم مع أمتهم، وأكلوا مال اليتيم ظلما، وسلبوا الناس أموالهم واعتدوا على أعراضهم، وأهانوهم في كرامتهم، وقتلوا الأبرياء، وأزهقوا أرواح الشهداء، واستحلوا الحرمات.... و. و. و. و.

ولم يتمتعوا بدنياهم، لأن الله من ورائهم محيط، لقد لقي ابن عطية حتفه وتجرع كأس الموت في حسرة من أصحابه في سفره، ومنعة عن جنده، وقتل مغلوبا حقيرا.

أما سيده مروان بن محمد بن مروان، فقد جعل الله على يده إدبار بني مروان وبني أمية، وقتل مروان وفرَّ عنه ابناه عبيد الله وعبدالله. وهاموا في بلاد النوبة، والسودان، وتفرقوا في الشعاب، وضاعت دولة بني مروان كما ضاعت دولة أبناء عمومتهم.

وتركت لنا فيها العبرة والعظات...

فماذا خسر أبو حمزة؟ كلا لقد خسر هنالك المبطلون، أما هؤلاء المجاهدون فهم في الحالة التي وصفهم فيها ربنا وَ لَى قَتِلُو في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللّهِ أَمُواتًا بَلَ أَحْيَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿ اللّهِ فَوَحِينَ بِمَا ءَاتَنهُمُ ٱللّهُ مِن فَضَلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِاللّهِ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنَ خَلْفِهِمْ فَرَحِينَ بِمَا ءَاتَنهُمُ ٱللّهُ مِن فَضَلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِاللّهِ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنَ خَلْفِهِمْ أَلّا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ اللهِ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ ٱللّهَ لَا يُضِيعُ أَجُر ٱلمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

ألا رحم الله تلك الأرواح الطاهرة.

ورحم الله أرواح المجاهدين في سبيله في كل زمان ومكان.

وأسكن أصحابها الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا». اهـ(١).

⁽١) المصدر السابق، ص١٢٦ - ١٣٢.

هذا كلامه، وهو ينبئ عن إيمان كاتبه بالحق، وحرصه على شهادة الصدق، فلم يؤثر الباطل على الحق ولا الكذب على الصدق، وإنما سجل بيده شهادة يلقى بها الله يوم القيامة، فنعمت الشهادة ونعم الشاهد.

٥ ـ الأستاذ المربي البصير كرامة مبارك سليمان بامؤمن في كتابه القيم:
 «الفكر والمجتمع في حضرموت».

فقد سجل في كتابه هذا عدة شهادات لهذه الفئة، وكان مما قاله: «وكان من أهم قادة وأئمة الإباضية جابر بن زيد الأزدي البصري وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي وافق شيوخ الإباضية في البصرة على قيام الثورة الإباضية المسلحة ضد بني أمية، واختير عبدالله بن يحيى الكندي الحضرمي إماما للثورة الإباضية التي أعلنت من حضرموت، ولقب بطالب الحق».

ثم أضاف إلى ذلك قوله: «كان الجو مهياً في اليمن كله لالتفاف اليمنيين حول الثورة المسلحة التي أعلنها عبدالله بن يحيى الكندي من حضرموت نتيجة الظلم والقهر والمعاناة التي عومل بها اليمنيون من قبل الولاة الأمويين المتغطرسين، والذين أثقلوا كاهل الشعب اليمني بالضرائب المضاعفة المأخوذة منهم من غير وجه حق، ونتيجة للمعاملة السيئة التي مارسها الخليفة الأموي مروان بن محمد ضد اليمنيين جميعا في الدولة الإسلامية الأموية، وتفضيل القيسية عليهم.

وجه عبدالله بن يحيى الكندي رسالة إلى إمام الإباضية في البصرة أبي عبيدة مسلم وبقية شيوخ الإباضية فيها، يستشيره في إعلان الإمامة والخروج على بني أمية، فجاء الرد سريعا بالتحرك في أقرب وقت ممكن قائلا له: «إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل،

لست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصرة دينه، ويخص بالشهادة منهم من يشاء»، كما أوصاه بالسيرة الحسنة والسلوك الطيب قائلا له: «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بأسلافكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمت أن الذي أخرجهم عن السلطان العيب لأعمالهم»(۱).

أرسل أبو عبيدة وبقية مشايخ الإباضية بالبصرة الرجال والأموال والسلاح إلى حضرموت لمؤازرة عبدالله بن يحيى الكندي وكان من أبرز الإباضية الذين جاؤوا من البصرة إلى حضرموت بلج بن عقبة الأزدي وأبو حمزة المختار بن عوف الأزدي».

وأتبع ذلك قوله: «انطلقت الثورة الإباضية من حضرموت عام ١٢٩هـ بقيادة عبدالله بن يحيى الكندي واستولت على حضرموت دون مقاومة تذكر من قبل إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، فتم القبض على إبراهيم بن جبلة ثم أطلق سراحه لكسب عشيرته الكندية، وللتعبير عن سماحة الثورة، وبعد سقوط حضرموت في أيدي الثوار الإباضيين، كاتب عبدالله بن يحيى الكندي إباضية صنعا يخبرهم بقدومه ويحثهم على الاستعداد واليقظة، واستخلف على حضرموت عبدالله بن سعيد الحضرمي وتوجه نحو صنعاء ومعه مستشاروه من القادة الإباضيين البصريين، كأبي حمزة الإباضي، وفي «أبين» ألتقى الجيش الإباضي البالغ عدده نحو ألفي مقاتل بالجيش الأموي البالغ عدده نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الوالي الأموي القاسم بن عمر الثقفي، وانهزم الجيش الأموي وعاد قائده إلى صنعاء، فلحق به عبدالله بن يحيى الكندي وألحق به هزيمة أخرى اضطر بعدها القاسم بن عمر الثقفي إلى العودة إلى الشام مع بقية جيشه، ودخل الإمام الإباضي

⁽١) الخطوط من وضع المؤلف كرامة مبارك سليمان بامؤمن.

عبدالله بن يحيى الكندي صنعاء منتصرا عام ١٢٩هـ، وفي صنعاء التف اليمنيون حول الثورة الإباضية وعامل طالب الحق الناس معاملة حسنة ورفع المظالم وأجزل العطاء مما قد غنم وثبت السلطة الإباضية في اليمن، وفي جامع صنعاء ألقى القائد المنتصر خطبته المشهورة التي أورد فيها سياسته وأفكاره الإباضية المعتدلة.

وفي موسم الحج من عام ١٢٩هـ وجه طالب الحق قائده أبو حمزة المختار على رأس جيش الإباضية إلى الحجاز وانضم إليه عبدالله بن الحصين مع رجاله في الحجاز، والذي كان من دعاة الإباضية المتسترين في الحجاز وفوجئ والي مكة والمدينة عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك بظهور رجال أبي حمزة في عرفات بعمائمهم السوداء، وعارضهم لكنه لم يفلح واستولى الجيش الإباضي على مكة في اليوم العاشر من ذي الحجة يفلح واستولى الجيش الإباضي على مكة في اليوم العاشر من الإباضي المدينة المنورة مستخلفا على مكة إبراهيم بن الصباح الحميري، وتمكن من هزيمة الجيش الأموي ودخل المدينة المنورة منتصرا ومن على منبر رسول الله على وفي مسجده ألقى أبو حمزة خطبته المشهورة»(١).

وأخذ بعد ذلك يحلل الخطب التي ألقاها طالب الحق باليمن وأبو حمزة الشاري بالحجاز ويستخرج منها المبادئ القيمة التي قامت عليها هذه الشورة، وما انبثق منها من منهج قرآني على هدي النبي على وخلفائه الراشدين، سار عليه رجال الثورة حتى لقوا الله تعالى (٢).

ثم أضاف إلى ذلك قوله: «إذا تم القضاء على دولة الإباضية كدولة ونظام

⁽۱) الفكر والمجتمع في حضرموت، كرامة مبارك سليمان بامؤمن، ص١٢٧ - ١٢٩، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى.

⁽٢) ينظر: المصدر السابق، ص١٣٢ - ١٤١.

سياسي، فإنه ليس من السهل بمكان محو الفكر الإباضي من معتقد الناس بنفس السهولة وبنفس السرعة والزمن، ولا سيما أن هذا الفكر يحمل قيما إنسانية من عدل ومساواة وعقائد توحيدية أساسها القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة»(١).

وهذه الشهادة كسابقاتها، تسبجل لطالب الحق وأبي حمزة وأصحابهما أطيب الثناء على قيامهم بالحق، ومقاومتهم للبغي والظلم، ونشرهم للعدل والتزامهم له في الحكم وعدم حيفهم على أحد، بخلاف ما كان عليه الوضع عند الجبابرة المتسلطين، الذين ساموا الناس الخسف وسقوهم كؤوس الهوان، وأنت ترى في هذه الشهادة ما يدلك على أن الفكر الذي كان عليه هؤلاء الشراة كان يحمل قيما إنسانية، من عدل ومساواة وعقائد توحيدية، أساسها القرآن الكريم والسُنّة النبويّة، وماذا عسى يبتغى من المسلم إلا التحلي بهذه القيم والتزام هذا النهج؟!

وبالجملة؛ فإن هذه الشهادات جميعا إنما تدل على طيب معدن الشهداء الذين أدلوا بها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فجزاؤهم عند الله وحده، وإنما الذي نملكه لهم هو طيب الثناء وحسن الدعاء.

مَن يَفْعَلِ الْخَيرَ لَا يَعَدَم جَوازِيَهُ لَا يَذَهَبُ الْعُرِفُ بَينَ اللهِ وَالناسِ

افتراءات الحاقدين:

كثيراً ما أطلق الحاقدون لخيالهم العنان، في نسبج أنواع من الافتراء الكاذب على أهل الحق، فحاولوا أن يشوهوا سمعة أبي حمزة وأصحابه، وأن يدنسوا عرضه بما عزوه إليه من الأكاذيب، كما حاولوا أن يجعلوا مما قاله من الحق باطلا، وإليك نماذج من ذلك:

⁽١) ينظر: المصدر السابق، ص١٤١.

المحشي «الإسعاف»، وهو رجل مجهول على كتاب «إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان» للشيخ سالم بن حمود السيابي، الذي طبع قبل نحو نصف قرن على نفقة أمير قطر الأسبق الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، وقد أساء في تعليقاته على هذا المشروع الخيري، وشوهه بما أودع عباراته من الأكاذيب التي افتراها، بإملاء من حقده الدفين على الحق ورجاله، وكان مما ادعاه أن هؤلاء الشراة خرجوا على الدولة الإسلامية وهاجموا الحرمين الشريفين، وقتلوا كثيرا من المسلمين بمكة والمدينة، وممن قتلوا عدد من التابعين غير قليل (۱).

كما أضاف إلى هذا: أن أهل الحرمين عرفوا أبا حمزة وأصحابه حين هاجم الحرمين الشريفين وقتل من أهل الحرمين من قتل، وأن الإمام مالك بن أنس عرفه كما عرفه أهل الحرمين ضالا عن طريق المسلمين باغيا عليهم (٢).

وهذا هذر، يكفي لفضحه أن يعرف القارئ الكريم ما هي الدولة الأموية التي يعزوها إلى الإسلام، وما هي أفعالها في الأمة، وأن يعرف ما هو الدور الذي قام به أبو حمزة وأصحابه في الحرمين وغيرهما.

أما الدولة الأموية فإن نسبتها إلى الإسلام خزي وعار يلصق بالإسلام وهو منه براء، فهل من الإسلام ما فعله عاملها مسرف بن عقبة من انتهاك حرمة حرم النبي هي، وقتله أكثر من عشرة آلاف من سكان المدينة المنورة من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؟! وهل من الإسلام انتهاك هذا المسرف المجرم حرم نساء المدينة، من بنات المهاجرين والأنصار، وافتراع

⁽۱) إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان، سالم بن حمود السيابي، منشورات المكتب الإسلامي، ص٩٣، تعليق رقم ٢، ١٣٨٤هـ.

⁽٢) نفس المصدر، ص٩٥ تعليق رقم ١.

نحو ألف عذراء منهن؟!! وهل من الإسلام أخذ البيعة من أهل المدينة قسرا للطاغية يزيد، على أنهم مماليك أرقاء له يتصرف فيهم كيف يشاء، ومن أبى ذلك أو قال إنه يبايع على كتاب الله وسنة نبيه على وأسه فورا؟!!!

وهل من الإسلام أن يشمت الطاغية يزيد بضحايا قائده، عندما أرسل اليه رؤوسهم فأخذ ينكت فيها بعصاه، وينشد أبيات ابن الزبعرى جذلا مسرورا بتمكنه من أخذ ثار طواغيت الكفر الذين قتلوا في يوم بدر؟!.

وهل من الإسلام قتلهم لسبط رسول الله على، وتمثيلهم به وإرسال رأسه إلى الطاغية، لينكت فيه بعصاه وينشد أيضا أبيات ابن الزبعرى؟!

وهل من الإسلام هتك حرمة البيت الحرام، وشنهم الحرب في الحرم الآمن من أجل التسلط في الأرض، وقصف الكعبة المشرفة بالمجانيق، وأخذهم الناس بالبطش الشديد في حمى الحرم الشريف؟!

وهل من الإسلام تأله أولئك الطغاة في الأرض، وتسلطهم على الناس تسلط ربوبية، حتى يعلن عاملهم بأنه لو علم أن رضاهم في هدم البيت لنقضه حجراً حجراً!

وهل من الإسلام أن يتوعد عبد الملك بن مروان من يقول له: «اتق الله»، بقطع رأسه؟!

وهل من الإسلام أن ترسخ في الناس عقيدة أن الطغاة مهما فعلوا لا حساب عليهم ولا عقاب، وأنه يباح لهم ما لم يبح لنبي مرسل ولا لولي صالح؟!

وهل من الإسلام أن يرموا بكتاب الله في جوف الجوالق، وأن يأكلوا مال اليتيم ويفجروا بأمه كما أعلن ذلك قائدهم ابن عطية؟!

وهل من الإسلام التمثيل بالقتلي وحز رؤوسهم وصلبها؟!

وهل من الإسلام إبادتهم للرجال والنساء والأطفال، وسبيهم نساء الأمة وأطفالها واغتصابهم أموالها في حروبهم؟!

وهل من الإسلام اتخاذهم عباد الله خولا وماله دولا وتبذيرهم الأموال في شهواتهم الدنيئة، وشربهم الخمور وإتيانهم الفجور، وتحويلهم الحرمين الشريفين إلى مسرح للهو والغناء، وبؤرة للفساد والانحراف؟!

ليت شعري؛ هل يرى هذا المعلق المأفون أن هذا هو الإسلام الذي جاء به القرآن، ونادى به الرسول _ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام _ ودعا إليه وورَّ ثه خلفاءه وأصحابه؟!

إن هذه كلها حقائق سبق بيانها وتوثيق مراجعها، ولم تكن هذه المراجع بأقلام الشراة ومن على فكرهم، وإنما هي بأقلام الذين يحسبون على تيار السياسة الأموية نفسها، فماذا عسى أن يقولوا فيها؟!

أما ما عزاه إلى أبي حمزة وأصحاب من البغي ومهاجمة الحرمين الشريفين وقتله أهلهما، فيكفي في بيان إفكه ما سبق من الشهادات التأريخية التي سبجلها المؤرخون من أصحاب المدارس الأخرى، أنه ما خرج إلا للإصلاح ونصرة الحق، وإغاثة الملهوفين والقبض على أيدي الظلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء ما أماتته الجبابرة من الحق وإماتة ما أحيوه من الباطل، ناهيك بما فعلوه في صنعاء من توزيع الأموال بين أهلها، وما كان منهم بالحرمين من تفادي القتال وكف الأيدي عمن تصدى لهم، حتى بعد إقامة الحجة عليه إلى أن يبدأ الطرف الآخر بالقتال، وأنهم لم ينتقموا ممن قاتلهم بعدما وضعت الحرب أوزارها، مع أنهم متمكنون من رقابهم قادرون على إنفاذ ما شاءوا فيهم، وأنهم آثروا الاحتياط في الدين على الحرب، فكانوا مثالا للتسامح مع خصومهم.

هذا هو نهج أبي حمزة ومن معه، الذين يصفهم المعلق بالبغي ويلصق بهم تلك الجرائم التي افتراها، وذلك هو نهج خصومه بني أمية الذين يصف المعلق دولتهم بالإسلام!! وكفى بالتأريخ الصادق الأمين حكما بين الفئتين.

 Υ _ الفقيهي الحشوي الذي اتخذ من مقولة أبي حمزة التي جاءت في كتاب الأغاني بنص: «يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن أو كافرا من أهل الكتاب أو إماما جائرا»(١) سهما مسموما حاول أن يصمي به أبا حمزة وفكره وأصحابه، استنكارا منه أن يلز بالإمام الجائر مع المشرك والكافر من أهل الكتاب في قرن، من حيث البراءة منهم.

وقد يعجب الإنسان من استنكار المسلم ـ الذي يعترف بالقرآن وبالسُّنة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ البراءة من الإمام الجائر، ولكن يتلاشى عجبه عندما يدرك أن مستنكر ذلك هو صاحب فكر نشأ في أحضان الجور ونبت في تربة الظلم، وسقي بسفك الدماء البريئة بدءا بدماء الصحابة والتابعين في واقعتي صفين والحرة وغيرهما، فما بعدها من دماء المسلمين الأبرياء، وتعزز بهتك حرماتهم ونهب أموالهم، فهو لا ريب يستهين بالحق ويستخف بالعدل ويقدس الظلم والظلمة، وليس اعترافه بالقرآن والسُّنة إلا غبار خداعا للذين آمنوا، وإلا فمنهج القرآن واضح وسنة رسول الله هي لا غبار عليها في ذلك.

دلالة السُّنَّة النبويّة على براءة النبي على من الظلمة:

دونك طائفة من الروايات التي جاءت بهذا منها قوله على:

«اسمعوا، هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم

⁽١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.

فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه وهو وارد على الحوض»(١)، وقوله: «إنها ستكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه، وليس بوارد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه، وهو وارد على الحوض»(٢)، وقوله على: «تكون أمراء يظلمون ويكذبون، يغشاهم غواش من الناس، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم؛ فليس منى ولست منه، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو منى وأنا منه»(٣)، وقوله على: «يا عبدالرحمن، أعاذك الله من أمراء يكونون بعدى، من دخل عليهم فصدقهم، وأعانهم على جورهم، فليس مني ولا يرد علي الحوض»(١)، وقوله: «يا كعب بن عجرة، أعاذك الله من إمارة السفهاء أمراء يكونون من بعدى، لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم؛ فأولئك ليسوا منى، ولست منهم، ولا يردون على حوضى، ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك منى، وأنا منهم، وسيردون على حوضي»(٥)، وقوله: «إنه سيكون عليكم أمراء يكذبون

⁽۱) أخرجه النسائي (۱،۱۲۰/۷) رقم ٤٢٠٨)، والترمذي (٥٢٥/٤) رقم ٢٢٥٩) وقال: صحيح غريب. وابن حبان (٥١٢/١)، رقم ٢٧٩).

⁽٢) أخرجه أحمد (٢٤٣/٤، رقم ١٨١٥١)، والبيهقي (١٦٥/٨، رقم ١٦٤٤٥).

⁽۳) أخرجه أحمــد (۲٤/۳، رقم ۱۱۲۰۸)، وأبــو يعلــى (۲۵۰/۲، رقم ۱۲۸٦)، وابن حبان (۵۱۹/۱)، رقم ۲۸۲).

⁽٤) أخرجه الحاكم (١٤١/٤، رقم ٧١٦٢) وقال: صحيح الإسناد. والخطيب (١٠٩/١٢).

⁽٥) أخرجه أحمد (٣٢١/٣، رقم ١٤٤٨١) قال الهيثمي (٢٤٧/٥): رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح. وعبد بن حميد (ص٣٤٥، رقم ١١٣٨) والدارمي (٢٠٩/٢، =

ويظلمون؛ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني، ولا أنا منه، ولن يرد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وهمو وارد على الحوض»(۱).

وإذا كان هـذا في الداخل على الظلمة ومن أعانهم، فكيف بالظلمة أنفسهم؟! على أن هذه الأحاديث صريحة في براءته على ممن دخل على الظلمة وأعانهم، فما بالك بمن ارتكب الظلم كيف تبقى له ولاية عند المسلمين!!

والقرآن الكريم شاهد على أن من تولى أحدا فله حكمه فقد قال تعالى في اليهود والنصارى: ﴿وَمَن يَتَوَهُّم مِّنكُم فَإِنَّهُ مِنْهُم ﴾ [المائدة: ٥١]، ونص على أنه لا يتولى الظلمة إلا الظالمون، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظّلِمِينَ بَعَضُهُم أَنه لا يتولى الظلمة إلا الظالمون، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظّلِمِينَ بَعَضُهُم أَوُلِيا لَهُ وَلِنَّ الطّلِمِينَ وَاللّه وَلِي الله وقد بين النبي على مصير من ظلم رعيته بقوله: «لا يسترعي الله عبدا رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش، إلا حرم الله عليه الجنة» (١)، وقوله: «لا يسترعي الله عبدا رعية، قلّت أو كثرت، إلا سأله الله عنها يوم القيامة، أقام فيهم أمر الله أم أضاعه، حتى يسأل

⁼ رقم ۲۷۷۱)، وأبو يعلى (٤٧٥/٣)، رقم ١٩٩٩) قال الهيثمي (٢٣٠/١٠)؛ رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة مأمون. وابن حبان (٢٧٢/١٠)، رقم ٤٥١٤)، والحاكم (٤٦٨/٤، رقم ٢٠٣٨) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (١٤١/١٩)، رقم ٢٠٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٧/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٤/، رقم ٢٩٩٩).

⁽۱) الترمذي (٥٢٥/٤، رقم ٢٢٥٩)، وأحمد (٣٨٤/٥، رقم ٢٣٣٠٨).

⁽۲) أخرجه أحمد (۲۰/۵، رقم ۲۰۳۰٦) ومسلم (۱۲۵/۱، رقم ۱٤۲)، والطبراني (۲۰۲/۲۰،رقم ۷۵۷).

عن أهل بيته خاصة»(١)، وقوله: «ما من عبد يسترعيه الله يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»(٢).

وقد تبين بهذا من هو على منهج رسول الله هي، بين الفقيهي الأفاك المتعصب للظالمين الموالي لهم، وبين أبي حمزة الشاري المتبرئ منهم، فليهنأ الفقيهي أن يكون مصيره مع الظالمين يوم القيامة ويحشر مع أئمة الجور.

وإذا كان الركون إلى الظلمة موجبا لعذاب النار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرُكُنُواْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظُلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمُ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَولِيآ عَ ثُمَّ لَكُمُ وَكَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَولِيآ عَ ثُمَّ لَا نُنصَرُونِ ﴾ [هـود: ١١٣]، فما بالـك بموالاتهم، بل ما بالـك بأهل الظلم أنفسهم، كيف لا يستحقون البراءة من المؤمنين.

ثبوت براءته على من كل من ارتكب كبيرة،

نجد في النصوص الشرعية ما يدل على براءة النبي على من كل من ارتكب كبيرة وأصر عليها، فقد قال على: «من سل علينا السيف فليس منا»(٣)، ولا فرق في هذا بين أن يكون حاكما أو محكوما، فمن سل السيف على المسلمين بغير حق فهو ليس من الله في شيء، وتجب على المؤمنين البراءة منه اقتداء برسول الله على .

وقال ﷺ: «ألا ومن غشـنا فليس منا، ومن لم يرحـم صغيرنا ولم يوقر

⁽١) أخرجه أحمد (١٥/٢، رقم ٤٦٣٧).

⁽٢) أخرجه البخاري (٢٦١٤/٦، رقم ٦٧٣١)، ومسلم (١٤٦٠/٣، رقم ١٤٦).

⁽٣) أخرجه أحمد (٤٦/٤، رقم ١٦٥٤٧)، والدارمي (٣١٥/٢، رقم ٢٥٢٠)، ومسلم (٩٨/١، رقم ٩٥/١). رقم ٩٩)، وابن حبان (٤٨/١٠، رقم ٤٥٨)، أبو عوانة (٦١/١، رقم ١٥٩).

كبيرنا فليس منا، يعني ليس بولي لنا»(۱)، وجاء في رواية أن النبي هم مسوق المدينة على طعام أعجبه، فأدخل يده في جوف الطعام، فأخرج شيئا ليس بالظاهر فأفف رسول الله هي بصاحب الطعام، ثم نادى: أيها الناس، لا غش بين المسلمين، من غشنا فليس منا»(۱)، وفي رواية: «ما هذا يا صاحب الطعام؟! أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غش فليس مني»(۱).

وإذا كان هذا في مطلق الغش، فكيف بمن غـش الأمة كلها؟!.. بظلمه إياها وتبديل حكم الله تعالى في معاملتها، وحرمانها مما لها من الحقوق المالية والسياسية والاجتماعية كما جرى ذلك في حكم الجبابرة الظلمة المستبدين، الذين جعلوا مال الله دولا واتخذوا عباده خولا، والله المستعان.

وقال ﷺ: «ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»(٤) وفي لفظ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»(٥) وفي آخر: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا»(٢)، وفي رواية: «ليس

⁽۱) مسند الربيع، ص ٢٣١ رقم ٥٨٢.

⁽۲) الدارمي (٣٢٣/٢، رقم ٢٥٤١)، والقضاعي في الشهاب (٢٢٨/١، رقم ٣٥١)، وابن عدي (٢٠٧/٧)، وأحمد (٢٠٧/٧)، وما ٥٠١٣).

⁽۳) أخرجـه مسلم (۹۹/۱)، رقم ۱۰۲). وأبو يعلـي (۳۹۹/۱۱)، رقم ۲۵۲)، وابن حبان (۳۲۰/۱۱) رقم (۲۷۰/۱۱) وابـن منـده (۲۱۲/۲، رقم ۵۰۱)، والبيهقـي (۲۲۰/۱۵) رقم ۲۰۰۱).

⁽٤) أخرجه أحمد (٣٢٣/٥، رقم ٢٢٨٠٧)، قال المنذري (٦٤/١): إسـناده حسـن. والحكيم (١٨٧/١)، والحاكـم (٢١١/١، رقم ٤٢١) وقال مالك بن خيـر الزيادي مصرى ثقة وأبو قبيل تابعي كبير. وأخرجه أيضا: البخاري في التاريـخ الكبير (٣١٢/٧، تررجمة ١٣٢٩)، والرافعي (١٧٦/٤) والضياء من طريق الطبراني (٣٦١/٨، رقم ٤٤٥).

⁽٥) أخرجه أحمد (٢٢٢/٢، رقم ٧٠٧٣)، والترمذي (٣٢٢/٤، رقم ١٩٢٠) وقال: حسن صحيح. والحاكم (١٣١/١، رقم ٢٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.

⁽٦) أخرجه الترمذي (٣٢١/٤، رقم ١٩١٩).

منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر(1)، وفي أخرى: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا(1).

وقال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية» (٣) وهذا مما اجتمع في بني أمية وحزبهم، وقال ﷺ: «ليس منا من خبب امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده» (٤) وفي رواية: «ليس منا من أجلب على الخيل يوم الرهان، وليس منا من خبب عبدا على سيده، وليس منا من أفسد امرأة على زوجها» (٥)، وفي أخرى: «من خبب خادما على أهلها فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس هو منا» (٢) وروي عن النبي ﷺ: «ليس منا من خصى، أو اختصى، ولكن صم ووفر شعر جسدك (٥)، وقال ﷺ: «ليس منا من سلق، ومن حلق، ومن خرق» (٨)، وفي رواية: «أنا برىء ممن حلق، وسلق، وخرق» (٩)، وقال ﷺ: «ليس منا من

⁽۱) أخرجه أحمد (۲۰۷/۱، رقم ۲۳۲۹)، والترمذي (۲۲۲/۶، رقم ۱۹۲۱) وقال: حسن غريب. والطبراني (۷۲/۱۱)، رقم ۱۱۰۸۳)، والبيهقي في شعب الإيمان (۲۰۸۷)، رقم ۱۰۹۸۰).

⁽٢) أخرجه أبو داود (٢٨٦/٤، رقم ٤٩٤٣)، والحاكم (١٩٧/٤، رقم ٧٣٥٣) وقال: صحيح الإسناد.

⁽٣) أخرجه أبو داود (٣٢/٤، رقم ١٢١٥).

⁽٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤/٢، رقم ٢١٧٥)، والحاكم (٢١٤/٢، رقم ٢٧٩٥) وقال: صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦٧/٤، رقم ٥٤٣٣).

⁽٥) المطالب العالية، ج٩، ص٣٨٣، نيل الأوطار، ج٨، ص٢٤٤.

⁽٦) أخرجه أحمد (٣٩٧/٢، رقم ٩١٤٦)، والبيهقي (١٣/٨، رقم ١٥٥٩١).

⁽٧) أخرجه الطبراني (١١٤٤/١١)، رقم ١١٣٠٤).

⁽۸) أخرجه أبو داود (۱۹۶/۳، رقم ۳۱۳۰)، والنسائي (۲۱/۶، رقم ۱۸٦٥)، أخرجه الطبراني (۱۷۲۵، رقم ۲۲۹).

⁽۹) أخرجه مسلم (۱۰۰/۱، رقم ۱۰۶)، والنسائي (۲۱/۶، رقم ۱۸٦٦)، وابن ماجه (٥٠٥/١). رقم ۱۵۸٦) وأحمد (۲۱۲/۶، رقم ۱۹۷۶)، والطيالسي (ص۲۹، رقم ۲۰۷).

انتهب، أو سلب، أو أشار بالسلب»(۱)، وقال على: «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال»(۲)، وجاء عنه الله أنه قال: «إن الله حرم عليكم شرب الخمر وثمنها، وحرم عليكم أكل الميتة وثمنها، وحرم عليكم الخنازير وأكلها وثمنها، فقصوا الشوارب وأعفوا اللحى، ولا تمشوا في الأسواق إلا وعليكم الإزار، إنه ليس منا من عمل سنة غيرنا»(۳).

والروايات في هذا كثيرة، أغلبها صحيح، والضعيف منها يعتضد بالصحيح، وهي دالة على براءته على ممن فعل ذلك، مع أن الجرائر المذكورة فيها لا تصل إلى جريرة من انتزى على الحكم فسلبه أهله، وتمادى في عتوه وجبروته وعلوه وفساده، ينهب الأموال وينتهك الحرم ويعطل الشريعة، ويسلب الناس حرياتهم وحقوقهم المشروعة، ويأتي محارم الله تعالى، فهل ينكر البراءة منه إلا من كان فاسد العقيدة مظلم الفكر منحرف السلوك متعفن الفطرة؟! وكفى بهذا شاهدا أن أبا حمزة وَلَيْلُهُ إنما هو متبع سبيل النبي وسبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿ لَقَدُ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ لَمَن كَانَ يَرْجُوا الله وَالله وَاله وَالله وَال

أما من أنكر عليه ذلك وشنع عليه قوله فهو مشاقق للرسول ومتبع لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعَدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ المُؤْمِنِينَ فُولِهِ عَا تَوَلَّى وَنُصَّلِهِ عَنَيْرَ سَبِيلِ ٱلمُؤْمِنِينَ فُولِهِ عَا تَوَلَّى وَنُصَّلِهِ جَهَنَّمُ وَسَآءَتُ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

⁽۱) أخرجـه الطبرانـي (۱۰۷/۱۲)، رقم ۱۲۲۱۱)، والحاكـم (۱۲۷/۲، رقم ۲۲۰۵) وقـال: صحيح. والضياء (۵۹۳۹، رقم ۵۶۲).

⁽٢) أخرجه أحمد (١٩٩/٢، رقم ٦٨٧٥).

 ⁽٣) أخرجـه الطبرانـي فـي الكبيـر (١٥٢/١١)، رقم ١١٣٣٥). وفـي الأوسـط (١٦٢/٩،
 رقم ٩٤٢٦).

ثبوت لعن النبي ﷺ لبعض أهل الكبائر:

لم يقف النبي على عدود البراءة من مرتكب الكبيرة فحسب، وإنما ثبت عنه لعن كثير من مرتكبي الكبائر، ولا يخفى على ذي بصيرة أن اللعن شبت عنه لعن كثير من مرتكبي الكبائر، ولا يخفى على ذي بصيرة أن اللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، ففي اللسان: «اللعن: الإبعاد والطرد من الخير»(۱)، وكم من كبيرة صرح النبي على بلعن آتيها من ذلك قوله: «لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه هم فيه سواء»(۱)، وفي رواية: «لعن الله آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، ومانع الصدقة»(۱)، وقال على: «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها»(۱)، وقال على: «لعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من أوى محدثا، ولعن الله من غير منار الأرض»(۱)، وقال على: «لعن الله من عير مواليه، لعن الله من غير تخوم الأرض، لعن الله من كمه أعمى عن الطريق، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من فير الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمل عمل عمل

⁽۱) لسان العرب، ج۱۳، ص۲۸۷.

⁽٢) أخرجه أحمد (٣٠٤/٣، رقم ١٤٣٠٢)، ومسلم (١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٨).

⁽٣) أخرجه أحمد (١٠٧/١، رقم ٨٤٤)، والنسائي (١٤٧/٨، رقم ٥١٠٣).

⁽٤) أخرجه الربيع، (٢٤٦/١ رقم ٢٢٥) من طريق ابن عباس، وأخرجه أبو داود (٣٢٦،٣ رقم ٢٢٨١)، والحاكم (٢٠١٤، رقم ٢٢٨١) وقال: صحيح الإسمناد. والبيهقي (٢١٦، رقم ٢٨٢٨) وقال: صحيح الإسمناد. والبيهقي (٢١٦، وقم ٢٠٨١)، رقم ٢٠٨١)، من طريق ابن عمر، وأخرجها أخرجه الترمذي (٢٠٨٩، رقم ٥٨٩/١)، وقال: غريب. وابن ماجه (٢١٢٢/١، رقم ٣٣٨١) من طريق أنس، وأخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٥، رقم ٢٨٣٨). وفي الأوسط (٢٤٣٤، رقم ٤٠٩٠) من طريق عثمان بن أبي العاص، وروي بألفاظ أخرى عند أخرجه الطيالسي (ص٢٦٤، رقم ٢١٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٥، رقم ٤٠٥٠)، أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧١/٧، رقم ٢٦٠٠).

 ⁽٥) أخرجه أحمد (١٥٢/١، رقم ١٣٠٦)، ومسلم (١٧٦٥، رقم ١٩٧٨)، والنسائي (٢٣٢/٧،
 رقم ٤٤٢٢).

قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لـوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط» (۱)، وقوله ﷺ: «لعن الله الراشي، والمرتشي، والرائش الذي يمشي بينهما» (۲)، وقال ﷺ: «لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء» (۳)، وجاء بلفظ: «لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل» وبلفظ آخر: «لعن الله الرجلة من النساء» (۱)، وبلفظ آخر: «لعن الله الرجلة من النساء» وقال ﷺ: «لعن الله الواشمة والمتوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمستنمصة، والواشرة والمستوشرة، والمانع الصدقة» (۱)، وقال: «لعن الله

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۱۰۸/۱، رقم ۸۵۵)، والطبرانـي (۲۱۸/۱۱، رقم ۱۱۵۶)، والحاكـم (۱۱۸۲۱، رقم ۲۹۲/۱). (۱۲۹۲، رقم ۲۷۹۶).

⁽۲) أخرجه أحمد (۲۷۹/۰، رقم ۲۲٤٥۲)، والطبراني (۹۳/۲، رقم ۱٤۱۰)، والبيهقي في شعب الإيمان (۳۹۰/۶، رقم ۵۰۳۳)، أخرجه الحاكم (۱۲۰۶۰، رقم ۲۳/۳). (۲۰۲۷، رقم ۷۰۲۷).

⁽٣) أخرجـه الطبرانـي (٢٠٤/١١)، رقم ١١٥٠٢)، وأحمـد (٣٣٠/١)، وأبو داود (٣٠٠٠، رقم ٢٠٤٠)، وأبو داود (٢٠٤٨، رقم ٢٠٤٨)، والترمذي (١٠٥/٥، رقم ٢٧٤٨)، وقال: حسـن صحيح. وابن ماجه (٢١٤/١، رقم ١١٣/١)، (١٩٠٤). والطبراني كما مجمع في الزوائد (١٠٣/٨).

⁽٤) أخرجه أبو داود (٢٠/٤، رقم ٢٠/٤)، والحاكم (٢١٥/٤، رقم ٧٤١٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم.

⁽٥) أخرجه أبو داود (٢٠/٤، رقم ٤٠٩٩).

⁽۲) أخرجه الربيع (ص۲۷۲ رقم ۹۷۰) مرسلا، وأحمد (۲۳۹/۲، رقم ۸٤٥٤)، والبخاري (۸۲۱۲، رقم ۵۵۸)، والبخاري (۲۲۱۲، رقم ۵۵۸)، من طريق أبي هريرة، وأخرجه أحمد (۲۱۱۲، رقم ٤٧٢٤)، والبخاري (۲۲۱۸، رقم ۲۹۵۰)، ومسلم (۱۲۷۷/۳، رقم ۲۱۲۷)، وأبو داود (٤/۷۷، رقم ۱۲۹۷)، والنرمني (۲۱۲۸، رقم ۱۲۹۸)، وابن ماجمه (۱۲۹۸، رقم ۱۹۷۸) والنسائي (۱۸۷۸، رقم ۱۹۷۹)، وابن ماجمه (۱۳۹۲، رقم ۱۹۷۸)، من طريق ابن عمر، وأخرجه أخرجه أحمد (۲۷۷۲، رقم ۲۲۲۷)، والنسائي (۲۲۲۷، رقم ۱۹۷۰)، ومسلم (۱۲۷۷، رقم ۲۱۲۷)، والنسائي (۱۲۲۸، رقم ۱۹۷۸)، والنسائي (۱۸۷۸، رقم ۱۹۷۸)، ومسلم (۲۱۲۲، رقم ۲۱۲۲)، والنسائي (۱۸۷۸، والبخاري (۱۸۷۸، وابن ماجه (۱۳۹۲، رقم ۱۹۸۸) من طريق أسماء بنت أبي بكر، وأخرجه وأخرجه وأخرجه وأخرجه وأخرجه وأخرجه وأخرجه وأخرجه المردد (۱۲۲۲، رقم ۱۹۸۷، والنسائي (۱۸۷۸، والنسائي ۱۹۸۷، والنسائي (۱۸۷۸، والنسائي ۱۹۸۷، والنسائي ۱۹۸۷، والنسائي بكر، وأخرجه و

المحلل، والمحلل له»(۱)، وقال على: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»(۱) وقال: «لعن الله من أحدث في الإسلام حدثا، أو آوى محدثا».(۱) وفي رواية: «فمن أحدث حدثا، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه عدل ولا صرف»(۱).

والروايات في هذا كثيرة يشد بعضها بعضا، ومن المعلوم قطعا أن اللعنة إن صدرت من أحد لأحـــد لا يمكن أن تجامعها مودتــه، فكيف يمكن أن يكون الملعون متولئ للاعنه؟!!

نُصُوصُ القُرآن تَدُلُّ على وجوب البَرَاءة مِنْ مُرْتَكِبِ الكبيرة:

هذا؛ وقد دلت نصوص القرآن _ أيضًا _ على وجوب البراءة ممن أصر

⁼ أخرجه الطبراني (١٣٠/٨، رقم ٧٥٩٥) من طريق أبي أمامة. وأخرجه الطبراني (٢٠٤/١١، رقم ١٠٤/١) من طريق ابن عباس.

⁽۱) أخرجه الترمذي (۲۷/۳)، رقم ۱۱۱۹) من طريق جابر بن عبدالله وأخرجه ابن أبي شيبة (۲۷/۷)، رقم ۲۹۲۷، رقم ۳۱۱۹)، وأحمد (۲۷/۱، رقم ۲۲۰۱)، وأبو داود (۲۲۷۷، رقم ۲۲۷۱، رقم ۲۲۰۷، والترمذي (۲۰۸۷، وتم ۱۱۹۵)، وابن ماجه (۲۲۲/۱، رقم ۱۹۳۵)، والبيهقي (۲۰۸۷، رقم ۲۲۹۱)، وابن أبي شيبة رقم ۲۲۹۲، رقم ۲۲۹۱)، وابن أبي شيبة (۲۹۲۷، رقم ۲۹۲۷، رقم ۲۹۲۷)، والترمذي (۲۸/۳، رقم ۲۹۲۷)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (۲۹۲۷، رقم ۳۲۰۳)، والبيهقي (۲۰۸۷، رقم ۳۲۹۳) من طريق عبدالله بن مسعود، وأخرجه ابن أبي شيبة (۲۰۸۷، والمحللة.

⁽۲) أخرجه الدارمي (۳۲٤/۲، رقم ۲۰٤٤)، وابن ماجـه (۷۲۸/۲، رقم ۲۱۵۳) والبيهقي في السنن الكبرى (۳۰۲، رقم ۱۱۲۱۳)، وفي شعب الإيمان (۵۲۵/۷، رقم ۱۱۲۱۳).

⁽٣) أخرجه الربيع (ص٣٦ رقم ٤٢).

⁽٤) أخرجه الطيالسي (٢٦/١، رقم ١٨)، وعبدالرزاق (٢٦٣/٩، رقم ١٧١٥)، والبخاري (٢١٦٠، رقم ١١٦٠٠)، والبخاري (١١٦٠، رقم ٢٠٣٨)، وقم ٣٠٠٨)، وأبو يعلى (١٣٠١، رقم ٢٦٣١)، وأبو عوانة (١: ٣٩٨٣، رقم ٤٨٨١)، وأبو يعلى (٢٢٨، رقم ٢٢٨)، وأبو عوانة (١: ٣٩٣١، رقم ٤٨١٢)، والطحاوى (١٩٧١، رقم ٤٨١٢)، والبيهقي (١٩٦٨، رقم ٩٧٣١).

على الكبيرة، ناهيك من ذلك قوله تعالى لنوح وَ إِنِّهُ في ابنه: ﴿إِنَّهُ لِيَسَ مِنَ الْهَلِكَ اِيِهِ عِلْمٌ ۚ إِنِّ اَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْهَلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ عَمَلٌ عَمَرُ مَا لِيَسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنِّ اَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِن اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ الله يجب أن يجب أن يبرأ منه، وقد جاء هذا الرد الحاسم من الله تعالى على كلمة نوح: ﴿رَبِ إِنَّ ابنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعُدك اللهُ وَأَنت المَكمُ الْحُكمِينَ ﴾ [هود: ١٥]، وأنت ترى أن ابنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعُدك اللهُ وَأَنت المَكمُ الْحُكمِين الله تعالى على على على قاطع تعليل هذا الحكم إنما كان مبنيا على عمله غير الصالح، وهو دليل قاطع على أن كل من عمل غير صالح فهذا حكمه، لأن الجملة المصدرة بـ(إن) إن وليت جملة فيها حكم فهي علة لذلك الحكم، وهذا ما دلت عليه الشواهد وقعَدَهُ أهل البلاغة.

قال إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز): «روي عن الأصمعي أنه قال: كنت أسير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر. وكانا يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتي وقت الزوال. ثم ينصرفان. وأتياه يوما فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم ابن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم. قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم بلغني أن سلم ابن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف. قالوا: فأنشدناها يا أبا معاذ. فأنشدهما، من الخفيف:

بَكِّرا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ إِنَّ ذاكَ النَّجَاحَ في التَّبْكِير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح في التبكير)؛ كان أحسن. فقال بشار: النجاح في التبكير)؛ كان أحسن. فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: (إن ذاك النجاح في التبكير)، كما يقول الأعراب البدويون. ولو قلت: (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين،

ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبل بشارا بين عينيه»(١).

وقال الإمام عبدالقاهر أيضا: «واعلم أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا. فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، مقطوعا موصولا معا. أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) من قوله: (إن ذاك النجاح في التبكير)؛ لم تر الكلام يلتئم؟ ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول: بكرا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير؟ ومثله قول بعض العرب، الرجز:

فَغَنِّها وهي لك الفداء إنّ غناء الإبل الحداء

فانظر إلى قوله: إن غناء الإبل الحداء، وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه. ثم انظر إذا تركت (إن) فقلت: فغنها وهي لك الفداء، غناء الإبل الحداء؛ كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك حتى لا تجد حيلة في ائتلافهما، حتى تجتلب لهما الفاء فتقول: فغنها وهي لك الفداء، فغناء الإبل الحداء؟ ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان، وأن قد ذهبت الأنسة التى كنت تجد، والحسن الذي كنت ترى». اهـ(٢).

ولهذا شواهد كثيرة من القرآن الكريم، لو تتبعناها لبلغت المئات، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَاۤ إِلَّا مَا عَلَمْتَنَاۤ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

⁽۱) دلائل الإعجاز، الإمام عبدالقاهر الجرجاني، (ت: ٤٧١هـ)، ص٢١١ - ٢١٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. التنجي.

⁽٢) المرجع السابق، ص٢١٢.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمُ ۚ إِنَ ٱللّهَ بِٱلنّاسِ لَرَءُوفُ رَّحِيمُ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمُ ﴾، وقوله: ﴿ السّتَعِينُواْ بِٱلصّبْرِينَ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ وَمَا الصّبْرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فإن قوله: ﴿ السّتَعِينُواْ بِٱلصّبْرِينَ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ السّتَعِينُواْ بِٱلصّبْرِينَ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ السّتَعِينُواْ بِٱلصّبْرِينَ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُوَتِ ٱلشّيَطُنِ ۚ إِنّهُ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُوَتِ ٱلشّيَطُنِ ۚ إِنّهُ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُوَتِ ٱلشّيَطِنِ ۚ إِنّهُ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُورَتِ ٱلشّيَطِنِ ۚ إِنّهُ وَلَا تَلْهُ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُورَتِ ٱلشّيَطِنِ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُورَتِ ٱلشّيَطُنِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلاَ إِنّهُ وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُورَتِ ٱلشّيَطُنِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلاَ إِنّهُ عَلَيْهُ إِنّ ٱللّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فإن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فإن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، في الله عَلَيْ إِنّ ٱللّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، في الله عنه والله: ﴿ فَلا إِنّ ٱللّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، في الله عنه والله: ﴿ فَلا إِنّ ٱللله عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، في الله عنه والله: ﴿ فَلا إِنّ اللّه عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّهَاۤ إِثَّمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُ عَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٨١]، فإن قوله: ﴿ فَإِنَّهَاۤ إِثَّمُهُ عَلِيمُ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ فَإِنَّهَاۤ إِثَّمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ

يُبَدِّلُونَهُ ﴿ وقوله: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصِ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا ٓ إِثْمَا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا ٓ إِثْمَا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا ٓ إِثْمَا فَكُورُ رَّحِيمُ ﴾ عَلَيْهُ إِنَّ اللّهَ غَفُورُ رَّحِيمُ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ وَلا تَعْمَدُواْ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُ اللّهَ عَلَيْكِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلا تَعْمَدُينَ ﴾ المُعُمّتدينَ ﴾ تعليل لقوله: ﴿ وَلا تَعْمَدُواْ ﴾.

ومشل ذلك قوله: ﴿ وَأَحْسِنُواۤ أَ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿ وَهَبُ لَنَا مِن لَّدُنك رَحْمَةً ۚ إِنَّك أَنتَ اللّهَ هَابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله: ﴿ بِيكِكُ الْخَيْرُ ۚ إِنَّك عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنك ذُرِّيّةَ طَيّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَلَهَ مُوتُوا بِغَيْظِكُمُ ۗ إِنَّ اللّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله: ﴿ وَلَقَدُ عَفَا اللّهُ عَنْهُم ۗ إِنَّ اللّهَ عَفُورُ حَلِيمُ ﴾ السَّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله: ﴿ وَلَقَدُ عَفَا اللّهُ عَنْهُم ۗ إِنَّ اللّهَ عَفُورُ حَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْرُنَا يَوْمَ اللّهِ أَيْكَ لَا تُخْلِفُ اللّهَ يُحِبُ الْمُتَوكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]،

وقوله: ﴿ وَاتَقُوا اللّهَ الّذِى تَسَاءَ لُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَلَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَلِكُمْ ۚ إِنَّهُ أَلَا مُولِكُمْ ۚ إِنَّهُ أَلَا مُولِكُمْ ۚ إِنَّهُ أَلَا مُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَرَضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٢١]، وقوله: ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَرَضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمُ مَ فَلا نَبْغُوا عَلَيْهِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَلِلهُ اللّهُ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَلَهُ اللّهُ أَولِيكَا اللّهَ يُلُوا أَولِيكَا اللّهَ يُطْنِ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله: ﴿ وَاللّهَ يُولُوا أَولِيكَا اللّهَ يُطْنِ اللّهَ يُولُولُوا النّهَ عُفِر اللّهَ أَلَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله: ﴿ وَاللّهَ عُفِر اللّهَ أِلَى اللّهَ عُفْر اللّهَ إِلَى الللهَ عُفْر اللّهَ إِلَى اللّهَ عَلْمَ اللّهُ إِلَى اللّهُ إِلَى اللّهُ عَلْمُ اللّهَ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٧]، وقوله: ﴿ وَاللّهَ عُفْر اللّهَ إِللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلَى اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلَى اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ كَانَ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الل

وقوله: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّوْفُوا بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتُ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَكِم

إِلَّا مَا يُتَلَىٰ عَلَيْكُمُ عَيْرَ مُحِلِي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُم حُرُمُ إِنَّ ٱللَّهَ يَحَكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿ وَالْقَفُ عَنْهُمْ وَوَلَهُ عَنْهُمْ وَوَلِهُ اللَّهَ يَبُوبُ وَوَلِهُ اللَّهَ يَجُوبُ وَالْمَائِدَة اللّهَ يَحُوبُ وَالْمَائِدَة اللّهَ عَفُورٌ رَّحِيمُ ﴾ [المائدة: ٣١]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَمُ مُ مِنكُمْ فَإِنّهُ مِنهُمُ إِنّ اللّهَ عَفُورٌ رَّحِيمُ ﴾ [المائدة: ٣١]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَمُ مُ مِنكُمْ فَإِنّهُ مِنهُمْ إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَكِنِي إِسَرَهِ يلَ اللّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَكِنِي إِسَّرَهِ يلَ اللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّة ﴾ الْمَائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلمَسِيحُ يَكِنِي اللّهِ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّة ﴾ المائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿ وَقَالَ اللّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّة ﴾ المائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿ وَقُلْمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكُ إِنّكُ أَنتَ عَلّهُ اللّهُ وَلِمَائِدَة اللّهُ اللّهُ إِلَيْهُ إِلَيْهُ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّة ﴾ المائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿ وَالمائدة: ٢٧]، وقوله: ﴿ وَاللّهُ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكُ إِنّكُ أَنتَ عَلّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ إِلَيْهُ إِللّهُ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكُ إِللّهِ اللّهُ اللّهُ وَلَا أَعْلَمُ اللّهُ اللّهُ إِلَيْهُ وَلِهُ إِللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللهُ الل

وفي الآية قراءتان، فقد قرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُو عَمَلٌ غَيْرُ صَلِحِ ﴾ [هود: ٢٦]، بفتح ميم «عَمَل» على أنه مصدر مرفوع خبرا له إن»، و «غير» مرفوع على أنه وصف لعمل، وقرأ الكسائي وهو من السبعة: ﴿إِنَّهُو عَمِلَ غَيْرَ صَلِحٍ ﴾ بكسر ميم «عَمِل» وبنائه على الفتح لأنه فعل ماض، ونصب «غَيْر» على أنه مفعول له، وبهذا قرأ يعقوب وهو من العشرة، وهي مروية عن أربعة من الصحابة وهم علي وعائشة وابن عباس وأنس في ، وكلتا القراءتين مفادهما واحد، وإنما قراءة الجمهور خارجة مخرج المبالغة كما قالت الخنساء:

تَرتَعُ ما رَتَعَتْ حَتّى إِذا ادَّكَرَت فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

كأنما ابن نوح نفسه كان عملا غير صالح، وتفسر ذلك قراءة الكسائي، ومعنى أنه عَمِل غير صالح عصيانه لأبيه عندما دعاه إلى الركوب معه كما هو مروي عن سعيد بن جبير(١).

وإذا كانت الجملة المصدرة بإنَّ تفيد تعليل ما قبلها فإن هذا مما يفيد القطع على أن هذا الحكم إنما منشؤه عمل ابن نوح الذي لم يكن صالحا،

⁽١) تفسير الطبري، ج١٢، ص٥٢.

وهو أنه عصى أباه إذ لم يمتثل لأمره عندما قال له: ﴿يَنْبُنَى اَرْكَب مُعَنَا ﴾ [هود: ٢٤]، ورد عليه بقوله: ﴿سَاوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ ﴾ [هود: ٣٤]، ولم تشر الآية من قريب ولا بعيد إلى أنه كان كافرا برسالة أبيه، ولو أنه كان متلبسا بذلك لم يكن معنى لتعليل هذا الحكم بما هو أدنى منه، إذ لا يترك السبب الأكبر ويعدل عنه إلى ما هو أصغر منه، ومن المتبادر للذهن أن نوحا ﴿ لَيْ لُو علم من ابنه أنه كان كافرا برسالته لما دعاه إلى الركوب معه، مع أنه بنفسه قال: ﴿ رَبِّ لا نُذَرَّ عَلَى اللَّرْضِ مِنَ اللَّمِولِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، وبناء على زعم من يزعم أن الكبيرة التي هي دون الشرك لا توجب البراءة لا يبقى وجه لتعليل هذا الحكم بأنه عَمِل غيرَ صالح. ولما على بهذا، ظهر بكل وضوح أن العمل غير الصالح عندما يصدر من أحد فهو موجب للبراءة قطعا.

ولا يقال بأن هذا مما يرجع إلى الشرائع السابقة على شريعة نبينا فيها فلسنا متعبدين به، لأننا نقول إن هذا من الأصول الثابتة التي تشترك فيها جميع شرائع الله، ولا يصح النسخ فيها كالتوحيد ومكارم الأخلاق، لأن هذا من الغيرة على دين الله والغضب لانتهاك محارمه والتعدي على أوامره ونواهيه، فلا يسوغ التساهل في ذلك في أي شريعة من شرائعه، وهذا مما أمرنا أن نقتدي فيه برسل الله المصطفين الأخيار ومواقفهم الصلبة الناشئة عن غيرتهم على الدين، كما قال تعالى: ﴿ أُولَيّكَ ٱلّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَيهُ دَعُهُمُ الْقَاعِدة التي تستفاد من قصة نوح مع ابنه، فقد قال تعالى: ﴿ لا القاعدة التشريعية التي تستفاد من قصة نوح مع ابنه، فقد قال تعالى: ﴿ لا يَحِدُ قُومًا يُؤمنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْمَوْمِ ٱلأَخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ اللَّهَ وَرَسُولُهُ وَلَوْ المحادلة: ٢٢]، ويا ترى أليس الإمام الجائر الذي عاث في الأرض فسادا، وبدل أحكام الله، وانتهك حرمه، وظلم عباده؛ محادا الله تعالى ولرسوله.

والنبي على نفسه أخبر عن قطع الصلة بقرابته غير الصالحين، حيث قال: «ألا إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله، وصالح المؤمنين»(١).

وقد تعزز هذا بما في القرآن الكريم من التشديد في موالاة الفساق والرضا عنهم، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمُ فَإِنَ الله لا يرضى عنهم، الْفَكْسِقِين ﴾ [التوبة: ٩٦]، وأنت ترى أن الله تعالى لم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم، وإنما قال: ﴿فَإِنَ الله لا يرضى عني أَلْفَوْمِ الله سَعِين ﴾، لأجل التنصيص على أن علم علم علم علم النصيص على أن علم عدم رضاه عنهم إنما هي الفسوق الذي تلبسوا به، وهذا يرجع إلى ما قاله الأصوليون وغيرهم من أن الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علم لذلك الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علم لذلك الرضى عنهم.

⁽۱) أخرجه البخاري (۲۲۳۳/۵، رقم ۵٦٤٤)، ومسلم (۱۹۷/۱، رقم ۲۱۵). وأخرجه أيضا: أحمد (۲۰۳/٤، رقم ۱۷۸۳۷)، وأبو عوانه (۹۰/۱، رقم ۲۷۲).

⁽٢) المستصفى في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ)، ج١، ص٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبدالسلام عبد الشافي، المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، (ت: ٢٠٦هـ)، ج٢، ص٩٠، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين أبي النصر عبدالوهاب بن على بن عبدالكافي السبكي، (ت: ٦٤٦هـ)، ج٣، ص١٣٥، عالم الكتب، لبنان، بيروت، ١٤١٩هـ /١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: على محمد معوض، عادل أحمد عبدالموجود، الفروق أو أنوار البروق، ج٣، ص٣٥٦، والإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، على بن عبد الكافي السبكي، (ت: ٧٥٦هـ)، ج١، ص٧٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: جماعة من العلماء، والكوكب الدرى فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، عبدالرحيم بن الحسن الأسنوى أبو محمد، (ت: ٧٧٢هـ)، ص٨٠٨، دار عمار، عُمان، الأردن، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن عواد، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد، (ت: ٧٧٧هـ)، ص٢٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج، =

والفسوق وصف يشتمل على كل خروج عن طاعة الله ففي (اللسان)، ما نصه: «الفِسْق: العصيان والترك لأمر الله وَ الخروج عن طريق الحق. فسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسْقاً وفُسُوقاً وفَسُق الضم عن اللحياني، أي فجر، قال: رواه عنه الأحمر، قال: ولم يعرف الكسائي الضم، وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه. وفسق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته، قال الشاعر: فواسقا عن أمره جوائرا، الفراء في قوله وَ الله وَ الله عَنْ أَمْرِ رَبّه الله الله المناق عن عن عرجت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما عرجت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس. والفسق: الخروج عن الأمر. وفسق عن أمر ربه، أي خرج» (١).

ونصوص القرآن الكريم شاهدة على شمول الفسوق لكل معصية يتلبس بها الإنسان ويصر عليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا نَنَابِرُوا بِٱلْأَلْقَابِ بِئُسَ

عبد الحميد الشرواني، ج١، ص٢٠، دار الفكر، بيروت، شرح فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، (ت: ٨٦٨هـ)، ج٢، ص٣٥٨، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفومسي، (ت: ١٩٥٤هـ)، ج١، ص١٠٥٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة، ابن عابدين، (ت: ١٢٥٢هـ)، ج٢، ص١٢٥٠ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ/١٢٥٠م، البحر المحيط، ج٤، ص١٢٥٠ حاشية العطار، حسن ابن محمد العطار، (ت: ١٢٥٠هـ)، ج٢، ص٢٤٥، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، (ت: ١٢٠٠هـ)، ج٣٢، ص٢٤٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، إجمال الإصابة في أقوال الصحابة، خليل بن كيكلدي العلائي، ص١٦، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٥٧هـ، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر. طلعة الشمس، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي، ج٢، ص٢٢٨.

⁽۱) لسان العرب، ج۱۰، ص۳۰۸.

ٱلإَسَّمُ ٱلْفُسُوقَ بَعَدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُواْ مِمَّا لَمْ يُذَكِّرِ السَّمُ ٱلفَّسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله في الذين يرمون المحصنات: ﴿ وَٱلذَّينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبِعَةِ شُهَلَاءً فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنيِنَ جَلْدَةً وَلَا نَقْبَلُواْ لَمُمْ الْفُسِقُونَ الْأَبُونِ إِلَّا ٱلّذِينَ تَابُواْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللّهَ مَهُولًا وَيَعْدُ وَالنور: ٤ - ٥].

وقد بين الله تعالى في كتابه أن رابطة الولاية التي تشد المؤمنين والمؤمنات بعضهم إلى بعض لها مقومات لا بد منها، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، فقد قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ الله عَنِينَ مُعَضَمُ أَوْلِيااً وَ بَعْضِ كَالله ورسوله، فقد قال ويَنْهُونَ عَنِ الله مَن وَرسُولَهُ وَلَيْ الله عَنِينُ حَكِيمُ ﴾ [التوبة: ١٧]، فلا بد من الستجماع هذه الخصال كلها لاستحقاق الولاية، ومن أخل بشيء منها لم يكن من ولاية المؤمنين في شيء، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا وَلِيُكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالْذِينَ ءَامَنُواْ اللّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكُوةَ وَهُمُ رَكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

على أن المسلم لا يتولى إلا من تولاه الله ورسوله، وقد علمت براءة الرسول على أن ولاية الله إنما هي الرسول من أهل الظلم والفساد، ونص القرآن على أن ولاية الله إنما هي للمتقين وحدهم، كما في قول تعالى: ﴿وَاللّهُ وَلِيُّ ٱلْمُنَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ أَوْلِيَآ وُهُو يَتَوَلّى المُنَقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، ومثله قوله: ﴿إِنَّ وَلِحِي الله الله المُنْقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فهو نص على أن ولايته تعالى للصالحين، ويدل بمفهومه على أن من عداهم ـ وهم المفسدون ـ ليس لهم من ولايته من شيء.

وقد سبق ما قاله المحققون من المفسرين في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ

عَهْدِى ٱلظَّلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وتقدم أن من تولى ظالما فله حكمه لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْظُلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُنَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

هذا؛ وإن من طبع المؤمن أن يحب الإيمان ويكره الفسوق والكفر والمعصية كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّ إِلَيْكُمُ اللّإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمُ وَكُرَّهُ وَالمعصية كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّ إِلَيْكُمُ اللّإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمُ وَكُرَّهُ اللّهُ مُكُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]، ومن أحب شيئا من الأعمال أحب فاعله ومن كرهه كره فاعله، فلا يكون الإنسان مؤمنا حقا حتى يحب المؤمنين ويكره الكفار والفساق والعصاة، وهكذا يكون الترابط بين فئة المؤمنين؛ فإنها تتواد بما يكون بينها من علاقة التقوى والإيمان، والله المستعان.

ومما يؤسف له أن يندفع في هذا التيار، فيتجنى على أبي حمزة ومن معه؛ من كان جديرا بأن يقول كلمة الحق ولا يبغي بها بديلا، بما آتاه الله تعالى من علم وفقه وحنكة، وسوف نعرض لكلامه فيما يأتي إن شاء الله.

أَثَرُ الْمَدْرَسَةِ التي ينتمي إليها طالبُ الحَقِّ وأبو حَمْزَة في السِّياسة الإسلاميّة

إن المدرسة التي خَرَّجَتْ طالب الحق وأبا حمزة وأصحابهما ومَنْ سار على نهجهما هي مدرسة عريقة في الإسلام، تستمد نهجها من كتاب الله الخالد وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد أخذت على عاتقها إحياء ما أميت من الحق وإماتة ما أحيي من الباطل، فبذلت الكثير من أجل بعث العدل والإنصاف، وإقامة شرع الله تعالى حكما عادلا بين الأمة، من غير محاباة لقرابة قريب أو محبة حبيب، ومن غير حيف أو انتقاص حق بسبب شنآن بغيض أو بعد بعيد.

وقد عَرَفَ عنها كل من اتصل بها واطلع على ممارساتها، واعترف بذلك وشهد به كل من آتاه الله تعالى حبا للخير وإنصافا لأهله ومنحه التوفيق لشهادة القسط بين الناس، وفيما تقدم ذكر صور من شهادة القسط لهذه المدرسة ورجالها ممن وفقهم الله لذلك، وإليك مع ذلك نموذجًا لهذه الشهادات فيما كتبه شاهدان، أحدهما بالمغرب وثانيهما بالمشرق.

شَهَادَةٌ مِنَ المَغْرِب:

كتب الأستاذ الدكتور الشيخ العالم الجليل عبد العزيز المجدوب أحد علماء الزيتونة بالجمهورية التونسية الشقيقة في كتابه القيم (الصّراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية) ما يلي: «وأبرز ما يتصف به الإباضيون تمسكهم الشديد بالدين بأداء فروضه وتجنب نواهيه إلى حد الغلو، وبغضهم المفرط لأصحاب الظلم والفساد، وبفضل هاتين الصفتين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم عزا دينيا ومجدا سياسيا خلد ذكرهما التأريخ، وسنحاول الكشف عن ذلك قاصرين الحديث على الدور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد المغرب عموماً وبإفريقية على وجه أخص.

بعد نشوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأول في مطلع القرن الثاني ظهر منها أئمة أفذاذ برزوا في العلم والدين حتى بلغوا درجة الاجتهاد، فسنوا لحزبهم مبادئ وقواعد خاصة، وشرعوا له فقها وأصولا في العبادات والمعتقدات، تحولت به من حزب سياسي ومن مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني، وذلك لأن أتباعه حافظوا على صفاء الرسالة المحمدية في أصول مذهبهم، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الذي كان عليه رسول الله هذه وصحابته البررة في سلوكهم وأمور معاشهم، ولا اقترف وُلاتُهم إثما ولا مارسوا في قيادتهم ظلما، ولا أي لون من ألوان العسف التي لم يبرأ منها إلا القليل من الولاة سواهم.

بل إن الظلم في حقهم كان مستحيلا لا لكونهم معصومين، بل لأن رجل الدين عندهم ورجل السياسة واحد، والقائم بأمر الناس فيهم هو الإمام نفسه، وتلك هي قاعدة الإسلام في الحكم، التي سار عليها الخلفاء الراشدون وعليها حافظوا ودونها نافحوا.

فمن الطبيعي أن ينتشر مذهب هذا شأنه، وأن يقبل على اتباعه الناس ببلاد المغرب ليجدوا في أكنافه الأمن والكرامة، وهم من سئموا حياة الاضطراب والظلم على أيدي الكثير من عمال بني أمية وبني العباس»(١).

هذه هي شهادته لهذه المدرسة، وهي شهادة صادقة نابعة من إيمانه بسلامة مبادئ هذه الطائفة الدينية والسياسية، وتطابقها مع كتاب الله وسنة رسوله هي، وحرص أصحابها على الخروج بهذه المبادئ من حيز التنظير إلى حيز التطبيق، بحيث لا يشذ شيء في واقع حياتهم العملية وممارساتهم السياسية والدينية عن مثالية مبادئهم ومعتقداتهم، لذلك حرصوا على التمسك بالدين بأداء فروضه واجتناب نواهيه، ولا يعد شيء من ذلك غلوا، وإن تسامح الشاهد العدل في تعبيره فسماه على الله عنه علوا، إذ الدين لم يشرع إلا ليطبق بحذافيره من غير تفريط في اتباع أوامره أو الازدجار عن نواهيه، لأنه منهج الله الذي يجب أن يتبع، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا فَيَى اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَن يَعْصِ الله والفساد لا يعد ضَى الله والفساد لا يعد إفراطا ما دام في حدود العدل ولم يتجاوزه إلى الجور والحيف، لا في القول ولا في العمل.

⁽۱) الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، عبدالعزيز المجدوب، ص١٠٤ – ١٠٥ الدار التونسية، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥/١٣٩٥م.

ثم أضاف الكاتب الكريم إلى ما تقدم قوله: «ولعل أول داعية إباضي قدم هذه البلاد فارا من قبضة ملاحقيه هو سلمة بن سعد؛ الذي عرف كيف يتنقل في البلاد وأي الشعاب يسلك حتى يأمن ظلم الظالمين، ويضمن لعمله التوفيق ولرسالته الانتشار، فاختار الطرق الجبلية البعيدة عن الصحراء القاحلة وأهوالها، وعن المناطق الساحلية الخاضعة لسلطة الولاة وبجبال نفوسة ودمر ونفزاوة وما والاها من المرتفعات والجبال، وكلها مناطق آهلة بالسكان كثيرة العمران... أمكن له أن يستقر ويقوم في صفوف البربر بالدعوة، موضحا للأذهان الصورة الصحيحة للإسلام في الاعتقاد والعبادة والمعاملة، وهي غير الصورة التي شاهدها الناس في الحاكمين وأتباعهم في ذلك الوقت، فالتف من حوله الناس مستجيبين لدعوته، وراح يتنقل من مكان إلى آخر وما ارتحل من موضع إلا خلف فيه أتباعا... تكاثروا مع مرور الأيام والأعوام حتى صار لهم شأن وأضحوا يمثلون قوة يقرأ لها ألف حساب»(۱).

ولا ريب _ أيها القارئ الكريم _ أنك اطلعت في كلامه هذا على ما يدلك على أن هذه المدرسة إنما مهمتها تصحيح طريق الإسلام بعدما حرفت، وتحسين صورته بعدما شوهت، لأجل ذلك كانت مغامرة ذلك الداعية العظيم سلمة بن سعد في تلك الأماكن الوعرة والديار السحيقة.

وأرجو أن يأذن لي الكاتب الكريم بتصحيح جزئية يسيرة من كلامه الصادق الأمين، وهي أن انطلاق سلمة بن سعد إلى بلاد المغرب لم يكن فرارا من ملاحقة خصومه بالمشرق، وإنما كان مسؤولية تحملها بنفسه، لبث الدعوة في تلك البلاد بعدما تعرضت للاضطهاد والقسوة البالغة والتمييز العنصري من قبل ولاة بني أمية، الذين لم يدخروا وسعا في إهانة العنصر البربري الذي هو المواطن الأصلى في تلك الديار، وبما أنهم يرفعون شعار

⁽١) المرجع السابق، ص١٠٥.

الإسلام زورا وبهتانا خيل لبعض البربر أن دين الإسلام ما جاء إلا ليهين الشعوب ويسخرها لشهوات الحكام الطائشة ونزعاتهم الجائرة، فكادوا يشورون ثورة عنصرية، ونما هذا الخبر السيء إلى عميد هذه المدرسة وقائدها الملهم وإمامها الرباني أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، فلم يتردد في بعث من ينقذ الموقف، ويصحح الفكرة ويوجه النفوس الثائرة الوجهة الصحيحة التي ترضي الله تعالى، ولعمق خبرته بأصحابه اختار لهذه المهمة الجلى سلمة بن سعد، فاضطلع بها على أحسن وجه كما سبقت الإشارة إليه فيما تقدم.

ثم أضاف الكاتب الكريم إلى ما تقدم قوله: «ومن إفريقية انطلق شابان إباضيان _ بعد أن تلقيا المبادئ الأولى للدين والمذهب على يد سلمة بن سعد _ انطلقا إلى العراق ضمن بعثة تضم عددا من الإباضيين سواهما، فقضيا سنين في طلب العلم على يد إمام المذهب في ذلك الوقت أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. فالطالب الأول من القيروان، وهو عبدالرحمن بن رستم، أما الثاني فهو أبو داود من الجنوب، ولما أتما الطلب، واكتمل عندهما العلم، واطمأن لنباهتهما إمامهما أوصاهما خيرا، ثم سرحهما عائدين إلى موطنهما، فكان لأبي داود شأن في عالم الإصلاح، إذ تفرغ للجهاد الديني والعلمي، فأنشأ بجهة نفزاوة وسواها من جهات الجنوب جيلا إسلاميا فاضلا في خلقه ودينه، وكان البذرة الصالحة لما تبعته من أجيال تمسكت بالسنة والفضيلة، وقاومت البدع والرذيلة.

أما عبد الرحمن بن رستم فقد نبغ في العلم والاجتهاد درجة بهرت أبا عبيدة أستاذه حتى أجاز له حق الفتوى بما سمع منه وما لم يسمع، وبذلك كان اختياره لإمامة المذهب وريثا وحافظا»(١).

⁽١) المرجع السابق، ص١٠٦.

وبعد هذا عرج الكاتب الكريم على الملابسات والأحداث التي عايشت هذه الدعوة في تلك الديار، ووضع النقاط على الحروف، مبينا انحراف الولاة الأمويين نتيجة انحراف قادتهم الذين تربعوا على عرش الملك باسم الخلافة، وما نتج عن ذلك من حروب وثورات وكيف كان دور هذه المدرسة الإيجابي في خضم هذه الأحداث، فقال: «لكن شاءت الأقدار والأحداث السياسية أن يجمع عبدالرحمن بن رستم إلى جانب ذلك مهمة الاضطلاع بأعباء الحكم والسياسة، ذلك أن ظلم الولاة قد اشتد بإفريقية بعد ابن أبي المهاجر المولًى من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وأكثر رجالهم من السلب والنهب، واستباحوا الحرمات، حتى ثارت القبائل البربرية في وجوههم ثورات عديدة، اشتد ساعدها بنزوح الخوارج من الصفرية إليهم، فانقلبت إلى حروب حقيقية طاحنة، خاضها العمال أنفسهم، وقادوا جيوشها ضد الخوارج بأقصى المغرب وأوسطه دون جدوى، إذ كانت الهزائم تلاحقهم حيثما هجموا وأينما حلوا.

وقد كان المسؤول الأول عن هذه الفتن، وموقد نيرانها العامل عبيد الله بن الحبحاب المولى من قبل هشام بن عبدالملك، يقول ابن عذاري: وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة (المدغري) أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا، وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية، فيبعثون لهم البربريات السنيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة.. اه، وإذا أضفنا إلى هذا ما قام به عامله بطنجة من تخميسه للبربر زاعما أنهم فيء للمسلمين، عرفنا السبب الذي من أجله ثار البربر يقدمهم الصفري ميسرة المدغري.

وتتابعت الحروب بين البربر وولاة القيروان عنيفة شديدة، أزهقت فيها

أرواح مئات الآلاف من المسلمين، وانتهكت فيها الحرمات واستبيحت النساء من الطرفين المتقابلين حتى كأن القوم ما عرفوا الإسلام، ولا طرقت أسماعهم مبادئ الإخاء والتناصح، والأمر بالتناصر والتسامح في كتاب الله وسنة نبيه الهادية.

وتأتي السنة ٧٤٩/١٣٢ فتنهار الدولة الأموية لتقوم على أنقاضها دولة بني العباس، ولئن تغيرت أوضاع الحكم والسياسة بالقيروان، فأصبح الولاة يفدون إلى أفريقية من العراق بعد أن كانوا يعينون من قبل السلطة بالشام؛ فإن الأغراض السياسية بقيت على ما هي عليه والنوايا نحو مسلمي المغرب باتت على حالها لم يتغير منها شيء، ونتيجة لذلك تواصلت المقاومة البربرية، وتتابعت الثورات أشد ضراوة. وما كان لها أن تتوقف وقد أضحت حروبا لا ضد الظلم المسلط وكفى بل حروبا عنصرية يرمي الجنس البربري من ورائها إلى القضاء على الجنس العربي، وعلى حكم القرشيين خصوصا.

وننتقل بالأحداث سريعا إلى سنة ٧٥٥/١٣٨ لنربطها بالأحداث التي تعنينا والتي لها علاقة بأصل موضوعنا، زحفت في هذه السنة بعض القبائل الصفرية على إفريقية، فتغلبوا عليها، واستولوا على مدينة القيروان، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان من قريش، وعذبوا أهلها وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب...

والغريب في الأمر أن أهل القيروان أنفسهم هم الذين بعثوا إلى الورفجومية يستعدونهم على الوالي حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي طغى، وأطلق يد أعوانه وجنده يسلبون وينهبون ويسومون الناس سوء العذاب. ولما حصل لهم على يد الورفجومية ما جعلهم يندمون استنجدوا بأبي جعفر المنصور حسب بعض الروايات، وبأبي الخطاب المعافري إمام الإباضية بطرابلس استنادا إلى رواية أخرى.

والظاهر أن أهل القيروان وقد ضاع عنهم رشدهم وانخرمت صفوفهم بفقدهم لقيادة شعبية يقوم بها شخص منهم فيوجههم إلى أقوم السبل، ويجنبهم الارتجال والتصرفات الطائشة التي تعود عليهم بالوبال؛ الظاهر أنهم قد وجدوا في شخص عبدالرحمن بن رستم قائدا رشيدا وزعيما بصيرا في هذا الظرف الخطير من حياتهم. كان عبدالرحمن متباعدا عن السياسة منكبا على التعليم والتبصير بالدين، فحركته هذه الأحداث، وهزته النكبة التي حلت بالقيروان هزا عنيفا فنهض لمحق الظلم وتطهير الأرض من إثم الحاكمين وعبث المفسدين...

فبادر يستنجد بزميل له في حلقات الدروس بالبصرة سابقا، قاوم ظلم الولاة من بني العباس بطرابلس فدانت له البلاد، واختارته إماما عليها لعدله واستقامته. هذا هو أبو الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري، وجه إليه عبدالرحمن بن رستم من صور له بشاعة ما يجري بالقيروان، فهب لأداء الواجب الذي يفرضه عليه التعاطف الأخوي ويحتمه مبدأ من أهم المبادئ لمذهبه ألا وهو مقاومة أولي الأمر بالسيف، واستباحة دمائهم إذا تعدوا حدود الله ومالوا في أحكامهم إلى الهوى. وقدم أبو الخطاب في جيش عظيم تطوع لإقامة العدل ومحق الفساد والظلم الذي اقترفه عاصم الورفجومي وأتباعه... فكان له النصر.

ثم بعد أن أمن الناس حافظا أرزاقهم وأعراضهم، ولى على القيروان عبد الرحمن بن رستم ورجع إلى طرابلس. ودامت ولاية ابن رستم سنتين اثنتين ذاق المسلمون فيها بالقيروان وبإفريقية كلها طعم الأمن وعرفوا معنى العدل، وأدركوا لأول مرة تقريبا طعم العيش الكريم في ظل الحكم الإسلامي النظيف»(۱).

⁽۱) المرجع السابق، ص١٠٦ - ١٠٩.

وأنت ترى في كلامه هذا كيف وصل العسف بولاة الأمويين أن يستبيحوا من البربر أموالهم وأنفسهم على رغم استجابتهم لداعي الحق ودخولهم في دين الإسلام، ولم يكتفوا بسلب الأموال، وإنما تجاوزوه إلى انتهاك الأعراض، فبالله عليكم بأي وجه شرعي استباحوا تخميس البربر وانتقاء الجواري الحسان منهم لإرسالهن إلى المشرق ليستمتع بهن الخلفاء وحواشيهم؟!!..

أي إهدار لحقوق الإنسانية، وأي انتهاك لحرماتها أعظم مما وقع فيه هؤلاء!! أولا يكون هذا كله مسوغا لقيام العنصر البربري ضدهم وامتشاقه السيف لاسترداد حقه المغصوب، واسترجاع كرامته المسلوبة وصون حرماته المنتهكة؟!..

ومن حيث إن الأحلام كثيرا ما تطيش في مثل هذه المواقف الحرجة، التي تشور فيها الحفائظ وتتأجج فيها المشاعر؛ استجاب كثير من البربر للدعوة الصفرية المغالية رغبة منهم في الانتقام من ظالميهم وتخليص أنفسهم وذويهم من سلطاتهم، ولا ريب أن الحركة الصفرية كحركات الخوارج الأخرى لا تتقيد بالضوابط الشرعية في تعاملها مع الطرف الآخر، لذلك حصلت تجاوزات عديدة، ولكن دعوة أهل الحق والاستقامة أتت على أثر ذلك لترد الحق إلى نصابه، ولتنتصف لكل مظلوم من أي ظالم، فكانت حركة أبي الخطاب وعبد الرحمن بن رستم رحمهما الله مثالا حيا لذلك، وقد مهدت لحركتهما دعوة الرائد الأول لأهل الاستقامة في بلاد المغرب، ذلكم الداعية العظيم سلمة بن سعد كَثِلَتُهُ.

وقد طبقت مبادئ أهل الحق والاستقامة التي تجسد هدي القرآن وهدي السُّنَة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام في التعامل مع قضية القيروان وغيرها، فتبين للناس الحق من الباطل وميزوا بين الزيف

والصحيح، وقد جاءت هذه الشهادة العادلة من الكاتب الكريم لتقرر هذه الحقيقة، ولترسم هذه الصورة الإيجابية المثالية لمنهج أهل الحق والاستقامة.

وبعد كلام أضاف إلى ذلك قوله: «والواقع أن الإباضية قد تمكنت من فرض وجودها التأريخي فحققت عزا دينيا ذا بال، بقيت آثاره إلى اليوم في أتباعه الذين يعيشون بيننا، التزموا خدمة الدين ومقاومة البدع والرذيلة حازمين في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما حققت مجدا سياسيا كان له شأنه في تأريخ الإسلام بالمغرب العربي». اهد(۱).

شَهَادَةٌ من المَشْرق:

إذا كانت هذه الشهادة من الكاتب الكريم الشاهد العدل تصور واقعا تأريخيا ببلاد المغرب قامت به هذه الفئة المنتسبة إلى هذه المدرسة، فإن هنالك شهادة من أحد أبناء المشرق جاءت لترسم على لوحة التأريخ صورة واقعية مثالية من دور أبناء هذه المدرسة ببلاد المشرق، ذلكم هو الأستاذ الفاضل الدكتور حسين غباش في أطروحته القيمة (عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث)، وكتابه هذا من أوله إلى آخره هو رسم لهذه الصورة الإيجابية للدور السياسي الذي قامت به هذه المدرسة ببلاد المشرق، وكان مما قاله:

«حركة فريدة نشأت وازدهرت على خلفية مذهب إسلامي أقلي، هو المذهب الإباضي وانطبعت هذه الحقبة بالسعي إلى تشييد إمامة عادلة وناجحة وفق النموذج الإباضي للدولة الإسلامية، ولقد وجدت الحركة الإباضية هويتها العقائدية والفكرية في زمن مبكر، ومن خلال محافظتها

⁽١) المرجع السابق، ص١١٠.

على مبدأي الشورى والانتخاب الحر للأئمة ومبدأ الإجماع والتعاقد، يمكن أن تُعَـد وأن تَعُـد نفسها الوريث الحقيقي لتقاليد نظام الخلفاء الراشدين ١١هـ/٦٣٢م - ٤هـ/٦٦١م، وبشكل خاص الفترة الأولى منه، فترة أبى بكر وعمر بن الخطاب.

تعد دولة الخلافة هذه الفترة المثالية والنموذجية للدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ص) وتمثل هذه الفترة بالنسبة للإباضيين وغيرهم المرجعية الإسلامية الوحيدة، ومنها استمدت الحركة الإباضية رؤيتها وشرعيتها ومبادئها وقوانينها الدستورية وكل ذلك في سبيل إقامة الدولة والمجتمع الإسلاميين المثاليين من خلال تشييد نظام الإمامة»(۱).

ثم قال: «الدستور الإباضي هو الأول من نوعه في العالم العربي والإسلامي بل ومن الأوائل في العالم كله، فالأسس الأولى لهذا الدستور وضعت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول (السابع الميلادي)، ويعتقد أنه كتب ثم أغني أكثر في القرنين الخامس والسادس للهجرة»(٢).

وقال أيضا: «استطاعت الحركة الإباضية بفضل حملة العلم من إطلاق أول ثورة في جنوب شبه الجزيرة العربية ١٢٨ – ١٢٩هـ/٧٤٧م امتدت من حضرموت وصنعاء إلى مكة والمدينة، ولكن هذه الثورة انتهت بعد حوالي سنتين، وفي المغرب لعب الإباضيون العُمانيون بعد الفتح الإسلامي دورا راجحا في هذه البلدان واستقرارها، وتدل كتابات الإباضية بشكل خاص على أن سلمة بن سعد كان أول من نقل إليها المذهب الإباضي.

⁽۱) عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (۱۵۰۰هـ/ ۱۵۰۰هـ)، ص۱۱.

⁽٢) المصدر السابق، ص٢٢.

وقد توصلت الحركة الإباضية خلال النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ومن خلال ثورات عديدة إلى تأسيس شلاث إمامات في القيروان وطرابلس زالت جميعها إثر صراعات دموية، قدم فيها الإباضيون العديد من الشهداء، ولقد توج عملهم السري في وقت ما بقيام الدولة الرستمية ١٤٤هـ/٧٦١م إلى ٢٩٦هـ/٩٠٩م»(١).

وقال أيضا: «الفكر الإباضي عميق الجذور في الفكر الإسلامي، إذ يعود إلى دولة الخلفاء في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، وخلافا للمذهبين الرئيسيين الآخرين السني والشيعي، فإن الإباضية هو المذهب الوحيد الذي حافظ بإصرار عبر القرون وعن طريق نظام الإمامة على تطبيق مبدأ الإجماع والتعاقد»(٢).

وقال: «ومن بين المبادئ الأساسية التي حددتها هذه الحركة وتميزت بها، نشير هنا إلى ثلاث مبادئ هامة:

أولاً: أن الإباضية أكدت على الاعتدال كمبدأ أساسي في محاكمتها للأمور ورفضت _ خلافا لجماعات أخرى _ مبدأ الخروج، وبعبارة أخرى رفضت مهاجمة أية جماعة أخرى أو الدخول في حرب ضد أي طرف آخر، إلا في حال تعرضها لاعتداء. كما أقرت بالمقابل المبدأ المعروف في ذلك الحين باسم (القعود) وفضلت العمل السلمي والسري غالبا لنشر المذهب الإباضي.

ثانياً: تمسكت الحركة بعدم الثورة على الحكام القائمين، شريطة أن يكونوا عادلين وأن يراعوا الشرائع الإسلامية، وبالمقابل التزمت الحركة

⁽١) المصدر السابق، ص٤٢ - ٤٣.

⁽٢) المصدر السابق، ص٥١.

مذهبيا بإعلان إمامة الظهور لإسقاط حاكم مستبد وإحلال الإمامة محله.

ثالثاً: أقرت الحركة، مرحلة الكتمان كمرحلة هامة للمحافظة على نقاء العقيدة وسلامة الحركة ضد الاضطهاد.

ويعتقد أنه خلال هذه الحقبة التي امتدت أكثر من نصف قرن، أقر العلماء الإباضيون مراحل الإمامة أو حالاتها الأربع: الكتمان، الشراء، الظهور، والدفاع، التي تعرف أيضا بمسالك الدين والتي لم تلبث أن تحولت إلى قواعد ثابتة في الدستور الإباضي.

امتدت مرحلة البناء العقدي والفكري والتنظيمي أكثر من نصف قرن، وعلى هذا النحو تميزت الحركة الإباضية منذ بداياتها بالتنظيم والتخطيط والانضباط، وتميزت أيضا دون شك بالمرونة والاعتدال، وهما صفتان لازمتا الثقافة العُمانية حتى اليوم.

ويجب أن نشير إلى أن جابر بن زيد كان يتمتع بمكانة بارزة بين علماء تلك الفترة، وقد لعب دوراً أساسيا في تنظيم الحركة وبنائها العقائدي، كما في انتشارها. ولدى وفاته على أنس بن مالك أحد أصحاب النبي هو أحد شيوخه قائلا: «اليوم مات أعلم أهل الأرض»»(۱).

وقال في خاتمة كتابه القيم: «إن مسارا أصيلا يميز السياسة والثقافة والتاريخ العُماني. ومفتاح هذه الأصالة هو _ دون ريب _ الفكر الإباضي وتجربته، فالإباضية وهي المثل الأعلى للأيام الأولى ولأزمنة الشدة ولتجربة الحكم في عمر النضج تتماهي مع تاريخ عُمان وتمتزج به. ثلاث نتائج هامة يمكن استخلاصها من دراسة التطور السياسي لعمان:

⁽١) المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١.

فأما الأولى فتدور على النموذج الأصيل للدولة الإسلامية الذي قدمه المذهب الإباضي منذ الأزمنة الأولى. وأما الثانية فلبها ديمومة (الأسطورة) ومتانة التجربة الإباضية عبر التاريخ السياسي للبلاد. وأما الثالثة فهي عمق التراث الديمقراطى الذي خلفته الإباضية للثقافة العُمانية اليوم.

إن مبدأي الشورى والبيعة - الإجماع والتعاقد - مضاف إليهما قيم المساواة الاجتماعية والمساواة أمام القانون ومبادئها تمثل ركائز الديمقراطية الإسلامية في عُمان، وفلسفة الثقافة الاجتماعية والسياسية لدولة الإمامة، وقد كان الشغل الشاغل للحركة الإباضية المتصفة بمثابرة غير عادية هو تشييد دولة ومجتمع إسلاميين على مثال دولة الخلافة.

على أن إحدى الخصائص الأولى لنظام الإمامة الإسلامي أنه لا يمكن اختزاله إلى نظام ثيوقراطي (حكومة دينية أو بالأحرى حكومة كهنوتية) قائم على الحق الإلهي، كما هو الحال في أوروبا المسيحية، فلم يكن الإمام إلا قائدا منتخباً وممثلا للأمة، يستمد شرعيته منها. وقد شكلت الممارسة الإباضية بمحافظتها على مبدأ الانتخاب الحر للإمام الذي تكرسه البيعة، مجموعة قيم وأسس ديمقراطية، قريبة جدا من حيث الجوهر مما يسمى اليوم بالديمقراطية.

لقد دخلت الديمقراطية (ديمقراطية الشورى) إلى عُمان مع المذهب الإباضي أي مع الدين، إنها إذا روح الثقافة السياسية العُمانية، ومن ثم الديمقراطية العُمانية القائمة على الانتخاب الحر للأئمة لا تمثل نموذجا سياسيا قط، بل هي فوق ذلك، سلوك اجتماعي وثقافي وقيمي. وبفضل ممارستها الطويلة أصبحت بحق تقليدا ثابتاً للمجتمع العُماني، بل قانونا للحياة الجماعية وللدولة.

وعلى مر القرون وبفضل هـذه الديمقراطية استطاع العُمانيون تحقيق مبادئ العدل والمساواة، وكذلك السلام الأهلي والوحدة الوطنية، وفضلا عن ذلك أتاحت هذه الممارسة بلوغ صورة انسجام عالية بين الأمة وقادتها. وهكذا يستنتج أن تطبيق الديمقراطية الإسلامية العُمانية ضمن استمرار نظام الإمامة طوال أكثر من ألف عام، وبدوره ضمن نظام الإمامة الستمرار هذه الديمقراطية.

وعلى الرغم من أن لمنصب الإمام بصورة أساسية صبغة روحية فإن وظائف الإمام لا تقتصر أبدا على الممارسات الدينية، بل تشمل كل شؤون الدولة السياسية والعسكرية والمالية، علما أن الإمامة لم تكن حكرا على العلماء، فقد شغل هذا المنصب، في قسم كبير من تاريخ الإمامة العُماني، شخصيات وطنية مستقلة لا تنتمى إلى جماعة العلماء.

إن الحرية وسيادة الشعب هي في أساس الثقافة السياسية العُمانية، فسلطة الإمامة السياسية تقوم على مبدأ مشاركة الشعب بمجموعه في الحياة السياسية، وذلك على كل المستويات، المحلية والإدارية، من خلال ممثليه كالعلماء والشخصيات القبلية.

وكذلك قامت دولة الإمامة على مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، على الرغم من أنه لا تمييز صريحا بين الاثنين، ويجدر بنا أن نشير إلى أن العلماء مثلوا (مجلسا تشريعيا دائما) طوال التاريخ الإمامي لعمان، ومن جهة أخرى فإن تفويض السلطة في مختلف المناطق إلى ولاة تساندهم مجالس إقليمية استشارية وقضاة مستقلون كان يعطي هذه المناطق استقلالا إداريا واسعا، ولم تكن هذه البنية اللامركزية للإمامة سوى التعبير الفعلى عن مبدأ مشاركة المواطنين الفاعلة في الحياة السياسية.

ويستخلص بوضوح من التاريخ العُماني أن العلماء أهل الحل والعقد ضمير المجتمع وممثليه لعبوا دورا مركزيا في تخليد نظام الإمامة والحركة الإباضية. وفضلا عن دورهم كمرشدين روحيين للمجتمع وكقضاة وكحراس لتطبيق مبدأي الشورى والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك، يعود إليهم أيضا أمر التشريع في إطار مبدأ الاجتهاد في كل مستجدات الحياة، وخاصة في الشؤون التجارية والعلاقات الخارجية. وبما أنهم كانوا الأمناء المتميزين على ثقافة بلادهم السياسية، فقد حرصوا على أن يكونوا أيضا من خلال أعمالهم النظرية والفقهية والتاريخية ذاكرة هذه الثقافة السياسية، بل ذاكرة الحضارة العُمانية ثقافة وهوية.

وللحركة الإباضية، وريثة تقاليد دولة الخلافة الرشيدة وصاحبة الرؤية الخاصة والخبرة بما يجب أن تكون عليه الدولة الإسلامية المثالية، لهذه الحركة وجهة نظر حول مسألة الخلافة تبدو لنا غاية في الأهمية إلى حد لا يمكن معه لأحد ادعاء معرفة التاريخ الإسلامي بعمق دون أخذها بعين الاعتبار.

يبقى أن الممارسة الثابتة لمبدأي الاجتماع والتعاقد على مدى اثني عشر قرنا _ في حين كانت هذه الممارسة قد ألغيت أو علقت في المجتمعات الإسلامية الأخرى منذ الدولة الأموية أي منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي _ قد سمحت باستقرار المجتمع وسلامة نظام الإمامة واستمراره. وبالفعل فإن هذه الثقافة كانت مطبوعة بقيمها السلمية. ولسنا نجد خارج الخلافات ذات الطبيعة القبلية، سوابق تمرد على إمام شرعي، من هنا يمكن القول أيضا إن السلام كان ضمانة للسيادة.

أما مبدأ المساواة الاجتماعية والمساواة أمام القانون فمن الأعمدة الرئيسية للثقافة السياسية الإباضية التي تؤكد دون شك مكانة الإنسان

كإنسان من خلال حرصها على مصلحة المجتمع العامة، مصلحة الأمة. ذلك أنه لم يكن ممكنا لكرامة الإنسان أن تبلغ كاملة، في نظر هذه الثقافة، إلا من خلال تحقيق كرامة الأمة الجماعية. وفعلا كان الإسهام في الحياة الاجتماعية بصورة مباشرة أو غير مباشرة يقوي مواطنة الإنسان العُماني ويوطدها. وهنا تبرز سمة أخرى من سمات هذه الديمقراطية الأصيلة.

وأخيرا، فقد كشف المجتمع العُماني بمركباته القبلية عن كونه منظما وذا بناء متماسك ولا ينبغي أن ننسى أن هذه القبائل المتصفة بالنزوع الحاد إلى الحرية أسهمت في توطيد لامركزية نظام الإمامة، أي تأكيد الديمقراطية العُمانية.

وإذا أضفنا إلى هذه المركبات بنى اقتصاد مفتوح يستند خاصة إلى نشاط بحري هام نتبين أن الحركة الإمامية الإباضية لم تتسبب لأي ضرر على مستوى نمو البلاد بل على العكس من ذلك فقد كانت عُمان خلال مرحلة الإمامة العكس الكامل، فثقافتها السياسية القائمة على مسؤولية المواطنين وقادتهم تجعل منها أمة ذات سيادة ومحترمة معا، بالإضافة إلى كونها مستقرة ومسالمة»(۱).

وأضاف إلى ذلك: «أن التجربة الإباضية تبقى ميراث وتراثا وطنيا لا يقدر بثمن، لا بالنسبة للإباضيين وحدهم بل أيضا وبالتأكيد لمجموع العُمانيين، إباضيين كانوا أو غير إباضيين، وتبقى كذلك تجربة عربية وإسلامية رائدة»(٢).

هذه هي شهادته لهذه المدرسة ورجالها، وهي دالة على نجاح تجربتها

⁽۱) المصدر السابق، ص٣٤٥- ٣٤٨.

⁽٢) المصدر السابق، ص٣٤٩.

في المجال الديني والسياسي معا، وأنها أخذت على نفسها في كل عصر أن توائم بين التطبيق الدقيق للشريعة الإسلامية، والاستمساك الأقوى بعروة الدين، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة المطلقة الشاملة لجميع شرائح المجتمع، وبين المواكبة في كل زمان للعصر وتطوراته الحضارية.

وقد رأيت من خلال هذه الشهادة المشرقية وما سبقها من الشهادة المغربية أن هذه المدرسة كانت مثالية في متانة مبادئها، وعمق فكرها، وسلامة أهدافها، وأصالتها في الإسلام، لأنها ارتبطت كل الارتباط بعصره الذهبي عصر النبوة الهادية والخلافة الراشدة، وأنها أولت كل من كان داخل عهدتها حقه في المساواة والعدل والإنصاف كاملا غير منقوص.

وبجانب هاتين الشهادتين العادلتين، هناك شهادات صادقة في القديم والحديث، ممن خبروا هذه المدرسة ورجالها، وسبروا مبادئها وغاياتها، واكتشفوا في خزائن تاريخها نفائس الأدوار التي قام بها أئمتها العدول، وقادتها الجهابذة، وحسبي أن أشير إلى شهادتين أخريين، شهادة ترجع إلى نهاية القرن الثالث الهجري، من شاهد عيان للسيرة النيرة التي سارها هؤلاء الأئمة والقادة، وهو ابن الصغير الذي أرخ للأئمة الرستميين فأبدى إعجابه بممارساتهم العادلة وسيرتهم المستقيمة، رغم ما كان يطفح به من عداوة وكره لهم، بدافع عصبية مذهبية لم يستطع إخفاءها، وسأوافيك أيها القارئ الكريم إن شاء الله بنصها.

وشهادة ترجع إلى عصرنا الحاضر بطلها المغوار وشهدها العدل هو الدكتور الفاضل حسين مؤنس الذي سجل في كتابه القيم (دستور أمة الإسلام)، بيراعه الصادق البليغ أن أمة الإسلام بعد انطواء عهد النبوة الهادية والخلافة الراشدة فقدت الحكم الإسلامي النظيف العادل إلا عند أصحاب هذه المدرسة، وأن كل ما دون فيما يعود إلى السياسة الشرعية إنما كان

لأجل ترسيخ سلطات الحكام المستبدين على حساب الحقوق الشرعية للأمة إلا ما دون بأقلام أصحاب هذه المدرسة(١).

نَمَاذِجُ حَيَّةٌ وصُوَرٌ مِثَاليَّة

مِنَ الحِرْصِ على العَدَالَةِ الاجتماعيّةِ عِنْدَ أبناءِ هذه المَدْرَسَة

لقد ضرب الأئمة الذين اختيروا لقيادة الأمة ممن ينتمون إلى هذه المدرسة أروع الأمثال في العدل والإنصاف والتضحية بالنفس وبراحة الدنيا ونعيمها، من أجل مبادئ العدل والإنصاف وإضفاء الاستقرار والأمن على البلاد والعباد، فقد كانوا يتعبون ليستريح الناس، ويجوعون ليشبعوا، ويعرون ليكتسوا، كما كانوا مثالا للانقياد لداعي الحق والاستجابة لمطلب الأمة في التزحزح عن سدة الأمر وتسليم القياد إليها، ودونكم هذه الأمثلة:

١ _ الإمامُ الجُلَنْدَى بن مَسْعُود:

الذي نصب إماما بعُمان سنة إحدى وثلاثين ومائة، فسار سيرة العدل وأنصف من نفسه ومن أسرته، وأرى الناس من نفسه الزهد في المنصب، والرغبة في إقامة الحق والعدل، فعندما بغى بعض أسرته لم يتردد في الإنصاف منهم، فقد بغى جعفر وابناه النضر وزائدة _ وهم من أسرة الإمام _ فما كان منه إلا أن مكن المسلمين من رقابهم فضربت أمام الجمهور، وقد سرت الرحمة إلى قلبه مما وقع بهم ففاضت عيناه بالدموع، فأنكر المسلمون ذلك عليه، وقالوا له: أعصبية يا جلندى؟! فرد عليهم: لا، ولكنها الرحمة. فقالوا له: اعتزل أمرنا، فرد إليهم الإمامة عن طواعية. وظل يغدو ويروح في فقالوا له: اعتزل أمرنا، فرد إليهم الإمامة عن طواعية. وظل يغدو ويروح في

⁽١) ينظر: دستور أمة الإسلام، دراسة في أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين، حسين مؤنس، ص٣٩- ٤٢، دار الرشاد.

معسكر المسلمين، كأنه واحد من جنودهم، ولم يؤثر ذلك الموقف الصلب الذي وقفوه منه شيئا في نفسه، فلم يجد حرجا في قلبه أن يدع القيادة لغيره، ويكون واحدا من الأتباع يؤمر فيأتمر ويدعى فيستجيب ويقاد فينقاد، فلما تبين منه المسلمون حسن نيته وصفاء طويته ردوه إلى مكان القيادة، على الرغم، منه مع كثرة اعتذاره إليهم(۱).

وفي أيامه خرج إلى عُمان شيبان الصفري الخارجي، فتصدى له الجلندى فهزمه وشرد رجاله، وقُتل شيبان في هذه الحملة، وآل إلى الجلندى وأصحابه سيفه وخاتمه، فلم يستبيحوهما لأنهم لا يستحلون أموال أهل التوحيد، ولو كانوا بغاة مارقين يأكلون مال الموحدين ويسفكون دماءهم، إذ من مبادئهم أنهم لا يعاملون المخطئ بمثل خطئه ولا يدفعون الشر بالشر، وإنما يقابلون الخطأ بالصواب والشر بالخير، وقد احتفظوا بالسيف والخاتم أمانة في أيديهم إلى أن يجدوا ورثة شيبان، وجاء على أثر شيبان إلى عُمان خازم بن خزيمة قائد السفاح، فطلب من الجلندى وأصحابه تسليم الخاتم والسيف إليه، فأبوا ذلك، فقاتلهم فتصدوا لقتاله، حتى قتل من كان مع الجلندى جميعا، ولم يبق إلا هو وهلال بن عطية الخراساني، فتقدما وقاتلا الجيش وحدهما، حتى استشهدا، ولحقا بأصحابهما(٢).

وسجل هذه القصة الإمام نور الدين السالمي في جوهره نظما، فقال: قاتله جيش بني العباس في سيف شيبان الفتى الدعاس يطلبه المعروف باسم خازم في أخذ سيفه وأخذ الخاتم قالوا له ذلك للوراث وأنت لست من ذوي التراث

⁽۱) تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ج١، ص٩٠، مكتبة الإمام السالمي، السيب، ٢٠٠٠م.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٤.

وانتشبت بينهم الحرب فلم وقد بقي هلال والإمام قال الإمام لهلال ما ترى قال الإمام حتى قتلا تقدم الإمام حتى قتلا كان لهم كأسد في الصولة تعجب الخصم ومن رآه أبدى ثقافة تحير الذهنا فاستشهدوا وقد حوت جلفار عليهم الرحمة والرضوان

ينشب إلى أن قتلوا فما انهزم فردين لم يغشهما انهزام قال تقدم وأنا فيمن جرى قال تقدم وأنا فيمن جرى وقتل القاضي وراه مقبلا وكعقاب الجو عند الجولة في ذلك الحال بما أبداه مع بسالة عليها يثنى مشهدهم جاءت بذا الأخبار من ربنا والعفو والغفران(۱)

وقد ذكره العلامة أبو الحسن في سيرته، فقال: «فسار الجلندى بن مسعود رَخِلَتُهُ في عُمان فأظهر الحق وعمل به، وأخذ الدولة من يد أهل الجور وبرئ من الجبابرة وأشياعهم ، ودان بقتال أهل البغي ولم يستحل مع ذلك غنيمة ولا سبي ذرية، ولا استعراضاً بالقتل من غير دعوة»(٢).

وذكره العلامة منير بن النير الجعلاني رحمة الله عليه، فوصفه وأصحابه بقوله: «لم يأخذوا الصدقة بغير حقها ، ولم يضعوها في غير مواضعها ، ولم يستحلوها من الناس على غير الإثخان في الأرض والحماية والكفاية والمكافحة عن حريم المسلمين، بل أخذوا بحقها بعد إحكام الأمور التي تعنيهم في دين الله وحفظ الرعية، ثم وضعوها في مواضعها، وقسموها على أهلها بحكم القرآن، فريضة من الله، والله عليم حكيم».

⁽۱) جوهر النظام، ج۳ ص ٤٧٩.

⁽٢) تحفة الأعيان، ج١، ص٨٥.

قال: «ثم بلغنا عنهم فيما استقام عليه رأيهم أن يرفضوا صدقة البحر إلا ما طاب بأنفس الناس أن يبذلوه لهم ، وذلك لما يتخوفون من الدخل عليهم في سبيل الله إذ لم يحموه، قال: ولا يولون أمرهم ولا يبعثون في حوائجهم ولا يستعملون على صدقاتهم وأهل رعيتهم ولا يستقضون على أهل ولايتهم، إلا أهل الثقة وأهل العلم والفهم والورع والتحرج المعروفون بالفضل الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم، غير سقاط ولا أدعياء ولا متهمين ولا مقترفين.

منهم موسى بن أبي جابر والحسن بن عقبة والوليد بن خالد وموسى بن سعيد وجعفر ابن بشر ومعين بن عمر ولوط بن سام وحميم بن المغيرة والهمام بن المغلس والنير بن عبدالملك وعبدالله ابن أبيّ وعمارة بن همام ومحمد بن عبدالله بن سلوم وعمر بن يحيى وحميد بن عبدالله ويحيى بن زيد وعمر بن عبدالله، وضرباؤهم من الناس لا يتعلق عليهم بالسباب ولا يلجأ إليهم القبيح، ولا يتهمون في دينهم، مرضيون في إخوانهم متبع رأيهم، معروف فضلهم معروفون به ، قد أحكمت آراؤهم في قوة الحق وإحكام أمور الدين»(۱).

وقال أيضا: «وكانوا أهل فقه وأهل علم وحلم وتؤدة وتودد ووقار وسكينة ولب وعقل وبر ومرحمة وصدق ووفاء وتخشع وعبادة؛ وورع وتحرج وصلة ونصيحة وظاهرة مقبولة؛ لا يطمعون بمطامع السوء ولا يتعاطون من الناس الحقوق ولا يدخلون في خصومات الناس؛ ولا يتعجلون على استخراج الحقوق ولا يسترشون على طلب الحوائج التي تعنيهم من أمر الرعية؛ ولا يستفضلون في الرزق على الشبعة؛ ولا يغتاب بعضهم بعضا ليس من شأنهم الغيبة ولا البغى ولا الحسد ولا التقاطع ولا التدابر ولا

⁽¹⁾ المرجع السابق، ج1، 0.07 - 0.01

البغضة؛ ولا شيء من أخلاق أهل الريبة ، يحرصون على معادهم في الدين ومع أهل الدين، ويكرهون العيوب ويهجرون أخلاق الفجور والمعاصي؛ هم أنواء في الأرض وغرباء في الناس يعرفون بسيماهم، وكيف لا يكون كذلك من باع لله نفسه ينتظر حتفها صباحا ومساء وليس له في شيء من الأمور؛ ولا لأحد من الناس دنت رحمه أو بعدت أو عظم خطره أو صغر، أو ارتفع شأنه أو تواضع هوى إلا ما وافق الحق»(۱).

هـذا بعض ما وصفهم به، وهو الثقـة الأمين، وقد جاء في وصفهم بالعجب العجاب، من غير ما أوردناه من كلامه، حتى أنه ذكر أنه كان يرزق أحدهم من بيت مال المسلمين في الشهر سبعة دراهم لنفقاته في شهره، فكان يحرص على القناعة باليسير، ولربما فضل منها درهم أو درهمان، فيرد ما فضل إلى بيت مال المسلمين.

٢ ـ الإمام أبو الخَطَّاب المعافري:

الذي عقدت له الإمامة بطرابلس الغرب في شمال إفريقيا، في عام مائة وأربعين للهجرة، فأقام في الناس موازين القسط وعدل بين الرعية، وقسم بينهم بالسوية وأبى أن يعامل الخصم بمثل صنيعه، فقد استنجدته امرأة من أهل القيروان على ورفجومة _ وهي قبيلة صفرية كانت تحكم القيروان في عصر الإمام أبي الخطاب _ وكانت هذه المرأة تعرضت لظلم قاس من هذه القبيلة، وبما كان وصل إليها من سيرة أبي الخطاب وعدله استنجدته على أولئك، فخرج لنصرتها على رأس جيش من أصحابه، فحذر جيشه من أن يمد أحدهم يده إلى شيء من ممتلكات خصمه، لأن أموالهم معصومة بتوحيدهم لله تعالى ولو كانوا بغاة، وكونهم يستحلون أموال الموحدين بتوحيدهم لله تعالى ولو كانوا بغاة، وكونهم يستحلون أموال الموحدين

⁽¹⁾ المرجع السابق، ج1، 0.04 - 0.04

- حسب اعتقادهم الباطل - لا يسوغ أن يعاملوا بالمثل فتستباح أموالهم، وإن أباح بغيهم قتالهم بعد إقامة الحجة عليهم.

وقد اعترض على أبي الخطاب أحد أصحابه _ وهو خالد اللواتي _ جنوحا منه إلى معاملتهم بالمثل، ولعله بنى رأيه على ما تراءى له من معنى في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَّوُا سَيِّهُ سَيِّهُ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿ وَالْحُرُمُ تَ فَي قَوله تعالى: ﴿ وَجَزَّوُا سَيِّهُ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿ وَالْحُرُمُ تَ فَي عَلَيْكُمُ ﴿ وَالبقرة: ١٩٤]، وقوله نَم المُتَدَىٰ عَلَيْكُمُ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقصاصُ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمُ وَالبقرة: ١٩٤]، وولكن أبا الخطاب أبى ذلك الأنهم لم يخرجوا عن دائرة الملة، ومهما كان ضلالهم وبغيهم فإن كلمة التوحيد تعصم أموالهم، فلما قال له: نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا. قال أبو الخطاب: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار، ﴿ كُلُّما دَخَلَتُ أُمُّةُ لَعَنَتُ أُخْلَاً حَتَى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيها جَمِيعًا قَالَتَ معهم النار، ﴿ كُلُّما دَخَلَتُ أُصَلُونا فَعَاتِمٍ مَ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفُ وَلَكِن لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وبناء على هذا المبدأ القويم، حذر أبو الخطاب أصحابه أن تمتد أيديهم إلى شيء من أسلاب خصومهم، وكان الناس قد عهدوا من قبل في هذه الحروب نهب الأموال وتخريب الأمتعة التي يتعذر أو يتعسر نهبها، وكانوا يتوقعون أنهم إذا وضعت الحرب أوزارها وخرجوا من بيوتهم، سيلقون زروعهم وثمارهم قد حصدت أو خربت، وأسواقهم قد نهبت، وأملاكهم قد أتلفت، ولكن المفاجأة كانت غريبة بالنسبة إليهم، إذ وجدوا كل شيء على حاله كما تركوه، إلا ما تأثر من أمتعتهم بآثار الطبيعة نحو الغبار أو وهج الشمس، وعجبت امرأة مرت على جثث القتلى في الميدان فوجدت كلا منهم بعدته لم يؤخذ من أسلابهم شيء، فقالت: كأنهم رقود، فسميت تلك البقعة (رقادة)، وما زالت تحتفظ بهذه الاسم حتى اليوم.

وتفقد أبو الخطاب القتلى فوجد واحدا منهم مسلوبا، فنادى مناديه: من

أخذ من القتلى شيئا فليرده، ولما أيس من الرد دعا على من أخذ السلب أن يفضحه الله على رؤوس الأشهاد، وحق لمثله أن يكون مستجاب الدعاء عند الله، فلما رجع قافلا إلى طرابلس أطلقوا الأعنة لخيلهم لتستبق ابتهاجا بالنصر والظفر بإقامة الحق، فانقطع حزام جميل السدراتي _ وهو أحد جنود الإمام وسقط، فظهر السلب تحت سرجه، فلم يمهله الإمام وإنما أدبه على صنيعه.

وكان هذا الموقف منه سببا لحنق السدراتي عليه، إذ لجأ إلى بني العباس ـ وكان ذلك في أول دولتهم _ فألبهم على الإمام فباغتوه بجيش عرمرم، ولكن الإمام تصدى لهم بمن كان عنده من المؤمنين، وهزمهم هزيمة نكراء، فما انتصروا عليه إلا بعد أن كادوا له مكيدة؛ حيث أظهروا له أنهم راجعون على أعقابهم، ولما اطمأنوا أن نصراءه تفرقوا عنه بعد أن أذن لهم أن ينصرفوا إلى أعمالهم، أعادوا الكرة عليه فتمكنوا من قتله وقتل كثير ممن كان هب لنصرته، وقد ذهبت أرواح أولئك الشهداء ضحية المحافظة على المبادئ وعدم التفريط فيها، إذ لم يكن لهم في الحياة هدف إلا أن يقيموا موازين القسط فيها ويسجلوا سطور العدل والإنصاف على صفحات تاريخها(۱).

٣ _ الأَئِمَّة الرُّسْتُمِيُّون:

الذين بويعوا بالإمامة بأرض المغرب فامتد نفوذهم في المغربين الأدنى والأوسط، فبسطوا العدل بين الناس حتى انتشر في آفاق الأرض طيب ذكرهم، فأقبل الناس عليهم من ديار شتى لما سمعوا من عدلهم وحسن سيرتهم، وقد شهد بهذا كله من لم يكن يخفي ما يعتمل في نفسه من عداوتهم وكرههم وهو ابن الصغير، وسيأتي إن شاء الله نص شهادته، (والحق ما شهدت به الأعداء).

⁽١) ينظر: السير للشماخي، ج١، ص١١٦ -١١٨

٤ _ الإمام الوارث بن كَعْب:

الذي بويع في عُمان في عام مائة وتسعة وسبعين للهجرة، فشمر عن ساعديه وجد في تطبيق العدل، ناهيكم مثالاً على ذلك، أنه سجن جماعة من الناس بموجب حكم الشرع في مكان قريب من الوادي فسال الوادي جارفا وخشي أن يغرق السجناء بسيله العرم، فأمر بإطلاقهم، فلم يجرؤ السجانون على قطع الوادي إليهم، فقال: هم أمانتي وسأذهب إليهم بنفسي، فذهب إليهم ومعه من آزره على حفظ أمانته، فاجتاحهم الوادي، وكانوا ضحية الحفاظ على العهد ورعاية الأمانة.

وقد سـجل التأريخ هذه المأثرة العظيمة لهذا الإمام العادل، ففي (تحفة الأعيان) للإمام السـالمي رَخِلَتُهُ ما نصه: «لم يزل الوارث إماما حسن السيرة قائما بالعدل، حتى اختار الله له ما لديه، فكان سبب موته أنه غرق في سيل وادي كلبوه من نزوى، وغرق معه سـبعون رجلا من أصحابه؛ وسبب ذلك أن حبس المسلمين كان عند سوقم مائل وكان ناس محبوسين، فسال الوادي جارفا؛ فقيل للإمام إن الوادي سيلحق المحبوسين فأمر بإطلاقهم، فلم يجسر أحد أن يمضي إليهم خوفا من الوادي ، فقال الإمام: أنا أمضي إذ هم أمانتي وأنا المسـئول عنهم يوم القيامة؛ فمضى إليهم وتبعه ناس من أصحابه؛ فمر بهم الوادي فحملهم مع المحبوسين» (١).

وقال أيضاً في جوهره:

ووارث بن كعب الخروصي كان له في السجن قوم، فجرى سار إليهم بنفسه وقد

فاز هنا بفضله المخصوص سيل عليهم رآه خطرا قال أمانتى فسار وقصد

⁽١) تحفة الأعيان، ج١، ص١١٨.

ومن غدا وراءه منطلقا ماتوا لأجل الحفظ للذمام⁽¹⁾ فزاد ذاك السيل حتى غرقا سبعون مؤمنا مع الإمام

٥ _ الإمام غَسَّان بن عبدالله اليَحْمَديّ:

الذي بويع بالإمامة على أشر موت الإمام الوارث بن كعب باجتياح الوادي له، فشمر عن ساعديه، وواصل ليله بنهاره في حماية بيضة الإسلام ورفع منار الدين وإقامة موازين القسط بين الناس، بالقبض على يد القوي حتى يأخذ الحق منه، والأخذ بيد الضعيف حتى يسلمه حقه كاملا غير منقوص، من غير مراعاة لآصرة قربى أو شنآن بغيض، وقد أرقته عادة كانت متبعة في أرض الباطنة من عُمان التي تسقى جنانها بالسواني، وكان الملاك يعتمدون على عبيدهم الأرقاء في استخراج المياه والسقي بها، وكان نظام السقي قائما على السني بالليل دون النهار، لأن ذلك أنسب براحة العمال الذين يجهدهم العمل بالنهار تحت وهج الشمس، مع أن النبي على النهار تحت وهج الشمس، مع أن النبي عن استعمال العبيد بعد صلاة العتمة»(٢).

وللعلماء قولان فيما لو عوضوا بالراحة في النهار بقدر العمل بالليل، منهم من رخص في ذلك مراعاة للظروف، ومنهم من منع أخذا بظاهر الرواية، وقد حاول الإمام غسان ولا أن يغير هذه العادة حتى لا يرزأ الأرقاء حقهم الذي عينه لهم رسول الله ولكن بناء الحياة العملية في البلاد كان وفق هذه العادة، فعجز عن تغييرها، وقد وجد من ذلك غصة في نفسه، فكان يقول: «عدلنا إلا في عبيد الباطنة»(٣).

⁽١) جوهر النظام، ج٣ ص ٤٨٨ _ ٤٨٩.

⁽٢) أخرجه الربيع (ص٢٦٧، رقم ٦٨٧).

⁽٣) تحفة الأعيان، ج١، ص١٢٩.

وهو راجع إلى شدة خوفه من الله وإحساسه بالتقصير عن الوفاء بحق العدل، وقد بين هذا الخلاف الإمام السالمي رَخْلَتُهُ، مع ذكر تحرج الإمام من ذلك في قوله:

إلا بطيب نفسه إذ يكرمه خدمته أراحه نهارا في هذه الرخصة نفس ساكنة وبالنهار الزجر يتركونا على الإمام الكامل المفضال إذ ذكر العدل وما به أتى ولم ينل منه عبيد الباطنه عنه مقام الخوف ما أعلاه فرأيه الأخذ بقول الشدة(٢)

فما له بعد العشا يستخدمه وجاز إن أراحه مقدارا كنداك قيل ولأهل الباطنة فإنهم بالليل يزجرونا(۱) ووقع الريب بهذا الحال سليل عبدالله غسان الفتى وأن عدله ملا أماكنه وذاك منه رضي الإله أو أنه لم ير نفس الرخصة

٦ ـ الإمام الصَّلْت بن مَالِك:

الذي حكم عُمان بالعدل منذ بويع في عام مائتين وسبعة وثلاثين، واستمر حكمه إلى عام مائتين وثلاثة وسبعين للهجرة، وسار في الناس سيرة جمع فيها بين الحزم والأخذ بأسباب القوة، والاحتياط في الدين والحرص على إنصاف كل أحد حتى الخصوم الألدين، ففي وقته غدر نصارى سقطرى بواليه فيها، فقتلوه واستولوا على البلاد وعاثوا فيها فسادا، ولعل نصارى الحبشة شجعوهم على ذلك وأمدوهم بالسلاح والرجال، وقد صورت هذه

⁽١) أي يسنون أخذا من زجر الدابة عند السني، وهو اصطلاح عند العمانيين.

⁽٢) جوهر النظام، ج٢ ص ٢٥١ _ ٢٥٢.

الواقعة الأليمة امرأة مسلمة كانت تعيش في سقطرى، في قصيدة بثت فيها مشاعرها المحزنة وأرسلتها إلى الإمام هذا نصها:

ابن الكرام وابن السادة النجب كانوا سناما وكانوا سادة العرب بعد الشرائع والفرقان والكتب في ظل دولتهم بالمال والحسب من الغصون ولا عودا من الرطب وبالأذان نواقيسا من الخشب من اللئام علوا بالقهر والغلب من الحريم ولم يألوا من السلب عقوى مسامعهم في سبسب خرب للعاديات لسبع ضاري كلب يهتفن بالويل والإعوال والكرب بأن يغيث بنات الدين والحسب من آل بيت كريم الجد والنسب وقد تلقف منها موضع اللبب على الحلال بوافي المهر والقهب عن سوءة لم تزل في حوزة الحجب وأجعد كعناقيد من العنب إلا بضرب العوالي السمر والقضب يا عين جودي على الأحباب وانسكبي

قل للإمام الذي ترجى فضائله وابن الجحاجحة الشم الذين هم أمست سقطرى من الإسلام مقفرة وبعد حيّ وهلّا صـار مغتبطا لم تبق فيها سنون المحل ناضرة واستبدلت بالهدى كفرا ومعصية وبالذراري رجالا لا خلاق لهم جار النصاري على واليك وانتهبوا إذ غادروا قاسما في فتية نجب مجندلين صراعا لا وساد لهم وأخرجوا حرم الإسلام قاطبة قل للإمام الذي ترجى فضائله كم من منعمة بكر وثيبة تدعو أباها إذا ما العلج هم بها وباشر العلج ما كانت تضن به وحل كل عراء من ملمَّتها وعن فخوذ وسيقان مدملجة قهرا بغير صداق لا ولا خطبت أقول للعين والأجفان تسعدني

ما بال صلت ينام الليل مغتبطا يا للرجال أغيثوا كل مسلمة حتى يعود عماد الدين منتصبا وثم يصبح دعا الزهراء صادقة ثم الصلاة على المختار سيدنا

وفي سقطرى حريم باد بالنهب ولو حبوتم على الأذقان والركب ويهلك الله أهل الجور والريب بعد الفسوق وتحيا سنة الكتب خير البرية مأمون ومنتخب

فأنجدها الإمام من عُمان بأسطول يتكون من مائة سفينة وسفينة، وجعل إمرة الجيش إلى رجلين ممن يطمئن إلى عدالتهم وأمانتهم في الدين، وهما محمد بن عشيرة وسعيد بن شملال، وكتب في هذا عهدا سلمه إليهما فيه من الدقة في الأحكام الحربية في الإسلام، ومراعاة حقوق البشرية ما تحار منه الألباب، وجدير بهذا العهد أن يعد نظاما إسلاميا تأخذ به الأمة في ممارساتها العسكرية.

وقد اطلع أخونا العزيز (الدكتور محمد علي البار) عليه، فشده ما فيه من الدقة المتناهية في التعامل مع المعتدين بالعدل والإنصاف، اللذين كثيرا ما يذوبان حتى يتلاشيا بوهج الحماس، الذي تؤججه عزيمة الحرب، خصوصا عندما تكون على معتدين من أصحاب ملة أخرى، وقد دعاه ذلك إلى كتابة مقال عن هذه القضية، ونشره في العديد من الصحف داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، أبدى فيه إعجابه البالغ بهذا الإنصاف للخصم في مشل هذا الموقف الثائر، الذي يؤدي إلى فقدان التوازن في التفكير، كما أعرب فيه عن سمو هذا العهد فوق كل التنظيرات التي احتوتها المواثيق الدولية في القضايا الحربية.

وعندما ألف كتابا بعنوان (معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ) أشاد بهذا العهد وتناول جانبا منه بالتعليق، وكان مما قاله: «وقد تحقق للإمام الصلت ما أراد، فنصر الله على جنده وأعز

دينه، وهزم الفئة الباغية الناقضة للعهود من نصارى الحبشة ومن شايعهم من نصارى سقطرى، وعادت راية الإسلام عالية وارتفع ذكر الله من المآذن، وحقق الله لعباده الذين اصطفى النصر والعز والتمكين، وانتشرت بذلك عدالة السماء في الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا، لما رأوه من الأخلاق الربانية التي لم تعهد لبشر من قبل حيث قابل المسلمون الإساءة بالإحسان، والغدر بالوفاء والثبات عند اللقاء، فتم بذلك نصر الله والفتح، وانتشر دين الله في آفاق الأرض».

ثم قال: «وتعتبر وصية الإمام الصلت وثيقة من أرقى الوثائق في الشؤون الدولية، وخاصة في كيفية محاربة الأعداء والإنذار إليهم، ومعاملتهم بالحسنى إن هم استجابوا لنداء الحق وتابوا وثابوا، رغم ما فعلوه من جرائم فظيعة بالمسلمين من قتل وسفك دماء واعتداء على الحرمات، فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبوا ذلك، دعوناهم للعودة إلى العهد والاستمساك به، وأداء الجزية، ومعاقبة الناكثين والتفريق بين من نكث العهد وبين من لم ينكث، وأن لا يؤخذ بريء من هؤلاء النصارى بجريرة وجريمة القتلة والسفاكين منهم، فإذا انتصرنا عليهم وجبت المعاملة بالحسنى، وتسليم الأمر إلى الإمام وأن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

وهذا بالفعل ما أدى إلى عودة نصارى سقطرى إلى حظيرة العدل وإلى دخول بعضهم في دائرة الإسلام، ومن بقي منهم على دينه كفلت له الدولة المسلمة الحرية التامة في أداء دينه وشعائره، وبقوا على ذلك حتى الغزو البرتغالي عام ١٥٠٧م الذي أدى في النهاية إلى محاربة أهل سقطرى من النصارى للبرتغاليين وإلى الدخول في دين الإسلام داخرين»(۱).

⁽۱) معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ، للدكتور محمد على البار، ص٩٦ – ٩٨، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت.

كانت هذه شهادة عادلة من الدكتور البار لهذا الموقف العادل من الإمام الصلت الذي عامل النصارى بسقطرى هذه المعاملة الطيبة، رغم نكثهم العهود وسفكهم الدماء وانتهاكهم الحرمات، وقد ترك لهم حرية المعتقد والدين كما جاء في القرآن الكريم، وإذا قارن المنصف بين هذه المعاملة ومعاملة البرتغال لهم، وجد البون الشاسع بين المعاملتين على رغم أنهم جميعا نصارى، وكفى من ذلك أن البرتغال لم يتركوا أهل سقطرى من النصارى على ما كانوا عليه من المذهب الأرثوذكسي، بل أجبروهم على الانتقال عنه إلى المذهب الكاثوليكي الذي هم عليه وعمدوهم من جديد كرها، وهذا ما ذكره القائد البرتغالي البوكيرك الطاغية المجرم السفاح في مذكراته (۱).

وجدير أن لا ننسى ذكر عهد الإمام إلى قائدي جنده الذين حرروا سقطرى من أيدي المحتلين، وما اشتمل عليه من الوصايا بتقوى الله تعالى والتزام عبادته، والعدل بين عباده وإنصاف الأعداء، وعدم تجاوز الأحكام الشرعية في التعامل معهم، غير أنه عهد طويل قد نثقل على القارئ الكريم عندما نأتي به بحذافيره، وإنما ندع الميدان لأخينا الأستاذ الدكتور محمد على البار ليجول فيه ببيانه المنصف وشهادته العادلة فيما يتعلق بهذا العهد، فقد أورد منه فقرات في كتابه القيم بنصها، واكتفى بالإشارة إلى فقرات أخرى، مع ما كان يورده من عبارات تنم عن عظيم إكباره لهذا الموقف العادل من الإمام مع ألد الأعداء وأنكى الخصوم، فقد قال ما نصه:

«يبدأ الإمام الصلت عهده العظيم بذكر الله وتوحيده، حيث يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ومقاليد

⁽۱) ينظر: سجلات أفونسو دلبوكيرك. ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ. هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، الإمارات. الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م. ص٥٩.

كل شيء عنده، الواحد، الأحد العلي الجد، الذي ليس لعظمته حد ولملكه عد، ولا لقدره صاد ولا لأمره راد، ولا له نظير ولا مضاد تفرد بفطر الخلق ونصر الحق ورتق الفتق، وعلا فدنا ودنا فنأى وسمع ورأى وأعلم وأحصى وقدر وقضى وأعز وأذل».

ثم صلى على المصطفى وآله وكيف أقام الله به الحجة وتبر به الأوثان، وشرع به شرائع الإيمان، ودفع به حزب الشيطان. ثم أمر قواده وجنوده بإخلاص التوبة لله، والمبادرة بإخلاص العمل لله:

«والزموا تقوى الله في الغيوب، وداووا بها داء العيوب، وتجهزوا للقاء الله بالطهارة من الذنوب، فإن الله يغفر لمن يحوب... فتوبوا إلى الله من سيء ما مضى، وأصلحوا فيما بقي بما عنكم به يرضى، وصونوا دينكم ولا تبيعوا دينكم بدنياكم ولا بدنيا غيركم، وقفوا عن الشبهات وأحرموا عن محارم الشهوات، وغضوا أبصاركم عن مواقعة الخيانة، واحفظوا فروجكم عن الحرام، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم بغير الحق، واجتنبوا قول الزور، وأكل الحرام ومشارب الحرام، وجماعة السوء، ومداهنة العدو، وأدوا الأمانات إلى أهلها، وإن قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

وأمرهم طويلا بإقامة الصلاة في أوقاتها، والخشوع فيها وكيفية صلاة الحرب، وعند الخوف، ثم قال: «واعلموا إني وليت عليكم يا معشر الشراة وأي الذين شروا أنفسهم والمدافعة على جميع سقطرى أهل السلم منها وأهل الحرب؛ وعلى الصلاة، وقبض الزكاة والجزية، والمصالحة والمسالمة والمحاربة لأهل النكث من النصارى أو من حاربكم من المشركين في سفركم أو في مستقركم على الأمر والنهي، وإعطاء الحق ومنع الباطل، ووضع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي

حق نصيبه من العدل من قريب الناس وبعيدهم، وقسم ثلث الصدقات على أهلها؛ وتزويج النساء التي لا يصح لهن أولياء في مواضعهن بمن رضين به إذا كان لها كفؤا على ما تراضوا به من الصدُقات، ولا يكون الصداق أقل من أربعة دراهم، وإقامة الوكلاء لليتامى والأغياب الذين لا أوصياء لهم ولا وكلاء في أموالهم، وفرض الفرائض لليتامى في أموالهم، وللنساء النفقات على أزواجهن بالعدل والمعروف.

(وليت عليكم) محمد بن عشيرة وسعيد بن شملال فاسمعوا لهما وأطيعوا لهما، في طاعة الله وفيما دعياكم إليه من حق الله، ومجاهدة أعدائه مجتمعين أو متفرقين في بر أو بحر، ولتصدق نياتكم وتحسن رعايتكم وتلووا على الحق قلوبكم، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...».

ثم ذكرهم بآيات الله، والنصح لمن وليهم وأن ينتصحوا ولا يتباغضوا ولا يغش بعضهم بعضا، ولا يتفاخروا في الأحساب ولا الأنساب وأن يكونوا يدا واحدة على كلمة واحدة كالبنيان يشد بعضه بعضا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وذكرهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم قال: «وقد بغى هؤلاء النصارى وطغوا ونقضوا عهدهم ونرجو أن يديل الله عليهم.. فإذا سرتم أو نزلتم فأكثروا ذكر الله فإن بذكر الله تطمئن القلوب.. وشدوا على ربابنة السفن أن لا يتفرقوا ولا يسبق بعضهم بعضا.. حيث يسمع بعضهم دعاء بعض، فإن عناهم معنى تكيفوا ووازر بعضهم بعضا إن شاء الله فإذا أقدمكم الله الجزيرة فتناظروا وتشاوروا، وأرجوا أن لا يجمعكم الله على ضلال...».

ثم أمرهم بأن يقتربوا من القرية الناكثة، فيحاصروها ويرسلوا إلى أهل العدل الذين لم ينقضوا عهدهم.. «فأعلموهم أنهم آمنون على أنفسهم

ودمائهم وحريمهم وذراريهم وأموالهم، وأنكم وافون لهم بالعهد والذمة والجزية على الصلح الذي يقوم بينهم وبين المسلمين فيما مضى؛ ولا ينقض ذلك ولا يبدله، وأمروهم بإحضار جزيتهم إليكم، واختاروا إليهم رجالا من خيارهم، من يثبت إلى الصلاح منهم، فوجهوهم إلى هؤلاء الناقضين لعهدهم الناكثين على المسلمين ببغيهم، واجعلوا ممن توجهون رجلين صالحين ممن يوثق بهم من أهل الصلاة، فإن لم يمكنكم بعث اثنين صالحين من أهل الصلاة فواحد، فتأمروهم أن يصلوا إلى الذين نقضوا العهد فتدعوهم عن لساني وألسنتكم إلى الدخول في الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع حقوق الله والانتهاء عن معصيته، فإن قبلوا ذلك فهي أفضل المنزلتين لهم؛ وذلك يمحو ما كان من حدثهم.. وإن كرهوا أن يقبلوا الإسلام ويدخلوا فيه، فلتدعوهم إلى الرجعة عن نكثهم والتوبة من حدثهم إلى الدخول في العهد الأول الذي كان بينهم وبين المسلمين، على أن لهم وعليهم الحق بحكم القرآن وحكم أهل القرآن من أولى العلم بالله وبدينه من أهل عُمان ممن نزل إليهم أمر المسلمين، فإن أجابوا وتابوا فلتقبلوا ذلك منهم ولتأمروهم بترك ما في أيديهم وأيدي أصحابهم من أهل الحرب من نساء مسلمات، ثم لا يتزوج رسلكم من عندهم حتى يقدم معهم رؤساء أهل الحرب ويسلموا إليهم النساء المسلمات اللاتي سبوهن؛ واجعلوا لرسلكم أجلا في رجعتهم لمن أجابهم، وبالسبايا إلى ذلك الأجل، أن لا يظلموهم ولا يخادعوهم ولا يماكروهم بالمطل والتواني في ذهاب الأيام، فإن وصلوا إليكم بمن أجابهم من أهل الحرب وقد استسلموا وتابوا من حدثهم وجاءوا بالنساء المسلمات فاقبلوا ذلك منهم، ولا تعرضوا لأحد ممن جاءكم تائبا مستأمنا مستسلما بسفك دمه ولا انتهاك حرمته ولا سبي ذريته ولا غنيمة ماله، وليكونوا مثلكم آمنين». يا الله!! هذه القمة السامقة في معاملة قوم غدروا وفجروا، وقتلوا الأبرياء، ونقضوا العهد، وأخذوا أشراف المسلمين ونساءهم سبايا، وقد أمرهم الإمام الصلت أن يدعوا أولا القوم الذين لم ينكثوا العهد ولا يخلطوا بين الفريقين، بل يعاملوا الباقين على العهد بالأمان والوفاء، ثم يختاروا من هؤلاء القوم أرشدهم ويبعثوا منهم رسلا إلى الناكثين مع اثنين أو واحد من أهل الصلاة (أي أهل الإسلام)، لينذروا الناكثين ويدعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوا فذلك يمحو حدثهم وقتلهم المسلمين، وهم إخوة للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ولهم بعد ذلك المنزلة العلا عند الله ويتوبوا ويتوب الله على من تاب، فإن هم أبوا إلا البقاء على دينهم فلهم ذلك ولكن يطالبونهم بالعودة والوفاء بالعهد الذي كان وأن يسلموا السبايا من المسلمات، فإن أجابوا لذلك فعفا الله عما سلف: «ولا يضاروا ولا ينتقم منهم، بل إن طلبوا أجلا للنظر في هذه الأمور فأعطوهم الأجل وحددوا لهم الزمن».

وفي تلك الفترة حذرهم أشد التحذير من الخديعة والظلم والكذب. بل لا بد أن يحترم المسلمون أجلهم ومدتهم، فإن رضي هؤلاء الكفار الناكثون للعهد الذين سفكوا الدماء وسبوا نساء المسلمين وذراريهم بإحدى الحسنيين: الإسلام أو العودة للعهد، فقد أمرهم بقبول ذلك منهم والعفو عما سلف من جرائمهم، وأن يؤمنوا على أموالهم وأنفسهم وذراريهم، ويوفى لهم العهد، وإن أبوا إلا القتال، قد أمرهم بمقاتلتهم والاحتساب والصبر، بعد التيقن والتثبت وعدم الاستعجال والتأكد أنهم مصرون على النكث ونقض العهد.

وقد أمرهم بعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ والذين لا يقاتلون، والزمنى والمرضى والقسس. «وأن لا يقاتلوا موليا إلا أن يقاتلهم، فإن استأسر أخذوه ولم يقتلوه».

وأمرهم بالصبر والمصابرة والثبات عند اللقاء، وذكر لهم في ذلك من آجر آيات الله في كتابه الكريم وما جاء على لسان نبيه ورسوله من أجر المجاهدين والصابرين.

ثم أعلمهم بما يفعلون في الغنيمة مذكرا بقول الله تعالى: ﴿ وَالْمَسُكِينِ اللّهَ عَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَكُ، وَلِلرّسُولِ وَلِذِى اللّهَ رَبّى وَالْمَسَكِينِ وَالْمَسَكِينِ السّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، ونهاهم عن الغلول، وأن تقسم أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلة بالسواء، ويعزل الخمس للإمام (الدولة) وأما السلاح والنساء والذرية ممن ولدوا بعد نقض العهد، فيحملون إلى الإمام ليرى فيهم رأيه. وأما من ولد من هؤلاء الكفار من النساء والذرية قبل نقض العهد فلا سبيل عليهم ولا يحملون إلى الإمام، بل يبقون في بلدتهم:

«وإذا التحمت الحرب بينكم وبينهم، فلا تقتلوا صبيا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا المرأة.. ومن قتلتموه عند المحاربة فلا تمثلوا به، فإن رسول الله على عن المثلة».

وأمرهم بالمحافظة على الصلوات والذكر: «ثم لا تغفلوا عن الحرس في الليل، واجعلوه نوائب بينكم في كل ليلة حول قريتكم، فإنه يقال إن الله يباهي بنفر من عباده من أهل أرضه ملائكته، منهم مقدمة القوم إذا حملوا (أي على العدو) وحاميهم إذا انهزموا، وحارسهم إذا ناموا».

وذكر لهم كيف يؤدون الصلاة في الحضر والسفر وفي الأمان والخوف وعند اشتداد القتال. ووجه القادة إلى منع مجالسة اللهو والخمر والطرب فمن شرب الخمر أقيم عليه الحد إلا من تاب منهم واستغفر فاقبلوا توبته، وأقيلوا عثرته وردوا عليه نفقته ورزقه: «لا يحل لأحد من المسلمين نكاح نساء النصارى من أهل سقطرى، ولا نساء من أهل العهد منهم، ولا نساء

أهل الحرب إلا نساء الذين يقرؤون الإنجيل.. منهم» ذلك لأن من لا يقرأ الإنجيل فقد بعد بهم العهد عن النصرانية وأشبهوا المشركين من غير أهل الكتاب في ذلك، فلذا أخذوا حكمهم: «فلا يحل نكاح نسائهم ولا أكل ذبائحهم ولا طعامهم».

ثم ينهي الإمام الصلت وصيته مرة أخرى بقوله: «لا تختلفوا في آرائكم ولا في سلمكم ولا في حربكم، وليكن رضاكم واحدا وغضبكم واحدا ووليكم واحدا وعدوكم واحدا.. فإني أسال الله أن يهديكم للائتلاف وأن يؤمنكم ويؤمن بكم من المخاوف، فإنه يعيذكم ويعيذ بكم من الارتجاف والاختلاف، وأن يكسيكم كل خلق واف وكل علم كاف وكل عمل صاف»..

وقد تحقق للإمام الصلت ما أراد، فنصر الله وعن شايعهم من نصارى الفئة الباغية الناقضة للعهد من نصارى الحبشة ومن شايعهم من نصارى سقطرى، وعادت راية الإسلام عالية وارتفع ذكر الله من المآذن وحقق الله لعباده الذين اصطفى النصر والعزة والتمكين.. وانتشرت بذلك عدالة السماء في الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا لما رأوه من الأخلاق الربانية التي لم تعهد لبشر من قبل، حيث قابل المسلمون الإساءة بالإحسان والغدر بالوفاء والثبات عند اللقاء، فتم بذلك نصر الله والفتح، وانتشر دين الله في أفاق الأرض»(۱).

هذا ما أورده الدكتور - حفظه الله - من عهد الإمام، وما أتبعه من خواطره وأحاسيسه تجاه هذا العهد، والحق أن هذا العهد يعد تأليفا مستقلا حافلا بأحكام الحرب وما يجب على المسلمين التحلي به من مكارم الأخلاق في مواجهة العدو؛ لتكون أخلاقهم رسل دعوة إلى دينهم الحق

⁽¹⁾ المصدر السابق، $- \Lambda \Lambda - \Lambda \Lambda$

تقنع عدوهم بصحة هذا الدين، وتكشف له محاسنه وفضائله.

وإذا كانت هذه وصية الإمام الصلت بن مالك إلى من عهد إليهم بحرب الكفار الناكثين، الذين ارتكبوا الجرائم، فسفكوا الدماء، واغتصبوا النساء ونهبوا الأموال؛ فما ظنك بوصيته إلى من يوليهم أمر المسلمين، وقد حفظ لنا التاريخ عهده إلى أحد ولاته _ وهو غسان بن جليد _ عندما ولاه بعض البلاد التي كانت تحت نفوذ إمامته، وقد جاء في عهده له ما نصه:

«أني أوصيك بتقوى الله في سرك وجهرك، وأن تكون على أمر الله حدبا وفي مرضاته راغبا، وأن تعمل بالعدل في الرعية، وأن تقسم بينهم بالسوية، وأن تأمر بالمعروف وتحث أهله عليه، وتنهى عن المنكر وترده على من عمل به، وتنزل كل ذي حدث حيث أنزله حدثه، وأن تقيم فيهم كتاب الله وتحيي فيهم سنة نبي الله في وتسير فيهم بسيرة أئمة الهدى في حد الغضب منك والرضا؛ ولا يخرجك غضبك من الحق ولا يدخلك رضاك في الباطل؛ ولا تتعاط من الناس عند قدرتك عليهم ما لم يأذن الله به لك فيهم، ولا تخف في الله لومة لائم.

واجعل الناس عندك في الإنصاف سواء، واحذر أن يستميلك إلى أحد منهم هوى، ولا تركن إلى أهل الجهل والباطل والطمع والغي، فإن الله قد حذر نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنُ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال: ﴿ وَلا تَرْكَنُواْ إِلَى اللَّايِنَ ظَامُواْ فَتُمَسَّكُمُ النّارُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِياآءَ ثُمَّ لا نُصَرُون ﴾ فَتَمَسَّكُمُ النّارُ وَمَا لَكُم جَعَلْنك عَلَى شَرِيعةٍ مِن اللّهِ مِنْ الْأَمْرِ فَاتَبِعْهَا وَلا نَتَبِعْ أَهْواءَ اللّهِ مِنْ اللّهِ مِنْ اللّهِ مِنْ اللّهِ عَنْ اللّهُ عَلَى شَرِيعةٍ مِن اللّهِ مِنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهِ عَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ مِنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مَنْ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللللهُ الللهُ الللهُ الللللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُه

ولا تتخذ من الأصحاب إلا الأمناء، الذين تؤمنهم على ما يغيبون به عنك من أمانتك فيما يرفعونه إليك عن رعيتك؛ فإني قد ائتمنتك على أمانتي ووثقت بك على حمايتي بالقيام بالقسط في رعيتي؛ والمساعدة لي على ما أنا قائم لسبيله من أمر ربي ، وكن كما رجوت فيك وعند ظني بك فإنك عين لي على ما غاب عني، والله شهيد عليك وعليّ وناظر إليك وإليّ؛ وسائلك وسائلني فلست بمغن لك من الله ولا أنت بدافع ولا نافع لي عند الله إلا بحفظ أمانته، ورعاية حقوقه والصدق عليه، فبالله فاكتف ومنه فاستحي وإياه فاتق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... إلخ»(۱).

وهو عهد لا يدل إلا على رسوخ الإيمان ومتانته في نفس من عهد، وعلى عمق خشيته من الله وحسن تعلقه به سبحانه.

٧ _ الإمام سَعِيد بن عَبْدالله بن مُحَمَّد بن مَحْبُوب:

وهو من أسرة قرشية مخزومية عريقة في العلم، بويع بالإمامة في عام ثلاثمائة وعشرين للهجرة، فأحيى السنن وأمات البدع ونصر الحق وأخمد الباطل، وكان حريصا على العدل مع القريب والبعيد والقاصي والداني، لا يتجاوز في نصرته للحق حدود ما أذن به الله، وقد جاء إلى الحكم بعد أن سيطر على عُمان ردحا من الزمن عمال بني العباس، فأساؤوا فيها السيرة وخربوا البلاد وأشاعوا فيها الفساد، فأنقذها الله ببيعة هذا الإمام.

وكان من عدله في خصومه أنه افتتح مركزا كانوا يسيطرون عليه فأدال الله له منهم، وشكا إليه أحد جنودهم أنه فقد حلقة حديدية من باب، فحرص الإمام كَلِيلَهُ على البحث عنها حتى وجدها فردها إلى صاحبها، ولم يستبحها بسبب ما ارتكبوه في الناس من الظلم والعسف، وإنما وسعهم بعدله ووكل

⁽١) تحفة الأعيان، ج١، ص١٨١ - ١٨٢.

جزاءهم على جورهم إلى الله تعالى. (١) وعاقب قوما بالحبس على منكر ارتكبوه فرآهم في الشمس وغضب من ذلك، وقال: أمانتي في الشمس؟! (٢) لأنه يشعر بالمسؤولية أمام الله لو عاقبهم بأكثر مما يستحقون.

٨ _ الإمام رَاشِد بن سَعِيد اليَحْمَديّ:

الذي بويع بالإمامة بين عام ٤٤٢هـ ـ ٥٤٤هـ، فأقام موازين القسط وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ووجه نصائحه إلى عماله كما نصح من وجه إليه خطابه من المسلمين حتى في بلاد الهند، وهذا نموذج من نصائحه لعماله، وجهه إلى أبي المعالي قحطان بن محمد بن أبي القاسم، جاء فيه ما نصه:

«إني أوصيك يا أبا المعالي قحطان بن محمد بن أبي القاسم بطاعة الله وطاعة رسوله والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجره والعمل بما أمرك الله به من أوامره فيما ساءك أو سرك، أو نفعك أو ضرك، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به؛ وتنهى عن المنكر وتقف عن فعله، ولتحذر من خدائع الشيطان ومن يوازره على ذلك من الأعوان، احذرهم ونفسك وهواك، وشهوتك ودنياك، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأُمَّارَةً أَبِاللَّهُوَ اللَّهُ هَونُهُ وَأَضَلُهُ ٱللهُ عَلَى عِلْمِ عَمْوَلُ وَمَنْ مَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْمِ اللهُ عَلَى عَلْمِ وَسَالًا اللهُ عَلَى عَلْمِ وَضَالًا اللهُ عَلَى عَلْمِ وَسَالًا اللهُ عَلَى عَلَمُوا أَنَمَا اللهُ عَلَى عَلْمِ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْمِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ فِشَوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْمِ اللهُ عَلَى عَلَمُ وَاللهُ اللهُ عَلَى عَلْمُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ عَلَى عَلَمُ وَاللهُ اللهُ عَلَى عَلَمُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ عَلَى اللهُ وَلَا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ الله

⁽١) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٦.

⁽٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٨.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَنَمًا ۚ وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضُونَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ اللَّهُ نَيَا إِلَّا مَتَنعُ ٱلْغُرُودِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

واذكر حق الله عليك واشكر نعمته لديك، ولا تذهب بك حمية، ولا تمنعك تقية أن تساوي في الحق بين وضيع الناس وشريفهم، وقويهم وضعيفهم، وبغيضهم وحبيبهم، وبعيدهم وقريبهم، وقد جعلت حماية صحار وما يتصل بها من العفة إلى صلان إليك وعولت فيها عليك، فقم فيما وليتك من ذلك حق القيام، واستفرغ الطاقة منك بالجهد التام، وشمر فيه عن ساق الجد، واحسر معه عن ذراع الشد، من غير أن تتعدى في ذلك محظورا أو تركب فيه منكرا، أو تقترف فيه ظلما، أو تكسب فيه حوبا وإثما، إلا ما تعتمده من منع ظالم في حال عداوته من غير أن تعاقبه بشيء على عصيانه؛ بل ترفعه إلى القاضي بصحار، حتى يحكم عليه بما يلزمه من فعله ويعاقبه بما يستحقه على فعله»(١).

وهو يدل على الدقة المتناهية في إنزال كل شيء منزله، فقد ولى أبا المعالي ما يتعلق بالجانب الإداري والمالي والعسكري، لما رآه فيه من الكفاءة والخبرة والشجاعة، مع اطمئنانه إلى أمانته وثقته، لكن لم يكل الأحكام إليه، فلم يسوغ له أن يعاقب أحدا إلا بحكم من القاضي الشرعي حذرا من الخطأ، إذ لم يكن بمكان من العلوم الشرعية يتمكن به من القضاء بين الناس، وفي هذا ما يدل على أن الجانب السياسي والإداري إنما يخضع للحكم الشرعي، وليس للمسؤول عنه أن يقضى فيه بموجب ما يراه من المصلحة.

٩ _ الإمام عُمَر بن الخَطَّاب الخَرُوصِيّ:

الذي بويع بالإمامة في عام ثمانمائة وخمسة وثمانين للهجرة، اجتمع

⁽۱) المصدر السابق، ج۱، ص۳۱۱ - ۳۱۲.

عليه العلماء والفضلاء، فحمَّلوه تبعة الإمامة من جهاد المعتدين وقطع أيديهم عن الفساد في الأرض وسفك دماء الأبرياء ونهب أموالهم وانتهاك حرماتهم، وهو من ذرية الإمام الصلت بن مالك الخروصي الذي بويع بالإمامة في القرن الثالث الهجري.

وكانت بلاد عُمان قبله ترزح تحت نير الجور؛ إذ تسلط عليها الجبابرة من بني نبهان الذين علوا في الأرض وأشاعوا فيها الفساد واستباحوا دماء الأبرياء وأموالهم، فلما بويع هذا الإمام كان أول إجراء اتخذه هو جهاد الجبابرة واسترداد الحقوق المسلوبة من أيديهم ومصادرة ما بأيديهم من أموال؛ لأن مظالمهم استغرقت كل ما تحت أيديهم، وكان هذا عن رأي علماء عصره الذين حكموا بهذا الحكم وحملوا الإمام مسؤولية تنفيذه، على أن يرد كل مال مغصوب إلى صاحبه عندما يكون معروفا، وإن لم يعرف صرف في مصالح المسلمين، وكتبوا في ذلك وثيقة قضاء حررها الشيخ على بن محمد بن علي بن عبد الباقي وأمضاها غيره من العلماء (۱).

وهو بهذا ناهج نهج عمر بن الخطاب والنه الذي رد ما أخذ من الأموال بغير حق إلى بيت مال المسلمين، فكان له شرف التشبه بالفاروق في اسمه وفعله، وفي هذا يقول الإمام السالمي كَاللَّهُ:

وفي بنى اليحمد من أسد الشرى كذا أبوه يدعى بالخطاب من نسل شاذان وذاك العلم فقد قضى على بني نبهانا قضى بأن مالهم لمن ظلم

إمام صدق كان يدعى عمرا مساميا لعمر الصحابي دوخ أهل الظلم حين ظلموا جبابرا كانوا على عمانا من العُمانيين لكن ما علم

⁽۱) المصدر السابق، ج۱، ص۳۷۹.

فجعلوا ذلك بيت مال وكان ذا يعرف بالتغريق شابهه في الاسم والتصلب

لجهلهم بمالك الأموال ما أشبه الفاروق بالفاروق على أولي الظلم فلا تستعجب(١)

١٠ ـ الإمَام نَاصِر بن مُرْشِد:

الذي بويع بالإمامة في عام ألف وأربعة وثلاثين للهجرة وهو ابن عشرين عاما، وكانت بيعته في وقت عصيب إذ توزعت ولايات عُمان إلى إمارات، على رأسها جبابرة لا يرعون حقا لله ولا حرمة لعباده، وكان من بين هؤلاء أسرة الإمام التي تحكم الرستاق، فبدأ أولا بتحرير الرستاق من قبضة عمه الذي كان أحد الجبابرة، ثم والى الفتوحات التي شملت أنحاء عُمان حتى امتدت إلى الساحل الذي كان واقعا تحت السيطرة الحديدية للدولة البرتغالية التي كانت سيدة البحار، وكانت كالإعصار المدمر تأتي على كل شيء حيثما نزلت، وقد انتزع الله الرحمة من قلوب أهلها، فما كانوا يرقون لأحد ولا يبقون على شيء، إذ كل همهم أن يَدَعوا الناس يعانون أقصى ما يتصور من الشر والدمار، ويكابدون أقسى ما ينزل عليهم من قبلهم من قبلهم من قبلهم من قبلهم من وإبادة.

وقد شرع هذا الإمام في الهجوم عليهم، وبعدما كانوا يتصورون أنهم قوة لا تقهر وقضاء لا يرد؛ شعروا أمام زحف جند الحق أنهم في مواجهة مع قدر إلهي لا صاد له ولا راد، فأرجفت الأرض تحت أقدامهم وأوجفت منهم قلوب كانت أثبت من الراسيات وأقسى من جلاميدها الصلدة، فلم يجدوا إلا أن يطلبوا من الإمام - ممثلا في قائده العالم التقي الشيخ مسعود بن رمضان - أن يصالحهم على ما تبقى في أيديهم من القلاع، بعدما

⁽۱) جوهر النظام، ج۲ ص ۳٥٨.

انتزع من قبضتهم أكثرها فغادرها قاعا صفصف، فوافقهم على الصلح إلى أمد، واشترط عليهم فك ما بأيديهم من أموال المسلمين، وكان من بينها أموال الشيعة (١) بصحار.

وفي هذا أكثر من درس للأمة، فهو يدل:

أولاً: على أن هذه المدرسة ترعى حقوق جميع الأمة، ولا تميز في ذلك بين مدارسها المختلفة، فمهما كان من اختلاف في الفكر والاعتقاد أو في الفقه والاجتهاد بين أبناء هذه المدارس، فإن الهم يجب أن يكون واحدا، وأن لا يقسمهم ذلك إلى طوائف عزين، تسعى كل طائفة إلى دمار الأخرى.

ثانياً: أن الانتصاف يجب أن يكون من الظالم لكل مظلوم، وأن ينال كل مظلوم حقه غير مبخوس، فإن العدل واجب مقدس يرعاه الذين يخشون الله ويتقونه، وكل الناس في موازينه سواء.

ثالثاً: أن المحافظة على نسيج المجتمع _ كيف ما كان متنوعا _ ضرورة اجتماعية لتماسك هذا النسيج وتكامله وشد بعضه أزر بعض.

وقد شاء الله تعالى أن تكون هذه بداية لدحر قوى الكفر _ في ذلك العهد _ وزعزعة معاقله وهشم يافوخه الطافح بالغرور، ثم توالت بعد ذلك الفتوحات العظيمة على أيدي خلفاء هذا الإمام من الأئمة العظام، الذين لم يقفوا دون أن يغزوا البرتغاليين الجبابرة المتكبرين في معاقلهم، التي كانت قواعد انطلاقهم لغزو الشعوب وتدمير الأمم، إذ لم يأل هؤلاء الأئمة جهدا في جهادهم بكلمة الله حتى أنزلوهم من صياصيهم أذلة، وأخرجوهم من مستعمراتهم في شواطئ أرض الهند والشرق الإفريقي، فذاقت الشعوب المنكوبة بهم طعم العدل، وتفيأت ظلال الكرامة، ورفرفت على رؤوسها رايات العز.

⁽١) تحفة الأعيان، ج٢، ص١٠.

وللإمام ناصر بن مرشد والله عهود حررها إلى ولاته الذين حملهم تبعة القيام بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنصاف المظلومين والانتصاف من الظالمين، وبسط العدل والإحسان في الأرجاء التي ولاهم فيها وائتمنهم عليها، وعهوده جميعا تدور حول هذا المحور، فهي وإن اختلفت ألفاظها تتحد معانيها، لذلك نقتصر على نموذج منها يدل على سائرها، فها هو ذا عهده للشيخ أبي سعيد صالح بن سعيد المعمري الذي ولاه شرقية عُمان من إبرا إلى صور، فقد كتب إليه ما نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذي أوضح شهاب الحق بالبراهين المنيرة والدلائل المستنيرة، ودمر دعوة المظالم بالآيات الواضحة والحجج الباهرة اللائحة، وأعز دولة نبيه بالأنوار الساطعة والأسنة القاطعة، أحمده على ما أضاء نور ديننا بأفق كتابه وبين لنا غرائب مشتبهاته من معاني كلامه وخطابه، وأشكره شكر من أناب وخضع وسجد وركع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ثابتة بالجنان مكررة باللسان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله إلى كافة الثقلين وطهره من الدرن والشين، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار الأتقياء الأخيار ما غرد عندليب على غصون الأشجار وأناب منيب بغياهب الأسحار.

أما بعد: فهذا ما يقول المعتصم بالله المتوكل عليه إمام المسلمين ناصر بن مرشد بن مالك إلى الشيخ الوالي أبي سعيد صالح بن سعيد المعمري وَهُلَيْهُ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأوصيك ونفسي وجميع المسلمين بتقوى الله واللزوم على طاعته، فأقول لك يا أبا سعيد إني قد وليتك على بلدة صور وإبرا وما اشتمل عليهما من الأماكن والقرى، على أن تظهر دين الله على في هذه البلدان والقرى وتحيى سنة نبيه

محمد على حتى تأخذ من الظالم للمظلوم حقه، وتوفي من مال الله لكل فقير نصيبه ورزقه، وتأمر من بهذه القرى والبلدان، حضرهم وبدوهم؛ بالمعروف والإحسان وتنهاهم عن الفجور والبهتان، وتعلمهم أن من ظلم أحدا مثقال ذرة أو أقل منها أو أكثر فاقتد في عقابه بآثار الأئمة الفضلاء الذين جعلهم الله ورثة الأنبياء، يقودون الناس إلى الخيرات وأفضل منازل الدرجات ﴿ أُولَيَهِكَ اللَّهِ مَدَى اللَّهُ فَبِهُ دَعْهُمُ اللَّهُ مَا الله عنه الله المنازل الدرجات ﴿ أُولَيْكَ اللَّهُ الله عنه عنه الله عنه عنه الله عنه اله عنه الله عنه عنه

وأن توالي في الله وتعادي في الله ولا تأخذك بهما رأفة في دين الله، ولا تخف لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ وعلى أن تجتهد في إصلاح أهل ولايتك، وإصلاح دينهم، وعمارة مساجدهم، والرأفة بهم، والتجاوز عن مسيئهم، وحسن السياسة لأمورهم، والصبر في نفسك على أذاهم ما وسعك من ذلك.

وإياك يا أبا سعيد والعجلة في أمورك، وكن حذرا وقورا صابرا شاكرا على العطاء، ساترا عيوب من أخطأ غافرا زلة من عشر رءوفا بمن أناب واستغفر قابلا لمن رجع إليك واعتذر، مدمدما على من أصر واستكبر، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، هينا لينا لمن آخيته من جميع الشراة، لا بفظ ولا غليظ، واصبر وما صبرك إلا بالله وتوكل على الله حق التوكل واجتهد في ذلك ولا تكن من الغافلين.

وأوصيك يا أبا سعيد أن تختص من خيار إخوانك أن يسيروا في البلاد ويردوا الظلم عن العباد، ويصرفوا عنهم المناكر والفساد ويسوسوهم إلى الصلاح والرشاد، ويقبضوا الزكاة من أغنيائهم ويعطوها فقراءهم فيواسوهم من مال الله بما يسد جوعهم ويستر عورتهم؛ ولا تدعهم يتكففون إليك حزنين باكين، وابعث إلى كل بلدة وقرية ثقة أمينا ورعا يتحسس عن المكثر والمقل، ليأخذ من المكثر زكاة الله ويواسي منها المقل، لأن كثيرا من

الأغنياء لم ينصف من نفسه في أداء الزكاة، وكثيرا من الفقراء لم تحمله نفسه ليجيء إليك.

فاجتهد يا أبا سعيد في الأخذ من هذا والعطاء لهذا؛ فإن لهم علينا حقا واجبا أوجبه الله وَ كَابِ في كتاب لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَتُ لِلَّفُ قَرَآءِ وَٱلْمَسَكِينِ وَالْمَعْلِينَ عَلَيْمًا وَٱلْمُؤلَّفَةِ فُلُومُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْمَعْدِمِينَ وَفِ سَبِيلِ ٱللّهِ وَٱلْنِ وَٱلْمَعْلِينَ عَلَيْمً وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْمَعْدِمِينَ وَفِ سَبِيلِ ٱللّهِ وَٱللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠]، فإذا أردت السبيلِ فَريضَةً مِّن ٱللّهُ عَلِيمُ حَكِيمُ ﴿ [التوبة: ٢٠]، فإذا أمانتك المسير إلى بلدة صور من قرية إبرا، فاترك في قرية إبرا من يحفظ أمانتك ويخاف الله حق الخوف من ذات نفسه، وأنت لا تجاوز بلدة ولا غبرة ولا مزرعا ولا عجوزا في عنة ولا بدويا بغار إلا وأخذت من الظالم للمظلوم وواسيتهم من مال الله ما وسعك من ذلك؛ فإن مات أحد جوعا أو مظلوما فهو في رقبتك دون رقبتي وأنت المأخوذ به دوني.

فإني أعزني الله بالإسلام، ونيتي أنني لو قدرت أن أملاً الأرض عدلا وصلاحا، وإرادتي أن أدمر كل ظالم وأشتت كل جماعة اجتمعوا على المناكر والفجور، والخوض في أفاحش الأمور؛ فإنه لا أثرة عندي لظالم ولا حيف لمسلم، وقد جعلت لك أن تتصرف في جميع أمور المسلمين ما يجوز لي أن أتصرف فيسه، فإن خالفت إلى غير ذلك فأنا ومال المسلمين بريئان منك وأنت الرهين به؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ والحمد لله حق حمده، والصلاة على خير خلقه محمد هم ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم»(۱).

وهو عهد غني عن التعليق والشرح، فعباراته تكشف طواياه وتزيح الستار عن محتوياته، وهو مبني على تقوى الله يلزم بها الإمام واليه كما التزمها، مع

⁽١) المرجع السابق، ج٢، ص٣٢ - ٣٥.

رعاية حقوق الله تعالى وحقوق عباده في حملهم على طاعته وكفكفتهم عن معصيته، والإنصاف بين قويهم وضعيفهم ورد مبطلهم إلى الحق، وإنصاف مظلومهم بالعدل وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعهد ضعفائهم بإيتائهم ما لهم من حقوق في بيت مال المسلمين وفي أموال أغنيائهم، والاستهداء في كل أمر بكتاب الله المبين وسنة نبيه الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم، واتباع سيرة السلف الصالح، مع التذكير بالله واليوم الآخر، والتحذير من التفريط فيما أمر الله به أو الاجتراء على ما نهى عنه.

وبالجملة؛ فهو عهد يجسد ما يعتمل بين حنايا قلب عاهده من خوف الله ورجائه، والرغبة في نصرة دينه وإصلاح عباده وإحقاق كل حق وإزهاق كل باطل، لم يكن هم عاهده الجبايات التي تساق بالباطل إلى قصور المتسلطين الغارقين في شهواتهم إلى الأذقان، وإنما همه أن يلقى الله سبحانه خفيف الظهر من الأوزار، مبيضة صحيفته بالبر والتقوى، وأن يعيش حياته مرهقا لنفسه لأجل راحة غيره، يجوع ليشبعوا، ويعرى ليكتسوا، وينصب ليطمئنوا، ويخاف ليأمنوا، وهكذا كان شأن الأئمة البررة ممن سبقه أو جاء بعده، سواء من ذكرنا منهم ومن لم نذكر.

11 ـ الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي.

بويع بالإمامة في عام ألف ومائتين وخمسة وثمانين، وكان عمره خمسة وعشرين عاما، وقد بايعه أهل الحل والعقد، وتولى صياغة البيعة شيخ المسلمين وقدوتهم في الدين الإمام المحقق سعيد ابن خلفان الخليلي وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم: قد بايعناك على طاعة الله ورسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ ونصبناك إماما علينا وعلى الناس

على سبيل الدفاع وعلى شرط أن لا تعقد راية؛ ولا تنفذ حكما ولا تقضي أمرا إلا برأي المسلمين ومشورتهم؛ وقد بايعناك على إنفاذ أحكام الله تعالى، وإقامة حدوده، وقبض الجبايات وإقامة الجمعات ونصرة المظلوم؛ وإغاثة الملهوف وأن لا تأخذك في الله لومة لائم، وأن تجعل القوي ضعيفاً حتى تأخذ منه حق الله، والعزيز ذليلا حتى تنفذ فيه حكم الله، وأن تمضي على سبيل الحق، وأن تفني روحك فيه؛ وأن تعطينا على ذلك عهد الله، وميثاقه لنا، ولجميع المسلمين»(١).

ويعلق الدكتور غباش على هذا النص في البيعة بقوله: «ومهما يكن من أمر فمن المهم أن نشير إلى أن شروط هذه البيعة لا تقلل من موقع الإمام بل على العكس تعززه، كما تعزز نظام الإمامة ذاته، لأن الرجوع إلى مجلس الشورى ضمانة أساسية للمشاركة في الحكم ولتطبيق مبدأ الإجماع، وجملة الممارسة هذه هي التي يقوم عليها التقليد الديمقراطي العُماني، وهي التي تمنحه قيمته»(٢).

ويضيف إلى ذلك قوله: «كان مجلس الشورى مؤلف من قادة الثورة، وكانت السلطة الاستشارية والتنفيذية العليا مركزة في هذا المجلس، وكان إلى جانب الإمام رئيس الحكومة وقائد الجيش والمسؤول عن بيت المال، ثلاث شخصيات تاريخية، الأولى شخصية سعيد بن خلفان الخليلي الذي كان مرشد الثورة ومنظمها ومرجعها التشريعي والقانوني ورئيس القضاة، بل السلطة الأخلاقية العليا وأبا للثورة، فضلا عن قيامه بمنصب حاكم العاصمة مسقط.

⁽١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٦٠.

⁽٢) عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث، ص٢١٩ - ٢٢٠.

كان الخليلي على غرار أسلافه، يسعى منذ شبابه إلى بناء إمامة مماثلة لإمامة الجلندى ابن مسعود أو لإمامتي الصلت بن مالك وناصر بن مرشد في القرن السابع عشر.

تمثلت الشخصية الثانية بصالح بن علي الحارثي، قائد قبيلة الحرث، وصالح هذا من تلامذة الشيخ الخليلي، وقد انخرط في الثورة منذ بدايتها، كان عضوا في حكومة عزان، ولكن تأثيره على القرار السياسي كان محدودا نسبيا.

أما الشخصية الثالثة فالعالم محمد بن سليّم الغاربي وهو عضو نافذ في قبيلة آل سعد المقيمة على ساحل الباطنة.

كان لآخرين سوى هؤلاء أدوار لا يستهان بها في الحكومة، كإبراهيم بن قيس شقيق الإمام، وهو شخصية عسكرية بارزة، وهلال بن سعيد البوسعيدي، ولكن الأمر الأهم هو أن المحرك الأساسي لهذه المجموعة كان المثل الإباضي للدولة الإسلامية، وهذا ما جعل القوة الأخلاقية لهذه الشخصيات القليلة وإيمانها وتضامنها يطبع النظام الجديد بطابع نادر»(۱).

وقد وفى الإمام رضي الله تعالى عنه بنصوص هذه البيعة، إذ أسلس قياده لعلماء الأمة وصدق في عهده، فلم يدَّخر وسعا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله على من تجب عليه، وبسط شرعه بين عباده وإنفاذ حكمه على القوي والضعيف والقاصي والداني، فلم يحاب قريبا لقرابته ولم يقص بعيدا لأجل بعده، وشمر عن ساعديه، فاتصل كلاله بكلاله وليله بنهاره في الجهد والجهاد والجد والاجتهاد، فأمن البلاد بعد خوفها وحررها من ربقة الظالمين وبطش المستبدين، وكان الربان الماهر

⁽١) المصدر السابق، ص٢٢٠ - ٢٢١.

والقائد الأمين لسفينة المسلمين بين أمواج الأحداث العاتية، حتى لقي ربه شهيدا وعمره لم يتجاوز سبعة وعشرين عاما.

وكان في جميع حركات وغزواته يحرص على ضبط جنده بضوابط الشرع وكف أيديهم عن إيذاء أي أحد لا علاقة له بهذا الأمر، سواء كان من المواطنين أو من الغرباء المقيمين بينهم، يقول الدكتور غباش: «يبقى أن قوات الثوار أظهرت على الرغم من مركباتها القبلية انضباطا مدهشا، فهجومها الأخير على مطرح ومسقط لم يسبب أي ضرر أو ضحية بين السكان العُمانيين أو الأقليات الهندية، ويذكر السالمي أن عزان بن قيس أعطى في خطابه أمام الجيش قبل الهجوم النهائي أوامر مشددة للجنود ومنعهم أن يمسوا أموال السكان وأملاكهم»(۱).

ومما يذكر من الانضباط العجيب في جيشه أنه خرج في بعض غزواته إلى أرض الجو مرورا بصحار، فبات بفلج القبائل وقال في بلدة العوهي، وهي مشهورة بجودة فاكهة الأمبا (المانجو) حتى أن العُمانيين يضربونها مثلا في الجودة وحسن الطعم، وحال قيلولتهم بها تساقطت هذه الفاكهة بكثرة على فرشهم، فما مد أحد منهم يده ليأخذ شيئا منها، وإنما خلفوها وراءهم عندما أخذوا فرشهم حال ذهابهم، ما عدا رجلا واحدا أخذ حبة واحدة فأكلها، فأوسعه الإمام رَهِي تقريعا وتوبيخا، وإنما كف عنه العقاب لأنه لم يقطفها من الشجرة وإنما أخذها ساقطة على الأرض(٢)، وما هذا الانضباط إلا دليل الورع في هذا الجيش، وهو من أقوى الأدلة على استقامة قائده وزهده في الدنيا ومراقبته لله تعالى في إقدامه وإحجامه وفعله استقامة قائده وزهده في الدنيا ومراقبته لله تعالى في إقدامه وإحجامه وفعله

⁽۱) المصدر السابق، ص۲۱۸.

⁽٢) تحفة الأعيان، ج٢، ص٢٧٢.

وتركه، كما قال علي _ كرم الله وجهه _ لعمر الله عففت الرعية (١٠)، ولو رتعت لرتعوا»(٢).

١٢ ـ الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصي:

بويع بالإمامة في عام ١٣٣١هـ وعمره المبارك لم يتجاوز العقد الثالث، ولم يكن قبل مبايعته يشار إليه بالبنان أو معنيا بطموح إلى قيادة أو منصب، وإنما كان من هذه الناحية رجلا عاديا، ولكن كانت ميزته بما يتأجج بين جوانحه من الغيرة على حرمات الله وشدة الخوف من التقصير في جنبه، وكان وقته موزعا بين العناية بطلب العلم والقيام بالعبادات، إذ عرف منذ طفولته البريئة بحب العبادة والاجتهاد فيها والاحتراز في المعاملات من كل الشبهات، وقد صدق واصفه بقوله:

يطوي عزائم بالتقوى وينشرها أصاره علمه بالله محض هدى لم يترك العلم منه موضعا كدرا ما زال تمحصه التقوى ويمحصها حتى تمحض نورا لا يكدره

كأنهن لخصم الله نيران وغير بدع هدى يذكيه عرفان يمثل الشمس منه الذات والشان فسره ملك والشخص إنسان خير وشر وأغيار وأغيان (٣)

وقد اختاره أهل العلم والفضل لتحمل هذا المنصب، وعلى رأسهم

⁽۱) تاريخ الطبري، ج٢، ص٤٦٦، فضائل الصحابة للدارقطني، ص٢٠، الحجة في بيان المحجة، ج٢، ص٣٨٥، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٦٣، البداية والنهاية، ج٧، ص٣٨، مختصر تاريخ دمشق، ج٢، ص٣٩، والإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، (ت: ٣٤٤هـ)، ج٤، ص٢٧٥، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين على.

⁽٢) شرح نهج البلاغة، ج١٢، ص١٠، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٢٨، ص٢٦٨.

⁽٣) ديوان أبي مسلم، ناصر بن سالم بن عديم الرواحي، ص ٣٠٥، دار المختار، ١٩٨٦م.

الإمام المجدد علامة المعقول والمنقول نور الدين عبدالله بن حميد السالمي هيه، وكان اختياره له بعدما خبر حقيقته واستشف سريرته، لأنه تربى في بيته وتغذى بمعارفه وتكيف وفق منهجه، وقد جرب فيه صلابة إرادته وعفة جيبه وزهده في الدنيا وتعلقه بالله والدار الآخرة، ولم يكن بحال يتطلع إلى قيادة يتبوأها أو منصب يتبجح به، لأن الدنيا كلها لا تساوي في عينه شيئاً.

لذلك عندما وقع عليه الاختيار ونودي باسمه في الحضور خرَّ صريعا على الأرض، لهول الأمر الذي سيكلفه وثقل المسؤولية التي سيطوقها، وقد اعتذر بكل المعاذير فلم تقبل منه للإجماع عليه، حتى آذنوه بقتله إن لم يتقبل، لأن رفضه تشتيت للكلمة بعدما اجتمعت، وتفريق للشمل بعدما توحد، كما أوصى الفاروق في أمر الستة الذين أوصى إليهم أن يختاروا الخليفة من بعده، وقد سل الحسام في وجهه فلم يثنه ذلك عن موقفه، حتى تبين له أنه إن قتل سيكون في براءة المسلمين، فهاله ذلك، وتحملها كارها وهو يسفح دموعه على خديه. (۱) ولسان حال القدر السعيد يناديه:

يا (سالم) الدين والدنيا ابن راشد خذ أنت الضليع بها حملا وتأدية احدر وأصعد وأيقن أن صاحبها يسوسها مؤمن بالله معتصم للاستقامة في تقديره قبس

أمانة الله والأقدار أعوان إذ كل أمرك تدبير وإتقان سيف من الله لا تحويه أجفان وخير ما دبر الأملاك إيمان فظنه تحت نور الله إيقان(٢)

وقد كان في رضاه وسخطه ومكرهه ومنشطه وسلمه وحربه مثالا

⁽١) ينظر: ابن حميد السالمي، نهضة الأعيان بحرية عُمان، ص١٢٤، دار الجيل، بيروت.

⁽٢) ديوان أبي مسلم، ص ٣٠٦.

لتحقيق العدالة والحرص عليها، بلا تمييز بين بعيد وقريب وبغيض وحبيب.

حدثني أحد جلسائه ورجال دولته أنه كان بسمائل، وقد نزل بها تاجر من الشيعة الإمامية ـ وكان الوحيد من بين سكان سمائل على المذهب الشيعي ـ وأخذ يمارس التجارة في سوقها، فاقتحم متجره بعض اللصوص وسرقوا بعض المتاع، فحضر إلى الإمام شاكيا بحضور شيخ المسلمين العلامة المحقق نور الدين السالمي وحضور والي سمائل آنذاك السيد الفاضل الغيور سعود بن حمد البوسعيدي، فتحركوا جميعا وأولوا قضيته كل اهتمامهم إلى أن توصلوا إلى المجرم، فشدوا عليه حتى رد إلى الشيعي كل ما سرق منه واستوفى حقه غير مبخوس، وأنزلوا بالسارق العقاب الشرعي (۱).

وكفى بهذه القصة وأمثالها شاهدا على أن هذه المدرسة التي ينتمي إليها هؤلاء القادة هي فذة في مراعاة حقوق الله وحقوق عباده، وإنصاف أي مظلوم من أي ظالم، من غير التفات إلى الفكر الذي يعتنقه والنهج الذي يتبعه، وإنما المعيار هو ميزان القسط، فكل ضعيف عندهم قوي حتى يؤخذ الحق له وكل قوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه.

وكان _ أيضا _ مثالا للثقة بالله ووعده والتوكل عليه في العسر واليسر واليسر والخوف والأمن، ناهيك بجوابه لممثل الدولة البريطانية _ الميجر ناكس _ الذي تلقى منه تهديدا باسمها _ وكانت بريطانيا في ذلك الوقت سيدة البحار ومالكة القرار بلا منازع _ فكان من جوابه له: «وأنتم معشر هذه الدولة يجب عليكم أن تكفوا عن أمر المسلمين، ويلزمكم أن لا تعتدوا علينا ومن اعتدى علينا فالله يعيننا عليه، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن

⁽١) قصة سمعها المؤلف أكثر من مرة من الشيخ أبي بشير محمد ابن نور الدين السالمي.

الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا، وإن ينصركم الله فلا غالب لكم»(١)، وقد صدر جوابه بقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَاطِلُ كَانَ وَقَد صدر جوابه بقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَاطِلُ كَانَ وَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨].

١٣ ـ الإمام مُحَمَّد بن عَبْدِالله بن سعيد الخَليليّ:

الذي بويع بالإمامة بعد استشهاد الإمام سالم بن راشد والله في عام ١٣٣٨هـ، فبقي في الإمامة أكثر من ثلث قرن من الزمن، لا يدخر وسعا في الإصلاح ورتق الفتق، وتأليف القلوب ونشر العدل، وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين.

وكان على قدر من الثراء لأن آباءه كانوا من الأثرياء، فانتقل إليه بالإرث من تركتهم ما كان يعد به من كبار أثرياء عصره في مصره، فسخر ثروته كلها في مصالح الأمة، وأخذ يقتطع منها في كل نائبة تنزل بها ما يقدمه بين يديه يقرضه الله قرضا حسنا، وعندما نقله الله إليه ما كان يملك من ثروة الدنيا شيئا، وإنما كانت نظرته إلى الدار الآخرة، وقد اجتمع فيه من غزارة العلم وحصافة الرأي وحسن التدبير بجانب الورع والتقوى ما فاق به أقرانه.

يقول المؤرخ الأمين الشيخ أبو بشير السالمي: «في ضحى يوم الثالث عشر والجمعة من شهر ذي القعدة من سنة ١٣٣٨ ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف، اجتمع العلماء والأعيان وأرباب الحل والعقد بجامع نزوى، وأجمعوا على مبايعة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي لعلمهم أنه أفضل الموجودين اليوم بعُمان وأعلمهم، وأنه جمع الشروط الشرعية التي تتوافر في القائد، وأنه القادر _ بإذن الله _ على عبء ما سيتحمله، وذلك بعدما امتنع من القبول لأمرهم وإصرارهم على إلزامه، ولم يأخذوا عليه تعهدا ولا شروطا

⁽١) نهضة الأعيان، ص١٧٧.

كما كانت تؤخل على الإمام الضعيف، إذ كان يحظى رَخْلَتُهُ بالثقة المطلقة قبل انتخابه، مأمون الجانب على تقاليد الإمامة، وكان أعلم الجماعة الذين معه بل أعلم من العاقدين عليه»(١).

وقد كانت بيعته لما للشمل ورأبا للصدع، فقد كاد الزمام ينفلت والبنيان يتصدع، والخطى تتعثر، وإنما كان تدارك الموقف بتقليد هذه المسؤولية في عنقه وتتويج هامته بها، وكأنما لسان حال الدهر كان يناديه:

> محمد ما كنت الضليع بشأنها دعيت إليها بعد ما جد جدها فقمت لها مستحقب الصبر صامداً وأعملت أنضاء القوى في سبيلها وشيدت مبناها وحطت كيانها وأنفقت فيها النفس لله جاهدا وجمعت شمل المسلمين بسوحها

لتهنأ بها بل كي تكون لها الوقا وكادت عصا الإسلام أن تتشققا إلى الله فيها بالتقى متخلقا سرى فحمدت الحال صبحك مشرقا وأسقيت مغناها فطاب وأورقا فلله من أضحى وللنفس منفقا وكنت لشمل المال فيهم مفرقا»(٢)

وكانت أعماله وأقواله ترجمة حية لثقته بالله وتعويله عليه دون الناس، وإنما كان يحرص على محاسبة النفس ومجاهدتها حتى تستقيم على صراط الله، فكان مما كتبه إلى بعض إخوانه: «أخوف ما نخافه شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ولا يضرنا كيد من كاد، ولا اعتمدنا على بشر، فنحن نعلم ضعفنا وضعف هؤلاء»^(٣).

⁽١) المصدر السابق، ص١٠٠.

⁽٢) من قصيدة لابن أخيه الشاعر الكبير الشيخ عبد الله بن على الخليلي يرثيه بها، ينظر: ديوانه وحى العبقرية، ص ٤٤٣، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

⁽٣) الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، جمع وترتيب سالم بن حمد الحارثي، ص٢، طبع بإشراف عز الدين التنوخي، مجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، الطبعة العمومية بدمشق.

وكتب أيضا: «والعدو لا نستحقره من قلة، ولا نستعظمه من كثرة، إنما النظر إلى نصرة الدين وإغاثة الملهوفين وتقويم الحائدين، والله نسأله العون والتمكين وهو حسبنا ونعم الوكيل»(١).

وكتب نصيحة إلى إحدى العشائر، جاء فيها: «بلغني تفرقكم، وتلك عقوبة البغي وهي أول العقوبات، فالمراد أن تراجعوا دينكم وتتراجعوا، وتؤدوا الحقوق فيما بينكم وفيما بينكم وبين الخصم، وتتوبوا إلى الله من خيانة العهود، وكونوا يدا واحدة على الحق _ إلى أن قال _ ونحن إن شاء الله لا نجد بدا عن مناصرة الدين، والله را نستمده النصر والتأييد والتوفيق والتسديد، وهو حسبنا ونعم الوكيل»(٢).

وكتب لهم أيضا: «أرى أن بغيكم قد تناهى، وكل أمر ينتهي يرجع، ولا يهمنا أمر البغاة ولا نستعظم شأنهم، فإن على الباغي تدور الدوائر، هذا ونسأل الله أن نكون ممن ينصره، والله ناصر من ينصره لا محالة، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٣).

وكتب لعشيرة أخرى: «ونعلم يقينا أن كثيرا من الناس لا يحبون ذلك، وليس من يكره الحق يعطى سؤله، نحن علينا مناصرة الحق ولا نصرنا الله إن لم ننصر الحق، والله لم يضيع المسلمين في موطن، نصرهم في مواطن على ضعفهم، فنحن على يقين أن الله ينصر من ينصره، وما النصر إلا من عند الله، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وإن جندنا لهم الغالبون، اللهم اجعلنا من

⁽١) المصدر السابق، ص١٤.

⁽٢) المصدر السابق، ص١٢ - ١٣.

⁽٣) المصدر السابق، ص١٣.

جندك الموقنين بوعدك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١).

وقد كان وقل مثالا في سعة الصدر واحتمال الأذى من رعيته، لذلك كان يوصي بهذا ولاته وعماله، فقد كتب إلى أحد ولاته: «اعلم أن من دخل في أمر لا بد من أن يتحمل، والناس سيقولون ويقدحون، ولو كان المرء كالقدح المقوم لقال الناس فيه وفيه، وبشدة القلب تتلقى الكلمة العوراء ويصفح عن قائلها، فلا تكن ضيق القلب»(٢).

وحدثني جماعة من معاصريه أنه باع بعيرا له لبدوي ليسد بثمنه بعض حاجات المسلمين، وذهب البدوي لإحضار الثمن فأطال الغيبة - وكان الإمام في شيخوخته، وقد تزاحمت عليه هموم النفس وكثرة الأشغال - فباع البعير لمشتر آخر، لأنه نسي بيعته السابقة، وبعد برهة من الزمن حضر البعير فأغلظ القول على الإمام وحاول بعض من حوله أن يسكته، فقال الإمام: دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، وتركه حتى أفرغ كنانته وسكنت جائشته، فقال له: إني ما بعت البعير لأغمطك حقك، وإنما بعته وقد عزب عن ذهني ما كان بيني وبينك، والخيار في هذا الأمر راجع إليك، فإن شئت الصلح بيني وبينك، فأنا على استعداد أن أرضيك وإن شئت أن تقاضيني فما علي حرج أن أدين بكل ما يقضى به لك علي، فجنح البدوي إلى مقاضاته، فرفع قضيته إلى أحد القضاة، فما كان من الإمام إلا أن وقف بجانب البدوي موقف الخصم أمام القاضي، فلما رأى خصمه ذلك نزل عن دعواه، فأكرمه الإمام بما سر خاطره وذهب بما في نفسه.

⁽١) المصدر السابق، ص١٨.

⁽٢) المصدر السابق، ص١٩.

وهو موقف يدل على هضم النفس وإنصاف الخصم والدينونة بالحق، ومما اشتهر عنه أنه كان في بعض أسفاره وحوله عدد من الناس كل على راحلته، فرأى بين الركب فقيرا عليه ثياب رثة يمشي على قدميه ولم يعرض عليه أحد الركوب على راحلته، فما كان من الإمام إلا أن نزل عن راحلته ودعا ذلك الفقير ليركب عليها، وهناك بادر الركب كل يعرض راحلته ليركب عليها الفقير، فأبى الإمام إلا أن يركب على راحلته ويغبر الإمام قدميه بالمشي.

وكان مع كثرة صيامه معتادا تأخير طعام عشائه حتى يطمئن إلى الكل أنه أتاه رزقه، فإن وجد من لم يصب عشاءً آثره برزقه، واكتفى بالتمر والماء أو مع السمك المجفف، كما قال راثيه:

تناول فيهم بلغة القوت راضيا بميسوره إذ كان في الله أخلقا تبيت خميص البطن زهدا وتتقي برزقك بطن الدهر أن يتعمقا^(۱).

وبجانب هذه الدماثة في الأخلاق واللين في المعاملة، فقد كان شديدا على كل من خالف الحق من قريب أو بعيد.

ومن ذلك أنه أغلظ القول في بعض رسائله على عشيرة كانت لها سابقة في نصرة الدولة، ولكن عزم على الانتصاف منها لأنها حادت عن نهج الحق، فكان مما كتبه في حقها _ بعد الدعوة إلى القيام عليها _ : «ولا قريب ولا بعيد ولا بغيض ولا حبيب، إلا الاستقامة أو عدمها»(٢).

وقد أجمل القول في وصفه راثيه حيث قال:

تخلقت بالخلق العظيم تأسيا بأحمد لما شئت أن تتخلقا

⁽١) وحى العبقرية، ص٤٤٣.

⁽٢) فتح الجليل، ص٤٦.

إذا أغلقت أبواب كسرى وقيصر وإن ساد بالسلطان والعنف معشر حلمت فلم تترك لذي الحلم موضعاً وصلت فلم تترك على الأرض آمناً ورضت فذللت الخطوب وكيدها وألبست من نسج التواضع حلة إذا الأمر أعيى الناس رأياً وخبرة وإن ذاب من حر الوغى قلب ماجد

فبابك دون الناس لم يُلف مغلقا فبالعدل والإحسان قد سدت مطلقا وطلت فلم تترك لذي الطول مرتقى وجدت فلم تترك من الناس مملقا وقلت فبرزت الحقيقة مفلقا وكنت بموضون الهدى متمنطقا سللت له من نير الفكر أبرقا فقلبك أقوى صخرة أن يفلقا(۱)

وكان مع هذا كله يتمنى أن لو وجد فرصة لتسليم زمام الأمر إلى غيره، وحل ما بعنقه لتطويقه عنق غيره، فقد توفي في عهده واليه على مدينة الرستاق وتوابعها، فأراد الإمام بمشورة من بعض أعيانها أن يولي من بعده شبل الوالي الراحل، ولكن طلبة العلم الذين كانوا يدرسون على الشيخ العلامة الضرير محمد بن حمد الزاملي اتفقوا مع شيخهم على عدم قبولهم أن يولى عليهم نجل الوالي السابق، فأدلوا برأيهم إلى الإمام، فقال لهم: إنكم لم تجربوه حتى تعدو عليه ما يعيب سيرته أو يخل بأمانته أو يهوِّن من جده في القيام بمسؤوليته، فما عليكم إلا أن تجربوه فإن ثبت عليه ما يقتضي عزله عزلناه إن شاء الله.

ولكن الطلبة مع شيخهم الزاملي أصروا على موقفهم، وكان الشيخ هو الذي يخاطب الإمام باسمهم، وقد عرف بحدته البالغة، فما كان منه إلا أن خاطب الإمام بشدة وجرده من لقبه، قائلا له: يا محمد إن المسلمين لن يتركوا الأمر لتتصرف فيه كما تريد، وإن كنت لا تعير خطابنا اهتماما فسلم

⁽١) وحي العبقرية، ص ٤٤٢.

إلينا السيف الذي بيدك، وهو يعني به سيف الإمامة الذي يحمله من ناء بمسؤليتها، فما كان من الإمام إلا أن قال له: دونكم السيف وما يتبعه، فابتدر أحد طلاب العلم وقال: ما هذا الذي أردنا، ولا حدثتنا أنفسنا أن نجردك من مسؤليتك، إذ لا نجد لها من هو أكفأ منك، وإنما نرجو أن لا تخيبنا فيما نرى، فرجع الإمام عن رأيه إلى رأي طلاب العلم وخيرهم في الوالي الذي يريدونه، فرشحوا له من توسموا فيه الأمانة والجد، فأحله الإمام محل الوالى المفقود.

هذه أمثلة شاهدة على سلامة الفكر واستقامة المنهج واعتدال الرأي للمدرسة التي أنجبت طالب الحق وأبا حمزة، وكم فيها من نماذج تصور لنا الإسلام الصحيح في جماله واعتداله وخلقه الرفيع ومثله العُلْيا، وإنما اقتصرت على ما ذكرته من الأمثلة تفاديا لطول الحديث وسآمة القارئ، وإننا بحمد الله لا نزال هنا بسلطنة عُمان نتفياً ظلال هذه المدرسة، وتنعكس على سكان السلطنة آثار مُثُلها، فمع تنوع نسيج المواطنين يحظى الكل بالعدالة والإنصاف من غير تمييز، كما أن الوافدين أيضا على تنوع مشاربهم يتمتعون بهذا الخير وينعمون بهذا الاستقرار، وهذا ما شهدت به ألسنتهم وخطته أقلامهم.

رَفْضُ هذه المدرسة للغُلُوِّ في الفِكْر أو السُّلوك:

مع ما تميزت به هذه المدرسة من شدة التمسك بالدين، والاعتصام بحبله المتين، وعدم تساهلها في شيء من حدوده وواجباته؛ تأبى كل الإباء أن تغلو في أمر الدين، وأن تتجاوز حدوده التي رسمها الشارع الحكيم، لذلك كانت في سلمها وحربها مثالا للتسامح وعدم الاستقصاء في تعاملها مع غيرها في السلم والحرب، والمكره والمنشط، والسعة والضيق، والشدة والرخاء.

وقد تبينت أيها القارئ الكريم كيف كان سلوك أبنائها عندما يتعرضون لعدوان أو يواجهون خصومة، فإنهم يحرصون على الاحتراز وضبط النفس والتحكم في العواطف الثائرة والمشاعر الهائجة، حتى لا تدفعهم إلى الحماقة والخروج عن حدود الاعتدال، وفيما ذكرته من الأمثلة أعظم شاهد على ذلك، وكم تجد من شهادة عادلة على هذا النهج من أهل الصدق والأمانة من المنتسبين إلى المدارس الأخرى.

وبسبب هذا؛ كان البون سحيقا بينهم وبين الغلاة الذين حكموا على أهل ملة التوحيد بأحكام المشركين، فاستباحوا منهم سفك الدماء وغنم الأموال وسببي الذراري، وقد كان استنكارهم لهذا الغلو منذ بداية بروزه، ناهيكم أن الإمام أبا الشعثاء جابر بن زيد كُلِّلَهُ الذي كان رائد هذه المدرسة ومنظرها، كان يحتج على أولئك الغلاة، فقد ذكر البدر الشماخي في سيره عن ضمام أنه قال: «كان جابر يأتي الخوارج، فيقول لهم: أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين؟ فيقولون: نعم، وحرم الله البراءة منهم بدين؟ فيقولون نعم، فيقول: أوليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين، فيقولون: بلى، فيقول: وحرم الله ولايتهم بدين بعد الأمر بها بدين؟ فيقولون نعم، فيقول: هل أحل ما بعد هذا بدين؟ فيسكتون»(۱).

وذكر أيضا أن عبدالله بن إباض كانت له مناظرات مع الخوارج(٢).

وبسط سالم بن ذكوان الهلالي _ وهو من أعلام هذه المدرسة في نهاية القرن الأول وبداية الثاني _ الحجج الدامغة التي أتت على شبه هؤلاء الغلاة في «سيرته» القيمة، حيث قال: «ثمَّ خرج من بعدهم ابن الأزرق وأصحابه،

⁽١) السير للشماخي، ص٧٢.

⁽٢) المرجع السابق، ص٧٣.

فمكثوا ما شاء الله، يسيرون بسيرة من كان قبلهم من الخوارج، ثمَّ إنَّهم جرمهم شنآن قومهم أن أنزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، فقطعوا الميراث منهم وحرموا مناكحتهم، وقد ناكحهم من يتولون ووارثهم، فإن يكن ذلك هدًى وعمل به من يتولون فقد خالفوهم فيه ودانوا اليوم بالبراءة مِمَّن عمل به وإن يكن ذلك ضلالة ضلّوا بتوليهم من عمل به.

واستحلّوا سبي قومهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم وقتل ذراريهم واستعراضهم، ولم يكن من يتولون يستحلون شيئًا من ذلك من قومهم، فإن يكن الذي عمل به من يتولون من قومهم هدى فقد خالفوهم، وأبوا أن يجيروا من استجارهم من قومهم حتَّى يسمع كلام الله وهم يشهدون أنَّهم بمنازل عبدة الأوثان، وقال الله لنبيه: ﴿ وَإِن أَحَدُ مِن المُشْرِكِين السَّتَجَارِكُ بمنازل عبدة الأوثان، وقال الله لنبيه: ﴿ وَإِن أَحَدُ مِن المُشْرِكِين السَّتَجَارِكَ فَا اللهُ لنبيه: ﴿ وَإِن اللهُ لِلْهُ اللهُ لَهُ اللهُ اللهُ

فقالوا: قد سمع قومنا كلام الله فلا نجيرهم، وقد سمع المشركون الذين أمر الله بجوارهم كلام الله، فقالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَلْذَا الله بجوارهم كلام الله، فقالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَلْذَا الله الله الله بجوارهم كلام الله، فقالوا: ﴿قَرْمُوا لَا تَسْمَعُوا لِمَلْنَا اللّهُرُءَانِ وَالْغَوّا فِيهِ لَعَلَكُمْ تَعْلِبُونَ ﴾ [الأنفاد: ٢٦]، وقالوا: ﴿أَتُتِ بِقُرْمَانٍ غَيْرٍ هَلْذَا أَو بَدِّلُهُ ﴾ [يونس: ١٥]، ثمّ أجارهم نبيّ الله كما أمره وجعلوا للقوم محنة، وأبوا أن يقبلوا مِمّن أتاهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقرارهم بحكمهم، وهم يزعمون أنّه حكم الله. وقال الله لنبيه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصّلَوة وَءَاتَوا الزّكَوَة فَخَلُوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ عَفُورُ لَنِيمِكُمُ ﴾ [النوبة: ٥].

وكفروا بالرجم، وقد رجم رسول الله رجلا من أسلم ومضت به السنة، وبرئوا من كلِّ أعرابي، وإن كان يتولَّاهم ويشهد لهم بالنجاة، ويسأل الله أن يرزقه مثل الذي رزقهم من جهاد أعدائه، وقد قال الله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ فِأَلِيَةً مِ ٱلْآخِرِ وَيَتَخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَكَتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَتِ

الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةُ لَهُمْ سَيُدُخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ عَفُورُ رَحِيمٌ الله التوبة (التوبة ۱۹۹)، وكفَّرُوا قعدتهم واستحلُّوا دماءهم وأموالهم وحرَّمُوا ولايتهم والاستغفار لهم، وتولوا قوما كانوا يتولون قعدتهم ويحرمون دماءهم وأموالهم ويستحلون مواريثهم والاستغفار لهم، وقد علموا ذلك منهم، فإن يكن ذلك هدى عمل به من يتولون فقد خالفوهم فيه.

وكفروا من يتولى اليوم عليه، وإن يكن من يتولون تولى كافراً فقد كفروا، وكفروا هم بوَلايتهم إيَّاهم على تولّي الكّفار فزعموا أنما يكفرون قعدتهم بكتمهم إيمانهم ودينهم وقد أمرهم الله أن يثبتوا.

فقد مكث مؤمن آل فرعون ما شاء الله أن يمكث كاتماً إيمانه فلم يردد الله عليه بكتمانه إياه، وقد قال الله: ﴿ لَا يَتَخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَفِرِينَ آَوَلِيآء مِن دُونِ ٱلمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلَ ذَلِكَ فَلَيْس مِن الله فِي شَيْءٍ إِلّا أَن تَكَفُّوا مِنْهُمْ تُقَنَة ﴾ آلمُؤُمِنِينَ وَمَن يَفْعل ذَلِك فَلَيْس مِن الله في شَيْءٍ إِلّا أَن تَكَفُّوا مِنْهُمْ تُقَنَة ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فحرض الله المؤمنين على التقية، وكيف يتقي المؤمنون الكفّار إلاّ بأن يظهرُوا لهم ما يحبون ويكتموهم دينهم، مع أنهم إذا خرجوا كانوا أكتم ما كانوا قط لدينهم، وذلك الرجل يأتيهم فيقول: اعرضوا عليّ دينكم فيقولون لا، إنا إذا نكفر، ولكن أخبرنا أنت به، فإن أخطأ شيئًا ممّا في أنفسهم قتلوه في شيء من أمور المعاصي ليسَ كلّها تحصى من استحلال أنفسهم قتلوه في شيء من أمور المعاصي ليسَ كلّها تحصى من استحلال النفاق قد رُفعَ وأن أحدًا لا يستطيع أن يكون منافقًا ويشهدون أن الله يغفرُ للزاني والسارق إن يكونا منهم، ولو كانت صحابة تجيرُ من النفاق أجارت طحابة نبيّ الله إن قبلوا ما دعاهُم إليهِ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسَلامِ دِينَا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُو فِي ٱلأَخِرة مِنَ الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسَلامِ دِينَا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُو فِي ٱلأَخِرة مِنَ الله الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسَلامِ دِينَا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُو فِي ٱلأَخِرة مِنَ

ثم كان من بعدهم أهل اليمامة نجدة وأصحابه، فشهدوا على قومهم أنهم بمنزلة عبدة الأوثان، ثم استحلوا من نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم ما حرم الله من نساء المشركين وذبائحهم، فإن قالوا: إنا ننزل قومنا بمنازل أهل الكتاب الذين أحل الله لنا طعامهم ونساءهم، فإنهم يحرمون أخذ الجزية منهم بعد قول الله للمؤمنين: ﴿ اللَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ وَلا بِاللَّهِ وَلا بِاللَّهِ وَلا بِاللَّهِ وَلا يَاللَّهِ وَلا بِاللَّهِ وَلا يَأْتُونُ وَلا يَكِينُونَ وَلا يَكِينُونَ وَلا يَكِينُونَ وَلا يَكِينُونَ أَلْحَقّ مِن اللَّهِ وَلا يَكُونُوا اللَّهِ وَلا يَكِينُونَ وَلا يَكِينُونَ وَلا يَكِينُونَ عَلَى مَا حَرَّمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ, وَلا يَدِينُونَ دِينَ النَّحِقِ مِن اللَّهِ وَلا يَكُونُ اللَّهِ وَلا يَكُونُ اللَّهِ وَلا يَللَّهُ وَرَسُولُهُمْ مَنْ يَدِ وَهُمْ صَنْعِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، وأوفوا المعهد قومهم في أهل الذمة وهم يشهدون بالشرك عليهم، فإن يكن وفاء بعهد قومهم في أهل الذمة وهم يشهدون بالشرك عليهم، فإن يكن وفاء بعهودهم حقا فليس يحل لهم أن ينزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، وإن يكونوا بمنازل عبدة الأوثان يضلوا بوفائهم بعهدهم، وذلك أن المسلمين لو وجدوا عبدة الأوثان قد عاهدوا اليهود والنصارى والمجوس لم يوفوا بعهد أحد منهم، وزعموا أن عليهم هجرة من دار قومهم كهجرة النبي وأصحابه من منهم، وزعموا أن عليهم هجرة من دار قومهم كهجرة النبي وأصحابه من منهم، وقد انقطعت الهجرة عام الفتح، وصار الأمر إنما هو جهاد.

بلغنا أن رسول الله على قال: «لا هجرة بعد اليوم ولكن جهاد ونية»(١)، فزعموا أنها حق عليهم هجرة بعد هجرة، وهو على هجرة لا من فتنة يصيبونها تبطل هجرتهم الأولى، فهذا من أمرهم ورأيهم مختلف، وقال الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اُخْذِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٦]، واستحلوا فعل سبي قومهم وقتل ذراريهم وخمس أموالهم واستعراض وقطع الميراث

⁽۱) الحديث مروي بلفظ: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا" أخرجه مسلم (۱٤٨٨/٣)، رقم ١٨٦٤)، وابن أبي شيبة (٧/٨٤، رقم ٣٦٩٣١) من حديث عائشة. وأخرجه أحمد (٤٠١/٣)، رقم ١٥٣٤)، والنسائي (١٤٥/٧، رقم ١٢٩٦)، من حديث صفوان، وأخرجه أحمد (٢٢٦/١، رقم ١٩٩١)، وابن أبي شيبة (٧/٧٤، رقم ٣٦٩٣)، والترمذي (١٤٨٤، رقم ١٥٩٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٤٦٧، رقم ١٥٩٠)، وابو داود (٣/٣، رقم ٢٤٨٠) من حديث ابن عباس.

لهم، ولم يحكم من يتولون من المسلمين يوم قتلوا عثمان ويوم الجمل ومن يتولون من الخوارج الأولى بشيء من هذه الأحكام، فإن يكن الذي عمل به من يتولونهم هدى فقد خالفوهم فيه ورغبوا عن سبيلهم وكفروا من اقتدى بهداهم، وإن يكن غير هدى فقد تولوهم عليه.

فإن قالوا: إن أولياءنا إنما تركوا سبي قومهم أنهم كانوا أمنوا أحياءهم، فإنهم لم يسبوا ذرية من قتلوا منهم، ولم يستنكحوا نساءهم، ولم يخمسوا أموالهم، ولم يحكموا في عثمان ومن قتلوا معه بشيء مما تقولون.

فإن قالوا: إن أولياءنا تنزهوا عن ذلك واستألفوا الناس به. فإن المسلمين لم يكونوا ليتنزهوا عن أن ينفذوا حكم الله الذي أمرهم به، وقد علموا أنما يقتدي من يقتدي من أوليائهم في ذلك بفعلهم، فلم يكونوا ليستألفوا الناس بأحكام هي ضلالة لهم، ولمن اقتدى بهم من بعدهم من أتباعهم.

ونعلم بحمد الله أنهم لو كانوا يستحلون سبي قومهم وخمس أموالهم ما تركوا سهمان مساكين فقراء بهم حاجة وفاقة إلى أنصبائهم، ولا سهمان أبناء سبيل بعيدي الشقة لم يمروا عليهم فيحملوهم منها فيأذنوا لهم فيها، ولا سهمان يتامى صغار لم يعقلوا فيأذنوا لهم في سهمانهم. وقد أمرهم الله أن يوفروا على اليتامى أموالهم، وأن يحسنوا ولايتهم، فمن قال منهم: كان ذلك بهم جهالة وقصر بصر لا يضلنا إن توليناهم.

فكيف يزعمون أنه لا يضلهم تولي قوم يبرأون اليوم من قوم يعملون بمثل عملهم، ويشهدون عليهم بالشرك، وتولوا الزاني والسارق وشارب الخمر وقاذف المحصنة، وقاتل النفس التي حرم الله بغير الحق متعمدا، وآكل أموال اليتامي والربا على علم، وتارك الصلاة، وقد علم حكم الله فيها، والحاكم بغير ما أنزل الله في كتابه، وآكل الميتة والدم ولحم الخنزير

وما أهل لغير الله به عن غير ضرورة، وهو يعلم أن الله قد حرمه، وناكح أمه وابنته وأخته وعمته وخالته وأمه التي أرضعته وأخته من الرضاعة، وهو يعلم أن الله قد تقدم الحكم منه في ذلك، وسبقت منه الموعظة في أشياء كثيرة، وليس كلها تحصى في أدلة المال واستحلال أكل الأمانة ومحنة الرجال، وتحريم ملك الأناثي من نساء قومهم، والتقرير بالنفاق لمن ثقل منهم عن القتال، فإن أقر به أمن عليه عندهم وحرموا دمه، وإن برئ من النفاق وزعم أنه مسلم استحلوا دمه فأمن عندهم بالذي كان يخاف به عند رسول الله، ويحل به دم من فعله، وخاف عندهم بالله وبجهالتهم بكثير من أمره.

ومنها تكفيرهم الراجع منهم واستحلالهم دمه وماله، وتكفير من تولاه منهم، ثم رجعوا هم بعد ذلك إلى ولايته، فزعموا أنهم يوم برئوا منه وكفروا من تولاه منهم واستحلوا دمه وماله، ويوم رجعوا إلى ولايته وبرئوا ممن كفره منهم واستحلوا دمه وماله، مهتدون في المنزلتين كلتيهما، وقد مضى منهم ناس كثير وهم يبرأون منه. وفارقوا الدنيا على ذلك، ونعلم بحمد الله أنهم لو كانوا مهتدين يوم برئوا واستحلوا دم من تولاه منهم وماله لكانوا اليوم ضلالا برجوعهم إلى ولايته، وأنهم لو كانوا اليوم مهتدين برجوعهم إلى ولايته وبتكفيرهم من يتولاه منهم لكانوا ضلالا بتوليهم إياه، وشهادتهم أنهم كانوا يبرأون منه ويستحلون دم من تولاهم منهم مهتدون ولضل من مات وهو يبرأ منه يوم فارقه.

ثم فارقه داود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبو فديك وأصحابه، في أمور نقموها عليه وزعموا أنه قد ضل بها، وليس الذي فارقوه فيه بأكثر من الذي جامعوه عليه، من سبي أهل القبلة وقتل ذراريهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم واستعراضهم وقطع الميراث منهم، فكلهم بحمد الله ضال

تارك للحق متبع لهواه بغير هدى من الله. وهم في ذلك معترفون فيما بينهم.

ويجمع ابن الأزرق وأصحابه، ونجدة وأصحابه، وداود وأصحابه، وداود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبا فديك وأصحابه فيما تعارفوا من الضلالة مخالفتهم إلى ما ينهون عنه، وعملهم بما يكفرون عليه. ويضلهم مع ذلك تحريفهم في قومهم كلام الله ولا عن مواضعه، وشنآن قومهم، ويضلهم خلاف سنة نبيهم فيهم وتركهم في قومهم سيرة قوم يتولونهم، ويضلهم تفرقهم بينهم، ويضلهم ما أحدثوا من البدع في قومهم بعد أوليائهم.

ومن بدعتهم قطعهم الميراث من قومهم إذا خرجوا وأظهروا أمرهم، وقد كانوا يستحلون موارثتهم ما كانوا بين أظهرهم، ويضلهم موارثة قوم يستحلون خمس أموالهم، ويضلهم خمس أموال قوم يحرمون موارثتهم، ويضلهم نكاح نساء قوم مشركين لا يأخذون منهم جزية وأكل ذبائحهم، ويضلهم ترك الجزية في قوم مشركين يستنكحون نساءهم، ويضلهم أيضا وفاؤهم بعهود قوم مشركين فكل هذا من بدعهم مضلهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين كما يقولون لهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين شهادتهم بالشرك عليهم، ويضلهم سباؤهم ويضلهم قتلهم ذراريهم، ويضلهم استنكاح نسائهم، ويضلهم استعراضهم.

ويضلهم خمس أموالهم، ويضلهم انتحال الهجرة من دارهم وقد مات فيها طوائف من أصحاب نبيهم بعد أن كفروا قومهم، يرونهم ماتوا على هجرتهم منهم: عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وأبو ذر وناس كثير من المسلمين. فإن يكن أولئك ماتوا على هجرتهم فليس تحل لهم الهجرة من ديارهم، وإن يكونوا ضلوا فقد ضلوا هم بتوليهم على ضلالهم، فكان هذا من بدعهم مضلهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين ما ابتدعوا من السر فيهم، ويضلهم أن لو كان شركهم ظاهرا فأحدث طائفة منهم مثل

أحداث قومهم اليوم، إن سيرتهم اليوم في قومهم وإن سيرهم هذه المفترقة وبدعهم المحدثة إنما أضلهم فيها شهادتهم بالشرك على قومهم ثم انتقاضهم شهادتهم بعد في سيرتهم». اهـ(١).

وعُنِي _ في زمانه ومِنْ بَعْدِه _ قادةُ الفكر والرأي من أبناء هذه المدرسة بنقض فكر هؤلاء الغلاة وتفنيد شبههم وتسفيه رأيهم، حتى جاء الإمام المجدد العلامة الرباني أبو نبهان المحدد العلامة الرباني أبو نبهان المحدد العلامة الرباني أبو نبهان المحدد الفكر والنداء عليه بالضلال في كثير من مؤلفاته، وكان مما قاله في هذا: «ألا فاتقوا الله بأداء ما أمر والانتهاء عما عنه زجر، ولا تركنوا إلى من دعاكم إلى متالف الردى تاركين لما كان عليه أئمة الهدى، فإنهم أقرأ منكم للتنزيل وأعلم بالتأويل وأدل بالطريقة المثلى إلى منازل العلا.

وقد ضربوا في منارها الصوى فبصروا من العمى وأمروا بالتقوى ونهوا عن متابعة الهوى، وأوضحوا لكم في دين الله ما لا مزيد عليه من الهدى، فدلوكم على المحجة البيضاء التي كان عليها سيد الأنبياء، فعرفوكم ما تأتونه فرضا ونفلا، وما تذرونه نية وقولا وفعلا، وبينوا لكم من زاغ عنها من أهل الجهالة، فجادلوا أهل الزيغ بالتي هي أحسن لما بها من دلالة على صحة ما هو به وعليه وفساد ما عداه، حتى ظهر الحق وبطل ما خالفه من دعوى العماة، فأنى يكون الشك فيما هم به ودعوا إليه.

وقد زال الالتباس فلا عذر لمن خالف من الناس، أولئك هم أولو الألباب الذين هداهم الله لدينه الذي ارتضاه لعباده من فضله، فلم يغيروه عن أصله بل اتبعوا فيه أثر النبي الله ومن بعده أبا بكر وعمر وغيرهما من

⁽۱) منهج الدعوة عند الإباضية، محمد صالح ناصر، ص٣٦٥ – ٣٧٢، مكتبة الاستقامة، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الصحابة والتابعين صفوة الأنام، فجاهدوا عن أمر الله من كان من المشركين حتى يسلم، أو يقتل على إصراره، أو يعطي الجزية عن يد لصغاره، إلا من لا يقبل منه إلا الدخول في الإسلام أو القتل على حال، وقاتلوا من بغى من المنافقين في إقراره حتى يفيء إلى أمر الله أو تفنى روحه في أوزاره، فبذلوا الأموال في جهادهم وجادوا بالأرواح لإزالة فسادهم.

فلم يستحلوا من هؤلاء الباغين في قتالهم سببي ذرية ولا غنيمة مال لحرامهما في أهل القبلة شرعا، وهذا ما لا يجوز أن يختلف في المنع من جوازه قطعا، وإنما أجازهما نافع بن الأزرق خلافا في دين الله لمن قبله جزاه الله شرا على ما ابتدعه، ما أضله! حتى انتحل الهجرة وشرّك أهل القبلة واستعرض الناس بالسيف على غير دعوة، فاستحل السبي والغنيمة في أهل الإقرار بالجملة وأزل من اتبعه فصار مثله». اهـ(۱).

وبين محجة الحق في هذا الإمام نور الدين السالمي التلك حيث قال: ومال أهل البغي لا يحل وإن يكن قوم له استحلوا

وإن يحس حوم له استعلوا من دينها صفرية أزارقة جهلا على بغاة المسلمينا قد استحلوا المال منهم مغنما وضللتهم وفسقتهم جملة أخبار مع الآثار ومنهم لاشك نبرأنا(۱) ومال أهل البغي لا يحل خوارج ضلت وصارت مارقة فحكموا بحكم المشركينا فعرضوا للناس بالسيف كما وأمة المختار فارقتهم ووردت فيهم عن المختار وفيهم المروق يعرفنا

وقال أيضا: «ولا نرى استعراض قومنا بالسيف ما داموا يستقبلون القبلة،

⁽١) من مخطوطة لأبى نبهان يحذر فيها من الحكم على أهل القبلة بأحكام المشركين.

⁽۲) جوهر النظام، ج۳ ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

ولا نرى قتل الصغير من أهل قبلتنا ولا غيرهم، ولا نستحل فرج امرأة رجل تزوجها بكتاب الله وسنة نبيه حتى يطلقها زوجها أو يتوفى عنها ثم تعتد عدة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها.

ولا نرى انتحال الهجرة من دار قومنا لهجرة النبي وأصحابه من دار قومه، ولكن يخرج من خرج منا مجاهدا في سبيل الله على طاعته، فإن رجع إلى دار قومه توليناه إذا كان قائما بحق الله في نفسه وماله»(١).

وقال شيخنا الإمام العلامة أبو إسحاق إطفيش التحلى الخوارج طوائف من الناس في زمن التابعين وتابع التابعين، رؤوسهم نافع بن الأزرق، ونجدة بن عامر، وعبدالله بن الصفار ومن شايعهم.

وسُمُّوا خوارج لأنهم خرجوا عن الحق وعن الأمة؛ بالحكم على مرتكب الذنب بالشرك فاستحلوا ما حرم الله من الدِّماء والأموال بالمعصية متأولين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَطَعَتُمُوهُمُّ إِنَّكُمُ لَشُرِّكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فزعموا أن معنى الآية وإن أطعتموهم في أكل الميتة، فأخطأوا في تأويلهم، والحق أن معنى الآية: وإن أطعتموهم في استحلال الميتة، والاستحلال لما حرم الله شرك. وحين أخطأوا في التأويل لم يقتصروا على مجرد القول، بل تجاوزوه إلى الفعل، فحكموا على مرتكب المعصية بالشرك، فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم بالمعصية، فاستعرضوا النساء والأطفال والشيوخ.

وقد كان الإمام الحافظ الحجة الربيع بن حبيب بن عمرو البصري الفراهيدي الإباضي، صاحب المسند الصحيح وَهُلَّلُهُ حين بلغ إليه أمرهم يقول: دعوهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل، فإن بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم، وإن تجاوزوه إلى الفعل حكمنا فيهم بحكم الله.

⁽١) تحفة الأعيان، ج١، ص٧٩.

فلما ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا من مجالسهم، وطاردوهم في كل صوب، معلنين البراءة منهم. فلما تجاوزوا بالقول إلى الفعل أعلنوا الحكم بكفرهم للذن الكفر في استحلال ما حرم الله نص في كتاب الله قطعي، وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشتدوا على أهل التوحيد بفتنتهم، فسلوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل الله، فعظمت محنتهم، فكانت بلاءً عظيما». اهـ(١).

وفي هذه النصوص التي نقلناها ما يكفي شاهدا على أن هذه المدرسة لم تخرج عن خط الاعتدال، فلم تستبح في يوم من الأيام غنيمة مال موحد ولا سبي ذريته أو أهله مهما كان فجوره، وإذا بغى فإنما يقتصر في رد بغيه بمقاتلته بعد إقامة الحجة عليه من غير أن يعامل معاملة أهل الشرك في شيء، فلا يقطع التوارث بينه وبين المسلمين، ولا يحرم إنكاحه النساء المسلمات، كما لا يحرم تزوج من كانت على نهجه من النساء.

وقد امتلأت كتبهم بشرح ذلك، والنكير على الخوارج الغلاة الذين حادوا عن هذا النهج، فأنزلوا بأهل القبلة من الأحكام ما يخرجهم من الملة ويلحقهم بأهل الشرك، والعياذ بالله.

كَلِمَةُ إِنْصَافٍ لا بُدَّ مِنْهَا:

لا يرتاب ذو بصيرة أن الخوارج الغلاة بغلوهم _ فيما أنزلوه من الأحكام بأهـل القبلة _ باينوا النهج السـليم الـذي جاء به القرآن ودلت عليه سـنة المصطفى في ودرج عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، لذلك تشددت الأمة في محاكمتهم علـى جرمهم فبدَّعتهم وضلَّلتهـم، وكان الإباضية في

⁽۱) الفرق بين الإباضية والخوارج، تأليف الشيخ العلامة أبي إسحاق إبراهيم إطفيش، ص١٢، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السيب.

مقدمة الأمة إذ وقفوا منهم هذا الموقف الصارم، وأخذوا على أنفسهم نقض أباطيلهم وتفنيد شبههم، كما أنهم لم يترددوا في دفع شرهم بالسيف عندما اقتضى الأمر ذلك، كما كان هذا بالمشرق بقيادة الجلندى بن مسعود، وبالمغرب بقيادة أبي الخطاب المعافري رحمهما الله.

ومع تصويبنا لهذا الموقف في تعرية ضلالهم ودفع شرهم، أرى أن من الضرورة بمكان أن تكون لنا كلمة إنصاف في غمرة هذا الصراع، فإن الواجب يقتضينا أن لا نقتصر في الحكم على ردود الأفعال ونغمض العين عن أسبابها التي أدت إليها، فإن العلاج يجب أن لا يكون للنتائج مع إهمال المقدمات وعدم الاكتراث بالتوقي منها.

ومن المعلوم، أن من نظر نظرة فاحصة في أسباب هذا الغلو يجد أنهم لم يغالوا إلا بسبب ما قاسوه من الظلم والجور في ظل الحكم الأموي الجائر، ناهيك بما كان من اختيار حكام بني أمية لعمالهم من بين أكثر الناس شرورا وأقساهم قلوبا وأجرئهم على الله وأنساهم لعهده وأظلمهم لعباده، كمسرف بن عقبة وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج وأضرابهم، وكانت وصاياهم لهم أن لا يبالوا بسفك الدم الحرام ونهب الأموال وهتك المحارم، فإن هذه الأعمال بلا ريب أورثت أولئك عقدا نفسية أدت بهم إلى الإفراط في الاتجاه المعاكس، فحكموا على هؤلاء بأحكام أهل الشرك واستباحوا منهم ما لا يستباح إلا من المشركين.

وما هي إلا ردة فعل عنيفة لما كانوا يلقونه من العسف والجور والاستبداد، ولو أنهم أُنْصِفُوا في المعاملة لأَنْصَفُوا، ولا أدل على ذلك من كف أيديهم عن القتال عندما وجدوا الإنصاف في عهد عمر بن عبد العزيز هي، إذ لم يكن منهم إلا مسالمته لما وجدوه من عدله، وهذا الذي حفظه لنا التأريخ، فقد قال الآجري: «لما بلغت الخوارج سيرة عمر

وما رد من المظالم، اجتمعوا فقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل»(١).

فكيف يشك مع هذا، أنهم لو وجدوا هذه السيرة من غيره وأنصفوا من قبل أولئك لكانوا أنصفوا من أنفسهم وحدوا من غلوائهم، وكفوا أيديهم عن مقاتلة أهل القبلة وأخذ أموالهم، ولكن العنف يولد العنف، والشر لا يعقبه إلا الشر، وقليلا ما يوجد العقلاء الذين يتحكمون في عواطفهم، ويسيطرون على حفائظهم عندما تغلى مراجل الغضب، فيتمكنون من الوقوف على خط الاعتدال، كما فعل ذلك طالب الحق وأبو حمزة وسائر القادة الذين ينتسبون إلى مدرستهم، وهذا من توفيق الله تعالى.

إِزَاحَةُ السِّتارِ عِن شُبْهَةٍ تأريخيةٍ:

قد يقول قائل: بأن هذا الغلو متأصل عند أصحاب هذا الفكر، لأن المُحَكِّمة الأولى عزي إليهم ما يثبت غلوهم.

وجوابه: أن المحكمة كانوا أكثر الناس دقة في تطبيق تعاليم الإسلام السمحة، وتجنب ما يؤدي إلى الغلو، وإنما ألصق بهم ما ألصق من الدعايات المغرضة تشويها لسمعتهم، وترويجا للسياسة القائمة على انتهاك الحرمات وبث الظلم، فإن بني أمية كانوا يرون في فكر المحكمة ما يزعزع استقرارهم ويهد أركانهم، لذلك لم يبالوا في نسبة العظائم إليهم وهم منها براء، كما لم يبالوا في وضع الأحاديث الكثيرة عن النبي هم المعدر بهم مها معد ما يكونون عنه (٢).

⁽١) أخبار أبي حفص عمر بن عبدالعزيز، ص٦٣.

⁽٢) ينظر: في هـذا كتاب «الخوارج والحقيقة الغائبة» لناصر بن سليمان السابعي، فقد تتبع الروايات التي عزيت إلى النبي ﷺ في أمر المحكمة، وبين عدم صحة أي شيء منها، كما زيف ما عزاه المؤرخون إليهم من الأحداث التي تشيب منها الرؤوس مع براءتهم منها.

ومما يؤكد أن المحكمة الأولى كانوا أبعد ما يكونون عن الغلو والعدوان على الأنفس والأموال، ما كان عليه بقاياهم ـ الذين سلموا من القتل في واقعة النهروان، كأبي بلال المرداس ابن حدير وأخيه عروة ـ من الاحتياط الشديد في تعاملهم حتى مع ألد خصومهم، فعندما فعل زياد ابن أبيه فعلته النكراء في البلجاء ـ رحمها الله ـ إذ قطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق، مرَّ بها أبو بلال، فقال لأصحابه: «إن الإقامة على الرضا بالجور لذنب، وإن تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم، ولكن نسير في أرض الله ولا نجرد سيفا، وإن أرادنا قوم بظلم امتنعنا منهم، فقالوا له: أنت سيد المسلمين وبقيتهم، فخرج في ثلاثين، فلقيه عبدالله بن رياح عامل عبيد الله على الرجوع فأبوا، فأتوا الأهواز فأصابوا أموالا تحمل إلى ابن فراودهم على الرجوع فأبوا، فأتوا الأهواز فأصابوا أموالا تحمل إلى ابن زياد، فأخذوا عطيتهم وردوا الباقي، فبلغ عبيد الله خروجهم، فوجه إليهم أسلم بن زرعة في ألفين.

قال يونس بن أرقم: خرجنا في جيش نريد خراسان، فدخلنا دَرْباً باسَكْ فيه ثلاثة أخبية، فإذا هو أبو بلال في ستة وثلاثين رجلا، فقال ابن عمي: السلام عليكم، قالوا: وعليك أمن هذا الجيش الذين يريدون قتالنا، قلنا: لا، قال: سلمكم الله أبلغوا من لقيتم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا نقاتل إلا من أكرهنا على قتاله، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطيتنا، فبلغهم أسلم بآسك وهم في أربعين رجلا، فقالوا له: اتق الله، فإنا لا نريد قتالا، فما تريد؟ قال: أردكم إلى ابن زياد، قال: يقتلنا وتشاركه في دمائنا، قال: نعم دماؤكم حلال، وهو محق قالوا: اللهم إن كان كاذبا فانصرنا عليه، قال حريث بن حجل: يا عدو الله أمحق وهو يطيع الفجرة، ويقتل بالظنة، ويخص بالفيء، ويجور في الحكم؟!!.. فرموا رجلا من المسلمين فقتلوه، قال أبو بلال:

جاهدوا ولتكن إلى الله رغبتكم، واستعينوا بالله واصبروا، فحملوا فانهزم». اهـ(١).

وقد كان للفكر الإرجائي الذي بشه بنو أمية وروجوا له بين الناس دفع قوي لترويج هذه الروايات الكاذبة من أجل تحقيق المكاسب السياسية، وقد خلت الساحة من منافس لهم، فتمكنوا من ترويج ما شاؤا من الأكاذيب وطمس ما شاؤا من الحقائق، وقد انساقت دهماء الناس وراء هواهم فلم يزعهم من القرآن وازع مع كونه يتلي بينهم، وقد حفظ الله نصوصه أن يتطاولوا عليها بالتحريف والتبديل، ناهيكم بتجاهلهم نصوص القرآن وتواطؤ العدد الكبير منهم على زعم أن الخلفاء لاحساب عليهم ولا عقاب، وتواطؤ العدد الكبير منهم على الإدلاء بهذه الشهادة المزورة من غير حساب لافتضاحهم بما يدحضها من نصوص القرآن. أويبقي في نفسك أيها القارئ الكريم اشتباه بعد هذا في أن ما روج له من شائعات تشوه حقيقة تلك الفئة وسلوكها إنما كان من نتاج هذه السياسة الجائرة؟!

وإذا كان عصرنا هذا _ مع ما فيه من تنافس الأطراف، وعدم خلو الساحة لفئة بعينها، وتقارب العالم فيه بما تيسر من وسائل الإعلام والاتصال _ تجد ذوي الأغراض من مراض القلوب لا يبالون فيه أن يزوروا الحقائق ويقلبوها رأسا على عقب، فيبرئوا المجرم ويجرموا البريء تحت سمع العالم وبصره من غير مبالاة بتعري الحقائق وانكشاف الخفايا، فما بالك بذلك العصر الذي سادت فيه العالم الإسلامي قوة سياسية واحدة، تزلفت إليها الأمة إما لاتقاء بطشها وإما للطمع في دنياها؟ أوتعجب بعد هذا إن حاولت هذه القوة أن تشوه صورة الأبرياء الذين تحذر أن تنكشف للناس حقيقتهم الناصعة، فيتأثروا بها، وتعزو إليهم كل ساقطة من الدنايا؟!!

⁽۱) كتاب السير للشماخي، ج۱، ص٧٠.

إن العاقل بلا ريب يقيس الأمور بعضها ببعض، فيستنتج من أقيسته الحقائق:

وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

وإلى القارئ الكريم شاهدين مما ذكرته من الافتراء البين، وإلصاق الجرم بالبريء وتبرئة المجرم منه.

الشاهد الأول:

عندما قام شباب من غلاة الحشوية، وعلى رأسهم جهيمان العتيبي، باقتحام المسجد الحرام في غرة المحرم عام ١٤٠٠هـ، حاول الحشوية أن يستروا فضيحتهم هذه وأن يلصقوا هذا الأمر _ زورا وبهتانا _ بالإباضية أهل الحق والاستقامة، على رغم انكشاف عوارهم واشتهار فضيحتهم، فقد نشرت جريدة (الدستور) الأردنية في عددها ٢١٢٤، بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٢م مقالاً تحت عنوان (متزمتون من البياضية)، جاء فيه: «صرح مصدر سعودي في باريس، أن أعضاء الجماعة التي احتلت المسجد الحرام، فجر أول شهر عام ١٤٠٠هـ هم من طائفة الخوارج، وهذه الطائفة متعصبة ومتزمتة، ويبلغ عددهم ستمائة ألف، وهم من البياضية، يسكنون الجزائر ومسقط وأفريقيا وتونس وليبيا وعُمان»!!

فلينظر العاقل إلى هذا الكذب، كيف اجترأوا على صياغته وإخراجه في هذه الصورة!! مع أن الحقائق أظهر من أن تستر، إذ لا يمكن أن تواريها الأهواء، كما لا تواري أكف المغرضين ضياء الشمس عن الأبصار في رابعة النهار، فالعالم كله يدرك أن القائمين بهذه الجريمة هم من أصحاب هذه الدعوة أنفسهم، ورغم وجود دعوتهم في هذه البلاد التي ذكروها فإنه لم يشترك منها أحد قط في ارتكابها، ومعظم مرتكبيها هم من حشوية المملكة

العربية السعودية، وفيهم من بعض البلاد الأخرى غير البلاد التي ذكروها، وكان الرأس المدبر لهذه الجريمة هو جهيمان العتيبي الذي ذكرته، وهو من قبيلة عتيبة المشهورة عندهم، فكيف سوغوا لأنفسهم أن يظهروا بهذه الفرية من غير استحياء من الخالق ولا الخلق، وكفى بذلك شاهدا على عدم تورعهم أو استحيائهم من مواراة الحقائق وتجريم البريء بما لم يكن منه على بال.

الشاهد الثاني:

كتب محمد بن سعد الشويعر كتابا، سماه (تصحيح خطأ تأريخي حول الوهابية)، حاول فيه أن يلصق جرائم الوهابية وفضائحها التي سارت بها الركبان وتناقلتها الألسن والأقلام بالإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم وأصحابه، مبرئا أصحابها منها، وكان مما قاله في هذا: «كنت قد أخرجت كتابا صغيرا، باسم «تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية»، يقع في ١١٠ صفحات تقريبا، وطبع للمرة الأولى بتطوان بالمغرب عام ١٤٠٧ه، وطبعته دار المعارف بالرياض الطبعة الثانية عام ١٤١٣هـ، أوضحت فيه بأن خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأعداء دين الله الحق، من أرباب المصالح الدنيوية ممن يريد إطفاء نور الله، والتصدي لمن يريد أن يحقق التوحيد الذي أمر به الله، وأرسل به رسله من أولهم إلى آخرهم: دعوة وتطبيقا وتنقية من مداخل الشرك.

فوجدوا دعوة خارجية إباضية في شمال إفريقيا، نشأت في القرن الثاني الهجري، باسم الوهابية، نسبة إلى عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم الخارجي الإباضي، ووجدوا فتاوى من علماء المغرب والأندلس ممن عاصرها، أو جاء بعدها، فأرادوا شيئا عاجلا يحقق الغرض وينهض الهمم

لإسكات الدعوة الجديدة، خوفا من توسع الدائرة الإسلامية، حيث قامت الدولة السعودية الأولى مناصرة للدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب _ فتصافحت يدا الإمامين: محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله في عام ١١٥٧هـ، على القيام بهذه الدعوة، نصرة لدين الله وأداء لأمانة التبليغ. فوفق الله، ولقيت الدعوة قبولا وتأييدا حيث امتدت إلى العالم الإسلامي كله، وتأثر بها العلماء والحجاج، وبدأوا في نشرها ببلادهم..

فخاف المنتفعون دنيويا من آثارها، ووجدوا الضالة في الوهابية الرستمية المدفون خبرها في سـجلات التأريخ، فنبشـوا في فتـاوى العلماء حولها.. وكانت فرصـة بإلباس الثوب القديـم للدعوة الجديدة، ووجدت الإشـاعة صدى في النفوس؛ لأن أرباب المنافع الدنيوية جهدوا في التمويه والتشويه، والناس عادة يتلقفون الكذب أكثر من اهتمامهم وتحريهم للصدق. ولذا فإن للإشـاعات دورا كبيرا في تغيير المفاهيم، ووضع تصـورات تغاير الواقع.. بحسـن نية أو سـوء فهم.. وفي حدود ٧٠٤١هـ كان نقاش علمي مع أحد علماء المغرب حول دعوة الشـيخ محمد بـن عبدالوهاب كَلِّلَهُ حقق نتيجة مرضية وصحح مفهوما تأريخيا سائدا، وقد رغّب إليّ أكثر من أخ كريم، ذكر مبب تأليف تلك الرسالة كتابياً، حيث تبقى حية لمن يريدها...». اهـ(۱).

وقد ضمن كتابه هذا من الافتراء وتزوير الحقائق ما يأباه كل لبيب أن ينسب إليه، غير مبال بانكشاف فضيحته، ولا عجب؛ فإن الحياء فطرة لا تكون إلا في الأسوياء، أما من تعفنت فطرته وانطمست بصيرته فلا يعجب إن حرم من نعمة الحياء، وقد صدق رسول الله على القائل: «إن مما أدرك

⁽۱) تصحيح أثر تأريخي حول الوهابية، محمد بن سعد الشويعر، ص٩، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ.

الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»(١)، فإن الحياء إنما يحجز العقلاء من التلطخ برجس الزور والفحشاء.

وقد كان العرب في جاهليتهم يربأون بأنفسهم أن يسجل عليهم كذب اتقاء لعاره، وإن كانوا غير مؤمنين بالله واليوم الآخر، ناهيك أن أبا سفيان عندما كان يجيب هرقل عما يسأله عنه من أحوال النبي ه أبى أن يكذب، لا خشية أن يكذب في كلامه لا خشية أن يكذب في كلامه فيحفظوه عنه، كما قال: «فوالله، لو قد كذبت ما ردوا على، ولكني كنت امرءا سيدا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك، إن أنا كذبته، أن يحفظوا ذلك عني، ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه»(٢).

ونجد السموأل اليهودي يستهجن تحريف الحقائق، لأنه عاش في بيئة عربية، فتخلق بأخلاقها لذلك قال:

وأنصت السامع للقائل نلظ دون الحق بالباطل فنخمل الدهر مع الخامل

إنا إذا مالت دواعي الهوى لا نجعل الباطل حقا ولا نخاف أن تسفه أحلامنا

وإذا كان هذا شأن أهل الجاهلية، فما بالك بالذي يتقمص الإسلام ويدعي بأنه يؤمن بالله واليوم الآخر لا يبالي بتحريف الحقائق في كتاب ينشر ويطبع ويتناقل جيلا بعد جيل، مع أن الحقيقة تأبى أن يواريها الإفك ويطمسها الهوى، كما لا توارى الشمس في رابعة النهار بأكف الجاحدين.

⁽۱) أخرجه أحمد من طريق حذيفة (۳۸۳/۰ رقم ۲۳۳۰). والبزار (۲۰۲۷، رقم ۲۸۳۰). قالزر (۲۸۳۰ رقم ۲۸۳۰). قال الهيثمي (۲۷/۸): رجاله رجال الصحيح. ومن طريق أبي مسعود: أخرجه أحمد (۲۲۱/۶)، رقم ۱۲۱/۶، رقم ۱۲۱/۶، وأبو داود (۲۰۲۲، رقم ۲۷۹۷)، وأبو ماجه (۲۰۰/۲)، رقم ۲۸۹۷).

⁽٢) فتح الباري، ج١، ص٣٥.

ولست بصدد تتبع ترهاته التي ملأ بها كتابه، وفَضْحِهَا ببيان زيفها، فإن هذا أمر تكفل به ما في الكتاب نفسه من زيف، ولو أردت ذلك لعنيت بالرد عليه منذ بروز تلفيقاته في كتابه، ولكني أردت التنبيه على الحقائق التي تجاهلها، وهي أظهر من أن يتجاوزها الجهل أو التجاهل، فقد تولى الرد على الوهابية منذ بداية ابتلاء الأمة بها علماء، سجلوا كلمة الحق وكشفوا ما تنطوي عليه هذه النحلة من انحراف شوَّه صورة الإسلام، وهم أكثر من أن يحصوا.

وقد كان أوّل هؤلاء أخو رائد هذه الدعوة سليمان بن عبدالوهاب في كتابه المشهور (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية)، وقد نادى فيه على أتباع هذه النحلة بالجهل الفاضح والانحراف البين، وكان مما قاله: «ومما يدل على بطلان مذهبكم ما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي هي، أنه قال: «رأس الكفر نحو المشرق»(۱)، وفي رواية «الإيمان يماني، والفتنة من هاهنا حيث يطلع قرن الشيطان»(۱)، وفي الصحيحين أيضا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ، أنه قال وهو مستقبل المشرق «إن الفتنة هاهنا»(۱)، وللبخاري عنه مرفوعا: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا، اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا»، قالوا: أوفي

⁽۱) أخرجه مالك (۹۷۰/۲، رقم ۱۷۶۳)، والبخاري (۱۲۰۲/۳، رقم ۳۱۲۰)، ومسلم (۲۲۲، رقم ۵۲). وأخرجه أيضا: أحمد (۲۰۲/۲، رقم ۱۰۵۸۷)، وأبو يعلى (۲۲۲/۱۱، رقم ۳۳۶۰). رقم ۳۳٤۰).

⁽۲) أخرجه البخاري (۱۲۹۳/۳، رقم ۳۳۲۰)، ومسلم (۲۲۲۹/۶، رقم ۲۹۰۵). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (۲۷/۱، رقم ۴۲۷۲)، وأحمد (۲۳۲۲، رقم ۲۷۵۱).

⁽٣) أخرجـه مالـك (٢٩٧٥)، رقم ١٢٩٣/)، والبخـاري (١٢٩٣/٣)، رقم ٢٣٣٠)، ومسـلم (٢٠٨٤)، رقم ٢٩٣٠)، وأبو نعيم في الحلة (٢٢١/١، رقم ٣٤٨).

نجدنا؟ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا»، قالوا: وفي نجدنا؟ قال الثالثة: «هناك الزلازل، والفتن، ومنها يطلع قرن الشيطان»(۱)، ولأحمد من حديث ابن عمر مرفوعا: «اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي صاعنا وفي مدنا ويمننا وشامنا» ثم استقبل مطلع الشمس، فقال: «هاهنا يطلع قرن الشيطان»، وقال: «من هاهنا الزلازل، والفتن»(۱). اهـ

أقول _ القائل سليمان بن عبدالوهاب _: أشهد أن رسول الله على لصادق، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، لقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، قال الشيخ تقي الدين: «فالمشرق عن مدينته هي شرقا، ومنها خرج مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة وهو أول حادث حدث بعده، واتبعه خلائق، وقاتلهم خليفته الصديق». اهـ، وجه الدلالة من هذا الحديث من وجوه كثيرة نذكر بعضها.

منها: أن النبي ﷺ ذكر أن الإيمان يماني والفتنة تخرج من المشرق، ذكرها مرارا.

ومنها: أن النبي على دعا للحجاز وأهله، وأبى أن يدعو لأهل المشرق لما فيه من الفتن، خصوصا نجد.

ومنها: أن أول فتنة وقعت بعده على وقعت بأرضنا، ونقول: هذه الأمور _ التي تجعلون بها المسلم كافرا بل تكفرون من لم يكفره _ ملأت مكة

⁽۱) أخرجـه أحمـد (۱۱۸/۲، رقم ۵۹۸۷)، والبخـاري (۲۰۱۱، رقم ۹۹۰)، والترمـذي (۲۹۰/۱۱) رقم ۳۹۵۳) وقال: حسـن صحيح غريب. وأخرجه أيضا: ابن حبان (۲۹۰/۱۲، رقم ۷۳۰۱).

⁽۲) أخرجـه أحمـد (۱۱۸/۲، رقم ۵۹۸۷)، والبخـاري (۲۰۱۱، رقم ۹۹۰)، والترمـذي (۲۰/۱۳، رقم ۳۹۰)، والترمـذي (۲۹۰/۱۳، رقم ۳۹۰۳) وقال: حسـن صحيح غريب. وأخرجه أيضا: ابن حبان (۲۹۰/۱۳، رقم ۷۳۰۱).

والمدينة واليمن من سنين متطاولة، بل بلغنا أن ما في الأرض؛ أكثر من هذه الأمور في اليمن والحرمين، وبلدنا هذه هي أول ما ظهر منها الفتن، ولا نعلم في بلاد المسلمين أكثر من فتنها قديما وحديثا، وأنتم الآن مذهبكم، أنه يجب على العامة اتباع مذهبكم وأن من اتبعه ولم يقدر على إظهاره في بلده وتكفير أهل بلده وجب عليه الهجرة إليكم، وأنكم الطائفة المنصورة، وهذا خلاف هذا الحديث، فإن رسول الله على أخبره الله بما هو كائن على أمته إلى يوم القيامة، وهو على أخبر بما يجرى عليهم، ومنه فلو علم أن بلاد المشرق _ خصوصا (نجد) بلاد مسيلمة _ أنها تصير دار الإيمان وأن الطائفة المنصورة تكون بها، وأنها بلاد يظهر فيها الإيمان ويخفى في غيرها، وأن الحرمين الشريفين واليمن تكون بلاد كفر تعبد فيها الأوثان وتجب الهجرة منها، لأخبر بذلك ولدعا لأهل المشرق خصوصا (نجد)، ولدعا على الحرمين واليمن وأخبر أنهم يعبدون الأصنام وتبرأ منهم إذ لم يكن إلا ضد ذلك. فإنه على عم المشرق وخص (نجدا) بأن منها يطلع قرن الشيطان، وأن منها وفيها الفتن، وامتنع من الدعاء لها وهذا خلاف زعمكم، وأن اليوم عندكم الذي دعا لهم الرسول ﷺ كفار، والذين أبي أن يدعو لهم وأخبر أن منها يطلع قرن الشيطان وأن منها الفتن هي بلاد الإيمان تجب الهجرة إليها، وهذا بين واضح من الأحاديث إن شاء الله». اهـ (١).

فلیت شعری؛ هل یری الشویعر أن سلیمان بن عبدالوهاب یرد بکلامه هذا علی عبدالوهاب ابن عبدالرحمن بن رستم؟! وهل کان هذا بأرض نجد حتی یقول فیه ما قال، أو أن الهوی یعمی ویصم؟!.

⁽١) الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، سليمان بن عبدالوهاب النجدي، ص٤٣ - ٤٤، الطبعة الثالثة، المكتبة التخصصية في الرد على الوهابية.

ولسليمان بن عبدالوهاب أيضا كتاب آخر بعنوان (فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبدالوهاب).

وقد توالت الردود على هذه الفئة وما بثته في الأرض من فتنة عمياء حيث حكمت على أبناء الإسلام ـ الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا ويقيمون السولة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت ـ بأحكام المشركين فاستباحت دماءهم وأموالهم بغير حق، بل جاهروا بتشريكهم، وخلع ربقة الإسلام عن أعناقهم، ولم يرعوا حقا لكلمة التوحيد ولا لإقامة شعائر الدين، وإليك طائفة من الذين أنكروا فتنتهم وحاربوا دعوتهم:

- ١ السيد أحمد زيني دحلان مفتي الحرم الشريف في كتابه (الدرر السنية في الرد على الوهابية)، وفي كتابه: (فتنة الوهابية) وفي كتابه (خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام).
 - ٢ _ صائب عبد الحميد في كتابه (الوهابية في صورتها الحقيقية).
 - ٣_ جميل حليم في كتابه (جلاء الظلام في الوهابية التي ضللت العوام).
- ٤ _ سعيد الرحمن التيراهي في كتابه (الحبل المتين في اتباع السلف الصالحين).
 - ٥ _ غيث الغالبي في كتابه (وقفات وإيضاحات مع كشف الشبهات).
- ٦ إسماعيل التميمي المالكي التونسي، في كتابه (رد على محمد بن عبد الوهاب).
 - ٧ الفقيه الحنبلي عبد المحسن الأشقري في كتابه (الرد على الوهابية).
- ٨ الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي المالكي في كتابه: (رد على الوهابية).

- ١ _ مالك داود في كتابه (الحقائق الإسلامية في الرد على الوهابية بأدلة الكتاب والسُّنَّة النبويَّة).
- 11 _ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الحنبلي في كتابه (تهكم المقلدين بمن ادعى بتجديد الدين).
- ١٢ _ الشيخ إبراهيم الراوي في كتابه (الأوراق البغدادية في الحوادث النجدية).
 - ١٣ _ الخواجه السرهندي في كتابه (الأصول الأربعة في ترديد الوهابية).
- ١٤ ـ الأستاذ حسيني حلمي أيشيق في كتابه (علماء المسلمين والوهابيون).
- ١٥ _ الشيخ داود بن سليمان البغدادي في كتابه (صلح الأخوان في الرد على من قال بالشرك والكفران).
 - ١٦ ـ الشيخ جميل صدقى الزهاوي في كتابه (الفجر الصادق).
- ١٧ _ الشيخ أبو حامد مرزوق في كتابه (السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر).
- ١٨ ـ الشيخ إبراهيم بن عثمان السمنودي، في كتابه (سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية).
- ١٩ ـ الشيخ إبراهيم حلمي في كتابه (جلال الحق في كشف أحوال شرار الخلق).
 - ٢٠ _ محمد عطاء الله في كتابه (الأقوال المرضية في الرد على الوهابية).
- ٢١ ـ شاه فضل رسول القادري في كتابه (سيف الجبار المسلول على أعداء الأبرار).

٢٢ _ السيد محسن أمين في كتابه (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب).

وغير هؤلاء كثير أكثر من أن يحصوا، بل الردود عليهم لم تتوقف منذ نشأتهم إلى وقتنا هذا، فهل يرى الشويعر أن هؤلاء قصدوا بردودهم الإباضية أصحاب عبدالوهاب بن عبدالرحمن ابن رستم، وإنما أخطأ الفهم فظن الناس أنهم يردون على وهابية نجد!! مع أننا نجد النصوص واضحة في كونهم استهدفوا بردودهم الدعوة التي قام بها محمد بن عبدالوهاب في نجد، فقد نص على ذلك كل هؤلاء الذين ردوا عليهم وأنكروا فتنتهم وفضحوا بدعتهم، وقد نص غير واحدٍ على أنهم امتداد لغلاة الخوارج الذين استعرضوا أهل القبلة بالسيف، واستباحوا أموالهم وأعراضهم وحكموا عليهم بأحكام المشركين.

ودونك ما قاله في هذا، الصاوي في حاشيته على الجلالين، بعدما ذكر ما قيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَنَ لَكُوْ عَدُوُّ فَٱتَخِذُوهُ عَدُوًّ إِنَّمَا يَدَعُواْ حِزْبَهُ, ما قيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَنَ لَكُوْ عَدُوُّ فَٱتَخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَمَا يَدَعُواْ حِزْبَهُ, لِيَكُونُواْ مِنَ أَصَّعَكِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، ثم قال: ﴿ وقيل، الآية نزلت في الخوارج الذين يحرفون تأويل الكتاب والسُّنَة، ويستحلون بذلك دماء المسلمين وأموالهم، كما هو مشاهد الآن في نظائرهم، وهم فرقة بأرض الحجاز يقال لهم الوهابية، يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، ﴿ ٱستَحَوَدُ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطُنُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أَوْلَيْكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطُنِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطُنِ هُمُ المَا الله الكريم أن يقطع دابرهم». اهـ(١).

ومثله قول ابن عابدين في حاشيته: «كما وقع في زماننا في أتباع

⁽۱) حاشية الصاوي على الجلالين، ج٣، ص٢٥٥، دار إحياء الكتب العربية، لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركائه.

عبد الوهاب، الذين خرجوا من نجد، وتغلبوا على الحرمين، وكانوا ينتحلون مذهب الحنابلة، لكنهم اعتقدوا أنهم هم المسلمون، وأن من خالف اعتقادهم مشركون، واستباحوا بذلك قتل أهل السُّنَّة وقتل علمائهم، حتى كسر الله تعالى شوكتهم وخرب بلادهم، وظفر بهم عساكر المسلمين عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف». اهـ(١).

ونحن نتفق مع هؤلاء الرادين عليهم في إنكار غلو هولاء الوهابية واستعراضهم الناس بالسيف واستباحتهم من أهل القبلة ما لا يستباح إلا من المشركين، وإن كنا لا نتفق مع كل ما اشتملت عليه هذه الردود من الآراء والاتجاهات، ولكل وجهة هو موليها، وإنما المهم الإنصاف في النظرة إلى كل وجهة وصاحبها، بحيث لا يتجاوز فيها حدود العدالة التي شرعها الله بين الناس وفرضها على المؤمنين بقوله: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا وَلَا يَجُرِمَنّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَى آلًا تَعَمُلُونَ وَوَمِينَ لِللَّهُ عَلِيلًا اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهَ اللّهُ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهَ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُولِ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الل

دَوْرُ عُلَمَاء الإباضِيَّة في كشف طَوَايا الدَّعُوَة الوَهَّابية:

لقد شارك الإباضية إخوانهم المسلمين في إنكار هذا الباطل وتسفيه هذا الضلال، وكان ممن عاصر نشأة هذه الدعوة العلامة الكبير الإمام أبو نبهان وَ الله العديد من الرسائل والكتب في تحذير الأمة من فتنة هذه الدعوة، وكان مما قاله في ذلك: «إن هي إلا فتنة ابن الأزرق في

⁽۱) حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، محمد علاء الدين بن محمد أمين بن عمر، المدعو ابن عابدين، ج٤، ص٢٦٢، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، بيروت.

الأولين، أحياها محمد بن عبدالوهاب في الآخرين، فوازره على بثها من قد أظهرها فدعا إليها وقاتل عليها، فهي هي ما أكبرها من غير ما شكِّ عند من أبصرها، طوبى لمن أعرض عنها فاعتزلها والويح لمن دخلها أو رضي عمن فعلها أو قدر أن يمحو أثرها فتركها وضررها، إلا لما به يعذر لأنها من أنواع جنس الباطل في الإجماع، لا جواز لها في دين ولا رأي أحد من المسلمين.

أولا تسمع بالذي بين الصحابة قد جرى يوم الدار والجمل وصفين، وما بعدها من الوقائع في التابعين؟ فإن فيه دليلا لمن يرى أنهم لا يشركون أهل قبلتهم، لأنهم لم يجاوزوا في قتالهم لمن بغى في دينونة أو انتهاك لما دان بتحريمه، ما قد أحله الله منهم إلى ما زاد عليه في المشركين من سبي ذرية ولا غنيمة مال ولا قطع موارثة ولا منع مناكحة ولا تحريم ذبيحة ولا إباحة ذات بعل، كلا بل اقتصروا على ما أذن به مولاهم ولا نفل لبقاء ما لهم حتى يفيئوا إلى أمره تعالى، لا غيره، في موضع فرض ولا نفل لبقاء ما لهم شرك الجحود وما به يكون الشرك من أنواع الكنود، لولا هذا لما استجازوا منهم ما لا يجوز من المشركين حال المحاربة أو قبلها أو بعدها ولا جاز لهم أن يبطلوا ما لغيرهم من الغنيمة في الحق فيضيعوا، ألا وإن من حقهم أن يحاشوا من هذا كله لعدم عدله.

ومن العجب في هؤلاء المتوهبين أنهم من جهلهم يشركون الناس قبل المعرفة بالذي هم عليه، وإذا جاز هذا لهم فأي مانع من جوازه لغيرهم فيهم قبل أن يصح معهم إسلامهم، فإن أبوا فهي المكابرة تحكما لعدم الفرق أن لو جاز، ولكنه لا يجوز بالحق لأن من حكم بمثل هذا على الغيب في شيء فلا مخرج له من العيب على حال، في نفس ولا مال.

أوليس قد كان على عهد النبي على أناس من أهل المعاصى في نفاق

أخبره الله بهم، فلم يخرجهم في شيء من حكم المقرين، وإن لم يكن لهم ولاية في الجملة ولا عند من ظهر له وصح معه ما هم به، بلى؛ إلا ما خص به فيهم من النهي له أن يصلي على من مات منهم أو أن يقوم على قبره دون غيره من المسلمين، لأن لهم في الحقوق والحدود مثلهم من غير فرق بينهم ولو أنهم قد بلغ بهم إلى الشرك لأفردهم بما لأهله من الخصوص من حكم في دين الإسلام، ولمنعهم النبي على بعد عام تسع من الهجرة وعلى قول آخر سنة حجة الوداع من أن يقربوا المسجد الحرام، وكل هذا لم يكن على عهده هم أنى يجوز أن يصح جوازه من بعده، وإن كانوا في محل البراءة نازلين، أم جاز ونحن لا نعلم أن يأمره الله به فعلا فيتركه أو أن يظهره قولا فيكتمه، قل هاتوا برهانكم يا معشر الوهابيين إن كنتم على ما تدعون من هذا صادقين.

ألا وإن من عجائبكم يا هـؤلاء أنكم على الخوارج تنكرون وأنتم بدين الممارقة في هذا دائنون، وعلـى الله في تحليله تفتـرون، إنهم على مروقهم لإخوانكم في الدين، فلم لهم تكفرون ما لكم كيف تحكمون؟ لو شـئنا أن نورد على ما به من قـول الله تختصمون لأتينا فيه بما يـدل على أنكم في تأويله عن طريق الرشد ناكبون، إني لأراكم عن بصيرة قوما تجهلون، بدليل ما بأقوالكم من بعـد عن الصواب في عيـن من له أدنى بصـر نافذ، أفلا تعقلون؟ فاتقوا الله أن تقولوا ما لا تعلمون، من ذا الذي قد أجاز هذا قبلكم فاسـتدل على تجويزه خطأ بمثل ما به قد اسـتدللتم غير ابن الأزرق؟! فلم يوافقه على ما أحدثه في أيامه أحد من الفـرق، لأنه في باطله أظهر من أن يخفى على من له قلب يبصر، والحمد لله على ما هدى وله الحمد على كل حال في الأخرة والأولى». اهـ(۱).

⁽١) من مخطوطة بيد المؤلف، لأبي نبهان في الرد على الوهابية.

وقال أيضا: «يا قومنا مالي أراكم قد أظهرتم اللجاج في دعاء الناس إلى هذا المنهاج، فأكثرتم من التلبيس على الضعفاء لما به من الحجاج، أفترونه صراطا مستقيما ونحن نراه ظاهر الاعوجاج، إذ قد شركتم من كان على غير ما به أنتم متأولين من قول الله رب العالمين ما لم تحيطوا به علما، فسفكتم دماءهم عدوانا وظلما وأكلتم بالباطل أموالهم غنما، واستحللتم سبي ذراريهم واتخذتم ولدانهم عبيدا، ووطئتم فروج نسائهم سفاحا، فأتيتم منه عظيما، وزعمتم أن الحق في أيديكم فأطلقتم محظورا وحجرتم مباحا، أما أن لكم أن ترجعوا إلى سماع من ينهاكم عن هذا الفساد؟ يريد لكم النجاة فيهديكم إلى سبيل الرشاد، ويحثكم إلى الرجوع إلى ربكم خوفا من عذابه الأليم في الجحيم، وطمعا فيما عنده من النعيم المقيم». اهد(۱).

وقال أيضا: «ألا وإن الوهابية كأنها تزعم في مذهبها أنها حنبلية!! وليست كذلك، لأن لهم في تشريك أهل القبلة واستحلال قتالهم وسبي ذراريهم وغنيمة مالهم، شوبا من الأزارقة، وفي هذا ما دل على أنهم لا من الحنابلة ولا الأزارقة بالكلية، فإن كانوا خلطوه من هذا وذلك، فاتخذوه من بينهم مذهبا لهم، فعسى أن يكون كذلك». اهـ(٢).

وممن اعتنى بالرد عليهم تلميذ الإمام المذكور وابن ابن أخيه، الشيخ العلامة منصور بن محمد بن ناصر بن خميس الخروصي، ومن تآليفه في هذا رده الواسع على كتاب الشبهات، الذي ألفه رائد هذه الدعوة محمد بن عبدالوهاب.

وقد اشتهرت الوهابية فيما مضى عندنا بعُمان بالأزارقة، لعدم الفرق

⁽١) المرجع السابق.

⁽٢) المرجع السابق.

بينهم وبين الأزارقة في استعراض المسلمين بالسيف، واستباحة ما لا يستباح إلا من أهل القبلة منهم، وفي هذا يقول الإمام السالمي والله القبلة «وتعرفهم العامة بالأزارقة، لأنهم شابهوا الأزارقة في تشريك أهل القبلة، فلم تفرق العامة بينهم وبين الأزارقة، وهم إنما أخذوا من الأزارقة مسألة التشريك، ومن الحنابلة مسألة التشبيه؛ وأخذوا من كل مذهب أغثه، وقالوا قد أصبنا دينا كما صنعت الصابئة، وكان اعتقاد الوهابية في المسلمين أسوأ اعتقاد»(١).

ثُبُوتُ تَشْرِيكَ الوَهَّابيَّة لأهل القِبْلَة في نُصُوصِ عُلمائها:

هذا؛ ولم يكن ما نسب إليهم من تشريك أهل القبلة وإخراجهم من ملة الإسلام وإلحاقهم بعبدة الأوثان دعوى ألصقت بهم من غير أن يقوم عليها برهان، فإن مؤلفاتهم طافحة بالنصوص الجلية الدالة على أن هذا هو اعتقادهم في هذه الأمة، فكم تجد في مراسلاتهم من إطلاق وصف الشرك على أهل التوحيد، ومن ذلك ما جاء في رسالة عبداللطيف بن عبدالرحمن إلى حمد بن عتيق، التي قال فيها:

«وبعد ذلك: أتانا النبأ الفادح الجليل، والخطب الموجع العظيم، الذي طمس أعلام الإسلام؛ ورفع الشرك بالله وعبادة الأصنام، في تلك البلاد، التي كانت بالإسلام ظاهرة، ولأعداء الملة قاهرة، وذلك بوصول عساكر الأتراك، واستيلائهم على الأحساء والقطيف، يقدمهم طاغيتهم (داود بن جرجيس) داعيا إلى الشرك بالله، وعبادة إبليس. فانقادت لهم تلك البلاد، وأنزلوا العساكر بالحصون والقلاع، ودخلوها بغير قتال ولا نزاع، فطاف بهم إخوانهم من المنافقين، وظهر الشرك برب العالمين، وشاعت مسبة أهل التوحيد والدين»(١).

⁽١) تحفة الأعيان، ج٢، ص٢٧٨.

⁽٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، ج٨، ص٣٩٣، ٤١٧هـ/١٩٩٦م، ط٦.

وسئل محمد بن عبد اللطيف وسليمان بن سحمان وصالح بن عبد العزيز ومحمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف وكافة علماء العارض عن العجمان والدويش ومن تبعهم، حيث خرجوا من بلدان المسلمين يدعون أنهم مقتدون بجعفر بن أبي طالب وأصحابه وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة، فأجابوا: «هؤلاء الذين ذكرهم السائل، وهم العجمان والدويش ومن تبعهم، لا شك في كفرهم وردتهم، لأنهم انحازوا إلى أعداء الله ورسوله، وطلبوا الدخول تحت ولايتهم، واستعانوا بهم، فجمعوا بين الخروج من ديار المسلمين، واللحوق بأعداء الملة والدين، وتكفيرهم لأهل الإسلام، واستحلال دمائهم وأموالهم.

إلى أن قال: وأما قول السائل: إنهم يدعون أنهم رعية الأتراك، ومن الأتراك السابقين، وأنهم لم يدخلوا تحت أمر ابن سعود وطاعته، إلا مغصوبين، فهذا أيضا من أعظم الأدلة على ردتهم، وكفرهم»(١).

وجاء في جوابهم أيضا: «وأما الدهينة، والخضري، وولد فيصل بن حميد، وأتباعهم، الذين قدموا من عند ولد الشريف، يدعون إلى ولايته، فهؤلاء لا شك في ردتهم والحال ما ذكر، لأنهم دعاة إلى الدخول تحت ولاية المشركين، فيجب على جميع المسلمين جهادهم وقتالهم، وكذلك من آواهم ونصرهم، فحكمه حكمهم»(٢).

وهي نصوص دالة بلا ريب على أنهم يعدون من خالفهم من أهل الشرك، ولو أتى بأركان الإسلام الخمسة، وحافظ على شعائره، ناهيك بما جاء من النص على أن رائد هذه الدعوة إنما قاتل من قاتله لأجل ترك

⁽۱) المرجع السابق، ج۸، ص۳۹۳.

⁽٢) المرجع السابق، ج٨، ص٢١٤.

الشرك، ففي الدرر السنية ما نصه: «والشيخ محمد بن عبد الوهاب قاتل من قاتله، ليس لكونهم بغاة، وإنما قاتلهم على ترك الشرك وإزالة المنكرات»(١).

وهذا ما نص عليه أحدهم بقوله: «فلقد ظهر هذا الشيخ المجدد المجتهد _ يعني محمد بن عبدالوهاب _ في وقت كان أهله شرا من حال المشركين، وأهل الكتاب في زمن البعثة، من شرك وخرافات، وبدع وضلالات، وجهالة غالبة؛ فدعا إلى عبادة الله وحده، والرجوع إلى أصل الإسلام، فأعاد نشأة الإسلام كما كانت»(٢).

وهو ظاهر في كونهم يعتقدون أن جميع الناس كانوا على الشرك قبل أن تظهر دعوتهم!!.

وقال غيره: «إذا علمت هذا، وعلمت ما عليه أكثر الناس، علمت أنهم أعظم كفراً وشركاً من المشركين، الذين قاتلهم رسول الله على "".

تَطْبِيقُ الوَهَّابِيَّةَ أحكامَ أَهْلِ الشِّرْكَ على الأمَّة في قتالهم لَها:

لم يقتصر الوهابية في إطلاق حكم الشرك على أهل القبلة على التنظير فحسب، وإنما طبقوا عليهم أحكام أهل الشرك في مقاتلتهم لهم، إذ لم يقتصروا على استباحة دمائهم، بل استباحوا مع ذلك أموالهم، فعدوها غنائم توزع على مقاتلتهم، كما توزع الغنائم المأخوذة من أموال المشركين بعد تخميسها، وقد عدوا هذا من أمجادهم التي رفعوا عقيرتهم بالمفاخرة بها، فقد ألف أحد رجالهم الذين يعدونهم من علمائهم وهو عثمان بن عبدالله بن

⁽١) المرجع السابق، ج١٢، ص٩.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص١٨.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص١٤٨.

بشر النجدي الحنبلي الذي عاصر كثيرا من أحداثهم _ كتابا مشتملا على أنباء ثوراتهم، سماه: (عنوان المجد في تأريخ نجد) يجد فيه القارئ من الجرأة على سفك الدماء ونهب الأموال باسم الدين ما يذهب بلبه.

وإلى القارئ الكريم مقتطفات من نصوص هذا الكتاب، تبرز حقائق اعتقادهم في الأمة، من ذلك قوله: «فأول جيش غزا سبع ركائب، فلما ركبوها وأعجلت بهم النجائب في سيرها سقطوا من أكوارها، لأنهم لم يعتادوا ركوبها، فأغاروا _ أظنهم _ على بعض الأعراب فغنموا ورجعوا!!»(١).

وذكر عن شيخه محمد بن عبدالوهاب أنه قضى من دينه أربعين ألف محمدية من غنائم الرياض!! قال: «وكان لا يمسك على درهم ولا دينار، وما أتى إليه من الأخماس والزكاة يفرقه في أوانه، وكان يعطي العطاء الجزيل، بحيث إنه يهب خمس الغنيمة العظيمة لاثنين أو ثلاثة»(٢).

وقال: «وفيها غزا عبدالعزيز السدير، وعدا على جلاجل، وأخذ سوارح غنمهم، وحصل بينهم قتال، فقتل منهم ستة رجال!!». (٣) وقال: «ثم غزا عبدالعزيز إلى الخرج، فأوقع بأهل الدلم، وقتل من أهلها ثمانية رجال!! وفنهبوا فيها دكاكين فيها أموال». (٤) وقال أيضا: «فقصد الدلم والخرج وقاتل أهلها وقتل من فرع أهل البلد سبعة رجال، وغنم عليهم إبلا كثيرة!!». (٥) وقال أيضا: «وفيها سار على بلد الزلفي فأخذ غنمهم!! ولحقه الفزع وتركها لهم» (٢).

⁽۱) عنوان المجد في تأريخ نجد، عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ج۱، ص٤٦، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الرابعة، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

⁽٢) المرجع السابق.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص٧٨.

⁽٤) المرجع السابق، ج١، ص٨٣.

⁽٥) المرجع السابق.

⁽٦) المرجع السابق، ج١، ص٨٥.

وقال أيضا: «وفيها أغار عبدالعزيز على مساعد بن فياض وعربانه المعروفين بالنبطة من سبيع، فأخذهم وهم بالموضع المعروف بالعتك، بين السدير والمحمل وقتل منهم عشرة رجال منهم القروي وأولاده!! وأخذ أثاثهم وغنم المسلمون منهم ثمانين ذودا!! من الإبل وجميع أمتعتهم»(١).

وقال أيضا: «وذلك أن عبد العزيز سار بالمسلمين إليهم، ومعه غزو من أهل الرياض مع دواس بن دهام، فأغار عليهم وهم على جراب (الماء المعروف قرب السدير) فاستأصل جميع أموالهم، وقتل منهم نحو ثلاثين رجلا»(٢).

وقال: «فسابقهم عبد العزيز وأهل الدرعية، وقاتلوهم أشد القتال، وأخرجوهم منها قسرا، وقتلوا منهم رجالا، وأخذوا منهم فرسا». (٣) وقال: «وذلك أن عبد العزيز سار غازيا إلى بلد ثرمدا، فلما وصلها جعل له كمينا، وأغار على البلد، وأخذ أغنامهم واستاقها، فخرجوا عليه، فلما التحم القتال خرج عليهم الكمين، فانهزم أهل البلد، وقتل منهم نحوا من عشرين رجلا، منهم راشد وحمد أبناء إبراهيم بن سليمان وإمام أهل البلد محمد بن عيد»(١٠).

فانظر كيف استباحوا سفك دماء أهل البلد واستياق أغنامهم، مع أنهم مسلمون يؤمهم في صلاته إمام منهم وهو نفسه لم يسلم من القتل، وإذا كان النبي ينهى عن قتل رهبان النصارى فما بالك بأئمة الصلاة عند المسلمين؟!.

وقال أيضا: «فأخذ منهم عبد العزيز إبلا كثيرة وأغناما وأمتعة». (٥) وقال

⁽١) المرجع السابق.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٢ - ٩٣.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص٩٧.

⁽٤) المرجع السابق، ج١، ص١٠١.

⁽٥) المرجع السابق، ج١، ص١٠٥.

أيضا: «وفيها سار عبد العزيز بجنود المسلمين، وقصد آل حبيش من العجمان، وهم في صبحا المعروفة قرب سدير، فأغار عليهم وأخذ عليهم إبلا كثيرة، وقتل من الأعراب عدة رجال، وفيها سار سعود إلى الرياض فأخذ سارحة أغنام»(١).

وذكر غزو عبد العزيز للرياض بعد فرار أهلها منها، فقال: «وحاز عبد العزيز ما فيها من أموال الهاربين، من السلاح والطعام والأمتعة وغير ذلك». (٢) وقال: «وفيها «واستولى عبد الله على ما فيها (القصيم) من الأموال». (٣) وقال أيضا: «وفيها (أي سنة ١٩١١هـ) استنفر عبد العزيز جميع رعاياه، يريد الخرج، فاجتمعوا معه في الدرعية، ومعهم غزو أهل بلدة خرمة فأمر عبد العزيز بالمسير مع أسفل الوادي إلى ناحية الخرج، فصعد عثمان بن عبد الله أمير حرمة إلى الشيخ وعبد العزيز، وقال: كيف تسيرون إلى أهل الخرج وبلدنا خرمة قد ظهرت منهم أمارات الردة ونقض العهد؟ وأنا لا أقدر آمر فيهم بمعروف، ولا أن أستقر عندهم على هذه الحال، إلا إن ضعضعتموهم وأمسكتم منهم رهائن تجعلونهم عندكم في الدرعية، حتى يركد جأشي وأصدع بالدين في البلد وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ولا أحاذر.

فلم يـزل بعبدالعزيز حتى نكـس الجيش معه إلى ناحيـة منيخ، فثوَّر المسلمين، وسـار بهم عبدالله ابن محمد بن سعود، فأدلجوا بالليل والنهار، وسار مسيرهم على الحيسية مع الحمادة لتعمى عنهم الأخبار حتى يبغتوهم في بلادهم، فوصلوا بلد حرمة بالليل وهم هاجعون، ففرق عبدالله رجالا في بروج البلـد والبروج التي على السـور وعلـى الدور وعلى بيبان القلعة

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص١١٨.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص١٢٠.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص١٢٧.

والجموع في متارسها، فلما انبلج الصباح، ونادى أذان الفجر (حي على الصلاة)، أمر كل صاحب بندق يثور ما في بطنها، فثوروا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها وأسقط شيء من الحوامل، ففزعوا، فإذا البلاد قد ضبطت عليهم، وليس لهم قدرة ولا مخرج»(۱).

وهو كلام غني عن التعليق، فانظر كيف يحكمون بالارتداد على قوم ينادي مناديهم إلى الصلاة!! ويباغتونهم في صلاتهم بما يرعبهم حتى تسقط حواملهم ما في أرحامهن!!.

على أن هذا إنما كان بسبب دعوى ادعاها على هولاء القوم عاملهم على بلادهم، فلم يرعوا حرمة للصلاة التي نودي إليها، ولم يبالوا أن يداهموهم جميعا في حال غرتهم فيفجأوهم بهذا الحادث الجلل، وليت شعري؛ إن كان القوم مرتدين _ كما يزعمون _ فما هي جريمة الأجنة في أرحام النساء حتى تعرض للإسقاط، مع التفاخر بهذا الأمر، وعده من عناوين المجد؟!.

أين هذا الصنيع من هدي رسول الله على ، فقد ثبت عن أنس الله قال: «إن النبي على كان لا يغير حتى يصبح، فيستمع، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار»(٢).

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص١٣١ - ١٣٢.

⁽۲) أخرجه الشافعي في مسنده: (۱/۱۳)، والبخاري في صحيحه (۲۷۷/۳ رقم ۲۷۷۷)، ورقم (۲۷۸۶)، ومسلم في صحيحه (ج۱/۲۸۸، رقم ۳۸۲)، وابن أبي شيبة في مصنفه (۷۲۸۳ رقم ۳۹۲۱)، وقم ۲۲۸۷۱)، وأحمد في مسنده: (۱۸۲۹ رقم ۲۳۱۷)، وأحمد في مسنده (۲۲۹۳ رقم ۲۳۱۳)، و(۳/۲۹ رقم ۲۳۲۷)، وابن مسنده (۲۲۹ رقم ۲۲۰۸۱)، و(۲۰۸۱ رقم ۲۲۷۱)، وابن خزيمة في صحيحه (۱۱/۱۱ رقم ۲۰۸۱)، وابن حبان في صحيحه (۱۱/۱۱ رقم ۲۷۵۷)، والبيهقي في سننه الكبرى (۲۰۸۱ رقم ۲۷۲۱)، و(۲۰۸۱ رقم ۲۷۸۷)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (۲۰۸۷) وغيرهم.

وهكذا كان صنيعه على حتى مع يهود خيبر، وقد كان من هديه الله تعالى حقا فلا حرمات الأجنة ولو تكونت بسفاح، لأن لكل نسمة خلقها الله تعالى حقا فلا يجوز العدوان عليها بجريرة غيرها، فعن عبدالله بن أبي مليكة أن امرأة جاءت إلى رسول الله على ، فأخبرته أنها زنت وهى حامل، فقال لها رسول الله على: «اذهبي حتى تضعي». فلما وضعت جاءته، فقال: لها رسول الله على: «اذهبي حتى ترضعيه». فلما أرضعته جاءته، فقال: «اذهبي فاستودعيه». قال: فأمر بها، فرجمت. اهد().

وقال أيضا: «بعدما رجع عبدالله إلى الدرعية سار بالمسلمين إلى ناحية الخرج، فأوقع بهم وقتل منه ستة رجال وعقر عليهم إبلا وأغناما»(٢).

وقال أيضا: «اجتمع قبائل الظفير وغيرهم مع محسن بن خلاف رئيس السعيد وقبيلته ودهام أبا ذراع وقبيلته من الصمدة وغيرهم والجميع نحو سبعة آلاف، ونزلوا على مبائض الماء المعروف قرب السدير، فسار سعود إليهم بالجنود المنصورة من الحاضرة والبادية، فلما أشرف عليهم سعود استكثرهم فرجع إلى أرض بلد نمير، واستنفر أهل سدير ركبانا ومشاة، فنفروا إليه مسرعين، فنازل تلك العربان على مائهم وتقاتلوا قتالا شديدا، فأدال الله المسلمين منهم وانهزم تلك العربان فولوا مدبرين، وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة، واستأصل سعود أكثر أموالهم وحازها!!! فالأغنام نحو سبعة عشر ألفا، والإبل خمسة آلاف، والخيل خمسة عشر فرسا، وأخذ جميع ما في محلتهم والأمتعة وغير ذلك، وقتل منهم قتلى كثيرة من الفرسان

⁽۱) أخرجه مالك في موطئه: (۱۱۹/۵ رقم ۱۱۹/۵)، وعبدالرزاق (۳۲٤/۷، رقم ۱۳۳۵)، وأخرجه الترمذي من طريق عبدالله بن بريدة عن أبيه (۲۵۹/۶ رقم ٤٤٤٤) ومسلم من طريق عمران بن حصين (۱۲۰/۵ رقم ٤٢٤٩).

⁽٢) عنوان المجد في تاريخ نجد، ج١، ص١٣٣.

والرجال منهم دهام أبا ذراع وثواب ابن حلاف وغيرهم، وأخذ سعود خمس الغنيمة وقسم الباقي في المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان»(١).

وقال: «سار سعود بالجنود المنصورة، وقصد عالية نجد، وأغار على الصهبة من عربان مطير، وهم على المستجدة المزرع المعروف عند جبل شمَّر، فصبحهم عليها وأخذ إبلهم وأغنامهم وحلتهم وأثاثهم وأخذ عشرا من الخيل، وقتل رجالا من رؤسائهم وفرسانهم منهم دخيل الله ابن جاسر الفغم وابن عمه خلف الفغم، ثم رجع إلى وطنه». (٢) وقال: «سار سعود بالمسلمين وقصد ناحية الأحساء وصبح أهل العيون ولم يبلغهم عنه خبر، وأخذ كثيرا من الحيوانات، وأخذ من بيوتها أزوادا وأمتعة» (٣).

وقال: "سار سعود بجنود المسلمين إلى جهة الخرج، فذكر له في أثناء طريقه أن قافلة حافلة من أهل الخرج وغيره ظاهرة من الأحساء، فرصد لهم سعود على الثليما، المعروفة قرب الخرج، فأقبلت القافلة، وكانت على ظمأ وقدموا لهم ركابا ورجالا إلى الماء، فأغار عليهم سعود فقتلهم، ثم أناخت الحدرة، فنازلهم سعود واستمروا ساعة في جدال وقتال واقتتلوا قتالا شديدا، قتل بينهم قتلى كثيرة، والقافلة قريب ثلاثمائة رجل، فحمل عليهم المسلمون وأخذوا جميع ما معهم من الأموال والقماش والمتاع والإبل وغير ذلك، وقتل منه قريب من سبعين رجلا".

وقال: «سار سعود بن عبد العزيز بالجيوش المؤيدة المنصورة من حاضرة نجد وباديها، وقصد جهة الشمال، فوافق ثويني في ديرة بني خالد من أرض

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص١٤٥ - ١٤٦.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص١٥٢.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص١٥٤.

⁽٤) المرجع السابق، ج١، ص١٥٥.

الصمان وذلك بعدما خرج من البصرة كما ذكرنا، ومعه قطعة من المنتفق وآل شبيب فنازلهم سعود وأخذ محلتهم وأثاثهم» ثم قال: «سار سعود قبل هذه الغزوة بجنود المسلمين الحاضرة والبادية وقصد بني خالد، فوجدهم مجتمعين بأرضهم فنازلهم نحو يومين، ثم رحل وانصرف عنهم ولم يقع قتال، لأن سعودا خاف من خيانة بعض الأعراب الذين معه من بني خالد، ونزل على قراياهم التي في الطف، فأخذ ذخائرهم التي فيها من الطعام وغيره»(۱).

وقال: «سار سعود بجنوده المنصورة والخيل العتاق المشهورة، واستلحق معه عربان الظفير وعربان العارض ومعه زيد بن عريعر وجلوية بني خالد، وقصد بني خالد ورئيسهم يومئذ عبدالمحسن بن سرداح وابن أخيه ونويحس بن عريعر وهم نازلون عند غريميل المعروف عند الأحساء، فعدا عليهم ونازلهم ووقع القتال بينهم ثلاثة أيام، ثم انهزم بنو خالد وأتباعهم، فكرَّ المسلمون في ساقتهم يقتلون ويغنمون، وحاز سعود من الإبل والغنم والأمتعة والأثاث ما لا يعد ولا يحصى، وقتل عليهم قتلى كثيرة، وأخذ خمس الغنيمة وقسم باقيها في المسلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان». (٢) وقال: «وفي أثناء ذلك أمر عبدالعزيز على حسين بن مشاري ومعه أناس من العربان بالمغزا، فأغار على عربان الشريف فأخذ منهم إبلا» (٣).

وقال: «لما انصرف الشريف من الشعرى أمر سعود محمد بن معيقيل، يتبع أثره بجماعة من المسلمين ويغير عليه من خلفه، فسار محمد خلفهم، وأغار على فريق من قحطان فأخذ عليهم إبلا كثيرة، وفزع عليه منهم خيل

⁽۱) المرجع السابق، ج۱، ص۱٦٧ - ١٦٨.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص١٧٤ - ١٧٥.

فحصل جدال خيل بين الفرسان وأخذ المسلمون منهم خمسة عشر فرسا من عتاق خيل الأصايل، ثم رحل سعود وقصد عربان مطير، رئيسهم حسن الدويش، فأغار عليهم وحصل قتال شديد بين الرجالة والفرسان، فقتل من الأعراب نحو العشرين وأخذوا بعض الإبل».(۱) إلى أن قال: «وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، من الإبل والغنم والأثاث والأمتعة، وأخذ جميع محلتهم» وقال بعد ذلك: «وتبعهم المسلمون وأخذوا جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة، وقاموا في أثرهم يومين، يأخذون الأموال ويقتلون الرجال، وحاز سعود جميع الغنائم، الإبل أحد عشر ألف بعير، والغنم أكثر من مائة ألف، وعزل الخمس وقسم باقيها في المسلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان»(۱).

وقال: «سار سعود غازيا بالجنود المنصورة من البادي والحاضر، وقصد القطيف وحاصر أهل سيهات، وتسور المسلمون جدارها وأخذوها عنوة، وأخذوا ما فيها من الأموال وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى، وأخذوا عنوة، وقتل منهم خمسمائة رجل، ثم سار إلى القديح وأخذه عنوة، وأخذ منهم كثيرا من الأموال، وقتل عليهم رجالا»(٣).

وقال: «غزا هادي بن قرملة رئيس عربان قحطان بأمر عبدالعزيز بن سعود، وسار معه عربان قحطان وأغار على عربان من مطير، وهم على الحنابل، الماء المعروف في عالية نجد، فحصل بينهم قتال شديد، فانهزم المطران وأخذ منهم ثلاثة آلاف بعير».(1) وقال بعد ذلك: «غزا سليمان

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص١٧٦.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص١٧٧ - ١٧٨.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص١٧٨.

⁽٤) المرجع السابق، ج١، ص١٧٩.

ابن عفيصان بأمر عبد العزيز بجيش من أهل الخرج وغيرهم، وقصد قطر المعروف بين عُمان والبحرين، فصادف غزوا منهم خمسين مطية، فنازلهم وقاتلهم فانهزموا، ولحقهم سليمان وجنوده فقتلوهم إلا قليلا، وأخذ ركابهم».

ثم قال: «وفيها كانت غزوة الشقرة، وذلك أن سعودا سار بجنوده المنصورة من البادي والحاضر، وقصد ناحية جبل شمر، وكان قد ذكر له قبائل كثيرة مجتمعة من عربان مطير وعربان حرب وغيرهم على الماء المعروف بالشقرة، قرب جبل شمر فأغار عليهم، وصبحهم فيها وأخذهم جميعهم وحاز منهم أموالا عظيمة من الإبل والغنم والأمتعة والأزواد، وأخذ منهم أكثر من عشرين فرسا، ثم رحل سعود بجميع الغنائم وأخرج خمسها، وقسم باقيها غنيمة في المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان»(۱).

وقال: «فأرسل سعود إلى رؤساء المسلمين، واستشار في النفير أو الحضير، فقال له الرؤساء العربان: انهض وشن الغارة على أهليهم، وخذ أموالهم ومواشيهم ومحلهم، فليس دونها صاد ولا راد». (٢) وقال: «فلم يلبثوا إلا أن أقبلت عليهم جموع بني خالد واردين، كأنها قطع الليل، فنهض المسلمون فرسانا وركبانا، فلم يثبتوا لهم ساعة واحدة حتى انهزموا لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ما ولد!! فتبعهم المسلمون في ساقتهم! يقتلون ويغنمون واستأصلوا تلك الجموع قتلا ونهبا، وانهزم براك بن عبدالمحسن ومعه شرذمة قليلة من الخيالة إلى المنتفق، وهلك من بني خالد في هذه الوقعة بين القتل والظمأ خلائق كثيرة، قيل إنهم أكثر من ألف رجل، وأخذ جميع ركابهم وخيلهم وأذوادهم وأمتاعهم وفرشهم وجميع ما معهم والخيل

⁽۱) المرجع السابق، ج۱، ص۱۷۹ - ۱۸۰.

⁽۲) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٠ - ٢٠١.

أكثر من مائتي فرس، وحاز سعود تلك الغنائم وأخذ خمسها، وقسم الباقي في المسلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان»(١).

وقال بعد ذلك:» وأرسل خلفهم سعود بن غيث ومعه جيش من المسلمين، يترصدون للهارب من الأحساء، فصادفوا غزوا من أهل عُمان ومعهم خيل وإبل فقتلوهم، وأخذوا ما معهم وهم يزيدون على المائة»(٢).

وقال: «وسارت الجنود إلى بلاد ابن بطال، فوقع فيها قتال فانهزم أهلها وقتل منهم عدد كثير، وأخذ سعود ما فيها من الأمتعة والطعام والحيوان والأموال، ثم ساروا إلى بلدان الشرق، فحصل فيها قتال وجدال، وارتجف أهل الشرق وجميع البوادي الذين مع سعود وغيرهم، يدمرون في الأحساء، ويصرمون النخيل ويأخذون من التمر ويبيعونه أحمالا ويأكلون ويطعمون رواحلهم من الحاضر والبادي واجتالوا جميع البوادي من الأحساء نهبا»(٣).

وقال: «سار محمد بن معيقيل بأهل الوشم والسدير، سار معه كثير من عربان قحطان ومطير وبني حسين وكثير من الدواسر والسهول وغيرهم، فسار بهم محمد إلى عالية نجد فأغار على عربان بني هاجر، ورئيسهم يومئذ ناصر بن شري وهم نازلون في الحزم الراقي بين الذنائب والثعل، ونازلهم فوقع بينهم قتال شديد، وانهزم بنو هاجر وقتل منهم عدة قتلى منهم رئيسهم ناصر المذكور، وأخذ جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة والأزواد، ما يخرج عن العدد والإحصاء، وعزل محمد ابن معيقيل خمس الغنيمة وأرسلها إلى عبدالعزيز وقسم باقيها في غزوه للراجل سهم وللفارس سهمان»(1).

⁽۱) المرجع السابق، ج۱، ص۲۰۱-۲۰۲.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٢.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٥.

⁽٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

وقال: «سار سعود بالجنود المنصورة والخيل العتاق المشهورة من نواحي نجد وعربانها، وقصد جهة الشمال، فأغار على عربان كثيرة مجتمعة من آل ظفير وغيرهم وهم بالحجرة المعروفة، فهزمهم، وقتل منهم رجالا كثيرة وأخذ منهم ألفا وخمسمائة بعير وجميع أغنامهم ومحلتهم وأثاثهم وذلك في شعبان، ثم قفل راجعا بعدما قسم الغنائم»(۱).

وقال: «أمر عبد العزيز على جيش من أهل الخرج وغيرهم، وسار بهم إبراهيم بن عفيصان وقصد بهم ناحية قطر، وأغار على أهله وأخذ إبلا كثيرة وأموالا من عربانهم، وأقبل بهم وباعها في الأحساء»(٢).

وقال: «سار سعود بجنوده المنصورة وأغار على عربان مجتمعة من عتيبة ومطير وهم في الحرة المعروفة في الحجاز، ورئيسهم أبو محيور العتيبي، فدهمهم فيها وهربوا في الحرة وحصل قتال شديد، فأخذ عليهم نحو مائة بعير وأغناما كثيرة، وكثيرا من الأمتعة والأزواد، وقتل أبو محيور المذكور والقدح من رؤساء مطير نحو ثلاثين قتيلا»(٣).

وقال: «فحمل هادي ومن معه على جنود الشريف، فولوا منهزمين وانحرفوا على أعقابهم هاربين، فلحقهم أولئك البوادي والجنود يقتلون ويغنمون!! ومنحهم الله أكتافهم وأموالهم، فقتل نحو ثلاثمائة رجل وغنم منهم هادي وجنوده إبلا كثيرة وغير ذلك، وأخذوا خيمة الشريف ومدفعه، وانهزم ومن معه إلى أوطانه وتفرقت أعوانه وعربانه، وعزلت الأخماس وأرسلوها إلى عبدالعزيز، وكان عبدالعزيز قد بعث محمد بن معيقيل ردءا لابن قرملة وعمونا فانفض الأمر وانقضى عند مجيئهم، فحث محمد بن

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص٢١٠ ـ ٢١١.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص٢١١.

⁽٣) المرجع السابق، ج١، ص٢١٣.

معيقيل السير في أثر الشريف وعربانه وأدرك بني هاجر وهم على الماء المعروف بالقنصلية قرب بلدة تربة، فشن عليهم الغارة وقاتلهم، فانهزموا فقتل عليهم أربعين رجلاً وأخذ جميع أموالهم، وفيها غزا مبارك بن هادي بن قرملة إلى ناحية نجران، فأغار على عربانه فحصل قتال وطعان، فانهزمت البوادي وقتل منهم ثلاثين رجلا، وأخذ جميع أموالهم، ومن الخيل أربعة عشر فرسا وعزل الأخماس وأرسلها إلى عبد العزيز»(۱).

وقال: «سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد ناحية الأحساء فلما وصل إليه نزل قرب الرقيقة وهي مزارع معروفة لأهل الأحساء، وبات تلك الليلة وأمر مناديه ينادي في المسلمين أن يوقد كل رجل نارا وأن يثوروا البنادق عند طلوع الشمس، فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح، ثور المسلمون بنادقهم دفعة واحدة فأرجفت الأرض وأظلمت السماء وثار عج الدخان في الجو وأسقط كثير من الحوامل في الأحساء!!.

ثم نزل سعود في الرقيقة المذكورة فسلم له وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته فأمرهم بالخروج فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ويأخذ من الأموال ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا، وضرب عليهم ألوفا من الدراهم، وقبضها منهم - إلى أن قال في وصف ما كان: - فهذا مقتول في البلد وهذا يخرجونه إلى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود حتى أفناهم إلا قليلا وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يعد ولا يحصى»(٢).

⁽١) المرجع السابق، ج١، ص٢١٤.

⁽٢) المرجع السابق، ج١، ص٢١٦ - ٢١٧.

مُقَارَنَة بَيْنَ أعمال الوَهَّابِية وأعمال الإباضيّة:

هذه أيها القارئ الكريم قطرات من بحر خضم مما سـجله هذا الكاتب بقلمه في وصف أعمال هذه الطائفة، التي حاول الشويعر أن يلصق جرائرها بطائفة بريئة من هذه الأعمال، متجاهلا ما ارتكبه هؤلاء الذين يدافع عنهم، من إجرام في الأمة والدين، وانتهاك لحرمات الإنسانية بسفك الدماء ونهب الأموال بغير حق، حتى أن الأجنة في الأرحام لم تكن في مأمن من شرهم المستطير.

ولو أنني تتبعت ما كتبه ابن بشر مفاخرا به من أعمالهم لطال كتابي هذا، ولكن كفى ما أوردته شاهدا على مبدأ هذه الطائفة، واعتقادها في الأمة، وتطبيقها عليها أحكام أهل الشرك، على أن المشركين لا يباغتون بالقتال، حتى تقام عليهم الحجة، ويدعوا إلى الحق، كما كان عليه رسول الله هي وأصحابه في فكيف بأهل القبلة؟! وقد رأيت أيها القارئ الكريم كيف كان شغفهم بقتل الأنفس ونهب الأموال، مع ما جعل الله للنفس البشرية من حرمة، فضلا عن النسمة الموحدة، وما جعله الله للأموال من حرمات.

هـذا؛ وإذا قارنت بين هـذا التأريخ الذي سـجلته أقلامهم وحفظته مدوناتهم، وتأريخ الإباضية، الذين حاول الشويعر أن يلصق بهم هذا الإجرام لوجدت بونا شاسعا، أبعد من ما بين نجوم السماء وتخوم الثرى، فحسبك ما سـبق لك ذكره من تأريخ الإباضية في حروبهم، كيف كانوا دقيقين في مراعاة الأحكام الشرعية، والمحافظة على حقوق البشر عامة، وحقوق أهل القبلة خاصة، فما كانوا يشهرون السيف إلا بعد أن يقيموا الحجة ويتعنت الخصم ويبدأ هو بسـفك دمهم، كما وقع ذلك في قُديد وغيرها، وما كانوا يستحلون قتل المدبر ولا الأسير، بخلاف هؤلاء الذين كانوا يفاخرون باتباع يستحلون قتل المدبر ولا الأسير، بخلاف هؤلاء الذين كانوا يفاخرون باتباع

المدبرين لقتلهم ونهب أموالهم، ويسوقون الأسارى والمستسلمين إلى الميادين العامة لضرب أعناقهم أمام الجماهير، لما يجدونه من اللذة في القتل والمتعة في التنكيل.

أما فيما يتعلق بالأموال، فإن الإباضية أبعد ما يكونون عن استحلال مال موحد مهما كان ضلاله، بل كانوا من الورع أنهم لم يستبيحوا أن يأخذوا لأنفسهم ما وجدوه في خزائن أهل الظلم من الأموال التي جبوها من الأمة، وإنما حرصوا على ردها إلى من أخذت منهم، كما كان ذلك من طالب الحق عندما دخل صنعاء، فوزع على أهلها ما وجده من أموال جبيت قبله، مع ما كان عليه هو وأصحابه من فقر مدقع وحاجة ملحة إلى ما يقيم أودهم، إلا أنهم لم تشرئب أعناقهم أو يسل لعابهم إلى ما وجدوه في الخزائن:

تعفف منهم ومن كمثلهم أكرم بهم من عصبة أكرم بهم كانوا يموتون على ما أبصروا من الهدى ما بدلوا وغيروا

وإن عدنا إلى الأئمة الرستميين - ومن بينهم الإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن، الذي رد إليه الشويعر نسبة الوهابية وجرائمها - فإننا لسنا بحاجة إلى أن نبرز الوجه المشرق من سيرتهم الغراء وعدلهم المثالي مما كتبه أتباعهم وأصحاب دعوتهم، وإنما يكفينا من ذلك ما كتبه أحد معاصريهم من خصومهم الذين لم يخفوا ما يعتمل بين حنايا صدورهم من شنآن لهم، وهو ابن الصغير الذي قال في تأليفه الخاص بأخبارهم: «وإن كنا للقوم مبغضين، ولسيرهم كارهين، ولمذاهبهم مستقلين، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا، وعدلهم فيما ولوه؛ فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم»(١).

⁽۱) أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير، ص٣١، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر، أ. إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي.

وهو يدل على عصبيته العمياء ضدهم، وما تأصل في نفسه من كرههم، ولكنه اعترف بحسن سيرتهم وعدلهم في رعيتهم، حيث قال: «ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، حتى لا ترى دارا إلا قيل: هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان المصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين»(۱).

وهاك شهادة ممن نشأ في المحيط الوهابي وخبره، فعرف طواياه كظواهره، ودرس المذهب الإباضي بعمق، وهو الدكتور حسين غباش الذي قال: «فالحركة الوهابية التي كانت تقدم نفسها بوصفها موحدة، لم تتردد في استعمال كل الوسائل لفرض مذهبها ومد نفوذها، وهو ما يؤكده المؤرخون السعوديون أنفسهم. وبالفعل، فإن المؤرخين الوهابيين (مثل ابن بشر) ذكروا الهجمات السعودية التي شنت ضد مدن الخليج والعراق الثرية. ووصفوا بروح الفخر الغنائم التي استولوا في هذه الغزوات. لن نتطرق هنا لمسألة الخلافات العقائدية بين الإباضية _ وهي مدرسة فكرية خاصة ولدت في حضن الدولة الإسلامية الأولى، وذات تقاليد عريقة _ وبين الوهابية وهي فرقة حديثة... إلخ»(٢).

ومن المعروف بداهة، أن لكل مقدمة نتيجة ولكل علة معلولا، ومن المعلوم لكل ذي بصيرة أن ما عم العالم الإسلامي اليوم من مصائب التكفير والتفجير ليس هو إلا نتيجة هذا الفكر المنحرف الذي يدافع عنه الشويعر، وإذا كان استطاع أن يكابر الحقيقة ويتعامى عنها، فيقلب الأمر

⁽١) المرجع السابق، ص٣٦.

⁽٢) عُمان الديمقراطية الإسلامية تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (١٥٠٠، ١٩٧٠)، ص ١٥٣ - ١٥٤.

حتى يجعل المجرم بريئا والبرئ مجرما بالنظر إلى أحداث الماضي فماذا عسى أن يقول في أحداث الساعة، التي ضجت منها الدنيا بأسرها ولاكها إعلامها، مما يرتكبه الشباب الذي فرخهم هذا الفكر، ونشرهم في العالم من التكفير والتفجير، هل هؤلاء تربوا على الفكر الإباضي، أو على الفكر الوهابي الحشوي؟! إن الحقيقة أظهر من أن تحتاج إلى بينة أو تسند بدليل: وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وليت شعري؛ هل الشويعر لم يعرف الذين حكموا عليه بالشرك، فراح يفتش عنهم في خبايا التأريخ فخيل له أنهم الإباضية؟!! كلا؛ إنما هم الوهابية النجديون الذين يدافع عنهم، ودونك شهادة على ذلك، ممن عاصر حركاتهم وتعاطف معها، حتى صار أعقابهم يعتزون بما كتبه عنهم وينشرونه، وهو الجبرتي في تأريخه الذي قال فيه: «وفيه وصل ثلاث دوات من جدة إلى ساحل السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون، وذكروا أن الوهابي نادى بعد انقضاء الحج أن لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، وتلا في المناداة قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ عَامِهُمُ هَا لَا التوبة: ٢٨] وأخرجوا هؤلاء الواصلين إلى مصر»(١).

وهو كلام غني عن التعليق، فتراهم لم يقتصروا في تشريك أهل القبلة على من خالفهم في القضايا العقدية، بل أدخلوا الأعمال في ضمن القضايا الشركية، ولم يكن ذلك أمرا نظريا فحسب، بل طبقوه في الواقع فأقصوا الوافدين إلى البيت الحرام ممن كانوا حالقي الذقون وأخرجوهم إلى مصر، وهل يرى الشويعر والمروجون لكلامه أن الإباضية أصحاب عبدالوهاب بن

⁽۱) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، ۱۲۳۷هـ، ج٣، ص١٩٣ دار الجيل، بيروت.

عبد الرحمن بن رستم هم الذين حكموا مكة المكرمة في عهد الجبرتي، حتى يسوغ له أن يلصق بهم التهم الشائعة عن الوهابية، أو أن الهوى يعمي ويصم؟!!.

وإن عجبت فاعجب أن يرى هـؤلاء أن حلق الذقون ينزل بأصحابه إلى حضيض الشرك، ولا يروا حرجا في ظلم الظالمين وبطشهم بالأمة وانتهاكهم حُررَمَ دينها، وعدوانهم على أصحاب رسول الله هي، بالقتل والإهانة في المدينة المنورة التي حرمها صاحبها في كما حرمت قبلها مكة، كما لم يروا حرجا في أفعال الذين انتهكوا حرمة الحرم المكي نفسه، فقصفوا الكعبة المشرفة بالمجانيق، وحالوا بينها وبين الطائفين والعاكفين، فما هذه التناقضات الغريبة في المفاهيم، وما هذا الاضطراب في الفهم؟؟!!

هذا؛ مع غض النظر عن جرائمهم التي ارتكبوها بأنفسهم من قتل الأبرياء ونهب أموالهم، وتخريب ديارهم وتشريدهم منها.

مَا أَشُبَهُ اللَّيْلَةَ بِالبِّارِحَةِ:

إذا أدركت - أيها القارئ الكريم - مدى هذه الجرأة - في الشاهدين اللذين ذكرتهما - من هؤلاء القوم على دفع الجرائر التي يرتكبونها عن أنفسهم، وإلصاقها بالأبرياء الذين لا صلة لهم بها قط لا في قبيل ولا دبير، أدركت بكل وضوح أن ما عزي إلى المحكمة الأولى من الغلو والإقدام على سفك الدماء ليس هو من الحقيقة في شيء.

فإذا كانوا اجترأوا على طمس الحقيقة وقلبها رأسا على عقب الآن مع تقارب العالم، ويسر الاطلاع على حقيقة الأحداث، واكتشاف الخفايا من خلال وسائل الإعلام، وانفتاح الشعوب بعضها على بعض _ فما بالك بذلك العهد

الذي كان العالم الإسلامي فيه واقعا تحت سلطة استبدادية واحدة، وقد انساقت وراءها الدهماء إلى حد أن يجتمع أربعون شيخا فيشهدوا أن الخليفة لاحساب عليه ولا عقاب، مهما ارتكب من الموبقات وأتى من الظلم، متجاهلين نصوص القرآن والسُّنَة القطعية في دلالاتها وثبوتها، أيبقى في نفسك شك أن القوة السياسية المستبدة كانت وراء حبك هذه الفرية وإلصاقها بالأبرياء وترويجها عنهم وهي تخشى كل الخشية أن تشيع في الناس أفكارهم التي تأبى أن يروج في الناس الظلم ويطأطئوا معه رؤوسهم للظالمين المستبدين؟!!

إن العاقل بلا ريب لا يهمل قياس القضايا بعضها على بعض، وإذا كان مما قيل قديما: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، فإن القياس يقتضي أن يقال: «ما أشبه الماضي بالحاضر»، وقد كانت عقيدة الإرجاء التي تمثلت في قولهم:
﴿ سَيُعُفُرُ لَنَا ﴾ و ﴿ لَنَ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أقوى دافع لهم على اختلاق الإفك وقلب الحقائق، كما كان ذلك ممن سبقهم إلى هذه الأماني فأزلتهم عن سواء الصراط، ورمت بهم في مهامه سحيقة من الباطل.

عَوْدٌ على بدء

بعد هذا الاستطراد الطويل نعود إلى أصل حديثنا فيما صاحب الثورات العربية من تضارب في الآراء وازدواجية في المعايير لدى فقهاء العصر، فإن منهم من عارض هذه الثورات بشدة مهما عانت الشعوب من ظلم وإعنات وبطش وحرمان، وقد وجدنا من هؤلاء من كان موقف صارما، حتى في المسيرات السلمية للمطالبة بالحقوق، وأعطوا الحكام الذين انبنى حكمهم على نظام انتخابي إلى زمن موقوت _ ولو كان صوريا _ أن يخرجوا بالحكم عن نظامه الأساسي، ويحولوه إلى نظام وراثي يتسلسل في أعقابهم من بعدهم، كما جاء في هذه الفتوى التي صدرت من الشيخ: محمود لطفي بعدهم، كما جاء في هذه الفتوى التي صدرت من الشيخ: محمود لطفي

عامر، رئيس جمعية أنصار السنة المحمدية، المشجعة للرئيس المصري السابق حسني مبارك أن يورث الحكم لابنه جمال، الذي قال:

«إن فتواه ليست ابتداعا أو اجتهادا جديدا، وإنما هي وفق ما استقر عليه السلف الصالح، وهم خير القرون الثلاثة الأولى المفضلة من تاريخ الإسلام»، ووصف الرئيس مبارك بأنه (أمير المؤمنين)، وأضاف: «أن التوريث بدأ في عهد معاوية ولم يعترض غالبية الصحابة، وعلى رأسهم ابن عمر وابن عباس رَقِينًا» وعدَّ هـذا الأمر اجتهادا من الخليفة معاوية، ولعدم شـق عصى الجماعة وافق المسلمون على ذلك، واستمر الحال قرونا باستخلاف ولى للعهد، ولم ينكر هذا الصنيع أي إمام من أئمة أهل السُّنَّة والجماعة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل»، وانتقد الشيخ عامر: «من يثيرون الناس على مسألة توريث جمال مبارك الحكم»، وقال: «إن ورَّث مبارك ابنه فقد ورَّث من هو خير منه قبل ذلك، ولم يعترض عليه الصحابة، وهو معاوية كاتب الوحي، فماذا تقولون وبماذا تعترضون»، وأكد بأن الفتوى التي قالها بجواز التوريث شرعا «جاءت لدرء فتنة الصراع على السلطة، فإن تولاها جمال مبارك، فإننا معشر السلفيين سنسمع ونطيع في المعروف لجمال مبارك»، وتابع حديثه قائلا: «إن عقيدة السلفيين تحذر العلمانيين والإسلاميين من هذا الصراع، فتقر هذه القاعدة التي نص عليها الإمام أحمد في أصول السنة، وهي السمع والطاعة لأمير المؤمنين سواء كان أميرا ببيعة أو بغلبة، وعدم جواز الخروج عليه، فهذه عقيدة الإسلام تجاه الحاكم، سواء كان بارا عادلا أو غير ذلك، وسواء جاء للحكم ببيعة وشورى أو جاء بغلبة وسيطرة، ودانت له المؤسسات العسكرية والمدنية». $[a_{-}^{(1)}]$.

⁽۱) ينظر: تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، ص١٩، نقلا عن العربية نت، القاهرة، ٢٠٠٨/٢/٢٥م.

وتجده في فتواه هـذه وبنائها على صنيع معاويـة، يتجاهل ما كان من اعتراض على صنيعه ممن بقي من أصحاب رسـول الله هي، ومن بينهم ابن عمر وابن عباس اللذان ذكرهما، وقد سـبق بيان ذلك بما فيه كفاية، وليس اسـتدلاله بهذا إلا تصامما عن إنكار مـن أنكر على معاويـة، وتعاميا عن الحقيقة التي هي أوضح من أن تحتاج إلى برهان.

غير أن هؤلاء أنفسهم، عندما قامت الحركات وتحققت غاياتها، كانوا أسرع الناس إلى جني ثمارها وإحراز غنائمها، ومن المعلوم أن ما بني على الباطل فهو باطل، فإن كانت هذه الحركات في ذاتها محرمة فإن ثمارها أيضا تكون محرمة عليهم، فكيف يستبيحونها؟! على أن أصحاب هذا الفكر لم يألوا جهدا في إثارة الشغب والتحريض عليه في كثير من البلاد التي تحسنت فيها الأوضاع بعد الثورات، ونالت شعوبها حقوقها أو بعضا منها.

هذا؛ ومن الفقهاء المعاصرين من تشجع وأفتى بشرعية القيام على الظلمة المستبدين وانتزاع السلطة من أيديهم، حتى ولو كان ذلك باستخدام السلاح ضدهم، ولكنه مع ذلك ظل متمسكا بتأييد الذين سنوا الظلم في هذه الأمة، وابتزوا الحكم عنوة من يدها، وحولوه إلى نظام كسروي قيصري! لا يرعى للدين حرمة، ولا يرقب في الناس إلا ولا ذمة، وجعلوه من بعدهم حكرا على أعقابهم، يتوارثون الأمة وما لها من حقوق كما يتوارثون المتاع والأنعام، فكان من هؤلاء من ينادي بأنه وكيل عن بني أمية، يدافع عنهم مع ما علمت من جرائرهم التي ارتكبوها في الإسلام والمسلمين، حتى كانت ما علمت من البهائم العجماء وكانت حرماتها أرخص من اللقا.

وقد علمت مما تقدم، ما الذي سفكوه من دماء خيار الأمة، وما الذي انتهكوه من حرماتها، ولم يبالوا بالبيت الحرام الذي كان معظما حتى عند الجاهلية الجهلاء، فقد قصفوه بالمجانيق ولم يرعوا لحرم الله حرمة. وإذا

كانت الأمة عانت من الاضطهاد والظلم، فإنهم هم الذين علموا من بعدهم من الحكام الظلم، وسنوا لهم البطش، وجرأوهم على انتهاك الحرم، «ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»(۱) فكيف يسوغ القيام على من بعدهم ولا يسوغ عليهم، وهم السابقون إلى كل مظلمة ارتكبت أو فساد أشيع؟!!

على أن هذا الذي أيدهم على ما ارتكبوه من ظلم وقارفوه من فساد لم يكتف بالدفاع عنهم وتزيين صورتهم للناس، وإنما جاوز ذلك إلى كيل أسوأ التهم والحكم بأعنف الأحكام على من ثار بالحق عليهم، وتجرد لنصرة المستضعفين ورد الحق إلى نصابه الشرعي، وإقامة دين الله في أرضه وتحكيم شرعه بين عباده، فقد وجدنا هذا الذي نصب نفسه وكيلا للدفاع عن بني أمية الظلمة المستبدين ينعت أبا حمزة الشاري وأصحابه بأبشع الأوصاف، ويزعم أنهم لم تغن عنهم عبادتهم من الله شيئا!!!

ولست أدري من أين أعطى نفسه هذا الحق الإلهي، حتى يحكم بإسقاط عبادات أداها من أداها لله تعالى، وقد استقام على الشرع الإلهي في سلمه وحربه، ورضاه وسخطه، ومكرهه ومنشطه، حتى ذهبت روحه في سبيل الله؟!! وليت شعري؛ متى كان في الإسلام لأحد من الناس منصب البابوية، فيعطي لمن شاء صكوك الغفران ويصدر فيمن شاء قرارات الحرمان، مع أن الله تعالى يخاطب نبيه هو وهو أرفع الناس منزلة وأعلاهم قدرا _ في قوم

⁽۱) جزء من حدیث مرفوع أخرجه من طریق جریر بن عبدالله الطیالسی (ص۹۲، رقم ۲۷۰)، وأحمد (۱۹۷۶، رقم ۱۹۱۷)، ومسلم (۲۰۹۸، رقم ۱۰۱۷)، والترمذی (۱۹۷۵، رقم ۲۲۷)، وابن حبان رقم ۲۲۷)، وابن حبان رقم ۲۲۷)، وابن حبان (۲۲۷۸، رقم ۳۳۰۸)، وابن حبان (۲۰۱۸ رقم ۳۳۰۸)، والطبراني شیبة (۲۰۰۳، رقم ۹۸۰۳)، والطبرانی (۲۲۳۲، رقم ۲۶۳۷)، والبیهقی (۱۷۵۲ رقم ۷۵۳۷)

خالفوا دينه وأعرضوا عن أمره بقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ؟!!!.

وإني لأعجب من هذا الدفاع المرير عن بني أمية، هل هو من أجل أنهم البتزوا الحكم من الخليفة الشرعي وحولوه إلى ملك عضوض، أو لأنهم سنوا لعن الخليفة على منابر الجمعة وغيرها، وعدُّوه عبادة يتقربون بها إلى الله ويحملون الناس عليها، أو لأنهم استباحوا مدينة رسول الله في فقتلوا من بها من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، واستباحوا أعراض نسائها، ففعلوا ما لم يفعله حتى اليهود في حروبهم مع المسلمين، أو لأنهم هددوا كل من يأمرهم بتقوى الله بضرب عنقه، أو لأنهم أعطوا لأنفسهم من المكانة ما لم يكن لنبي مرسل ولا لملك مقرب، إذ زعموا أنهم لا حساب عليهم ولا عقاب مهما أتوا من الجرائم، أو لأجل ما فعلوه بالأمة وما رزأوها به من المصائب في دينها ودنياها، أو لأن قيمة القرآن عندهم أن يطمروه في جوف الجوالق ومن حق اليتيم أن يأكلوا ماله ويفجروا بأمه، ليت شعري بأي شيء من ذلك استحقوا أن يستمات في الدفاع عنهم؟!!

﴿ هَنَأَنتُمْ هَتَؤُلآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَكُمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٩].

كما أنني أعجب من دعواه أن أبا حمزة وأصحابه لم تغن عنهم عبادتهم من الله شيئا، هل ذلك لأنهم أنضوا أجسامهم بخوف الله تعالى ورجائه، ووصلوا كلالهم بكلالهم في عبادته وطاعته، وباعوا أنفسهم من أجل نصرة دينه، وترفعوا عن الدنيا وحطامها حتى سوّوا تبرها بترابها، وزهدوا في نعيمها حتى عدلوا عذبها بعذابها، واحترزوا من سفك الدماء فلم يشهروا سيفا إلا بعد الاستقصاء في النصيحة وإقامة الحجة وبدء الخصم بشن الحرب عليهم وسفك دمهم؟!!

ليت شعري؛ أهذا حكم مبني على تعاليم القرآن وهدي الرسول الله ناشع عن عصبية عمياء تصم وتعمي عن الحق، حتى لا يبالي صاحبها بما يصدر عنه، ولا يفكر فيما يفوه به، ولا يبقى عنده تمييز بين الحق والباطل والضلالة والهدى والصلاح والفساد؟!! أما آن لهذه الأمة التي نكبت في تفكيرها، ورزئت في تصورها، أن تصحو من سكرة الهوى، وتثوب إلى رشدها، وتراقب الله، فيما تعمل أو تقول؟!!!

أَثَرُ الطُّغْيَانِ الْأَمَويِّ على الأمة في تَصَوُّرهَا واضْطِرَابِ معاييرها:

كانت الحقبة التي حكم فيها بنو أمية كافية لترسيخ فكرة قبول الظلم والرضوخ له، والاستسلام للظالمين ورفع مراتبهم بين الخلق، بحيث يبوأون في الناس مكانا لم يصل إليه في حكم الله ملك مقرب ولا نبي مرسل، ناهيك أنهم أسقطوا عنهم الحساب والعقاب، مع ما علمته من تشديد القرآن الكريم خطابه للنبي هم، وهو أكرم الخلق على الله، بشدة الوعيد ما لو مال عن الحق شيئا قليلا، فما بالك بهؤلاء الذين هم، في حكم الله تعالى، أحقر من الذر كما جاء في الحديث الشريف(۱).

وكان لنفوذ سلطانهم وقوة بطشهم واستيلائهم على أزمة الأمور ومقاليدها، وممالأة الفقهاء الرسميين لهم؛ تأثير بالغ على عقلية الجماهير من الناس لقبول هذه الأفكار المنحرفة، فترسخ في ألباب الناس تقديس

⁽۱) جاء في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سبجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال"، أخرجه أحمد (١٧٩/٢) رقم ١٩٦٧) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: الحميدي (٢٧٧/٢)، رقم ٥٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٩٦، رقم ٥٩٨).

الظلمة وتعظيمهم وتحقير كل من لم يسر في اتجاه سياستهم، وقد استمر أثر ذلك في عقلية أكثر الناس، ولذلك عندما دالت الأيام لبني العباس واكفهرت في وجوه بني أمية وأعرضت عنهم، انساق الناس وراء السياسة العباسية، فنالوا من الأمة ما كان لبني أمية من التقديس والتعظيم، وعدُّوهم حماة الإسلام وأنصاره وخلفاء نبيه في وتحولوا عن الحمية للأمويين إلى الحمية للعباسيين. ولم يبالوا أن يجمعوا بين الأضداد!! كيف وهم بالأمس القريب كانوا يرمون كل من ثار على بني أمية بالمروق من الدين والخروج عن الجماعة!! ويتهمونه بالسعي إلى الفساد في الأرض، ولكن بما أن الدنيا أقبلت بزهرتها وزخرفها على بني العباس كانوا معها، على الرغم مما ارتكبه بنو العباس في بني أمية من إبادة أحيائهم وإزعاج أمواتهم.

فقد أسرف السفاح في تقتيلهم، ولم يشف ذلك غيظه حتى قام إلى قبورهم فنبشها وأحرق ما تبقى من رفاتهم، وهذا ما سجله لنا التأريخ، قال ابن الوردي:

«دخل سدیف علی السفاح، وعنده سلیمان بن هشام بن عبدالملك، وقد أمنه وأكرمه، فأنشد:

لا يغرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان، فقتل. ودخل شبل بن عبداللهِ مولى بني هاشم على عم السفاح عبداللهِ ابن علي، وقد اجتمع عنده من بني أمية نحو تسعين رجلا، فأنشد:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وباس

لا تقلين عبد شمس عثارا ذلها أظهر التودد منها ولقد ساءني وساء سواي أنزلوها الله أنزلوها الله واذكرا مصرع الحسين وزيدا والقتيل الذي بحران أضحى

واقطعن كل رقلة وغراس وبها منكم كحد المواسي قربهم من نمارق وكراسي بدار الهوان والإتعاس وقتيلا بجانب المهراس ثاويا بين غربة وتناسى

فأمر عبدالله بهم، فضربوا بالعمد حتى وقعوا، وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم الطعام، وأكل الناس الطعام وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا جميعا، وأمر عبدالله بنبش قبور بني أمية بدمشق، وتبع قتل بني أمية فلم يفلت إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس. وقتل سليمان بن علي ابن عبدالله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أمية، وألقاهم في الطريق تأكلهم الكلاب، فتشتت من بقى منهم واختلفوا في البلاد(۱).

⁽۱) تاريخ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الـوردي، (ت: ٩٤٩هـ)، ج١، ص١٩٦٨، دار الكتب العلمية، لبنان، بيـروت، ١٤١٧ هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، وينظر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص٤٥٣، وج٥، ص٧١، ومختصره، ج٧، ص٢، البداية والنهاية، ج٠١، ص٥٤، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٥٣، مروج الذهب، ج١، ص٤٣٨، الجماهر في معرفة الجواهر، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، (ت: ٤٤هـ)، ص٣٠، شرح نهج البلاغـة، ج٧، ص٨٧، تاريخ مختصر الـدول، غريغوريوس بن اهـرون الملطي، المعروف بابن العبري (ت: ٥٨١هـ)، ج١، ص٤٢، المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، (ت: ٢٧٧هـ)، ج١، ص١٤١، نهاية الأرب في فنون الأدب، ح٢٢، ص٣٣، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبدالله القلقشندي، (ت: ٢١٨هـ)، ج١، ص٨٢١، مطبعـة حكومة الكويـت، الكويـت، ١٩٨٥م، الطبعة: الثانيـة، تحقيق: ج١، ص١٦٨، مطبعـة حكومة الكويـت، الكويـت، ١٩٨١م، الطبعة: الثانيـة، تحقيق: عبدالسـتار أحمد فراج، محاضـرات الأدباء، ومحاورات الشـعرء والبلغاء، أبو القاسـم عبدالسـتار أحمد بن المفضـل الأصفهانـي، (ت: ٢٠٥هـ)، ج٢، ص٥٥٥، دار القلم، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٥ منتخبة من كتاب = بيروت، ١٤٢٠هـ/١٥ منتخبة من كتاب = بيروت، ١٤٤٠هـ/١٥ منتخبة من كتاب =

فليت شعري أين الرحمة من قلوب هؤلاء، وأين الاستهداء بهدي النبي على القائل: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قَتَلْتُمْ فأحسنوا الْقِتْلَةَ وإذا ذَبَحْتُمْ فأحسنوا الذبح، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ ولْيُرِحْ ذبيحته». (١) وما لهم وللأموات في قبورهم، فإنهم أفضوا إلى ربهم، وهو الذي يتولى حسابهم وجزاءهم، ولكن الإنسان إذا لم يتقيد بمنهج الله خلع عنه كل ما زينه الله به من فطرة سوية وقيم مثلى.

وإذا كان بنو العباس قادهم الحقد الأسود إلى أن يفعلوا ببني أمية هذه الأفاعيل النكراء فإن العجب إنما من أولئك الذين محضوا بني أمية ولاءهم وعدوهم عدة الإسلام وقوته، كيف انقلبوا مع خصومهم الألدين، فمحضوهم من الولاء ما محضوا أولئك، ورفعوهم إلى المقام الأعلى في مراتب الدين، وجمعوا بين الفريقين في الحب والولاء، ونشروا من الدعايات لهم ما لا يقبله العقل ولا يصدقه الواقع، حتى زعموا أن أحد أكابر مترفيهم كان يحج عاما ويغزو عاما!!(٢).

الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري،
 (ت: بعد ٨٦٦هـ)، ص ٢٣١، وص ٤٧٣ دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م،
 الطبعة: الثانية، تحقيق: إ. لافي بروفنصال.

⁽۱) أخرجه الطيالسي (ص۱۵۲، رقم ۱۱۱۹)، وأحمد (۱۲۳/٤، رقم ۱۷۱۵)، والدارمي (۱۱۲/۲، رقم ۱۹۷۰)، والدارمي (۱۱۲/۲، رقم ۱۹۷۰)، وأبو داود (۱۱۰/۳، رقم ۱۸۲۵)، وأبو داود (۲۸۱۳، رقم ۲۸۱۵)، والترمذي (۲۳/۶، رقم ۱۶۰۹) وقال: حسن صحيح. وابن أبي شيبة (۵۰۵۵، رقم ۲۷۹۲)، والبيهقي في شعب الإيمان (۲۸۲۷، رقم ۱۱۰۷۱). والنسائي (۲۲۷/۷، رقم ۲۷۵۷)، وابن ماجه (۱۰۰۸/۲، رقم ۲۷۷۷)، والطبراني (۲۷۶۷، رقم ۲۲۷۷).

⁽۲) ينظر: أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: ٤٥٦هـ)، ج٢، ص١٤٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. إحسان عباس، وجوامع السيرة، نفس المؤلف، =

والكل يعلم أنه يستحيل أن يغزو بلادا يحكمها، وقد كانت رقعة دولته تمتد إلى آفاق من الأرض، لو حاول أن يصل إلى أطرافها في ذلك الوقت لاستغرق زمنا غير يسير، فكيف يمكنه أن يغزو في كل عامين مرة، على أنه لو كان يحج عاما ويغزو عاما - كما قالوا - لتعذر عليه أن يبقى في تخت مملكته ليديرها؟!!

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب على _ مع ورعه البالغ، وشدة حرصه على الطاعات _ لم يحج في خلافته إلا حجة واحدة، ولم يخرج من المدينة المنورة لغزو إبان حكمه، إلا عندما خرج إلى الشام لاستلام بيت المقدس من الروم، كل ذلك من أجل حرصه على حسن إدارته لأمر المسلمين من مقر حكمه.

وقد عدوا من مناقب العباسي، أنه قال لسحابة: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك»(١)، مع أن ذلك _ لو عقلوا _ ليس من المنقبة في شيء،

⁼ ص٣٦٩، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، (ت: ٤٤٥هـ)، ج١، ص١٧٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الطبعة: الاولي، تحقيق: محمد سالم هاشم، ونور القبس، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري (ت: ٣٧٦هـ)، ص٤٩، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، (ت: ٩٩٧هـ)، ص١٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي، (ت: ١١١١هـ)، ج٣، ص٣٠٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٢٩٦.

⁽۱) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة، محمد حسن عبد الغفار، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية. الدرس ٢١، المكتبة الشاملة، شرح تفسير ابن كثير، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، الدرس ٢٦، المكتبة الشاملة، شرح سنن أبي داود، =

فإنه لا يدل إلا على أن همه كان في الخراج، وقد ذهل هؤلاء عن مقولة عمر بن عبد العزيز هي «إن الله بعث محمدا داعيا، ولم يبعثه جابيا»(١)، وإن كانوا يعدونه من المفاخر لأنه دليل على سعة النفوذ، فقد كانت بريطانيا إبان أوج قوتها وانتشار استعمارها أكثر نفوذا من ذلك، إذ لم تكن الشمس تغيب عن مستعمراتها، فهل هذا يعد من مفاخرها؟!

إنما فخر أمة الإسلام ليس بامتداد رقعة حكمها من غير أن تقيم حكم الله فيها، ولكنه في تطبيق شرع الله، وإغاثة الملهوفين، ونصرة المظلومين، والضرب على أيدي المفسدين، وقطع يد الجبارين، وحسن الدعوة إلى الله بالقول والعمل، وبسط العدل للقريب والبعيد والصديق والعدو، فإن اتفق ذلك مع اتساع رقعة الحكم فما أحسنه، وإلا فإن انحصار النفوذ في رقعة محدودة مع توفر هذه المناقب هو أولى بالافتخار، فإن الحكم الإسلامي في عهد رسول الله الله المتجاوز جزيرة العرب، وأي فخر للأمة يساوي فخرها في ذلك الوقت؟!!

إنما فخر الأمة _ أيها الناس _ ليس هو بما يساق من الخراج من أطراف الأرض إلى خليفتها لينعم به هو وحاشيته، الذين يتملقون له ويزينون له المنكرات، مع أن السواد الأعظم من الناس يقاسون الحرمان، ويكابدون مشقة الجور والظلم، ويفرض عليهم الذل والهوان، وإنما فخرها الذي لا يسامى عندما تنشر بينها هداية ربها ويسودها العدل والإنصاف، وتنطلق من بينها دعوة الحق، التي تشع نورا يشرق على الأرض فيطوي منها سجاف الظلام، ويبدد هداه حنادس الضلال.

⁼ عبدالمحسن بن حمد بن عبدالمحسن بن عبدالله بن حمد العباد البدر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، درس ٤٨٦.

⁽۱) الطبقات الكبرى، ج٥، ص٨٤، أنساب الأشراف، ج٣، ص٦٤، أحكام القرآن للجصاص، ج٤، ص٢٩٧، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٩٧، البداية والنهاية، ج٩، ص١٨٨.

ومن المعلوم أن بني العباس لم تقف خصومتهم لبني أمية عند حدِّ ما فعلوا بأحيائهم وأمواتهم وإنما كانوا حراصا على تشويه صورتهم بالحق والباطل، إذ نسبوا إليهم من الجرائم فوق ما ارتكبوا، وعزوا إلى رسول الله على ما لم يقله فيهم.

ناهيك؛ بالكتاب الذي كتبوه فيهم لنشر مثالبهم وتقبيح صورتهم، وقد مر ذكر بعضه، وهاك ما احتواه من غير ما تقدم: «وأولهم في كل حرب ومناصبة، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، في كل مواطن الحرب، من بدر وأحد والخندق والفتح أبو سفيان ابن حرب وأشياعه من بني أمية، الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عدة مواطن، وعدة مواضع، لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم، ونفاقهم وكفر أحلامهم، فحارب مجاهدا، ودافع مكابدا، وأقام منابذا حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتقول بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه، فعرفه بذلك رسول الله في والمسلمون، وميز له المؤلفة قلوبهم، فقبله وولده على علم منه، فمما لعنهم الله به على لسان نبيه هيه، وأنزل به كتابا قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْءَانِ وَنُوفَهُمْ فَمَا نبيت أحد أنه أراد بها بني أمية.

ومنه قول الرسول على وقد رآه مقبلا على حمار، ومعاوية يقود به، ويزيد ابنه يسوق به: لعن الله القائد والراكب والسائق ومنه ما يرويه الرواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار، وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ بَنِي السَّانِ دَاوُردَ وَعِيسَى ٱبنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا بَعْ تَنْية أحد بعد ذهاب يعَمَّدُونَ في المائدة: ٧٨]، ومنه ما يروون من وقوفه على ثنية أحد بعد ذهاب

وهو كتاب حافل بخصومة لبني أمية غير منضبطة بضوابط الشرع، وقد تناول حكامهم فردا فردا بالهجوم العنيف الذي يخرجهم عن دائرة الإسلام رأسا، وقد قيل إن المعتضد العباسي هم بنشر هذا الكتاب والأمر بقراءته على المنابر، لولا أنه خُوَّفَ أنه لو فعل ذلك لمال الناس إلى العلويين من بني عمومتهم لما فيه من تمجيدهم، فترك ذلك مراعاة لهذا الجانب السياسي.

ولا يخفى على من تأمل هذا الكتاب ما اشتمل عليه من تحريف التأويل لبعض آيات الكتاب، والافتئات على النبي هي فيما يدرك بداهة عدم صدوره عنه، كدعوى أنه هي لعن أبا سفيان ومعاوية ويزيد، عندما رأى أبا سفيان راكبا ومعاوية يقود به ويزيد يسوق به، مع أنه لم يكن ليزيد وجود في عهده هي قط.

هذا؛ ولم يكن جور بني العباس في الحكم وفسادهم في الأمة أقل مما

⁽۱) تاریخ الطبري، ج۵، ص۱۲۱ – ۲۲۲.

كان من بني أمية، فإنهم لم يتورعوا عن سفك الدماء حتى دماء بعضهم البعض!! وعن اللعب بثروة الأمة وخيراتها في ملذاتهم وشهواتهم، بل أصاب بني عمومتهم من العلويين من بطشهم ما جعلهم يستقلون معه بطش بني أمية، ويستعذبون عذابهم المر، ويتطلعون إلى عهدهم المشؤوم على كثرة ما كابدوه منهم، حتى قال قائلهم:

يا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عاد لنا وأَنَّ عَدْلَ بَنِي العَبّاس في النارِ(١).

ومع هذا، فإن انبهار الناس بما يتخيلونه من أمجاد للمستكبرين في الأرض، دفعهم إلى أن يهيلوا الثناء لبني العباس كما كان منهم لبني أمية!!! وأن يعدُّو دولتيهم دولتين إسلاميتين أعز الله بهما دينه، وحفظ بهما كتابه!!، وأن يعدُّو من أمجادهم ما كان من مظاهر ترفهم وفجورهم.

هذا؛ والمتتبع لأحوال هؤلاء القوم يجد أنهم لا يبقون على وجهة سياسية واحدة، وإنما يتقلبون سلبا وإيجابا بحسب ما تتجه الأحداث من إقبال على أحد أو إدبار عنه، فلا يلبثون أن يتحولوا من عداوة من يعادون وسبابه إلى ولايته وإطرائه إذا دالت له الأيام وأقبلت عليه الدنيا، وحسبكم هذه القصة التي أوردها جماعة من المؤرخين:

«ذكر هِشَام بن مُحَمَّدٍ، عن أبي مخنف، أن حصيرة بن عبدالله وأبا زهير العبسي حدثاه أن الأزارقة والمهلب، بعد ما اقتتلوا بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال، أتاهم أن مصعب بن الزبير قد قتل، فبلغ ذلك الخوارج قبل أن

⁽۱) الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ۲۷۱هـ)، ص١٦٥، أنساب الأشراف، ج٢، ص١٦، المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، (ت: بعد ١٣٠هـ)، ص١٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عدنان علي، الأغاني، ج١٧، ص٣٣٣، محاضرات الأدباء، ج١، ص٢٢٣، شرح نهج البلاغة، ج٩، ص٣٠٠.

يبلغ المهلب وأصحابه، فناداهم الخوارج: ألا تخبروننا ما قولكم في مصعب؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: فهو وليكم في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم، قالوا: وأنتم أولياؤه أحياء وأمواتا؟ قالوا: ونحن أولياؤه أحياء وأمواتا، قالوا: فما قولكم في عبد الملك بن مروان؟ قالوا: ذلك ابن اللعين، نحن إلى الله منه برآء، هو عندنا أحل دما منكم، قالوا: فأنتم منه برآء في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم كبراءتنا منكم، قالوا: وأنتم له أعداء أحياء وأمواتا؟ قالوا: نعم، نحن له أعداء كعداوتنا لكم، قالوا: فإن إمامكم مصعبا قد قتله عبدالملك ابن مروان، ونراكم ستجعلون غدا عبدالملك إمامكم، وأنتم الآن تتبرأون منه، وتلعنون أباه! قالوا: كذبتم يا أعداء الله، فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب، فبايع المهلب الناس لعبدالملك بن مروان فأتتهم الخوارج، فقالوا: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا أعداء الله، لا نخبركم ما قولنا فيه، وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم عندهم، قالوا: فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم في الدنيا والآخرة، وأنكم أولياؤه أحياء وأمواتا، فأخبرونا ما قولكم في عبدالملك؟ قالـوا: ذاك إمامنا وخليفتنا ـ ولم يجـدوا إذ بايعوه بدا مـن أن يقولوا هذا القول _ قالت لهـم الأزارقة: يا أعداء الله، أنتم أمس تتبرأون منه في الدنيا والآخرة، وتزعمون أنكم له أعداء أحياء وأمواتا، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم، وقد قتل إمامكم الذي كنتم تولونه! فأيهما المحق، وأيهما المهتدي، وأيهما الضال! قالوا لهم: يا أعداء الله، رضينا بذاك إذ كان ولى أمورنا، ونرضي بهذا كما رضينا بذاك، قالوا: لا والله ولكنكم إخوان الشياطين، وأولياء الظالمين، وعبيد الدنيا». اهـ(١١).

⁽۱) تاريخ الطبري، ج٣، ص٥٢٧، أنساب الأشراف، ج٣، ص٩، نثر الدرر، ج٥، ص١٥٢، الكامل في التاريخ، ج٤، ص١١١، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص١٠٠، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٧٧.

فتراهم يرقصون على كل وتر، ويهيمون في كل واد، وينقادون لكل طاغية، ويسبحون بحمد كل من أقبلت عليه الدنيا، فقد كانت في أعناقهم بيعة لمصعب بن الزبير ولم يلبثوا أن يتحولوا إلى عدوه وقاتله، فيصبحوا له أولياء!! لأن ميلولتهم إنما هي إلى الدنيا، وركونهم إلى حطامها، ولا يحسبون حسابا للآخرة، ولا يقيمون وزنا لقيم الدين، والله المستعان.

انْقِلابُ مَوَازِينِ الْأَمَةِ حَوَّلَ الْمَسَاوِيُّ أَمْجَادًا:

إن الإنسان ليعجب من أمة أوتيت القرآن، وعرفت هدي النبي الله ونهج خلفائه الراشدين، كيف تنقلب موازينها، فتعد المساوئ أمجادا، وتلحقها بصميم الدين، وترفع عقيرتها مفاخرة بها بين الناس.

كنت في زيارة للقطر العراقي العزيز، وكان مما تسنى لي زيارته مدينة سامراء، وكنت مع لفيف من رجال الفكر والفقه والسياسة والأدب، فاطلعنا في سامراء على آثار لبني العباس اكتشفت تحت الأنقاض، من بينها بركة للسباحة، لا أذكر أنني رأيت قبلها مثلها في سعتها وعمقها، وتحتها خنادق لإيقاد النار لتسخين مائها إبان الشتاء، وهي من آثار المتوكل، فأثارت رؤيتها إعجاب المشاهدين، وأخذت الأريحية أحد الفقهاء، فقال باعتزاز: «ما هذه العظمة للإسلام!!».

فعجبت من هذا التفكير في أن عظمة الإسلام تتمثل في هذه البركة، حيث كانت تتراقص الجواري العاريات، بشهود المتوكل أو غيره ممن أخلدوا إلى هذا الترف، واغتروا بهذا النعيم!!! فقلت: أين إذا عظمة الإسلام في عهد رسول الله وفي عهد خلفائه الراشدين، إذ لم يكن لأحد منهم مثل هذه البركة أو ما يدانيها من مظاهر الترف؟! ولو كانت عظمة الإسلام في مثل هذه الآثار لكان أسبق إليها زمنا وقدرا، أولئك الذين نعتهم القرآن

بالفساد والعلو في الأرض، من الفراعنة والأكاسرة والقياصرة، وما كان منها لرسول الله على حظ أو نصيب.

إن عظمة الإسلام - أيها الناس - في الاعتصام بأمر الله والتسمك بدينه والعدل بين عباده، والترفع عن حطام الدنيا، والرغبة فيما عند الله، وتتجلى يوم كان خليفة المسلمين يأوي إلى كوخ متواضع، وقد فتحت له خزائن الأرض، وجاءته كنوز كسرى وقيصر، فلم يفتح عليها عينه، ولم يسل من أجلها لعابه، ولم ينبهر بسببها عقله، وكانت تهتز من هيبته عروش الأكاسرة والقياصرة.

یا من رأی عمرا تکسوه بردته والزیت أدم له والکوخ مأواه یهتز کسری علی کرسیه فرقا من بأسه وملوك الروم تخشاه

العلاقة بتن التَّرَف والتَّلَف:

من العجب أن يعجب مسلم بمظاهر الترف، ويعدها من أمجاد الإسلام ومن عنوان عظمته في التأريخ، ويتجاهل ما ذكره القرآن في الترف والمترفين، وكيف كان مآلهم، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرَّءَاكَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ والمترفين، وكيف كان مآلهم، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرَّءَاكَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ والمترفين، وكيف كان مآلهم، ﴿ أَفَلا يَتَدَبَرُونَ ٱلْقُرَّءَاكَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ عَذَابِ الشمال ووصفهم أول ما عذاب الدنيا والآخرة، فقد ذكر الله تعالى أصحاب الشمال ووصفهم أول ما وصفهم بالترف، حيث قال بعد وعيدهم، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فَبَلَ ذَلِكَ مُتَرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٥٤]، وقد سبق أن مثل هذا التعبير إنما يدل على تعليل الحكم الذي سبقه، فالترف إذا علم ما آلوا إليه من العذاب، وقرن عذاب الدنيا أيضا بالترف في قوله: ﴿ وَكُمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتُ ظَالِمَةً وَأَنشَأَنَا بَعْدَهَا قَوْمًا بِلَانَ مَا أَتُوفَةُ فَي إِلنَّا اللهُ اللهُ المَا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ

وبين أن فساد المترفين هو الذي يؤدي إلى هلاك الأمم عندما تدعهم وشأنهم، ولا تقبض على أيديهم لمنعهم من الانغماس في الترف، وذلك في قوله: ﴿ وَإِذَا آرَدْنَا آنَ نُهُلِكَ قَرَيَةً أَمَرْنَا مُتُرَفِهَا فَفَسَقُواْ فِهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَوْله: ﴿ وَإِذَا آرَدْنَا آنَ نُهُلِكَ قَرَيَةً أَمَرْنَا مُتُرَفِهَا فَفَسَقُواْ فِهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدُمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، وبين في آيات عديدة أن الترف هو الذي يصد عن الإيمان بالرسل، منها قوله: ﴿ وَقَالَ الْمَلاَ مُن قَوْمِهِ الّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاللّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاللّذِينَ عَمْرُوا وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاللّذِينَ اللّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللّاحِرَةِ وَاللّهُ وَمَا تَشْرَبُونَ اللّهُ وَمَا تَأْكُمُ مِثّا تَأْكُمُ مِثّا تَأْكُمُ وَيَقَالَكُمْ إِنّا لَكُوسُرُونَ الْآ اللّهُ وَمَا اللّهُ وَعَلَامًا أَنّاكُمْ مَثْمَا وَمَا نَعْنُ بِمَبْعُوثِينَ اللّهُ إِنْ هُو إِلّا رَجُلُ افْتَرَىٰ مَنْ اللّهُ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَمَا نَعْنُ بِمَبْعُوثِينَ اللّهُ إِنْ هُو إِلّا رَجُلُ افْتَرَىٰ عَلَى اللّهِ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَمَا فَعَنُ بِمَبْعُوثِينَ اللّهُ إِنْ هُو إِلّا رَجُلُ افْتَرَىٰ عَلَى اللّهُ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَمَا فَعَنْ بِمَبْعُوثِينَ اللّهُ إِنْ هُو إِلّا رَجُلُ افْتَرَىٰ عَلَى اللّهُ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَلَا مَوْتُ وَعَيْكُمْ إِلَا اللّهُ اللّهِ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَلَا اللّهُ اللّهِ وَمَا نَعْنُ لَاللّهِ وَمَا نَعْنُ اللّهُ وَمَا نَعْنُ اللّهُ وَمَا نَعْنُ اللّهُ اللّهُ وَمَا نَعْنُ لَهُ وَلَا اللّهُ وَمَا نَعْنُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا رَجُلُ الْفَرْدُ وَلَا الللللّهُ الللّهُ وَلَا لَكُونُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَمَا نَعْنُ لَلّهُ وَلَا اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا لَكُولُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا لَكُولُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللللللللّهُ اللللللّهُ الللّهُ اللّهُ عَلَى اللللللّهُ اللّهُ اللللللللّهُ الللللل الللللللللل اللللللل الللللل اللللل الللل

وهو دليل على أن ترفهم هو الذي جعلهم يستكبرون على دعوات الحق ونداء المرسلين، وأن إخلادهم إلى ما هم فيه من شهوات الحياة الدنيا أعماهم عن التفكير في الدار الآخرة فكفروا بها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسِلْنَا فِي قَرْيَةِ مِن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ عَكَفِرُونَ ﴾ [سبا: ٣٤]، وقد كان منشأ ذلك غرورهم بما هم فيه من النعيم وما أوتوه من الأموال والأولاد، كما دل عليه قوله: ﴿ وَقَالُواْ خَنُ أَصَّرُ أُمُولًا وَأُولُدًا وَمَا خَنُ وَوَوه من الله والأولاد، كما دل عليه قوله: ﴿ وَقَالُواْ خَنُ أَصَّرُ أُمُولًا وَأُولُدًا وَمَا خَنُ أُوتُوه من الله أوتوه من الله والموال والأولاد ليس مما يبشرهم بالخير، إذ لا يقربهم من الله أوتوه من الأموال والأولاد ليس مما يبشرهم بالخير، إذ لا يقربهم من الله أوتوه من الأموال والأولاد ليس مما يبشرهم بالخير، إذ لا يقربهم من الله أمَولُ إِنَّ رَبِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَلَكِكَنَّ أَكُثَرُ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ الله وَمَا خَنَا أُولُكِكَ أَلَاكُمْ وَلَا الله عَلَا وَمَا خَنَا أُلُولُكُمْ وَلا آلَونَ فَه الله عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَتِ عَامِنُونَ ﴾ [سبا: ٣٠].

ومثل ذلك قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ مَاۤ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدُنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٓ ءَاثَارِهِم مُّقَّتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وكذلك شأن المترفين أن يعترضوا دعوات الخير في الأمم ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما يعترضون على دعوات المرسلين، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبَلِكُمُ أُولُواْ بَقِيَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنَ أَنِيَدُنا مِنْهُمُ وَاتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أَتُرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجَرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

وإذا كانت للحروف التي يتركب منها الكلم إيحاءات من خلال تركيبها فيما تدل عليه الكلمات من المعاني، فإن التقارب اللفظي بين كلمتي الترف والتلف يوحي بما بينهما من الترابط السببي والتآخي المعنوي، فالترف طريق للتلف وسبب يدفع إليه، وهذا لأن الانغماس في شهوات الحياة الدنيا منشأ البطر ومن بطر نعمة الله أهلكته، ﴿ وَكُمْ أَهْلَكُنَا مِن قَرْبَكِمْ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَيْلًا فَيْلِلاً فَيِيلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلاً فَيْلُورِثِينِ ﴾ مسككنهم لَو تُشكن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَا قَلِيلاً وَكُنَّا فَعُنُ ٱلْوَرِثِينِ ﴾ [القصص: ٥٥].

تَحْذِيرُ القُرآن من الرُّكُونِ إلى الدُّنْيَا:

إن إخلاد النفس إلى الحياة الدنيا والتعلق بزخرفها يجتذب النفس ـ بلا ريب ـ إلى شهواتها ويعميها عن الدار الآخرة ونعيمها وجحيمها، لذلك ضرب الله الأمثال في هذه الدنيا، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنَيا كُمَاءٍ أَنزَلْنَهُ ضرب الله الأمثال في هذه الدنيا، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثُلُ الْخَيَوةِ الدُّنْيا كُمَاءٍ أَنزَلْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلُطَ بِهِ عِنبَاتُ الْأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالْأَنْعَدُ حَتَى إِذا آخَدَتِ الْأَرْضُ مِن السَّمَاءِ فَأَخْلُطَ بِهِ عِنبَاتُ الْمَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالْأَنْعَدُ حَتَى إِنهَ اللهُ لَيُلا أَوْ رُخُرُفَهَا وَازّيَّنَتُ وَظَنِ الْمَهُمَ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَلِي يَعْمَى اللهُ ذلك دعوته يَنفَكَ رُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، ولأجل تنبيه العقول من غفلتها أتبع الله ذلك دعوته عباده إلى دار السلام، حيث قال: ﴿ وَاللّهُ يَدْعُواْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآهُ عِباده إلى دار السلام، حيث قال: ﴿ وَاللّهُ يَدْعُواْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْنَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥].

ثم أتبع ذلك بيان منقلب الناس في الدار الآخرة إلى النعيم أو الجحيم بحسب ما قدموا في الدنيا في قوله: ﴿ اللَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسُنَى وَزِيادَةً وَكُلا بَعْنَا اللَّهُ عَلَى وَبُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةً أَوْلَتِهِكَ أَصْحَبُ الْجُنَّةِ هُمْ فِيها خَلِدُونَ اللَّهِ مِنْ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السّيّعَاتِ جَزَاءُ سيّئة بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةً مّا لَهُم مِن اللّهِ مِنْ عَاصِمْ كَأَنّما كَسَبُوا السّيّعَاتِ جَزَاءُ سيّئة بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلّةً أَمّا لَهُم مِن اللّهِ مِن عَاصِمْ كَأَنّما أَعْشِيتَ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِن اليّلِ مُظْلِماً أَوْلَيْكَ أَصْحَبُ النّارِ هُمْ فيها خَلِدُونَ الْمُقْشِيتَ وُجُوهُهُمْ قِطعًا مِن اليّلِ مُظْلِماً أَوْلَيْكَ أَصْحَبُ النّارِ هُمْ مَثْلَ الْحَيوةِ الدُّنِيا كَمَا وَيرسس: ٢٦ - ٢٧]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثْلَ الْحَيوةِ الدُّنْيا كَمَا اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَالِدًا ﴾ [الكهف: ٤٤]، وأتبعه قوله: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيوةِ الدُّنْيَا وَخَيْرُ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٤].

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَعَلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبُ وَلَمْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُ اللّهِ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمُولِ وَالْأَوْلَةِ كَمْثُلِ غَيْثٍ أَعْبَ الْكُفّار نَبَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَنهُ مُصَفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابُ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضُونٌ وَمَا المُعَدُوةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وأتبع ذلك دعوت لعباده بأن يتسابقوا إلى ما أعده للصالحين منهم في الدار الآخرة، حيث قال: ﴿ سَابِقُوا اللّهِ مَرْضُهُ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَتُ لِلّذِينَ عَامَنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَنَاكُ وَعَنَّهُ عَرْضُ السّهِ فَي الدار الآخرة، وَلَا الْعَظِيمِ ﴾ والحديد: ٢١].

والقرآن الكريم، بين مآل من تعلق بالدنيا ومن تعلق بالآخرة، فقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنِيَا وَزِينَهُما نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعُمالَهُمْ فِيها وَهُو فِيها لاَ تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنِيَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيها يَبْخَسُونَ ﴿ أَن النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيها وَبُعْلُلُ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ عَمَلُونَ ﴾ [هود: ٥٠ - ٢٥]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ وَهُو مُؤْمِنٌ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ وَهُو مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيَهُم وَمُنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَمَا سَعْيَهَا وَهُو مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم

مَّشُكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرَّثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدُ لَهُ, فِي حَرَّثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرَّثَ ٱلدُّنِيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ, فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾ حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرِّثُ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ, فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى اللهُ اللهُ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوةَ ٱلدُّنْيَا اللهُ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِي ٱلْمَأُوكُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ مَنْ طَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفُسَ عَنِ ٱلْمُوكُ اللهُ فَا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ الل

كل هذا _ بلا ريب _ شاهد ودليل على أن الاغترار بما كان فيه أولئك المترفون من النعيم، والانبهار بمعالم الترف التي خلفوها من بعدهم، إنما هو دليل على عدم رسوخ معاني القرآن في أذهان الناس، وإلا فإن مشاهدة تلك المشاهد هي في ذاتها داعية إلى حسن الاعتبار وباعثة على كثرة الاستعبار، فقد روي أنه لما «مر رسول الله على بالحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»، ثم قنع رسول الله على رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي»(۱).

فما أجدر العاقل أن يعتبر ويستعبر، عندما يرى أي مشهد من هذه المشاهد، لا أن يباهي ويفتخر، ﴿ أَلَمْ يَرَوُا كُمْ أَهْلَكُنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنِ مَكَنَّهُمُّ المشاهد، لا أن يباهي ويفتخر، ﴿ أَلَمْ يَرَوُا كُمْ أَهْلَكُنَا مِن قَبْلِهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَارَ تَجَرِّى فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَوْ نُمكِن لَكُورُ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَارَ تَجَرِّى مِن تَعَيِّهِم فَأَهْلَكُنَهُم بِذُنُوجِهِم وَأَنشَأَنَا مِنْ بَعْدِهِم قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

والقرآن الكريم شاهد ودليل على أنه لولا لطف الله بعباده، وأنه لم يرد لهم أن يكونوا جميعا أمة واحدة في الكفر، لفتح الدنيا على أعدائه الكفرة فتحا يؤدي بالناس إلى الاغترار بهم، والانسياق وراء كفرهم، لما يرونه

⁽۱) أخرجه عبدالرزاق (۱۹/۱، رقم ۱۹۲۶)، ورواه البخاري (۱۶۹۶ رقم ۳۳۸۰) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا على هألاء المعذبين وعند مسلم (۲۲۸۲/۶ رقم ۳۹) بلفظ قريب.

عندهم من زينة الحياة الدنيا، ناهيك من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوَلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكُفُرُ بِٱلرَّمْنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ اللَّهِ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبُونَا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكِونَ الله وَزُخُرُفَا ٓ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَنُعُ ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

رُسُوخُ إِغْجَابِ الأُمَّةِ بِالمستكبرينِ في الأرْضِ أنسَاهَا ما ذَكَرَهُ القرآن فيهم:

إن مما يدعو للأسف على هذه الأمة أن يترسخ فيها الإعجاب بالمستكبرين في الأرض، من عهد بني أمية فمن بعدهم، حتى أدى بها ذلك أن تعجب بالمستكبرين من الأمم السابقة، الذين ملأوا الأرض فسادا، وتطاولوا على الله فادعوا أنهم أرباب من دونه، فكم نجد من الثناء العاطر على هؤلاء المتكبرين، تنشق به حناجر ممن يحسبون على الإسلام، ويعدون معالم بارزة في تأريخ الأمة، كأنما لم تقرع آيات القرآن مسامعهم بما وصمت به هؤلاء المتكبرين من نعوت الفساد.

ناهيك أن شاعرا فحلا يعد من الشعراء الإسلاميين، تشرف بمشاركة الذين مدحوا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، نجده يندفع إلى الثناء على الفراعنة، ووصفهم بأحسن الأوصاف، وتحليتهم بأجمل النعوت، عادا ما كانوا فيه من العلو في الأرض مجدا تأريخيا لا يسامى، ومدافعا عنهم فيما وصفوا به من الظلم إلى حد أن يقول:

فَكَانُوا الشُّهِبَ حِينَ الأَرضُ لَيلٌ وَحينَ النَّاسُ جلُّ مُضَلَّلينا مَشَت بِمَنارِهِم في الأَرض روما ومِن أَنوارِهِم قَبَسَت أَثينا مُلوكُ الدّهر بِالوادي أقاموا على وادي المُلوكِ مُحَجّبينا

فَـرُبَّ مُصَفِّدٍ مِنهُـم وَكانَت تَقَيَّدُ في التُّرابِ بِغَير قَيدٍ تَعالَى اللهُ كانَ السِحرُ فيهم غَدُوا يَبنونَ ما يَبقى وَراحوا إذا عَمِدوا لِمَأْشرةٍ أَعَدوا وَلَيسَ الخُلدُ مَرتَبَةً تلقّى وَلَكِن مُنتَهى هِمَم كِبارٍ وَسِـرُ العَبقَريَّةِ حينَ يَـسـري وَآثارُ الرجالِ إِذَا تَنَاهَت وَأَخِذُكَ مِن فَمِ الدُنيا ثَناءً فَغالي في بَنيك الصيد غالى إلى أن قال:

وَتاجِ مِن فَرائِدِهِ ابنُ سيتى عَـلا خَـدًا بِـهِ صَعَـرٌ وَأَنفاً وَلَسَتُ بِقَائِلَ ظُلَمُوا وَجارُوا عَلَى الأُجَرَاءِ أَو جَلَدُوا القَطينا(١)

تُساقُ لَـهُ المُلـوكُ مُصَفَّدينا وَحَـلَّ عَلـى جَوانِبهِ رَهينا أليسوا للحجارة منطقينا وَراءَ الآبداتِ مُخَلَّدينا لَها الإتقانَ وَالخُلقَ المَتينا وَتُؤخَذُ مِن شِفاه الجاهِلينا إذا ذَهَبَت مَصادِرُها بَقينا فَيَنتَظِمُ الصَنائِعَ وَالفُنونا إِلَى التاريخ خَيرُ الحاكِمينا وَتَركُكَ في مَسامِعِها طَنينا فَقَد حُبَّ الغُلُوُّ إلى بَنينا

وَمِن خَرَزاتِهِ خوفو وَمينا تَرَفَّعَ في الحَوادِثِ أَن يَدينا

فانظر كيف يغالى في مدح هـؤلاء الجبارين وينفى عنهم الظلم والجور مع أن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا آمُّنُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿ إِنَّ يَقْدُمُ قَوْمَهُ, يَوْمَ ٱلْقِيكَمَةِ فَأُورَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ اللَّهِ وَأُتَّبِعُواْ فِي هَاذِهِ لَعُنَةً وَتَوْمَ ٱلْقِينَمَةِ عِنْسَ ٱلرِّفَادُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

⁽۱) ديوان شوقى «الشوقيات» ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦، تعليق د. يحيى شامى، دا الفكر العربي، مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الأرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَآيِهَةً مِّنْهُمْ يُذَيِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيء فِسَاءَهُمْ أَنِهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، وقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مِنَا عَلَمْ الْحَيْمِ مِنْ الْلهِ غَيْرِف فَأَوْقِدُ لِى ينهَمَنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِي مَرْحَا لَعَلِيّ أَطْلِعُ إِلَى إِلَهٍ غَيْرِف وَإِنِي لأَظْنُهُ مِنَ الْكَيْرِينَ (وَاللهِ عَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُواْ أَنَهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونِ وَاللهُ هُو وَجُنُودُهُ فِي اللّهِ عَلَيْ الْحَقِّ وَظَنُواْ أَنَهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونِ وَاللهُ فَوَعُونُ اللهُ فَوْ وَجُنُودُهُ فِي اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ يَعْمُونِ وَاللهُ اللهُ اللهُ

فليت شعري؛ أين يدع هذه الآيات عندما يثني على هؤلاء الطغاة هذا الثناء ويدافع عن ظلمهم وطغيانهم، على أنه لم يقف به الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى أن يخاطب أحد الفراعنة بما لا يجوز أن يخاطب به نبي مرسل ولا ملك مقرب لأنه خطاب يدل على تأليه المخاطب، وذلك قوله:

جَلَّ رَمسيسُ فِطرَةً وَتَعالَى وَسَما لِلعُلا فَنالَ مَكانًا وَسَما لِلعُلا فَنالَ مَكانًا وَجُيوشٌ يَنهَضنَ بِالأَرضِ مَلكًا وَجُيوشٌ يَنهَضنَ بِالأَرضِ مَلكًا وَوُجودٌ يُساسُ وَالقَولُ فيهِ

شيعةً أن يقوده السفهاء للم ينكه الأمشال والنظراء والنظراء والنظراء والمواء من تحتب الأحياء ما يقول القضاة والحكماء

ـــ لُ لَــو نــالَ عُمــرَهُ وَالبَقاءُ هــورُ فَخرُ البِــلادِ وَالشُـعَراءُ وَصفُ يَومًــا أَو يَبلُغُ الإطراءُ صي ثَناها الأَلقابُ وَالأَســماءُ بُــرُ وَالشَــمسُ وَالضُحى آباءُ مِصــرَ وَالعَرشُ عالِيًــا وَالرِداءُ وَلكَ البَــرُ أَرضُهُ وَالسَــماءُ (١) وَلكَ البَــرُ أَرضُهُ وَالسَــماءُ (١)

وَبِناءٌ إِلَى بِناءٍ يَودُّ الخُلو وَعُلومٌ تُحي البِلادَ وَبِنتا إِيهِ سيزوستريسَ ماذا يَنالُ اللهِ سيزوستريسَ ماذا يَنالُ اللهَرَبَ ذاتُكَ العَلِيَّةُ أَن تُحلَ لَكَ آمونُ وَالهِلالُ إِذا يَكَ وَلَكَ الريفُ وَالهِلالُ إِذا يَكِ وَلَكَ الريفُ وَالصَعيدُ وَتاجا وَلَكَ المُنشَاتُ في كُلِّ بَحرٍ وَلَكَ المُنشَاتُ في كُلِّ بَحرٍ وَلَكَ المُنشَاتُ في كُلِّ بَحرٍ

وهذا كلام غني عن التعليق، فليت شعري ما الذي تركه لله من صفات الكمال بعد ما جمع هذه الأوصاف للفرعون الذي مجده وتغنى بعلاه، وما الذي أبقاه لله في هذا الكون بعدما جعل الأرض والسماء وما حوتا لذلك الفرعون؟؟!! وإن من أعجب العجب أن يمر هذا الكلام بسلام بين رجال العلم والفكر ودعاة الخير والإصلاح في الأمة، ولا نجد من بينهم من ينبس ببنت شفة أو يسطر حرفا استنكارا لما جاء فيه، فهل هذه كلها غفلة عما احتواه من الفظائع التي تقشعر منها الجلود، وتجف منها القلوب، وتنهد منها الجبال، وتميد بها الأرض وتنفطر منها السماء، أو أن ذلك إنما هو راجع إلى ما وقر في النفوس من تعظيم الجبابرة وتوقيرهم، من عهد بني أمية فمن بعدهم، فسرى منه هذا التوقير والتعظيم لمن كان قبلهم؟!!

إن كل من تأمل هذا الأمر بإمعان يدرك بداهة، أن ما كان من تلك التربية التي ربي بها فكر الأمة في العهد الأموي فما بعده؛ هو الذي جر هذه الضلالات إلى الأمة فألفتها وهانت عليها، فلم تجد استنكارا ولا استهجانا، وما ذلك إلا لأن التربية القرآنية والنبوية عطلت بقوة نفوذ

⁽۱) المرجع السابق، ص ۱۹ ـ ۲۰.

الجبارين حتى غدت صورا محنطة في متاحف التأريخ، ولو أن الأمة جعلت القرآن والهدي النبوي نصب أعينها ودرستهما دراسة اليقظ الواعي، من أجل الاستبصار بنورهما والاستهداء بهما في مسالك الحياة الفكرية والعملية، لكان لها شأن غير ما نراها عليه.

وإني لأرجو من قادة الفكر ورواد الإصلاح في هذه الأمة أن يعودوا بها إلى هذا المنهج الرشيد، ويرتفعوا بها عن هذا الحضيض الذي تدنت إليه من المقامات العالية التي ارتقت إليها في عهد النبوة الهادية والخلافة الراشدة.

رِجَالُ الإِصْلاح يُنادون هذه الأمّة بما يُحرّر تفكيرَها من هذه القُيُودِ والأغلال

إن دعاة الإصلاح، ورادة التفكير السليم في أمتنا، هدتهم الفطرة السليمة الى دعوة أمتهم أن تتحرر من ربقة أفكار تلك الحقبة، التي امتدت في الأمة ردحا من الزمن، منذ نكبت بالقضاء على الخلافة الراشدة، وقد سبق ذكر نماذج من أفكارهم في أول هذا الكتاب وأضم إلى ما ذكرته عنهم هنالك، ما نادى به من قبلهم المفكر المصلح عبدالرحمن الكواكبي الذي توفي في عام ١٣٢٠هـ، فقد فند في كتابه القيم «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» الأفكار العقيمة التي نكبت بها الأمة، فأعمتها عن الحق وصدتها عن الرشد، وكان مما قاله:

«وقد عدّد الفقهاء من لا تُقبَل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتّى من يأكل ماشياً في الأسواق؛ ولكنّ شيطان الاستبداد أنساهم أن يُفسّقوا الأمراء الظالمين فيردّوا شهادتهم»(١).

⁽۱) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي يلقب بالسيد الفراتي (ت: ١٣٢٠هـ) ص٣٧، المطبعة العصرية، حلب، الطبعة: طبعة جديدة منقحة ومضافة بقلم المؤلف..

وقال بعد ذلك: «وكلُّ هذه المسميات المثبطات تهون عند ذلك السمّ القاتل، الذي يحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدّين، ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الأسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السمّ، فهم العوام، وبله الخواص، لأ سراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السلمان، ولا سلطة إلا من الله»، و«الحاكم لا يتقلّد السيف جزافاً، إنه مقام للانتقام من أهل الشر»، وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدِّثوهم من ذلك قولهم: «السلطان ظلُّ الله في الأرض»، و«الظالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه»، و«الملوك ملهمون». هذا وكلُ ما ورد في هذا المعنى إنْ صحَّ فهو مقيّد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب، وهي: ﴿أَلَا وَبِما ينظبَقُ مَلَهُ عَلَى الظَّلِمِينَ ﴾ [هود: ١٩]، وآية ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّلِمِينَ ﴾ [هود: ١٩]، وآية ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّلِمِينَ ﴾ [هود: ١٩]، وآية

وقال أيضا: التربية علمٌ وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أنْ يوجد فيها من يَعْلَمُ التربية ولا من يُعَلِّمُها. حتى أنَّ الباحث لا يرى عند الأسراء علماً في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الأذهان. أمّا العمل، فكيف يُتصوَّر وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد في الأثر «النيّة سابقة العمل». وورد في الحديث: «إنّما الأعمال بالنيّات»(۱). بناءً عليه؛ ما أبعد الناس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم،

⁽۱) أخرجه الربيع من طريق ابن عباس (ص۲۳، رقم ۱) وأخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن من طريق ابن عمر (ص۳۸، رقم ۹۸۳ طبعة دار ابن خلدون)، وأحمد (۲۰/۱، رقم ۱۹۸۷)، والبخاري (۳/۱، رقم ۱)، ومسلم (۱۹۰۷، رقم ۱۹۰۷)، والترمذي (۱۹۰۷، رقم ۱۹۲۷)، وأبو داود (۲۲۲۲، رقم ۲۲۲۱)، والنسائي (۱۸۸۸، رقم ۳۲۷۷)، وابن ماجه (۱۲۲۷، رقم ۲۲۲۷)، وابن المبارك (۲۲۲۱، رقم ۱۸۸)، والحميدي (۱۲۲۱، رقم ۲۸۷)، والبيهقي (۱۸۱۶، رقم ۱۸۸۱)، والطحاوي (۹۲/۳)، =

عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عمل نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة.

ثم قال: «أيها المسلمون: إني نشأت وشبت وأنا أفكّر في شأننا الاجتماعي، عسى أهتدي لتشخيص دائنا، فكنتُ أتقصّى السبب بعد السبب، حتى إذا وقعتُ على ما أظنّه عاماً، أقول: لعلَّ هذا هو جرثومة الدّاء، فأتعمّق فيه تمحيصاً وأحلّله تحليلاً، فينكشف التحقيق عن أنَّ ما قام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب. وطالما أمسيتُ وأصبحتُ أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيراً ما سعيتُ وسافرتُ لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أن أهتدي إلى ما يشفي صدري من آلام بحث أتعبني به ربّي. وآخر ما استقرَّت عليه سفينة فكرى هو:

أنَّ جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين

والطبراني في الأوسط (١/١١، رقم ٤٠)، والخطيب (٢٤٤/٤)، وابن عساكر (٢٦٦/٣٢)، وابن منده في الأوسط (٢٠٥/١، رقم ٢٠٥)، وتمام في الفوائد (٢٠٥/١، رقم ٤٨٤)، والدارقطني والصيداوي في معجم الشيوخ (١/٧١)، وابن خزيمة (٢٧٧، رقم ٢٤٢)، والدارقطني (٢٠٠٥)، وأبو عوانة (٤٨٧٤، رقم ٢٤٧)، والبزار (٢٠٠١، رقم ٢٥٧)، وهناد (٢٠٠٤، رقم ٢٨١)، والبيهقي في الزهد (١٣١/٢، رقم ٢٤١)، والحسن بن سفيان في الأربعين (٢١٥، رقم ١١)، وابن منده في مسند إبراهيم بن أدهم (ص٢٤، رقم ١٣١)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص٣٥، رقم ٢٠)، والحسن بن على العامري في الأمالي والقراءة (ص٤٣، رقم ٢٦)، والسلفي في مشيخة ابن الحطاب (ص٢٠١ رقم ٥١)، والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (١/٣٩، رقم ١١)، والديلمي طريق أبي سعيد الخدري: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢١٩١، رقم ١١٠)، وابن عساكر (٢١٨١، رقم ٢٠١)، ولحديث أطراف أخرى منها: "يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات" وفي مسند عمر من عدة طرق..

النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنّا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتشويش، دين البِدَع والتشديد، دين الإجهاد. وقد دبّ فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكّن فينا وأثّر في كلّ شؤوننا، حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في الخالق _ جلّ شأنه _ نظاماً فيما اتّصف، نظاماً فيما قضى، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلاً عن آمرنا أو مأمورنا بنظام وترتيب واطّراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوَّش، وفكرنا مشوَّش، وسياستنا مشوَّشة، ومعيشتنا مشوَّشة، الحياة العملية، ومعيشتنا مشوَّشة، الحياة اللجتماعية، الحياة السياسية؟!».

«يا قومُ: قد ضيَّع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماؤكم المنافقون، وإنّي أرشدكم إلى عمل إفرادي لا حرج فيه علماً ولا عملاً: أليس بين جنبي كلِّ فردٍ منكم وجدان يميز الخير من الشرّ، والمعروف من المنكر ولو تمييزاً إجمالياً؟ أما بلغكم قول معلِّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلِّطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»(۱)، وقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(۲)?!

«وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلِّها على أنَّ أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظُّلم الذي فشا فيكم، ثمَّ قتل النَّفس، شمَّ، وثمَّ،... وقد أوضح العلماء أنَّ تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبِّس فيه بغضاً في الله. بناءً

⁽١) سبق تخريجه.

⁽٢) سبق تخريجه.

عليه؛ فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعياذ بالله».

«ولا أظنكم تجهلون أنَّ كلمة الشهادة، والصوم والصلاة، والحج والزكاة كلّها لا تغني شيئاً مع فقد الإيمان، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشّعائر، قياماً بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الأموال والأوقات».

«بناءً عليه؛ فالدين يكلّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تُلزِمكم إن كنتم عاقلين: أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقلّ في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، وأظنّكم إذا تأمّلتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكلّ إنسانٍ منكم يكفي لإنقاذكم مما تشكون. والقيام بهذا الواجب متعيّن على كلّ فرد منكم بنفسه، ولو أهمله كافّة المسلمين. ولو أنّ أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدّين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقينٌ وعمل، لا علم وحفظٌ في الأذهان. أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظرِ غيره؟!».

«فأناشدكم الله يا مسلمين: أن لا يغرَّكم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرنَّكم أنفسكم بأنَّكم أمّة خير أو خير أمّة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. ونِعْمَ الشّعار شعار المؤمنين، ولكن؛ أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمَّةً تعرف حقاً معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمَّة خبلتها عبادة الظالمين!». اهـ(١).

وهو كلام طب ماهر خبير، عرك الأحداث وعركته، وسبر الناس فعرف طبائعهم، لذلك وضع في كلامه المقصل على المفصل، وإن كان لم يخل

⁽١) المصدر السابق، ص١٤٦ - ١٤٨.

من مبالغة عندما شدد في السلام على الفاسق، مع أن السلام شعار أمة الإسلام يشترك فيه البر والفاجر، وقد كانت كلماته هذه نفثة مصدور من صدر تزاحمت فيه الأفكار، وتراكمت عليه الهموم من النظر في حال الأمة، والتطلع إلى مآل لها تنجلي فيه الغمة، وتتقشع فيه الغيوم حتى تغدو الحقيقة نصب عيني كل فرد من أفرادها، ولكن مع دويها الهادر خفت صوتها وسط ضجيج أصوات الباطل الصاخبة، التي أبت إلا أن تروِّج للباطل الذي تنصره وتطمر الحق الذي تحاربه، فلذلك لم يستجب لهذه الدعوة إلا من يعد بين الناس من الشواذ الغرباء، الذين يصدق عليهم قول النبي على: «طوبى للغرباء، طوبى للغرباء، قيل: من الغرباء؟ قال: ناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم "(۱).

⁽۱) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (۲۰۹/۱۰). وأخرجه أيضًا: أحمد (۲۲۲/۲، رقم ۲۰۳۷)، والبيهقي في الزهد الكبير (۱۱٦/۲، رقم ۲۰۳۳) قال الهيثمي (۲۰۹/۱۰): رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير... وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

خَاتِمَة الكِتَاب

بعد هذه الجولة المُضْنِيَة التي قضيتَها معي - أخي القارئ الكريم - وقد عرجت بنا على منحنيات هذه القضايا المهمة بين أحداث الحاضر وتأريخ الماضي، وغاصت بنا في خضم مسائل تعاركت فيها الألباب واختصمت فيها الفهوم، وتنازعت الحق والحقيقة فيها أطراف كل يدعي أنه استأثر بهما عمن سواه.

وكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بلَيْلَى وليلى لا تُقِرُّ لَهُم بِذَاكَا

بعد هذا كله، أدعك لراحة البال، وأستودعك الله تعالى، راجيا أن نلتقي في جولة أخرى، أدعى إلى السلم والوفاق والألفة والتصافي، بعد أن يتضح الصبح لكل ذي عينين، وتنكشف الحقيقة، وقد توارت عنها أغشية اللبس وحجب التدليس.

مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١- ٣٣]، وما أعظم فرحتي عندما تجتمع الأمة على كلمة سواء، تُحَكِّمُ كتاب ربها وسنة نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام، عملا بقوله تعالى : ﴿ فَإِن نَنزَعُنُمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُننَمُ تُؤُمِنُونَ بِٱللّهِ وَٱلْمَوْدِ إِن كُننَمُ تُؤمِنُونَ بِٱللّهِ وَالنّساء: ٥٩].

كما أدعو الجميع إلى التفاني في نصرة الحق ودفع الباطل، فإن الحق أحق أن يتبع، ولو جاء به أبغض الناس، والباطل أولى أن يدفع ويزهق، ولو تلبس به أقرب الناس، وأن يعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال.

ولا يظنن ظان أن ما قلته ناشئ عن حقد على طائفة بعينها من الناس، سواء بنو أمية أو بنو العباس أو غيرهما، فنحن إنما مشكلتنا مع الجور والظلم والفساد في الأرض، لا مع هؤلاء ولا هؤلاء، فمن حكام بني أمية عمر بن عبدالعزيز في، وقد توليناه وواليناه عندما حكم فعدل، وقسم فساوى، واتقى الله في سره وعلانيته، فكان مثالا للحاكم المسلم الذي يخشى الله ويتقيه، ويحمل هم عباده.

أما بنو العباس، فإنهم ينحدرون نسبا من حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس في الذي نعده نجما من ألمع نجوم الهداية في الأمة، وقد أخذ أسلافنا عنه الفكر والفقه وتربى أئمتهم على يديه فاستبصروا ببصيرته واهتدوا بهداه، ومن قبله أبوه عم رسول الله في العباس ابن عبدالمطلب الذي عده رسول الله على بمثابة الأب، وقال: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه» فلم نقف منهم موقفا سلبيا لأنهم بنو العباس، ولكن بما قارفوه من

⁽۱) أخرجه أحمد (۳۲۲/۲، رقم ۸۲٦۷)، والبخاري (۵۳٤/۲، رقم ۱۳۹۹)، ومسلم (۲۷٦/۲، رقم ۹۳۸)، وأبو داود (۱۱۵/۲، رقم ۱۲۲۳)، والنسائي (۳۳/۵، رقم ۲۶۱۶). وأخرجه أيضًا: عبدالرزاق (۱۸/۶، رقم ۲۸۲۲)، والدارقطني (۱۲۳/۲)، وابن حبان (۸/۷۲، رقم ۳۲۷۳)، والبيهةي (۱۱۱/۶، رقم ۷۱۲۰).

خَاتِمَة الكِتَابِ خَاتِمَة الكِتَابِ

الجور ورزأوا به الأمة من الظلم، ولا يشفع لهم أنهم ينحدرون من تلك السلالة الطيبة الطاهرة، فقد قيل لنوح رَجُكُ في ابنه: ﴿إِنَّهُولِيَسُ مِنْ أَهَلِكُ إِنَّهُو اللَّهِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

وأخيرا أعتذر إلى القارئ الكريم إذ لم أجعل خطة كتابي هذا شارحة لجميع دقائق موضوعاته التي أتناولها في البحث، فإني لم يكن في مخيلتي أنه سيتسع إلى حد ما وصل إليه، وإنما شرعت فيه على أنه بحث محدود في قضية معينة وقتية، غير أن اليراع استرسل حتى أتى على قضايا عدة غابرة وحاضرة جر بعضها بعضا، ولم أرد أن أكبح نشاطه أو أقيد سيره وإنما أطلقت له العنان، فطاف في هذه الأرجاء، وأرجو أن لا يكون في أمر ما تجاوز حدود الحق إلى الباطل، وما أردت بهذا كله إلا أن أجلي الحقيقة المغيبة وأنصر الحق المهضوم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلّا اللهضيكَ مَا استَطَعَتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ المغيبة وأنصر الحق المهضوم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلّا اللهضيكَ مَا استَطَعَتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ

وأسال الله تعالى أن يوفقني وجميع المسلمين، للاعتصام بحبل الله المتين، واتباع نوره المبين، وسلوك صراطه المستقيم، وأن يهيئ الله لنا من أمرنا رشدا.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وسلام على عباد الله الصالحين

تونس الخضراء ٥ صفر الخير ١٤٣٤هـ أحمد بن حمد الخليلي

⁽۱) حدیث شریف، أخرجه أحمد (۲۰۲۲، رقم ۷٤۲۱)، ومسلم (۲۰۷٤/۶، رقم ۲۹۹۹)، وأبو داود (۲۸۷/۶، رقم ۶۹۶۱)، والترمذي (۱۹۵/۵، رقم ۲۹۶۵)، وابن ماجه (۸۲/۱، رقم ۲۲۵)، وابن حبان (۲۹۲/۲، رقم ۵۳۵).

- ا _ الإباضية في موكب التاريخ؛ الحلقة الأولى «نشأة المذهب الإباضي»، علي يحيى معمر، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عُمان السيب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ/٢٠٨م.
- ٢ الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول؛
 للبيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي الوفاة: ٥٦٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى.
- ٣_ إجمال الإصابة في أقوال الصحابة، خليل بن كيكلدي العلائي، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر.
- ٤ ـ أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا.
- ٥ أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر الوفاة:
 ٣٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.
- 7 أحكام أهل الذمــة، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الوفاة: ٧٥١هـ، رمادى للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيــروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الطبعــة: الأولى، تحقيق: يوسـف أحمد البكرى، شاكر توفيق العاروري.

- ٧ أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر،
 أ. إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي.
- ٨ ـ الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري الوفاة: ٢٨٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عصام محمد الحاج على.
- 9 _ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ۱۰ _ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الوفاة: ١٣١٥هـ، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري.
- 11 _ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري الوفاة: ٣٠٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت / لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، فتح البارى، ج١٤٠ ص٢٠٧.
- 17 _ إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان، سالم بن حمود السيابي، منشورات المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ.
- 17 _ أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوفاة: ٤٥٦هـ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت / لبنان، ١٩٨٧م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. إحسان عباس.
- 14 _ أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر الوفاة: ٩٠ هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٥ _ الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي الوفاة: ٧٩٠هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

- 17 _ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: على مهنا وسمير جابر.
- ۱۷ ـ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي الوفاة: ٦٣٤هـ، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين على.
- ۱۸ ـ الإمامة والسياسة، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري الوفاة: ٢٧٦هـ، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: خليل المنصور.
 - ١٩ ـ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري الوفاة: ٢٧٩.
- ٢ _ دستور أمة الإسلام، دراسة في أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين، حسين مؤنس، دار الرشاد.
 - ٢١ ـ انهيار الدولة العثمانية، المكتبة الشاملة.
- ۲۲ _ الأوائل للعسـكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفي: نحو ٣٩٥هـ).
- ٢٣ _ البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي الوفاة: ٥٠٧هـ، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.
- ٢٤ ـ البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء الوفاة: ٧٧٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت.

- ٢٥ _ بدائع السلك، إبن الأزرق، الوفاة: ٨٩٦هـ، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. على سامى النشار.
- ٢٦ ـ البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي الوفاة: ٤٧٨هـ، الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب.
- ۲۷ ـ البصائـر والذخائر، أبو حيـان علي بن محمد بن العبـاس التوحيدي الوفاة: ١٤١٤هـ، دار صـادر، بيروت/لبنـان، ١٤١٩هـ/٩٩٩م، الطبعة: الراجعة، تحقيق: د. وداد القاضي
- ۲۸ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة الوفاة: ٦٦٠هـ، ج٧، ص٣٠٨٥، دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار.
- ۲۹ _ تاريخ ابين الوردي، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي الوفاة: ۷۹۸هـ، دار الكتب العلمية، لبنان / بيروت، ۱٤۱۷هـ/۱۹۹۹م، الطبعة: الأولى.
- ٣ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الوفاة: ٧٤٨هـ، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، ١٤٠٧هـ/١٤٨٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمرى.
- ٣١ ـ تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، ص٩١٠ مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد.
 - ٣٢ _ تاريخ الدولة العلية العثمانية، فريد بك المحامى، المكتبة الشاملة.
- ٣٣ _ تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الوفاة: ٣١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤ ـ تاريخ المدينة المنورة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري الوفاة: ٢٦ هـ ٢٦٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، تحقيق: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان

- ٣٥ _ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي الوفاة: ٢٩٢هـ، دار صادر، بيروت.
- ٣٦ ـ تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط الليشي العصفري أبو عمر الوفاة: ٢٤٠هـ، دار القلم ، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. أكرم ضياء العمرى،
- ٣٧ _ البيان والتبيين، الجاحظ الوفاة: ٢٥٥هـ، دار صعب، بيروت، تحقيق: فوزي عطوي.
- ٣٨ ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، ١٢٣٧هـ، دار الجيل، بيروت.
- ٣٩ _ تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس بن اهرون الملطي، المعروف بابن العبري المتوفى: ٦٨٥هـ،
- ٤ ـ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي الوفاة: ١٧٥هـ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري،
- 13 _ التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي الحنبلي الوفاة: ٨٨٥هـ، مكتبة الرشد، السعودية / الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبدالرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح.

- 27 ـ تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب، الحيل. ٢٠٠٠م.
- ٤٣ _ تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين أبي زرعة العراقي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩م، تحقيق: عبدالله نوارة.
- 25 _ تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم الطرسوسي، نجم الدين الوفاة: ٥٨ هـ.
- ٥٥ _ تحفة الحبيب على شرح الخطيب (البجيرمي على الخطيب)، سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي الوفاة: ١٢٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.
- 23 _ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الإمام السخاوي الوفاة: 87 _ التحف دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى.
- ٤٧ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.
- ٤٨ ـ التذكرة الحمدونية، ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي الوفاة: ٢٠٨هـ، دار صادر، بيروت/لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحسان عباس، بكر عباس.
- 89 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي الوفاة: 3 ٤ ٥ هـ، دار

الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الاولي، تحقيق: محمد سالم هاشم.

- ٥ _ تصحيح أثر تأريخي حول الوهابية، محمد بن سعد الشويعر، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.
- ٥١ تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية في المواقف العسكرية، بحث مقدم الى ندوة الاحتفال بالإمام المختار أبي حمزة الشارى وَعَلَيْهُ، التي أقامتها دار الإفتاء ورعاية الشباب سنة ١٤١٠، بسلطنة عُمان، عبدالمعز عبدالستار، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مدينة نصر القاهرة ٢٠٠١م.
- ٥٢ ـ تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، أحمد الكاتب، مؤسسة الانتشار العربية.
- ٥٣ ـ التعديل والتجريع، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٦، ١٩٨٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. أبو لبابة حسين.
- ٥٥ ـ تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، لبنان/ بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبدالمجيد النوقي/ د. أحمد النجولي الجمل.
- ٥٥ _ تفسير البغوي، البغوي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.

- ٥٦ ـ تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- ٥٧ _ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار الفكر، بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.
- ٥٨ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- ٥٩ ـ تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت /لبنان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن تفسير السمعاني.
- 7 التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي الوفاة: ٢٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.
- 71 _ تفسير النسفي، أبي البركات عبدالله ابن أحمد بن محمود النسفى. الجامع الكبير الإلكتروني.
- 77 ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، 1813هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ زكريا عميران.
- ٦٣ _ تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.

٦٤ _ التقرير والتحرير في علم الأصول، ابن أمير الحاج. الوفاة: ٩٧٨هـ،
 دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- 70 ـ تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الوفاة: ٨٥٢هـ، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.
- 7٦ ـ التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد الوفاة: ٧٧٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.
- ٦٧ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الوفاة: ٣١٠هـ، مطبعة المدني، القاهرة، تحقيق: محمود محمد شاكر.
- 7۸ ـ تهذیب التهذیب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الفكر، بیروت، ١٩٨٤هـ/١٩٨٩م، الطبعة: الأولى.
- 79 ـ تهذیب الکمال، یوسف بن الزکي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي الوفاة: ۲۹۸هـ، مؤسسة الرسالة، بیروت، ۱۹۸۰، ۱۹۸۰م، الطبعة: الأولى، تحقیق: د. بشار عواد معروف.
- ٧٠ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الوفاة: ٣٧٠هـ،
 دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق:
 محمد عوض مرعب.
- ٧١ ـ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، محمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني الوفاة: ١٨٢هـ، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محى الدين عبدالحميد.

- ٧٢ ـ تيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه الوفاة: ٩٧٢ هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٧٧ ـ الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار الفكر، ١٩٧٥، ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.
- ٧٤ جامع الاحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطى والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوى، والفتح الكبير للنبهانى)، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، الوفاة: ١٩٨جمادى الاولى / ٩١١هم، دار الفكر، ١٩٩٤، ١٤١٤هم، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د. على جمعة (مفتي الديار المصرية)، طبع على نفقة: الأستاذ الدكتور حسن عباس زكى. الطبعة الأولى، على تخريجات الأحاديث بناء على تخريجات هذا الكتاب.
- ٧٥ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى أبو جعفر الوفاة: ٣١٠هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥.
- ٧٦ الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، بيروت، سلطنة عُمان، ١٤١٥هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد إدريس، عاشور بن يوسف.
- ٧٧ ـ الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامي والعربي، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٩هـ الإصدار الرابع، المراجع بحسب ترتيب هذا الجامع، الذي يزيد في بعض الأحيان بصفحة عن المطبوع.

٧٨ ـ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

- ٧٩ _ الجماهر في معرفة الجواهر، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الوفاة: ٤٤٠هـ.
- ٠٨ ـ جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوفاة: ٤٥٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة.
 - ٨١ ـ جمهرة خطب العرب، أحمد زكى صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٨٢ _ جمهرة نسب قريش وأخبارها، الزبير بن بكار بن عبدالله (المتوفي: ٢٥٦هـ).
- ٨٣ _ جوامع السيرة، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوفاة: ٤٥٦هـ.
- ٨٤ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- ٨٥ ـ جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين أبي محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي العُماني، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٨٦ _ الجوهـرة في نسـب النبـي وأصحابه العشـرة، محمد بـن أبي بكر الأنصاري التلمساني المعروف بالبري (المتوفي: ١٤٤هـ).
- ۸۷ ـ حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري)، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت.

- ۸۸ ـ حاشية الصاوي على الجلالين، طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاءه.
 - ٨٩ _ حاشية العطار، حسن بن محمد العطار، المتوفى: ١٢٥٠ هـ.
- ٩ ـ حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة، ابن عابدين. الوفاة: ١٢٥٢هـ، دار الفكر للطباعة والنشر.، بيروت.، ١٤٢١هـ/٠٠٠٠م.
- ٩١ الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن.
- 97 _ الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السُّنَّة، أبو القاسم اسماعيل ابـن محمد بن الفضل التيمـي الأصبهانـي، دار الراية، السـعودية / الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادى عمير المدخلي.
- 97 _ الحركة الإباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم، دار الحكمة، لندن.
- 94 _ الحريــة أو الطوفان، دراســة موضوعية للخطاب السياســي الشــرعي ومراحله التأريخية، بقلم د. حاكم المطيري، سنة النشر ٢٠٠٣م.
- 90 _ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني الوفاة: ٤٣٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.
- 97 _ حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج، عبد الحميد الشرواني دار الفكر، بيروت.

9۷ _ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي الوفاة: ۱۹۹۸هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱۹۹۸م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد نبيل طريفي/إميل بديع اليعقوب.

- ٩٨ ـ الخصائـص الكبرى، أبو الفضـل جلال الديـن عبد الرحمن أبي بكر السيوطي الوفـاة: ٩١١هـ، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- 99 _ الخوارج والحقيقة الغائبة، لناصر بن سليمان السابعي، الطبعة الأولى، 187 هـ/١٩٩٩م.
- ۱۰۰ ـ الـدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، ط٦. العماء نجد الأعلام، ط٦.
- ۱۰۱ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الوفاة: ۸۵۲هـ/ ۱۶۶۹م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد/ الهند، ۱۳۹۲هـ/ ۱۹۷۲م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبدالمعيد ضان.
- ۱۰۲ ـ دلائل الإعجاز، الإمام عبدالقاهر الجرجاني الوفاة: ٤٧١هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. التنجى.
- 1.۳ ـ دلائل النبوة، للبيهقي الوفاة: ٥٨ ٤هـ. باقي البيانات لا يوجد (الجامع الكبير، القرص الصلب الإلكتروني).
- ١٠٤ ـ دولة الخلافة العثمانية (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)، رضا الطيب، المكتبة الشاملة.
- ١٠٥ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن

- علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي الوفاة: ٧٩٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ۱۰٦ ـ ديوان أبي مسلم، ناصر بن سالم بن عديم الرواحي، دار المختار، ١٩٨٦ م.
- ۱۰۷ ـ ديوان شوقي «الشوقيات» تعليق د. يحي شامي، دار الفكر العربي، مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- ۱۰۸ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبرى الوفاة: جمادى الآخرة / ٦٩٤هـ، دار الكتب المصرية، مصر.
- ۱۰۹ ـ ربيع الأبرار، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الوفاة: ۵۳۸هـ.
- ۱۱۰ ـ رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي الوفاة: ٦٤٦هـ، عالم الكتب، لبنان، بيروت، ١٩٩٩م، ١٤١هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود.
- ۱۱۱ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي الوفاة: ۱۲۷۰هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ۱۱۲ ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي الوفاة: ۹۷هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، ۱٤۰٤، الطبعة: الثالثة.
- ۱۱۳ ـ السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر/ دمشق.

118 ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي الوفاة: قبل سنة ٧٣٢هـ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٥٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي.

- 110 ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي الوفاة: ١١١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، على محمد معوض.
- ۱۱٦ ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الوفاة: ٧٢٨هـ، دار المعرفة.
- ۱۱۷ ـ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله الوفاة: ٧٤٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.
- ۱۱۸ ـ السير، لأحمد بن سعيد الشماخي، سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة، ۱٤٠٧هـ، تحقيق أحمد بن سعود السيابي.
- ۱۱۹ _ السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي الوفاة: ١٤٠٠هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠.
- ۱۲۰ _ السيرة النبوية، العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسني الندوى (ت١٤٢هـ)، دار القلم، دمشق.
- ۱۲۱ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم الوفاة: رمضان ۲۱۶هـ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ۲۱۶هـ/۱۹۸۶م، الطبعة: السادسة، تحقيق: أحمد عبيد.

- ۱۲۲ _ شــذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الوفاة: ۱۰۹هـ، دار بن كثير، دمشــق، ۱٤٠٦هـ، الطبعة: ط۱، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط.
- 1۲۳ _ شرح أصول اعتقاد أهل الشُنَّة، محمد حسن عبد الغفار، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية. الدرس ٦١، المكتبة الشاملة.
- ۱۲٤ ـ شرح تفسير ابن كثير، عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي، الدرس٢٦، المكتبة الشاملة.
- ۱۲۰ ـ شرح سنن أبي داود، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، درس ٤٨٦.
- ۱۲٦ ـ شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري القرطبي الوفاة: ٤٤٩هـ، مكتبة الرشد، السعودية / الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.
- ۱۲۷ _ شرح علل الترمذي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ۷۹۰هـ) مكتبـة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة: الأولـى، ۱٤۰۷هـ/۱۹۸۷م، الدكتور همام عبدالرحيم سعيد.
- ۱۲۸ ـ شرح فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي الوفاة: ٦٨١هـ، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية.
- ۱۲۹ ـ شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱۳۹۹، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد زهرى النجار.

۱۳۰ _ الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ۲۷٦هـ).

- ۱۳۱ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الوفاة: ٦٧٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢، الطبعة الثانية.
- ۱۳۲ ـ الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥/١٣٩٥م.
- ۱۳۳ صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري الوفاة: بعد ٨٦٦هـ، دار الجيل، بيروت / لبنان، ١٤٠٨ ه، ١٩٨٨م، الطبعة: الثانية، تحقيق: إ. لافي بروفنصال.
- ۱۳٤ ـ صفوة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، الوفاة: ١٣٤ ـ صفوة الصفوة، بيروت، ١٣٩٩، ١٩٧٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي.
- ١٣٥ _ الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، سليمان بن عبد الوهاب ١٣٥ للنجدي، الطبعة الثالثة، المكتبة التخصصية في الرد على الوهابية.
- ١٣٦ ـ الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي الوفاة: ٩٧٣هـ، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله التركى، كامل محمد الخراط
- ١٣٧ _ كتاب الضعفاء والمتروكين، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب

- النسائي، دار الوعي، حلب، ١٣٩٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.
- ۱۳۸ ـ كتاب الضعفاء والمتروكين، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالله القاضي.
- ۱۳۹ ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي يلقب بالسيد الفراتي (المتوفى: ۱۳۲۰هـ)، المطبعة العصرية، حلب، الطبعة: طبعة جديدة منقحة ومضافة بقلم المؤلف.
- ۱٤٠ ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري الوفاة: ٢٣٠، دار صادر، بيروت.
 - ١٤١ ـ طبقات المشايخ، للدرجيني...
 - ١٤٢ ـ طلعة الشمس، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي.
- ۱٤٣ _ العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٤٣ _ ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م، ط١٨.
- 184 ـ العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي الوفاة: ٣٢٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت /لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة.
- 180 _ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الوفاة: ٩٩٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل الميس.
- ۱٤٦ _ عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (١٥٠٠، ١٩٧٠). د. حسين غباش.

۱٤۷ _ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العينى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- ١٤٨ _ عنوان المجد في تأريخ نجد، عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ج١، ص٤٦، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الرابعة، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١٤٩ ـ عيون الأخبار، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).
- ١٥٠ _ غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، محمد بن أحمد الرملي الأنصاري الوفاة: ١٠٠٤هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ۱۵۱ _ غرر الخصائص الواضحة، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (المتوفي: ۱۸۷هـ).
- ١٥٢ _ غياث الأمم والتياث الظلم، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي الوفاة: ٤٧٨هـ، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٧٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، د. مصطفى حلمي.
- ۱۵۳ ـ الفتاوى الحديثية، أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي الوفاة: ۹۷۳هـ، دار الفكر.
- ١٥٤ _ فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الوفاة: ٨٥٢هـ، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.
- ١٥٥ _ الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، جمع وترتيب سالم بن حمد الحارثي، طبع بإشراف عز الدين التنوخي، مجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، الطبعة العمومية بدمشق.

- ١٥٦ _ الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي الوفاة: ٢٠٠هـ، دار النفائس، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعـة: الأولى، تحقيق: أحمد راتب عرموش.
- ۱۵۷ _ فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري الوفاة: ۲۷۹هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱٤٠٣، تحقيق: رضوان محمد رضوان.
- ۱۵۸ ـ فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله عبدالله عبدالحكم بن أعين القرشي المصري الوفاة: ۲۵۷هـ/ ۸۷۱م، دار الفكر، بيروت، ۱۶۱۲هـ/ ۱۹۹۱م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري.
- ١٥٩ ـ الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية، محيي الدين بن علي بن محمد الطائي الخاتمي الوفاة: ٢٣٨/٤/٢٢هـ، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى.
- 17٠ ـ الفرق بين الإباضية والخوارج، تأليف الشيخ العلامة إبي إسحاق إبراهيم إطفيش، ص١٢، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السبب.
- ۱۲۱ _ الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي الوفاة: ٦٨٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل المنصور.
- ۱٦٢ _ السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، ص٤٧، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
- ١٦٣ _ الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد الوفاة: ٥٤٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

۱٦٤ _ فضائل الصحابة، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ).

- ١٦٥ _ الفقيه والمتفقه؛ الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي؛ دار الكتب العلمية، بيروت.
- 177 _ الفكر والمجتمع في حضرموت، كرامة مبارك سليمان بامؤمن، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى.
- ١٦٧ _ فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الوفاة: ٧٦٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعـة: الأولـي، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله/عادل أحمد عبدالموجود.
- ۱٦٨ ـ الفواكـ الدواني على رسالة ابن أبـي زيد القيروانـي، أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي الوفاة: ١٦٥هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥.
 - ١٦٩ _ في ظلال القرآن، تفسير سيد قطب، دار الشروق.
- ۱۷۰ _ فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي الوفاة: الأولى. ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى.
- ۱۷۱ _ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي الوفاة: ۱۳۳۲هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ۱۳۹۹هـ/۱۹۷۹م، الطبعة: الأولى.
- 1۷۲ ـ الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الوفاة: ١٣٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: عبدالله القاضي.

- ۱۷۳ _ كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام الوفاة: ٢٢٤هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.، تحقيق: خليل محمد هراس.
- 1۷٤ _ كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
- ۱۷۵ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الوفاة: ٥٣٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي.
- 1۷٦ _ كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري الوفاة: ٧٣٠هـ.، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر.
- ۱۷۷ _ كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، سرحان بن سعيد الأزكوي، تحقيق وتقديم أ. د. محمد حبيب صالح، د. محمود بن مبارك السليمي، ط۱، ۲۰۱۲هـ/۲۰۱۲م.
- ۱۷۸ ـ الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري الوفاة: ۲۷۱هـ/۱۰۳۵م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ۱٤۲۲هـ/۲۰۰۲م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الإمام أبى محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي.
- ۱۷۹ ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي الوفاة: ١٩٤١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.
- ١٨٠ _ الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية،

عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد الوفاة: ٧٧٢هـ، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن عواد.

- ۱۸۱ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريق ي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى.
- ۱۸۲ ـ لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الوفاة: ۸۵۲هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ۱٤٠٦، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية، الهند.
- ۱۸۳ _ مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبدالله القلقشندي الوفاة: ١٩٨٥ _ مطبعة حكومة الكويت، الكويت، الكويت، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج.
- ١٨٤ _ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ۱۸۵ ـ كتاب المتوارين الذين اختفوا خوفا من الحجاج بن يوسف الثقفي، عبد الغني بن سعيد الأزدي أبو محمد الوفاة: ۴۰3هـ، دار القلم ، الدار الشامية، دمشـق، بيروت، ۱٤۱۰هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: مشهور حسن محمود سلمان.
- ۱۸٦ ـ المجاهد أبو حمزة الشاري، مجموعة بحوث، ندوة من أعلامنا الثانية، عن المجاهد أبو حمزة الشاري، المطابع العالمية، سلطنة عُمان، روي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ۱۸۷ _ المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي الوفاة: بعد ٣٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عدنان على.

- ۱۸۸ _ محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعرء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني الوفاة: ۲۰۰هـ، دار القلم، بيروت، ۱٤۲۰هـ/۱۹۹۹م، تحقيق: عمر الطباع.
- ۱۸۹ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الاولى، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافى محمد.
- 19. _ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الوفاة: ٢٠٦هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠ الطبعة: الأولى، تحقيق: طه جابر فياض العلواني.
- ۱۹۱ ـ المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي الوفاة: ٤٥٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
- ۱۹۲ _ المحن، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي الوفاة: ٣٣٣هـ / ٩٤٤م، دار العلوم، الرياض، السعودية، ٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عمر سليمان العقيلي.
- ۱۹۳ ـ المحيط في اللغة، الصاحب الكافي الكفاة أب القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني الوفاة: ٣٨٥هـ، عالم الكتب، بيروت / لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين.
- ۱۹۶ _ مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الوفاة: ۷۱۱هـ.
- ۱۹۵ ـ المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (المتوفى: ۷۳۲هـ).

١٩٦ _ مخطوطة لأبي نبهان يحذر فيها من الحكم على أهل القبلة بأحكام المشركين.

- ۱۹۷ _ مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد الوفاة: ٥٦٦هـ، ص١٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ۱۹۸ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري الوفاة: ۱۹۸هـ، دار الكتب العلمية، لبنان/ بيروت، ۱۶۲۲هـ/۲۰۰۱م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.
- ۱۹۹ _ مروج الذهب، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي الوفاة: ٣٤٦هـ.
- ٢٠٠ ـ المستصفى في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الوفاة: ٥٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي.
- ٢٠١ ـ المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني الوفاة: ٢١١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، ٣٤٠٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- ۲۰۲ ـ معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ، للدكتور محمد علي البار، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت.
- ۲۰۳ _ معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الوفاة: هـ ۲۰۳هـ، دار النشر: دار الجيل، بيروت، لبنان، ۱٤۲۰هـ/۱۹۹۹م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون.

- ١٠٤ ـ معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، لأبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب الوفاة: ٢٦١هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٥، ١٩٨٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالعليم عبدالعظيم البستوي.
- ۲۰۰ ـ المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي الوفاة: ٢٠٠ هـ ٢٧٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، تحقيق: خليل المنصور.
- ۲۰٦ _ مغاني الأخيار، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفي: ٨٥٥هـ).
- ۲۰۷ ـ المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد الوفاة: ٦٢٠هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥، الطبعة: الأولى.
- ۲۰۸ _ مفتاح السعادة إلى صحيح العبادة، (أنوار العقول، مدارج الكمال، كشف الحقيقة)، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، السيب، الحيل الجنوبية، محافظة مسقط، الطبعة الأولى.
- ۲۰۹ ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الوفاة: هـ ۲۰۹ هـ، دار المعرفة، لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
 - ٢١٠ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، المكتبة الشاملة.
- ٢١١ _ مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصفهاني، على بن الحسين (المتوفى: ٣٥٦هـ)
- ۲۱۲ ـ المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى، محمد ضياء الرحمن الأعظمى، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ.

۲۱۳ _ المنتخب من ذيل المذيل، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفي: ۳۱۰هـ).

- ٢١٤ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج الوفاة: ٩٩٥هـ، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨، الطبعة: الأولى.
- ٢١٥ ـ المنتقى من منهاج الاعتدال في نقص كلام أهل الرفض والاعتزال، أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي الوفاة: ٧٤٨هـ، تحقيق: محب الدين الخطيب.
- ۲۱٦ ـ منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، محمد عليش. الوفاة: ۱۲۱۹ ـ منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، محمد عليش. الوفاة:
- ٢١٧ ـ المنخول في تعليقات الأصول، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الوفاة: ٥٠٥هـ، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.
- ۲۱۸ _ المنمق في أخبار قريش، محمد بن حبيب البغدادي الوفاة: ٢٤٥هـ، عالم الكتب، بيروت / لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خورشيد أحمد فارق.
- ٢١٩ ـ منهاج السُّنَّة النبويّة، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الوفاة: ٧٢٨هـ، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
- ٢٢٠ ـ منهج الدعوة عند الإباضية، محمد صالح ناصر، مكتبة الاستقامة، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٢٢١ ـ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، طبع دار السعودية للنشر والتوزيع.

- ۲۲۲ _ نثر الدر في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الأبي الوفاة: ٢٢١ هـ ٤٢١ هـ ٤٢١ م، الطبعة: ٤٢١ هـ ٤٢١ م. الطبعة: الأولى، تحقيق: خالد عبد الغنى محفوط.
- ٢٢٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي الوفاة: ٨٧٤هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.
- ٢٢٤ ـ نسب قريش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري الوفاة: ٢٣٦هـ، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال.
- ۲۲۵ ـ نشاة الحركة الأباضية، عوض خليفات، دار الحكمة لندن، ط۱،
 ۲۲۸ هـ/۲۰۰۷م.
- ۲۲٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري الوفاة: ۷۳۳هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.
- ۲۲۷ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري الوفاة: ٢٠٦هـ، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي.
- ۲۲۸ _ نهضة الأعيان بحرية عُمان، ابن حميد، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي، دار الجيل، بيروت.
- ٢٢٩ ـ نور القبس، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري (المتوفى: ٦٧٣هـ).
- ٢٣٠ ـ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن
 علي بن محمد الشوكاني الوفاة: ١٢٥٥هـ، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

۲۳۱ _ وحي العبقرية، عبدالله بن علي الخليلي، ط۲، ۱٤۱۰هـ/۱۹۹۰م. ۲۳۲ _ وقعة صفين، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري الوفاة: ۲۱۲هـ. ۲۳۳ _ يا شيعة العالم استيقظوا، موسى الموسوي.

فهرس العناوين

0	شكر وعرفان
٧	المقدمة
	القسم الأول: مظاهر الاستبداد
١٣	انتشارُ الظُّلْم في الأُمَم وقَبُولُ الناس له
١٤	تأثير القِيَادات الرُّوحية على الناس بالدَّجل ليتقبلوا الظُّلم
١٤	١ _ الفَرَاعِنَة
١٧	٢ ـ أباطرة الرومان
١٨	٣ ـ أباطرة الفرس
۲ •	نَسْفُ الإِسْلام لهذِهِ الأفكار الخاطئة والمناهِج الظَّالمة
٣١	انتِقَالُ الحُكْم مِنْ خِلافَةٍ رَاشِدَةٍ إلى سُلْطَةٍ استبداديّة
٣٦	النَّصُّ الصَّرِيحُ على أنّ هَذِهِ الفِئَةَ باغِيةٌ
٣٩	مُجَادَلَةٌ بالباطِل لإِدْحَاضِ الحَقّ
	مُغَالَطَةُ الحقيقة بسَبّ الخليفة الشرعيّ ولَعْنِهِ
٥١	على المنابر لتضليل عُقُول الناس
٦٢	استخلاف مُعَاوية ليزيد على رغم المهاجرين والأنصار
٧٦	تحول الحكم في بني أمية من آل أبي سفيان إلى آل مروان

	نقض عمر بن عبد العزيز رها أسسه بنو أمية من الجور
۸٠	وإعادته دور الخلافة الراشدة في العدل
۸٩	مساندة فتاوى المارقين لجور الظالمين
90	أثر السياسة الأموية في الفقه السياسي التبريري
٩٦	١ _ إضفاء الشرعية على السلطة المأخوذة عنوة
1 • •	٢ _ تحريم القيام عليهم لدفع ظلمهم وأخذ الحق منهم
	٣ ـ رد الروايات ولو صحت أسانيدها عندما تتعارض
149	مع هذه السياسة
١٤٢	٤ ـ إسقاط حرمات دماء الأمة في سبيل تعزيز السلطة وإبقائه
1 £ 7	٥ _ إباحة المحرمات لذوي السلطة.
	القسم الثاني: مواجهة الاستبداد
	قِيَامُ الأُمَّة على بني أُمَيَّة «ثورة طالب الحقّ
101	وأبي حمزة نمُوذجًا»
107	المهد الذي ترعرعت فيه ثورة طالب الحق
10V	أسباب قيام طالب الحق
١٦٧	امتداد حركة طالب الحق إلى الحجاز
١٧٤	العناية بالطائف
د۲۷۱	مثالية أبي حمزة وأصحابه في التعامل مع أهل المدينة بقديا
١٨٠	خطب أبي حمزة الشاري بالمدينة المنورة
197	أبو حمزة وأصحابه في مواجهة أهل الشام

فهرس العناوين

19V	أبو حمزة الشاري (بين شهادات المنصفين وافتراءات الحاقدين)
١٩٧	شهداء القسط
۲۲۸	افتراءات الحاقدين
777	دلالة السُّنَّة النبويّة على براءة النبي على من الظلمة
740	ثبوت براءته على من كل من ارتكب كبيرة
۲۳۹	ثبوت لعن النبي على البعض أهل الكبائر
7 £ 1	نُصُوصُ القُرآن تَدُلُّ على وجوب البَرَاءة مِنْ مُرْتَكِبِ الكبيرة
	أثَرُ المَدْرَسَةِ التي ينتمي إليها طالبُ الحَقّ
Y 0 1	وأبو حَمْزَة في السِّياسة الإسلاميّة
Y 0 Y	شَهَادَةٌ مِنَ المَغْرِبِ
۲٦٠	شَهَادَةٌ من المَشْرِق
	نَمَاذِجُ حَيَّةٌ وصُوَرٌ مِثَاليَّة مِنَ الحِرْصِ
۲٦٩	على العَدَالَةِ الاجتماعيّةِ عِنْدَ أبناءِ هذه المَدْرَسَة
۲٦٩	١ ـ الإمامُ الجُلَنْدَى بن مَسْعُود
۲۷۳	٢ ـ الإمام أبو الخَطَّاب المعافري
YV0	٣ ـ الأَئِمَّة الرُّسْتُمِيُّون
۲۷٦	٤ _ الإمَام الوَارِث بن كَعْب
YVV	٥ ـ الإمام غَسَّان بن عبدالله اليَحْمَديّ
۲۷۸	٦ ـ الإمَام الصَّلْت بن مَالِك
79	٧ _ الإمام سَعيد بن عَبْدالله بن مُحَمَّد بن مَحْبُو بـ

791	 ٨ ـ الإمام رَاشِد بن سَعِيد اليَحْمَديّ
797	٩ _ الإمام عُمَر بن الخَطَّابِ الخَرُوصِيِّ
798	١٠ ـ الإمَام نَاصِر بن مُرْشِد
	١١ _ الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن
799	الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي
٣٠٢	١٢ ـ الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصي
٣٠٦	١٣ _ الإمام مُحَمَّد بن عَبْدِالله بن سعيد الخَلِيليِّ
٣١٢	رَفْضُ هذه المدرسة للغُلُوِّ في الفِكْرِ أو السُّلوك
٣٢٣	كَلِمَةُ إِنْصَافٍ لا بُدَّ مِنْهَا
٣٢٥	إِزَاحَةُ السِّتار عن شُبْهَةٍ تأريخيةٍ
٣٢٨	الشاهد الأول
٣٢٩	الشاهد الثاني
٣٣٨	دَوْرُ عُلَمَاء الإباضِيَّة في كشف طَوَايا الدَّعْوَة الوَهَّابية
٣٤٢	ثُبُوتُ تَشْرِيك الوَهَّابيّة لأهل القِبْلَة في نُصُوصِ عُلمائها
٣٤٤	تَطْبِيقُ الوَهَّابيّة أحكامَ أهْلِ الشِّرْك على الأمّة في قتالهم لَها
TOV	مُقَارَنَة بَيْنَ أعمال الوَهَّابية وأعمال الإباضِيّة
٣٦١	مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالبَارِحَة
٣٦٢	عَوْدٌ على بدء
ها۷۳	أَثَرُ الطُّغْيَانِ الأَمَويِّ على الأمة في تَصَوُّرِهَا واضْطِرَابِ معايير
	انقلاتُ مَوَازِينِ الأمة حوَّلَ المَسَاوِئَ أَمْجَادًا

فهرس العناوين

٣٧٨	العلاقة بـتن التَّرَف والتَّلَف
٣٨٠	تَحْذِيرُ القُرآن من الرُّكُونِ إلى الدُّنْيَا
	رُسُوخُ إِعْجَابِ الْأُمَّة بالمستكبرين في الأرْضِ أنسَاهَا
٣٨٣	ما ذَكَرَهُ القرآن فيهم
	رِجَالُ الإِصْلاح يُنادون هذه الأمّة بما يُحرِّر تفكيرَها
٣٨٧	من هذه القُيُودِ والأغلال
٣٩٣	خَاتِمَة الكِتَابِ
~ 9V	المصادر والمراجع
£ 7 V	- فهرس العناوين